

تراثنا

مجلة محكمة يصدرها مركز تحقيق التراث



التراث في فكر المجددين

أدبيات التسامح في التراث الإسلامي

شيخ المحققين لتراث الفلسفة العربية



العدد الثامن (جمادى الأولى ١٤٢٧ هـ - يوليو ٢٠٠٦ م)

دار الكتب والوثائق القومية



آراء المكتبة الوثائقية الإسلامية
مركز تحقيق التراث

تراثيات

مجلة محكمة يصدرها مركز تحقيق التراث

العدد الثامن

يوليو ٢٠٠٦

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة
أ. د. محمد صابر عرب

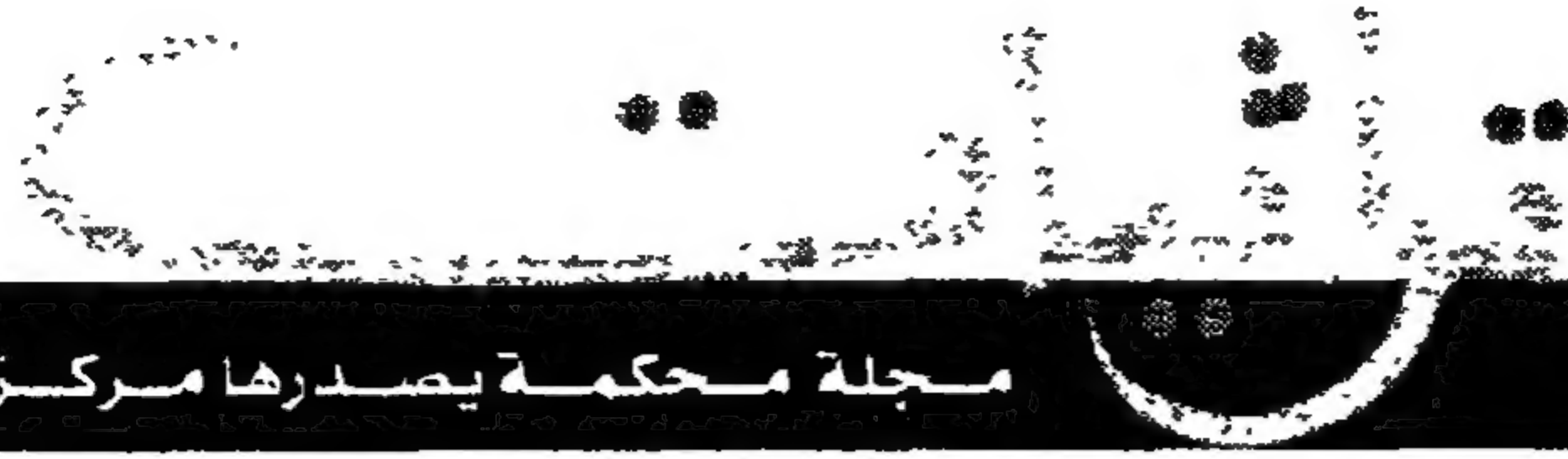
تراثيات/ مجلة محكمة يصدرها مركز تحقيق التراث بدار
الكتب والوثائق القومية . - س ٤، ع ٧ (يوليو ٢٠٠٦)
.. القاهرة:
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، ٢٠٠٧ - .
مج : ٢٩ سم.
نصف سنوية.

إخراج وطباعة:

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا العمل بأى
طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى
من الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٣/١٢٢٠٧



مجلة محكمة يصدرها مركز تحقيق التراث

في هذا العدد

أ.د. عبدالستار الحلوجي

افتتاحية العدد

بحوث ودراسات :

- التراث في فكر المجددين أ.د. حسين نصار
- رمضان في التراث المصري (عصر سلاطين المماليك) أ.د. حستين محمد ربيع
- ما الكتاب؟ د. أحمد شوقي بنين
- أدبيات التسامح في التراث الإسلامي د. وجيهة محمد مرزوق
- قديماً وحديثاً في سرقة المخطوط أ. أسامة النقشبندى
- الإمام الزركشي وكتابه (اللائئ المنثورة في الأحاديث المشهورة) د. عبد الحكيم الأنيس
- (كبيكج) في المخطوطات العربية أ. عصام محمد الشنطى

متابعات نقدية :

- السيرة النبوية والمستشرقون اليهود د. إبراهيم عوض
- (كتاب أخبار نيل مصر) لابن العماد الأقفهسي أ. أحمد عبد الباسط حامد

نصوص تراثية :

- تائية أبي الحسن الأنباري (ت بعد ٢٨٠هـ / ١٠٠٠م) أ. د. محمد يونس عبد العال
- مخطوط التحقيق الباهر شرح الأشباه والنظائر د. إبراهيم رشاد محمد
- الدين والدولة عند أبي الحسن العامري أ. د. عفت الشرقاوى
- ديوان (ابن الشبل البغدادى) نشرات. ونشر ما لم ينشر د. عبد الرازق الحويزي

شخصيات تراثية :

- عبد الرحمن بدوى (شيخ المحققين لتراث الفلسفة العربية) أ. د. مصطفى لبيب عبدالفتي
- محمد سليم سالم (وجهود في تحقيق التراث العربي اليوناني) أ. حسام أحمد عبدالظاهر

من أخبار التراث :

من أخبار التراث إعداد/ أ. حسام عبدالظاهر

القسم الأجنبى :

- التراث الإسلامي ودوره في تصحيح صورة الإسلام أ.د. عبد الستار الحلوجي

هيئة التحرير

رئيس مجلس الإدارة

أ.د. محمد صابر عرب

رئيس الإدارة المركزية للمراكز العلمية

محمد على حلة

رئيس التحرير

عبدالستار الحلوجي

نائب رئيس التحرير

عفت الشرقاوى

مدير التحرير

محفوظ الشرقاوى

سكرتير التحرير

خديجة محمد كامل

مستشارو التحرير

إبراهيم شيوخ (تونس)

أحمد شوقي بنين (المغرب)

أسامة ناصر النقشبندى (العراق)

حسين نصار (مصر)

رضوان السيد (لبنان)

عدنان درويش (سوريا)

عصام الشنطى (الأردن)

فيصل الحفيان (مهد المخطوطات العربية)

يحيى محمود بن جنيد (السعودية)



المراسلات والاشتراكات

مركز تحقيق التراث - دار الكتب والوثائق القومية

كورليش النيل - رملة بولاق - القاهرة

ت : ٥٧٥١٠٨٦ - فاكس : ٥٧٨٩٦٧٨

E-mail: scenlers@dareelkotob.org

سعر النسخة : داخل جمهورية مصر العربية :

١٠ جنيهات للأفراد ، ٢٠ جنيهات للهيئات

خارج جمهورية مصر العربية : ١٠ دولار أمريكي

إشراف فنى

الأستاذ/ على أحمد خليفة

الاشتراكات السنوية : ١٥ جنيهات للأفراد. ٣٥ جنيهات للهيئات. ١٥ دولاراً خارج جمهورية مصر العربية

إفتتالية العدد

بصدور هذا العدد تكمل مجلة «تراثيات» العام الرابع من عمرها وعلى مدى هذه الأعوام الأربعة حرصت المجلة على أمرين: أولهما: الحفاظ على المستوى العلمي لما تقدمه لقرائها دون تهاون أو تقصير أو مجاملة، وثانيهما: الالتزام بفترات الصدور التي حددتها المجلة لنفسها منذ بداية صدورها بحيث يصدر منها عددان في كل عام أحدهما في مطلع العام، والثاني في منتصفه.

وإذا كانت هيئة تحرير المجلة هي المسئولية عن الالتزام الأول الخاص بالمستوى العلمي، فإن الالتزام الثاني الخاص بمواعيد الصدور لا تتفرد به هيئة التحرير ولا مركز تحقيق التراث وإنما تدخل فيه اعتبارات أخرى، منها ما هو خاص بإمكانات مطابع دار الكتب، وما هو خاص بترتيب الأولويات في تلك المطابع، وبالمتغيرات التي تطرأ في بعض الأحيان فتتسبب في شيء من التأخير.

ولقد تأخر صدور هذا العدد بعض الوقت لأسباب خارجة عن إرادة المجلة والمركز، وكان بالإمكان يحمل رقمي ٨، ٩ ويغطي سنة كاملة، ولكننا حرصنا على أن تنتظم المجلة في الصدور مرتين في كل عام عملاً بقول القائل: إن ما لا يُدرك كله يُترك كله.

وبهذه المناسبة تتقدم هيئة التحرير عذرها للقراء الكرام راجية أن تتمكن من تدارك هذا التأخير بحيث يصدر العدد القادم في موعده إن شاء الله.

رئيس التحرير

بجوت ودراسات

التراث فتح فكر المجددين(*)

أ. ط. حسين نصار(*)

الأمر الغريب في اعتقادي أن يردد المثقفون كلمات التراث دون أن يحسنوا مدلول هذه الكلمة، وأن ينطلقوا من هذا التصور إلى مواقف حاسمة، وأن يروجوا لهذه المواقف في كل تجمع، وقد اشتدت هذه الدعاوى خاصة عند المجددين المعاصرين الذين لم يرضوا حتى بهذا الوصف، وسموا أنفسهم الحداثيين، ومن أجل الكشف عن بذور هذه الدعوة وحقيقتها وتطوراتها، وما قد يكون وراءها أخصص هذه المقالات للبحث عن التراث في فكر المجددين منذ بدء نهضة العصور الحديثة إلى اليوم لأعين القارئ الدارس المعاصر في استخلاص تصورهم لهذه الكلمة الموهمة.

(١)

رفاعة رافع الطهطاوى

(١٢١٦ - ١٢٩٠ / ١٨٠١ - ١٨٧٣)

ولد في طهطا بصعيد مصر، وتلقى التعليم الدينى المعروف فى عصره إلى أن أتمه فعين مدرساً بالأزهر، ولما عزم محمد على الكبير على إيفاد بعثة كبيرة من الدارسين إلى فرنسا رأى أن يرسل معها من يؤمها فى الصلاة ويفتيها فيما يواجهها من قضايا دينية. فرشحه أستاذه الشيخ حسن العطار لهذه الوظيفة لإعجابه به فرحل معهم إلى فرنسا، غير أنه صمم منذ اليوم الأول فى رحلته على أن يشارك فى طلب الثقافة الفرنسية، فشرع يتعلم اللغة الفرنسية وهو ما زال على الباخرة، وقضى فى فرنسا خمس سنوات، من ١٢٤١ / ١٨٢٦ إلى ١٢٤٦ / ١٨٣١، نهل فيها ما غير مجرى حياته، وجعله جديراً بقول أمير الشعراء أحمد شوقى يقول فى رثاء ابنه:

يا ابن الذى أيقظت مصرًا معارفه أبوك كان لأبناء البلاد أبا

وجديرًا بأن يعلق محمد عمارة على هذا البيت، فيقول: «وأنا أعتقد أن ضرورة الشعر هى التى جعلت شوقى يضع (مصرًا) فى بيته هذا، ولا يضع مكانها (الوطن العربى) و (العالم الإسلامى)، ذلك أن ساحاتهما الفكرية جميعًا، ومنتدياتهما العلمية قاطبة، قد أيقظتها معارف الطهطاوى، ومن ثم كان، بحق، أبًا ليقظتها الحديثة وأبًا لكل الذين يعتزون بهذه النهضة التى قادها فى مطلع مصرنا الحديث» (الأعمال ٩/١).

ولست فى حاجة إلى تفصيل الحديث عن حياة الطهطاوى وما فعله فى الثقافة،

فقد فعلت ذلك عدة كتب كاملة، وفصول من كتب، ومقالات في صحف ومجلات، فصار الرجل معروفاً من القاضى والدانى، العربى والأجنبى، وإنما همى (التراث) فى فكره، وأنا لا أذكر أنه استعمل هذه الكلمة، ولكن كثيراً مما فاه به، أو دونه، أو قام به من أعمال كان هدفه التراث.

وأول ما يجب أن نضعه فى الاعتبار، فى هذا الشأن، أن رفاعة مصرى، من ذوي الأصول العربية، فهو من جهة الأب ينتمى إلى الحسين بن على، وحفيد النبى (ﷺ) وتحفظ أسرته سلسلة هذا النسب إلى اليوم، وهو من جهة الأم ينتمى إلى بني الخزرج من الأنصار.

ليس معنى ذلك الحط من إحساسه بالمصرية، بل العكس هو الصحيح، فهو من أوائل الذين عرفوا الوطنية، واشتد إيمانهم بها، فكانت الباعث الأول على كل أعماله، ولذلك لم يجد تلميذه المباشر، الملازم له، صالح مجدى حين أراد أن يدون سيرته بدأ من أن يجعل عنوانها «حلية الزمن بسيرة خادم الوطن».

لا عجب إذن أن نراه يفضل العرب وما يتصل بهم، فهم خيار الناس، ولون سُمريتهم أشرف الألوان وأحسنها، لا ينكر أحد أن السماحة والإيثار من خواصهم، ولقد ثبت بالعقل تواتراً أنهم أكثر الأمم شجاعة ومروءة وشهامة (الأعمال ١/ ١٣٧ - ١٤٠).

وكان يفضل اللغة العربية تفضيلاً جلياً. فهى عنده «أفصح اللغات وأعظمها وأوسعها وأغلاها على السمع... ولسانها كالذهب الصرف، هيات أن يحاكيه البهرج... وأتم الألسنة بياناً وتمييزاً للمعانى جمعاً وفرقاً...» (الأعمال ١/ ١٣٧ - ١٣٨).

ولذلك ركز تركيزاً شديداً على ضرورة العناية بها، وتعلمها، وفقه علومها... بل لقد تعدى بهذه الضرورة نطاق الشعب العربى إلى نطاق الأمم الإسلامية غيرالعربية، وتحديث عن الربط الوثيق بين هذه اللغة وبين الشريعة الإسلامية التي تدين بها هذه الأمم... فهذه اللغة بالنسبة إلى هذه الممالك معرفتها ضرورية، لا سيما لأهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة» (الأعمال ١/ ١٣٥).

وطبيعى من رجل يحمل هذا الإيمان أن يبذل كل جهد ليحيى اللغة العربية ويجعل منها اللغة الرسمية لمصر بدلا من التركية، وأن يجعلها اللغة الإجبارية في المدارس العالية (الأعمال ١/ ٥١، ٦٤، مناهج - الخاتمة ٣).

وقد تمثل هذا الجهد فى تعريب الوثائق المصرية، وكتابة المقالات باللغة العربية، ونشر قصائد الشعر فيها ومحاولة إصدار مجلة عربية خالصة، ووضع المصطلحات

العربية (الأعمال ٥٥/١ - ٦، ٧٢ - ٢، مناهل خاتمة ٢، ٥).

وتمثل في الأمر الذي يهمننا هنا أكثر من غيره، وهو تصحيح المخطوط من التراث، وطبعه في المطبعة الأميرية ببولاق، مثل: «مفاتيح الغيب» لفخر الدين الرازي، و«خزانة الأدب» للبغدادي، ومقامات الحريري، و«معاهد التنصيص» للعباسي (مناهج - الخاتمة ٣).

وإذا انتقلنا إلى التراث خاصة وجدنا الطهطاوي بحث مؤدب الأطفال أن يعرفهم ما يستحسنه من المراسلات والأشعار، وأن يطالب تلميذه «بحفظ محاسن الأخبار والأشعار التي تجرى مجرى ما تعود به بالأدب، حتي يتأكد عنده بروايتها وحفظها ... ويحذره من النظر في الأشعار السخيفة وما فيها من ذكر العشق وأهله، وما يوهمه أصحابها أنه ضرب من الظرف ورقة الطبع، فإن هذا الباب مفسدة للأحداث جداً». (مناهج ٦٨، ٧٠).

إذن هو يجعل التراث شطرين، والمعيار الذي يستند إليه في هذا التقسيم خلقي، فما وافق الأخلاق الحميدة فهو ما طلب معرفته وحفظه والالتزام به، أما ما لم يوافقها فقد نهى عن مجرد النظر فيه.

ويتنوع التراث الحميد عنده كما ترى في جعله «الوطن كالجسد، يصلحه إزالة العضو غير النافع كما أن الشجرة تثمر بتقليم الغصن اليابس، وإبقاء المثمر اليافع، وفي قوله يشرح هدفه ومنهجه في كتاب «مناهج الألباب»: «فلهذا بذلت المجهود لبيان الغرض والمقصود بتصنيف نخبة جليلة، وترصيف تحفة جميلة، في المنافع العمومية التي بها للوطن توسيع دائرة التمدنية...، وعززتها:

بالآيات البينات،

والأحاديث الصحيحة،

والدلائل البينات.

وضمنتها الجم الغفير من :

أمثال الحكماء،

وآداب البلغاء،

وكلام الشعراء...» (الأعمال ٥/١)

ومتابعة الاطلاع علي الكتاب تضيف إليها:

التاريخ،

والحكايات،

والكتب.

أما الآيات القرآنية فهي واضحة وضوحاً بارزاً في جميع أرجاء كتبه، يقول في «مناهج»: «وتكفى حب الوطن أن كراهة الإجماع منه مقرونة بكراهة قتل الإنسان نفسه، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ وقد تتبعت الصفحات الخمس والعشرين الأولى من الكتاب، فوجدت الطهطاوي يكاد يأتي بالآيات في كل صفحة (١٣، ١٤، ١٥، ١٧ - ٢٠، ٢٤، ٢٥).

ويقول في «المرشد»: فقد كتبت يد القدرة الربانية بغير آلات، وسطرت الإرادة الصمدانية خطوط المصنوعات، وجعلت ذلك وقفاً على تلاوة البصائر والألبياب... فكل هذا يرشد إلى معرفته - تعالى -، وحكمته وحوله وقوته، كما نبه عليه - تعالى - بقوله: ﴿أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ونحو ذلك من الآيات الدالة على بديع صنعه، وتدير ملكه وحكمته» (الأعمال ٢/٢٨٤).

ويقول: «وأما من يعرف الواجب والجائز والمستحيل فيعلم أن كل مقدور - بالإضافة إلى قدرته تعالى - قليل - فالعاقل إذا سمع معقولاً غريباً استحسنته، والجاهل إذا سمعه قطع بتكذيب قائله، وزيف ناقله، لقلة بضاعة عقله، وضيق فضله، ولهذا وصف - تعالى - الجهال بقوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾.

وقد أودع الله - سبحانه وتعالى - من عجائب المصنوعات في الآفاق والسموات كما قال: ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ وقد نبه إلى النظر في عجائب الدنيا بقوله: ﴿قُلْ: سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ الأعمال ٢/٢٨٥).

واغتترف الطهطاوي من الحديث النبوي الكثير، يمثل ذلك في «مناهج» قوله: «إرادة التمدن للوطن لا تنشأ إلا عن حبه من أهل الفطن كما رغب فيه الشارع، ففي الحديث: (حب الوطن من الإيمان)» (الأعمال ١/١٠)، وقوله: «حسب المؤمن بحب الوطن أن رسول الله (ﷺ) حين خرج من مكة، علا مطيته، واستقبل الكعبة، وقال: (والله: لأعلم أنك أحب بلد الله إليّ، وأنت أحب أرض الله إلى الله (عز وجل) وأنت خير بقعة على وجه الأرض، وأحبها إلى الله تعالى، ولولا أن أهلك أخرجوني منك لما خرجت) ... وقال

- عليه الصلاة والسلام :- (مصر خزائن الأرض، والجيزة غيضة من غياض الجنة)، ذكر هذا الحديث صاحب المفاخرة بين مصر والشام (١٥).

وفى «المرشد» قال: «وفى الحديث القدسي قال الله تعالى: ﴿ومن أظلم من ذهب يخلق كخلقى، فليخلقوا، ذرة أو ليخلقوا حبة أو شعيرة﴾ (الأعمال ١ / ٢٨٨) وقال: «وقد ورد فى الخبر عن خير البشر أنه قال: (إن الله - تعالى - يقول: يا عبدى: حرّك يدك، أنزل عليك الرزق)... ولا ينبغي أن يتوهم أن الأمر الوارد فى قوله - ﷺ - (توكلوا على الله) بالتوكل الذي مرجعه إلى أن يوكل الأمر كله إلى ماله... وقد أشار - ﷺ - إلى أن التوكل ليس التعطيل، بل لابد فيه من التوسل بنوع من السبب، حيث قال: (ولو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير، تغدو خماصًا ، وتروح بطانًا)، فإن الطير ترزق بالطلب والسعى. نعم إنه لا ينبغي الإفراط فى الكدر، وصرف النظر عن الاستراحة بعض الأحيان، يشهد لذلك حديث: (إن المنبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى) (الأعمال ١ / ٣١٧).

واستخدم مصطلحات علم الحديث فى قوله: «يروي مرسل النسل، مسلسلًا بسند الاتصال، وحديث النبيل مرفوعًا مدبجًا بلجين العدو وذهب الأصال) (الكواكب ٧).

أما الأمثال فلم تحظ عنده بما حظيت به الآيات والأحاديث من كثرة، ولكنه كان يأتي بها بين الفينة والفينة على تباعد ما بينهما، ويشهد لها فى «المناهج» قوله: «ويقال: (الدرهم مراهم) لأنها تداوى كل جرح، ويطيب بها كل صلح» (الأعمال ١ / ٢٨) وقوله فى ذم الدين «وعلى لسان العامة (لا هم إلا هم الدين، ولا وجع إلا وجع البيت)» (الأعمال ١ / ٤٧)، وقوله: «وقد قيل فى الحكم والأمثال: (من العجائب عبد بطل، ويطلب منزلة الأبطال) و(خير الناس من صنع الخير، وانتفع بمعروفه)» (الأعمال ١ / ٧١).

وقال فى (الكواكب ١٥): «ولما كانت أنوار ليلات الأنس المخصوصة بهذا الأمير كغيرها من التفريح فى الدرجة القصوى أنست أفراح بوران، وبها انطوى ذكر قطر الندى، وغدت حكايتها كهَيَّان بن بيان». والتعبير الأخير كناية عن لا يعرف ولا يعرف أبواه.

وأما أقوال البلغاء والحكماء والمشهورين من الأعلام فقد جلعها عمادًا لكلامه فى كل موضع، فكثرت عنده حتى ساوت الأحاديث الشريفة أو ربما زادت عنها كثرة، مثال ذلك فى «مناهج» قوله: «قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - ﷺ - (عمر الله البلاد بحب الأوطان). وقال على - كرم الله وجهه - (سعادة المرء أن يكون رزقه فى بلده). وقال بعض الحكماء: (لولا حب الوطن لما عمرت البلاد الغير المخصبة). وقال

الأصمعي: دخلت البادية، فنزلت على بعض الأعراب، فقلت له: أفدني، فقال: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل، وحسن عهده، ومكارم أخلاقه، وطهارة مولده، فانظر إلى حنينه لأوطانه، وشوقه إلى إخوانه) (الأعمال ١٠/١).

وقوله: «وقال عبد الرحمن بن عوف: (يا حبذا المال: أصون به عرضي، وأرضي به ربي) وقال ابن عباس: (الدراهم والدنانير خواتم الله في الأرض، لا تؤكل ولا تشرب، وحيث قصدت به قضيت حاجتك)، قيل لبعضهم: لِمَ تحب الدنانير وهي تدنى من النار؟ قال: (هي وإن أدنت منها - فقد صانت عنها)، وقال لبعض الحكماء من الملوك: (من أصلح ماله فقد صان الأكرمين: الدين والعرض) (الأعمال ٢٧ / ١).

وفى «المرشد» قوله: «قال بعضهم: (إن طلبت المورد العذب فاسلك طريق الصعب، وسر سير المجدد الحازم، ولا تتكاسل في العزائم، واطلب مطالب الرجال، وإياك أن تدعي بالبطلان، ومن كلام لقمان الحكيم: الليل والنهار يعملان فيك ، فاعمل فيهما)» (الأعمال ٣١٤/٢).

وقوله: «وفى حكمة داود عليه السلام: (المرأة السوء لبع لها كالحمل الثقيل علي الرجل الكبير، والمرأة الصالحة له كالتاج في رأس الأمير). وقال بعضهم: (إن المرأة السوء مثل شرك الصياد، لا ينجو منها إلا من رضي الله عنه، وعن الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (النساء ثلاثة: هينة لينة عفيفة: وأخرى وعاء للولد، وثالثة غل يلقيه الله في عنق من يشاء من عباده)» (الأعمال ٤٩١/٢).

وأما الشعر فيكاد لا تخلو منه صفحة من صفحات «مناهج الألباب» فقد أورد في ص ٢:

بعودهم، ما في ألوفهم جفا
فتعلموا من نيلهم ذاك الوفا

لا تعجبوا لهم في أهل مصر أن وفوا
وافي لهم في كل عام نيلهم

وفى ص ٤:

هم الأنام، فقابلها بتفضيل
مصر مقدمة، والشرح للنيل
قلما يرعى غريب الوطن
خالق الناس يخلق حسن
يا من يعيش على الغنى المعوانا

ديار مصر هي الدنيا، وساكنها
يا من يباهي ببغداد ودجلتها
و: لا تعاد الناس في أوطانهم
وإذا شئت عيشاً بينهم
و: إني سمعت مع الصياح منادياً

وفى ص ٥

دلت على توفيق مصطنع اليد

وإذا الصنيعة صادفت أهلاً لها

وهو كثير أيضاً في «المرشد».. ونمثل به بما أورده في ٢٧٨/٢ من الأعمال الكاملة قال الشاعر:

وما شيء أحب إلى لئيم	- وإذا شئتكم الكريم - من الجواب
متاركة اللئيم بلا جواب	أشدُّ على اللئيم من السباب
و : كل الأنام بنو أب، لكنمما	في الفضل تُعرف قيمة الإنسان

وفي ٢٧٩/٢: قال الشاعر:

في المهد، ينطق عن سعادة جده	أثر النجاة ساطع البرهان
و: سأطلب كل منزلة	تعرض دونها العطب
فإن أسلم رجعتُ، وقد	ظفـرتُ، وأنجح الطلب
وإن أعطب فلا عجب	لكل منية سبب

ولا تخلو منه صفحة من صفحات «الكواكب»، ففي ص ٧ مثلاً:

لكل شيء صنعة أحكمت	وصنعة العقل اختيار الكرام
و : محبة ما عرفت الدهر سلوتها	تحري من النفس أو تسرى مع النفس
و : ما لها آخر لكن أولها	تعارف سابق في حضرة القدس
و: روحاها روح ونفساها	نفس كذا فليكن الحب
و: أنا من أهوى، ومن أهوى أنا	نحن روحان حللنا بدنا
و: بكم أتحدثُ هوى فلو حييتكم	قلت السلام عليّ، إذ أنتم أنا
أرى قريه قربي ومغناه غنية	ورؤيته رياء، ومحياه لي حيا

واستقى الطهطاوى كثيراً من مواد التراثية من التاريخ، ولا عجب في ذلك؛ لأن التاريخ كان أحد العلوم التي عني بها في فرنسا، وقد كانت ثمرة هذه العناية الكتب والفصول التاريخية البارزة في أعماله (انظر الأعمال ٤٤٧/٢ - ٤٦٥)، وشاهدنا علي ذلك ما أورده في «مناهج» في ص ٤٠. «قال عبد الله بن عتبة: كان لعثمان - رضي الله عنه - يوم قتل مئة ألف وخمسون ديناراً وألف ألف درهم، وترك ألف فرس وألف مملوك، وخلف من ضياعه بئر أريس وخيبر، ووادي القرى ما قيمته مئتا ألف دينار، وبلغ مال الزبير بن العوام خمسين ألف دينار، وترك ألف فرس وألف مملوك، وغنى عبد الرحمن بن عوف أشهر من أن يذكر.

وكانت الدنيا في أكفهم لا في قلوبهم: صبروا عنها حين فقدت، وشكروا الله تعالى حين وجدت، ابتلاهم الله - سبحانه وتعالى - بالفاقة في أول أمرهم، حتي تكلمت أنوارهم، وتظهرت أسرارهم، فبذلها لهم حينئذ؛ لأنهم لو أعطوها قبل ذلك فلعلها كانت تأخذ بمجامع قلوبهم، فلما أعطوها بعد التمكين والرسوخ في اليقين تصرفوا فيها تصرف الخازن الأمين، وامتلأوا فيها قول رب العالمين ﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ فكانت الدنيا في أيدي الصحابة لا في قلوبهم.

ويكفيك في ذلك خروج عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن نصف ماله، وخروج أبي بكر عن ماله كله، وخروج عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - عن سبعمئة بغير موفورة الأحمال، وتجهيز عثمان بن عثمان - رضي الله عنه - جيش العسرة، إلى غير ذلك من أفعالهم. ويتصل بالتاريخ الحكايات الكثيرة التي أوردها شواهد على ما يقول. مثال ذلك قوله في «مناهج»:

في ص ٢٧: «مر رجل من أرباب الأموال ببعض العلماء، فتحرك له وأكرمه وأدناه، فقيل له بعد ذلك: أكانت لك إليه حاجة؟ فقال: لا، ولكن رأيت ذا المال مهيأً فهبته. وفي ص ٢٩: اشترى ابن عمر جارية أعجبهته فأعتقها، فقيل له «أعتقتها ولم تصب منها؟ فقال: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾».

وفي ص ٣٤: مما يحكى أنه قيل لبغض البخلاء: ما الفرج بعد الشدة؟ فقال: أن يُحَلَّفَ على الضيف فيعتذر بالصوم. وفي «المرشد».

يحكى أن امرأة من نساء بغداد جازت بمحل بين الرصافة والجسر، فمرت برجل فقال لها: رحم الله على ابن الجهم، فأجابته: رحم الله المعري، ثم تركته وانصرفت، ولم يدر من سمع ذلك ما أراد كل منهما بذلك، فكانت إشارته إلى قول علي ابن الجهم: عيون المهر بين الرصافة والجسر جلين الهوى من حيث أدرى ولا أدرى وكانت إشارتها في الرد عليها إلى قول أبي العلاء المعري:

فيا دار بالخيف: إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال...
كما يحكى أن بنتاً من بنات اليمن كان لها أخ يسمى ضياء فقاتل في هذه الأزمان القريبة العهد في معركة بمحل يقال له العيون، فقتل هناك، فنعتته أخته ببيتين في غاية الحماس والرقّة، حيث قالت:

طاح في معرك العيون ضياها فبكت فقده بدمع هتون
لم يكن عاشقا ولكن تقيا فلماذا غدا قليل العيون

(الأعمال ٢/٣٦١)

وقال يهنئ من اسمها فاطمة الزهراء بزواجها : «فقد آن لحضرة فاطمة الزهراء أن تتجلى لعروسها، كما تجلت سميتها قبل ذلك لامرئ قيسها، وانجلى لسليمان من مملكة سبأ جمال بلقيسها، ومالت لبنى بالوداد لقيسها (الكواكب ١٣).

وكشف الطهطاوى عن مصادر ما أتى به من أخبار تراثية فقال: «اقتطقتها من ثمار الكتب العربية اليانعة، واجتيتها من مؤلفات الفرنساوية النافعة، مع ما سنح بالبال وأقبل علي الخاطر أحسن إقبال» (مناهج ٥).

فأبان أنه سعى وراء الأفكار الناضجة النافعة، وأنه استقاها من ثلاثة منابع:

١ - الفكر العربى.

٢ - الفكر الفرنسى.

٣ - فكره الشخصى.

وأبان أنه وجد ضالته فى المؤلفات الكثيرة التي أذكر منها:

. عوارف المعارف (مناهج ٦٦).

. الحسبة (مناهج ٦٨).

. أقوم المسالك فى معرفة الممالك (الأعمال ٢/٤٤٠).

. رسالة منسوبة للقاضى عياض (الأعمال ٢/٤٤١).

. صحيح البخارى (الأعمال ٢/٥١٥).

. الإحياء، للغزالي (نفس المصدر).

. عقلاء المجانين (الأعمال ٢/٥١٦).

ويتضح من النص الذى أتيت به أنه يستقي معلوماته التراثية من مصدرين أساسيين، أما المصدر العربى فلا يحتاج إلى دراسة؛ لأنه جلىّ فى كل ما كتب لا فى «مناهج الألباب» وحده. ولكنى أود أن أشير إلى أن هذا التراث أعطاه. فيما أعطى. عناصر تراثية فارسية، مثل قوله: «ومن كلام أردشير بن بابك كسرى الفرس: (شهد

الجهد أحلى من غسل الكسل» (الأعمال ٢/٣١٦)، وقوله أيضاً: «كان الفرس أيضاً يرغبون في العشق، ويحثون عليه، كما حكى أن بهرام جور لم يرزق سوي ولد، فأخذ في ترشيحه للملك، وهو ساقط الهمة، إلى أن اتفق المعلمون من الحكماء وغيرهم على أن لا نافع له غير العشق، فسلط عليه الجواري يعبثن به إلى أن علق بواحدة منهن، فأمرها الملك بالتجني عليه، وأنها لا تطلب إلا رفيع الهمة في العلم والملك، فكان . بسبب ذلك . من أجل ملوك الفرس وأعلمهم» (الأعمال ٢/٥٥٥)، وقوله: «رفعت ذكره ملوك أوانه، وتباهت دواوينها بديوانه.. وحبته ولا تحية اسكندر وكسرى، إذ تقف الآراء عن مداه حسرى» (الكواكب ٣).

وطبيعي أن يزاحم التراث الفرنسي عنده التراث العربي، فهو الذي انتقل به من دنيا الانحطاط العثماني إلى دنيا النهضة العالمية الحديثة، وأخذ بيده ليقود أمته إلى عالم الضياء، وأمثلة ذلك بقوله: «فالمملكة التي سخر الله لها الجمع بين صنعتي الملاحة والفلاحة كالديار المصرية.. محرزة لوسائل التمدن على وجه أكمل، بشرط زوال الموانع والعوائق التي لا تغلو منها مملكة في إدراك مرامها، كما أشار إلى ذلك نابليون الأول ملك فرنسا بقوله: (إن فرنسا تسارع في أسباب التمدن، وتحصل منه على الكثير، إلا أن دولة الإنكليز تعوقها عن تتميم بعض أغراضها، ولولا ذلك لتقدمت كل التقديم في حيازة جواهر المنافع وأعراضها)» (مناهج ٨).

وقوله: «وقد أشار إلى الشغل والبطالة الحكيم لفنتينه [لافونتين] الفرنسي في حكاية على لسان العجماوات، جعلها مكالمة بين الصرار والنملة، وترجمها بعض الأفندية فقال:

أودى به الجوع والاضطرار	حكاية موضوعها صرار
وما سعى في ذخرة الشتاء	وكان قضى الصيف في الغناء
ومنع القوم من الخروج	وحين جاء زمن الثلوج
فراح يوماً يطلب المعونة	شاهد بيته بلا مئونه
ما لي سواك في قضاء حاجتي	وقال للنملة: أنت جارتى
لا دقت من دهر الردى صروفاً	هل تصنعين معي المعروفاً
وطبقاً ومثرداً وحله؟	وتقرضيني ضواعاً غله

فإن أتى الصيف فقبل الصبح	أردها عليك غير الريح
قالت له النملة وهي تجرى	عذرك يا مسكين مثل عذري
ماذا فعلت في حصيد قد مضى؟	قال لها: كان زمان وانقضى
قالت: وما ادخرت فيه للشتاء؟	قال لها: مستهزئاً منكنا
كنت أغنى للحمير القمص	قالت له: يا صاحبي الآن ارقص
واعلم بأن السعى في الذخيرة	يسعد كل خله وجيره
والدرهم الأبيض وهو في يدي	ينفعني لدي النهار الأسود

(مناهج ١٢٢)

وكما كان التراث العربي مصدراً لألوان أخرى من التراث كذلك استقى من التراث الفرنسي ألواناً من التراث الأوربي القديم والحديث، مثل التراث اليوناني الذي يتجلى في قوله: «وقد كتب الإسكندر إلى أرسطاطاليس أن عظمى فكتب إليه: (إذا صنعت لك السلام فجدد فكر العطب، وإذا اطمأن بك الأمن فاستشعر الخوف، وإذا بلغت نهاية الأمل فاذكر الموت، ولذا أحييت نفسك فلا تجعل لها في الآثام نصيباً)» (الأعمال ٢٨٢/٢).

وقوله: «كان يونان أسبرطة بجزيرة مورة ممنوعين من العلوم الدنيوية، ومن الصنائع التي هي على الزينة والزخرفة مبينة، وإنما كانوا يميلون إلى الشعر، لكونه يهيج نفوسهم، وبأيدها شجاعة وحماساً، فمن ذلك ما حكى عنهم أنه اجتمع شيوخهم وشبابهم وصبيانهم للغناء، وشرع كل يغني بشرح حاله. ونحن كذلك بهذا الوصف الآن، ومن أراد البرهان فها هي [الفرس] الشقراء والميدان، فرد عليهم صبيانهم بقولهم: ونحن سنصير يوماً من الأيام مثلكم في حومة الفرسان، وفضلنا سيفوق فضلكم في حوزة الشجعان، وبهذا هابهم الأجانب في المشارق والمغارب» (الأعمال ٢٩٣/٢).

التراث اللاتيني مثل قوله: «كان الرومانيون - في قديم الزمان - يجبرون الوطني الذي بلغ من العمر عشرين سنة أن يحلف يميناً أنه يحامي عن وطنه وحكومته، فيأخذون عليه عهداً بذلك، وصيغة اليمين:

(أشهد الله على أنني أحمل سلاح الشرف، لأمانع به عن الوطن والدين أحاربه منفرداً أو مع الجيش، وأشهد الله على أنني لا أكدر صفو وطني، ولا أخونه ولا أغدر به؛ وأني أركب البحار أيًا ما لزم ذلك في جميع الغزوات التي تأمر بها الحكومة، وعلى أنني أحافظ على امتثال القوانين والعوائد المقبولة في بلادي، الموجودة في الحال وما يتجدد منها، وأشهد الله أن لا أتحمل أحداً يجسر أن يخل بها وينقص انتظامها).

فمن هذا يفهم أن أمة الرومانيين كانت متشبثة بحب وطنها؛ ولهذا تسلطت على بلاد الدنيا بأسرها، ولما انسلخت عنه صفة الوطنية حصل الفشل بين أعضاء هذه الملة، وفسد حالها، وانحل عقد نظامها بتعدد اختلاف أمرائها وتعدد حكامها، فبعد أن كانت محكومة بقيصر واحدة انقسمت في المشرق والمغرب بين قيصرين: قيصر رومة، وقيصر القسطنطينية، وكانت الشوكة لباغٍ طويل، فصار أمرها إلى باغين قصيرين، فآل أمرها - في جميع الحروب - إلى الانهزام، ورجعت بعد كمال الوجود إلى الانعدام، وهكذا شأن الملة المخلة بالحكومة، والدولة الغير المنظومة» (الأعمال ٤٣٤/٢).

وأهم من ذلك ما أخذه من الثقافة الفرنسية من مواد تاريخية عن القدماء والمحدثين، ودونه في كتبه المتعددة (الأعمال ٤٤٧/٢ - ٤٦٥).

وعدد الطهطاوي الأهداف والمنافع التي يسعى إليها هو - وربما غيره - من وراء العناصر التراثية: في مفتتح «مناهج الألباب»:

١ - تعزيز ما أتى به من أخبار.

٢ - ارتياح الأفهام إليها.

٣ - إزاحة الأوهام عن الذهن.

٤ - تأييد السعادة بها.

٥ - تأييد السيادة بها.

٦ - لتكون ذخراً لأهل الوطن.

٧ - وسبباً للنجاح دنيا وأخرى، (مناهج ٥).

وأضاف في ص ٩: استحسانه والإعجاب به، وفي ص ٢٤: ترويح النفوس.

المراجع:

. الطهطاوي، رفاعه رافع: «الكوكب المنير في ليالي أفراح العزيز المقمرة». مطبعة بولاق - ١٢٨٩هـ.

. الطهطاوي: «مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية»، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية - ٢٠٠٢م.

. د. عمارة، محمد: «الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي» - بيروت - لبنان - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - ط ١ - ١٩٧٣م.

رمضان في التراث المصري عصر سلاطين المماليك

أ. ط. حسّين محمد ربيع (*)

احتفل سلاطين المماليك بشهر رمضان احتفالاً كبيراً يتفق ومكانته الدينية عند المسلمين، واحتوت كتب التراث على معلومات كثيرة عن احتفالات السلاطين والأمراء وعامة الناس لهذا الشهر الكريم.

وكان لشهر رمضان بهجة وجلال، فقد كانت تسبقه مقدمات تبشر بمقدمه الذي كان يبعث على البهجة والانشراح بما كان فيه من بذخ ورخاء وخير وفير، فقد كان نظار الأوقاف منذ شهر شعبان يأخذون في تنفيذ شروط الواقفين على المساجد من تجديد الحصر، ونظافة المساجد وطلائها، وما يلزم لزيادة الإضاءة فيها، وإعداد القناديل اللازمة لإضاءة المنارات طوال الليل حتى السحور.

وتذكر كتب الحوليات التاريخية عناية السلاطين برؤية هلال رمضان، فقد كان يخرج قاضي القضاة والقضاة الأربعة، والشهود، ومعهم الشموع لرؤية الهلال، وكان يشترك معهم محتسب القاهرة، وتجارها، ورؤساء الطوائف والصناعات والشعب، وكانوا يشاهدون الهلال من منارة مدرسة المنصور قلاوون بالنحاسين؛ لوقوعها أمام مدرسة الصالح نجم الدين، فإذا تحققوا من رؤيته أضيئت الأنوار على الدكاكين، وخرج قاضي القضاة في موكبه تحفُّ به الفوانيس بالشموع والمشاعل حتى يصل إلى داره، ثم تتفرق الطوائف إلى أحيائها معلنين الصيام.

ولم تكن الأقاليم أقل عناية من العواصم بالاحتفال برؤيا هلال رمضان، فقد شاهد الرحالة ابن بطوطة في سنة ٧٢٧ هـ - ١٢٢٧م الاحتفال برؤيا رمضان في مدينة أبيار ووصفه بقوله: «... ولقيت بأبيار قاضيها عز الدين المليجي الشافعي، وحضرت عنده يوم الركبة، وهم يسمون بذلك يوم ارتقاب هلال رمضان، وعادتهم فيه أن يجتمع فقراء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين من شعبان بدار القاضي، ويقف على الباب نقيب المتعممين، وهو ذو شارة وهيئة حسنة لاستقبال الوافدين، فإذا أتى أحد الفقهاء أو الأعيان تلقاه ذلك النقيب، ومشى بين يديه مقدماً إياه قائلاً: «بسم الله سيدنا». فيسمع القاضي ومن معه، فيقومون له، ويجلسه النقيب في الموضع اللائق به، فإذا تكاملوا هناك ركب القاضي وركبوا معه، وتبعهم جميع من

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى ونائب رئيس جامعة القاهرة الأسبق.

فى المدينة من الرجال والنساء، والصبيان، حتى يصلوا إلى موضع مرتفع خارج المدينة، وهو مرتقب الهلال، فإذا ما رأوه يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب، وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس، ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع، ويصل الناس مع القاضى إلى داره، ثم ينصرفون، وهكذا يفعلون كل سنة.

وهكذا بقية البلاد لا تكاد تخلو واحدة منها من جماعة فرغت نفسها بوحى من دينها، لترصد الهلال، وليكون لها شرف رؤيته، وإلى نهاية دولة المماليك والجراكسة كانت تقام حفلات رؤيا هلال رمضان بعد رؤيته من منارة مدرسة المنصور قلاوون كما ذكرنا، وتذكر إحدى الحوليَّات أنه فى سنة ٩٢٠هـ / ١٥١٤م بعد أن حضر القضاة الأربعة بالمدرسة المنصورية وحضر المحتسب، وبعد رؤية الهلال سار المحتسب على رأس موكب كبير تتقدمه المشاعل وتحيط به الشموع والفوانيس، وأضيئت الحوانيت فى جميع الشوارع التى سلكها إلى داره، ثم تفرقت الجموع معلنين الصيام.

وفى مستهل الشهر يجلس السلطان فى الميدان تحت القلعة، ويتقدم إليه الخليفة والقضاة الأربعة بالتهنئة، ثم يستعرض أحمال الدقيق والخبز والسكر والغنم والبقر المخصصة لصدقات رمضان، يعرضها عليه المحتسب بعد أن يكون قد استعرضها فى أنحاء القاهرة، وينعم السلطان على المحتسب وعلي كبار رجال الدولة.

ويذكر أحمد بن علي المقرئ المتوفى عام ١٤٤٢م فى كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» المعروف بخط المقرئ، أن سوق الشماعين فى القرنين الثامن والتاسع الهجرى/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين فى النحاسين كان يحتفل بمقدم هذا الشهر، فتعلق على وجهات الحوانيت وعلى جوانبها أنواع الفوانيس المتخذة من الشمع، وأشكال ما بين كبيرة وصغيرة، ومنها شموع المواكب الكبيرة، ومنها ما يزن عشرة أرطال، ومنها ما يُحمل على العجلة، ويبلغ وزن الواحدة منها القنطار، يرسم الركوب لصلاة التراويح والخروج ليلاً، فيمر فى شهر رمضان من ذلك ما يجلب عن الوصف، وتستمر حوانيته مفتوحة إلى منتصف الليل لكثرة ما يُشتري، وما يكترى من الشموع الموكبية، ومن تلك التقاليد نشأت فوانيس رمضان.

وكانت أنواع الياميش تفرش على أبواب البدالين يعجُّ بها سوق السكرية داخل باب زويلة، فيتسابق الناس إلى الاغتراف منه، وكانت رخيصة السعر فيتمتع بها الفنى والفقير، ويوزع منها علي أطفال الحارة حينما يطوفون على الدور بفوانيسهم الموقدة محيين أصحابها.

وكانت وكالة قوصون بشارع باب النصر التي شُيّدت حوالي سنة ١٢٤٠م . والباقي مدخلها إلى الآن . مقر تجّار الشام ينزلون فيها ببضائع بلاد الشام من الزيت والصابون والفسق والجوز واللوز والخرنوب، وكانت حركة التجارة فيها مدهشة؛ لكثرة ما فيها من أصناف البضائع وحركة البيع والشراء .

ولمّا تخرّبت تلك الوكالة انتقلت تجارة اليايش إلى وكالة مطبخ العسل بالتمبكشية بالجمالية، وكانت مخصصة لبيع أصناف النُّقل كالجوز واللوز ونحوهما .

واهتم سلاطين المماليك بالتوسع في الإحسان والصدقة طيلة رمضان ، فالسلطان برقوق كما ذكر المؤرخ أبو المحاسن ابن تغري بردي في كتابه «مورد اللطافة» اعتاد أن يذبح طوال سلطنته في كل يوم من أيام رمضان خمسة وعشرين بقرة، يصدّق بلحومها . مع ما يُطبخ من الطعام، وما يخبز من آلاف الأرغفة . على أهل الجوامع والخوانق والربط والسجون، بحيث يخصّ كل فرد رطل لحم مطبوغ وثلاثة أرغفة، وحاكى السلطان برقوق في ذلك من أتى بعده من السلاطين، فأكثرُوا من ذبح الأبقار وتفريق لحومها، أما المساكين والمعدومون فرتبّ لهم سلاطين المماليك في شهر رمضان مطابخ لإفطار الصائمين وتوزيع الصدقات عليهم، وقد بلغ عدد المترددين على هذه المطابخ أيام السلطان بيبرس البندقداري خمسة آلاف نفس في كل يوم من أيام شهر رمضان كما أشار المقرئ في كتاب «السلوك»، كذلك اعتاد سلاطين المماليك . كما ذكر المقرئ أيضاً . أن يعتق الواحد منهم في شهر رمضان ثلاثين نسمة؛ أي بعدد أيام الشهر، يضاف إلى ذلك كله أنواع التوسعة على العلماء وأصحاب الجامعات الذين تصرف لهم رواتب إضافية في شهر رمضان، وبخاصة السكر الذي تتضاعفت كمية المستهلك منه في هذا السهر بسبب الإكثار من عمل الحلوى، وقد بلغ راتب السكر أيام الناصر محمد في رمضان سنة ٧٤٥ هـ . اعتماداً على كتاب «خطط المقرئ» . ثلاثة آلاف قنطار قيمتها ثلاثون ألف دينار، منها ستون قنطاراً كل يوم من أيام رمضان برسم الدور السلطانية .

وحاكى أمراء المماليك سلاطينهم في الإكثار من الصدقة والإحسان في شهر رمضان كما ذكر أستاذنا أ . د . سعيد عاشور في كتابه «المجتمع المصري في عصر المماليك»، من ذلك أن الأمير طشتمر البدرى عُرف عنه حرصه على الإكثار من ذبح البقر والغنم في ليالي رمضان، كذلك حرص السلطان برقوق على فعل ذلك أيام إمارته قبل أن يصبح سُلطاناً .

وأشار ابن الحاج في كتابه «المدخل إلى الشرع الشريف» أن عامة الناس كثرت اجتماعاتهم وزياراتهم في شهر رمضان. فإذا تخلف فرد عن زيارة قريبه أو صاحبه أو معلمه في شهر رمضان أدى ذلك إلى سوء تفاهم بين الطرفين، وعمد كثير من الناس إلى إحياء رمضان في الجوامع والمساجد بقراءة صحيح البخاري، أو صحيح مسلم، أو بالذكر، أو بالصلاة، ولا سيما صلاة التراويح. وجرت العادة في عصر المماليك. اعتماداً على كتاب ابن الحاج أيضاً. أنه عند ختم القرآن بأحد المساجد في شهر رمضان يُحتفل بذلك احتفالاً كبيراً: فتقرأ القصائد، ويجتمع المؤذنون ليكبّروا جماعة في موضع الختمة، ثم يؤتى بفرس أو بغلة ليركبها القارئ الذي تولى قراءة الختمة، ويزفوه إلى بيته في موكب هائل، وأمامه القراء يقرأون، والمؤذنون يكبرون، والفقراء يذكرون، وربما أضاف بعضهم إلى ذلك ضرب الطبل والدف والأبواق.

واشتملت حجج أوقاف المساجد والمدارس على الكثير من أنواع البر والصدقات في هذا الشهر، من زيادة مرتبات خدمة المساجد وأئمتها، وتوزيع السكر عليهم وكسوتهم مع كسوة فقيه وعريف الكتاب الملحق بهما، وكسوة التلاميذ اليتامى وغيرهم. وفي المدارس تضاعف كميات الأكل والحلوى للطلبة والأساتذة، وتخصّص الأموال الكثيرة لشراء قناطر اللحم الضأن والخبز والأرز والعسل والحبوب لطبخها وتوزيعها على الفقراء.

وفي بعض الخوانق والربط اشترط واقفها توزيع الحلوى على قاطنيها كل ليلة جمعة من رمضان، هذا عدا زيادة المخصصات في رمضان.

وذكر المؤرخ بيبرس الدوادار وابن أبيك والمقريزي وغيرهم من مؤرخي عصر سلاطين المماليك أن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري كان يرتب في أول شهر رمضان بمصر (الفسطاط) والقاهرة مطابخ لأنواع الأطعمة، لتوزيعها على الفقراء والمساكين.

وفي دولتي المماليك ذكرت المصادر التاريخية أنه كان يوزع على الفقهاء والعلماء توسعة في شهر رمضان لأولادهم، وكان هناك تقليد طريف وهو إعداد أحمال من السكر والمكسرات ولحم الضأن منذ أول رمضان لتوزيعها على الفقراء في شهر رمضان تحت إشراف المحتسب وناظر الدولة، وكانت الدور مفتوحة لاستقبال الوافدين عليها للإفطار، ولا فرق بين غنى وفقير.

وكانت قراءة صحيح البخاري بقلعة الجبل من أهم المظاهر الرسمية لإحياء شهر

رمضان في عصر سلاطين المماليك، وذكر المقرئ في كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» وأبو المحاسن ابن تفرج بردي في كتابه «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» أنه جرت العادة أيام السلطان شعبان أن يبدأ بقراءة البخاري في أول يوم من شهر رمضان بين يدي السلطان، ويحضره طائفة من قضاة القضاة والفقهاء، وظل الأمر على نفس المنوال حتى تولى منصب السلطنة المؤيد شيخ المحمودي سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م، فجعل السلطان المؤيد قراءة البخاري بالقلعة تبدأ من أول شعبان، وتستمر حتى السابع والعشرين من رمضان، وأضاف المقرئ أن السلطان المؤيد شيخ زاد على ذلك بأن دعا لحضور ذلك المجلس جمعاً كبيراً من مشايخ العلم والطلبة، حتى زاد عددهم على ستين فقيهاً، منح كل واحد منهم ألف درهم فلوساً.

فإذا تم ختم صحيح البخاري - وذلك في الثلث الأخير من شهر رمضان - احتفل السلطان بذلك احتفالاً كبيراً في القلعة، وترسل الخلع إلى القضاة والعلماء والفقهاء، وتوزع الأموال على الناس، وفي نهاية دولة المماليك الجراكسة كانت تقام حفلة ختام قراءة البخاري في سرادق كبير في الحوش السلطاني بالقلعة.

وحفلت كتب التراث بمعلومات وافرة عن المغالاة في إعداد موائد شهر رمضان، والإفراط في المرطبات والحلوى وعلى رأسها القطايف والكنافة، وكلاهما مما اختصت به مصر من أقدم العصور، ويقال إن الكنافه صنعت خصيصاً لسليمان بن عبد الملك كما قيل إنها عملت لمعاوية وكلاهما كان يتسحر منها. وللعلامة جلال الدين السيوطي رسالة ظريفة عنوانها: «منهل اللطايف في الكنافه والقطايف».

وكانت الكنافه والقطايف موضع مساجلات بين الشعراء، فمن قول علم الرؤساء أبي القاسم عبد الرحمن بن هبة الله المصري في القطائف:

وافى الصيام فوافتنا قطائفه كما تسنمت الكثبان من كثر
وله أيضاً في القطائف المقلوبة:
أهلاً بشهر غدا فيه لنا خلف أكل القطائف عن شرب ابنة العنب

وللصلاح الصفدي من علماء ومؤرخي القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي:

أتاني صحن من قطائفك التي غدت وهي روض قد تثبت بالقطر
ولا غرو إن صدقت حلو حديثها وسكرها يرويه لي عن أبي ذر

ولبرهان الدين القيرواني وكتب بها إلى القاضي نور الدين بن حجر والد القاضي
والمؤرخ شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م:

مولاي نور الدين ضيفك لم يزل يروي مكارمك الصحيحة عن عطا
صدقت قطائفك الكبار حلاوة بقمي وليس بمنكر صدق القطا

وللشاعر المصري الجمال أبي الحسن الجزار المتوفى سنة ٦٧٩هـ / ١٢٨٠م في
عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الألفى من قصيدة إلى الأمير جمال الدين
ابن يغمور:

ما رأت عيني الكنافة إلا عند بيعها على الدكان
وقوله للوزير شرف الدين الفائزى:

أيا شرف الدين الذى فيض جوده براحته قد أخجل الغيث والبحرا
لئن أمحلت أرض الكنافة إننى لأرجو لها من سحب راحتك القطرا
فمجل به جواد فما لي حاجة سواء نباتا يثمر الحمد والشكرا
وقوله:

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر وجاد عليها سكر دائم الدر
وتباً لأوقات المخلل إنها تمر بلا نفع وتحسب من عمري

وهناك أنواع أخرى من الحلوى اهتم المصريون بأكلها في شهر رمضان، تصادف
أن ارتفعت أثمانها في رمضان سنة ٩١٧هـ / ١٦٦١م في عهد السلطان قانصوه الغوري
فرفعت شكوى منظومة إلى المحتسب حوت أنواعاً من الحلوى منها:

لقد جاد بالبركات فضل زماننا بأنواع حلوى نشرها يتضوع
حكته شفاء الفانيات حلاوة ألم ترني من طعمها لست أشبع
فلا عيب فيها غير أن محبها يبدد فيها ماله ويضيع
فكم ست حسن مع أصابع زينب بها كل ما تهوى النفوس مجمع
وكم كمكة تحكي أساور فضة وكم عقدة حلت بها البسط أجمع
وكم قد حلا في مصر من قاهرة كذاك المشبك، وصله ليس يقطع
وفى ثوبه المنفوش جاء برونق فيا حبذا أنواره حين تسطع
وقد قصرت في وصف القطايف هائماً تراني لأبواب الكنافة أقرع
فيا قاضياً بالله محتسباً عسى ترخص لنا الحلوى نطيب ونرتع

أما عن التسحير، وهو إيقاظ النيام كي يتسحروا ويشربوا قبل فوات الوقت، فيؤثر عن عنبسة بن إسحاق والي مصر في سنة ٢٣٨هـ / ٨٥٢م أنه كان يذهب إلى جامع عمرو ماشياً من مدينة المسكر، وكان ينادي في طريقه بالسحور.

وكان الأديب ابن نقطة المتوفى سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م في عهد السلطان العادل الأيوبي يسحر الناس منادياً «نياما ... قوما قوما للسحور».

وكان المؤذنون بتجاوبون على المنارات بتذكير النيام للسحور في فترات متفاوتة من الليل بأشعار لطيفة وبأهازيج عامية نذكر منها على سبيل المثال:

أيها النّوَّام قوموا للفلاح	واذكرو الله الذي أجرى الرياح
إن جيش الليل قد ولى وراح	وتداني عسكر الصبح ولاح
اشربوا عجلي فقد جاء الصبح	
معشر الصوَّام يا بشراكمو	ريكم بالصوم قد هناكمو

وقد ذكر العالم والفقير محمد بن الحاج العبدري الفاسي المصري، وكان عالماً فاضلاً متمزناً توفي في القاهرة سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م في عصر السلطان الناصر محمد ابن قلاوون - أنكر ابن الحاج في كتابه «مدخل الشرع على المذاهب» كثيراً من التقاليد والعادات التي انتشرت في مصر في عهده، وفي نقده لهذه التقاليد والعادات أعطانا فكرة عما كان عليه الحال في مصر وفي غيرها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وعندما تحدث ابن الحاج عن التسحير في عصره قال: إن المسلمين عرفوا التسحير منذ صدر الإسلام؛ إذ أنهم يعرفون جواز الأكل بأذان بلال ومنعه بأذان ابن مكتوم، ومن رأي ابن الحاج السير على تلك السنة أي أذانان - بشرط تمييز صوت الأول عن الثاني، وبخاصة أنه جرت العادة أن المساجد الجامعة يكون فيها أكثر من مؤذن.

ثم ذكر ابن الحاج أن التسحير في الديار المصرية - يقول المؤذن تسحروا كلوا واشربوا ، وما أشبه ذلك، ويقرأون الآية الكريمة ﴿يا أيها الدين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾ ويكررونها مراراً، ثم ينبهونهم إلى الشرب قبل الإمساك بتلاوة الآية الشريفة ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيра﴾ إلى قوله تعالى ﴿إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً﴾، ثم ينشدون القصائد.

وجرت العادة في القاهرة ومصر (أي الفسطاط) - كما ذكر ابن الحاج - أن يطوف أصحاب الأرباع وغيرهم بالطبلة على البيوت، وهم يضربون عليها، أما أهل الإسكندرية فاعتادوا أن يكون التسحير بدق الأبواب على أصحاب البيوت والمناداة عليهم، ويقال إن بعض العلماء اقترح على السلطان الأشرف برسباي سنة ٧٣٠هـ / ١٤٢٦م بعدم إطفاء القناديل في رمضان إلا قبل طلوع الفجر، إيدانا بآخر فرصة للتسحير.

وأنكر ابن الحاج في كتاب «المدخل» أيضاً تعليق الفوانيس التي جعلوها علماً على جواز الأكل والشرب ما دامت معلقة على المنارات، وعلي تحريم ذلك إذا أنزلوها؛ وذلك لأن المنارات كانت تعلق عليها القناديل أي الفوانيس مضاءة حتى السحور، ثم تطفأ إيداناً بالإمساك.

والحقيقة أن فانوس السحور كان موضع مساجلة بين أدباء وشعراء عصري الأيوبيين والمماليك يتبارون في وصفه بخيال رائع، منها ما ذكره على بن ظافر الأديب المصري، والأديب أبو الحجاج يوسف بن على المعروف بالنعجة المتوفى سنة ٦١٢هـ / ١٢١٦م وغيرهما من الأدباء والشعراء.

وإذا ما قارب شهر رمضان الانتهاء وحش المسحر الشهر بقوله «لا أوحش الله منك يا شهر الصيام، لا أوحش الله منك يا شهر القيام، لا أوحش الله منك يا شهر اللوائم، لا أوحش الله منك يا شهر العزائم، لا أوحش الله منك يا شهر الكرم والجود».

ولم يكن توحيش رمضان قاصراً على المسحراتي، بل سبقه فيه المؤذنون والقراء، وأنكر جمال الدين القاسمي التوحيش، وعاب على أحد العلماء وهو يوحش رمضان، وقال: يجب أن يتوجه بالموعظة ويقول:

«عباد الله اشكروا نعمة الله على ما يسر لكم من صيام رمضان، وأعطاكم من نعمة الإيمان، فقد أمركم بذلك من بنوره يهتدى المهتدون... ودّعوا شهر رمضان بكثرة الاستغفار من التقصير، والعزم على دوام الجد والتشمير، فقد كان للمتقين روضة وأنساً، وللغافلين قيداً وحبساً، كان نزعة للأبرار، وقيداً للأشرار، فطوبى لمن حل فيه عقدة الإصرار، وحل في روضة التقوى في منزل الافتقار».

وفي أواخر شهر رمضان اعتاد الناس في عصر سلاطين المماليك عمل الكعك وتوزيعه، وكانت هذه عادة ترجع إلى أيام الدولة الإخشيدية، واستمرت في عصري

الأيوبيين والمماليك، فتذكر كتب التراث أن أبا بكر محمد بن علي المادرائي وزير الدولة الإخشيدية عمل كعكاً حشاه بالدنانير الذهبية أطلقوا عليه اسم (افطن له)، واعتنى الفاطميون بعمل الكعك، وهذه العناية جعلت لمطبخهم وطباخهم شهرة، وقد بقيت من طباخهم بقية عملت في القصور الأيوبية.

وللشاعر المصري الجمال أبي الحسن الجزار الذي عاش عصر المماليك في السلطان المملوكي قلاوون الألفي أبيات طريفة في طلب الكعك، منها ما كتبه إلى الأمير جمال الدين ابن يغمور:

أيهذا الأمير قد أشكل المعنى وما زالت عارفاً بالمعاني
ظاهر البستندود لم أدر ماذا فيه حملاً وباطن الخشكان
أتراني في العيد أجهل ذا المعنى كجهل الحلواء في رمضان

واستمرت مصر في عصر سلاطين المماليك معنية بعمل الكعك وتوزيعه كصدقه على الفقراء؛ حتى لا يحرموا منه، وتنص وثائق الوقف من ذلك العصر على توزيعه في عيد الفطر على الفقراء واليتامى، ومنها وقفية الأميرة تتر الحجازية، والتي ينص فيها على توزيع الكعك الناعم والخشن على موظفي مدرستها التي أنشأتها سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م.

وأصبح المصريون يتهادون به ويتفاخرون بإجاداته، ويقول محمد بن السعودي الخياط، وكان يسكن درب الأتراك بجوار الأزهر إنه في سنة بضع وستين وسبعمائة، أي في عصر السلطان الأشرف شعبان جاءه في عيد الفطر من الجيران أطباق كعك على عادة أهل مصر ملأ بها زيراً كبيراً، لأن هذا الحي كان يسكن به الأكابر والأعيان.

ولرواج هذا النوع من الحلوى اهتم به تجار الحلوى، وكانت أسواقه رائجة في عصر سلاطين المماليك، وكان للفن دخل في صناعته، فعملت له القوالب المنقوشة والمكتوبة، ومنها مجموعة في متحف الفن الإسلامي مكتوب على بعضها: «كل هنيئاً»، و«كل واشكر»، «كل واشكر مولاك»، و«بالشكر تدوم النعم».

ولم يقف الاهتمام بالعيد عند عمل الكعك وأصناف الحلوى، بل شمل السمك المملح، فقد ذكر سبط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٧م أنه أكل يوم الفطر سمكاً مملحاً.

وكذلك انتقد ابن الحاج في كتابه «المدخل» أهل مصر في أكلهم السمك المشقوق في عيد الفطر، كما انتقدهم في أكل الكمك عقب الصيام؛ لأن كليهما ضار عقب الصيام.

هذه لمحات سريعة عن شهر رمضان في التراث المصري في عصر سلاطين المماليك.

ما الكتاب؟

ط. أحمد شوقي بنين

إذا ما حاول الإنسان أن يبحث في الأشكال والأحجام التي اتخذها الكتاب عبر تاريخه الطويل فإنه يجد أن أهم تحول حدث في شكله هو ذلك الانتقال الذي تم في بداية العهد المسيحي من اللقافة إلى الكراس^(١) وهو شكل الكتب الذي تبنته معظم المجتمعات الإنسانية بما فيها المجتمع العربي الإسلامي الذي أخذ فيه القرآن الكريم أول شكل للكتاب^(٢). فما معنى هذا اللفظ؟ وما هي الدلالات المختلفة التي لحقته في اللغة العربية عبر العصور؟ وما هي مرادفاته؟ أسئلة ثلاثة هي محور هذا العرض.

الكتاب من الكتب وهو لفظ سامي يعني الجمع، إذ الكتابة في اللغة الآرامية تعني رسم الحروف، يقول الراغب الأصفهاني (٥٠٢ هـ): الكتب ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط. وقد يقال ذلك المضموم بعضها إلى بعض باللفظ^(٣). ولهذا سُمي كتاب الله وإن لم يكتب كتاباً ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾^(٤)، وكان لفظ «كتاب» مطلقاً بدون تعريف يعني قبيل الإسلام وبعده وثيقة^(٥) من الوثائق قد تكون رسالة أو معاهدة أو نقشاً أو غيرها، والكاتب في ذلك العهد هو الناسخ^(٦) فكُتِبَ الوحي نساخه، وقد أطلق «الكتاب» بالتعريف على القرآن الكريم شأنه في ذلك شأن (Livre) اللاتيني و (Bible) اليوناني، فكلاهما يعني لغة: «كتاب»، وأصبحا يطلقان على الكتاب المقدس مع تغليظ الحرف الأول (Bible)^(٧) و (Livre).

(١) يعتقد أن لفظ كراس تعريب للفظ اللاتيني (codex) الذي يعني الخشبة، والكوديكن هو الشكل الذي أخذه الكتاب بعدما أصبح الورق مادة للكتابة عوض الألواح الطينية وورق البردي وغيرها من مواد الكتاب التي كانت سائدة في العصر القديم، وظهور الورق ساعد على تطوير الكتاب ذي الصفحتين المتقابلتين. ولما كتب القرآن جمع أولاً بين لوحين أو دفتين من الخشب قبل أن يأخذ شكل الكراس علي عهد عثمان رضي الله عنه.

(٢) حسب ابن الكلبي وجد كتاب مكتوب في الحيرة قبل الإسلام.

(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن: مادة كتب.

(٤) البقرة، ١.

(٥) لا يكاد مفهوم الوثيقة في ذلك العهد يختلف كثيراً عن مفهومها الحديث الذي يعني كل ما يشتمل على معلومات سواء كان رسالة أو مخطوطاً أو مطبوعاً أو دورية أو غيرها، وهو المفهوم اللاتيني القديم للفظ «وثيقة» التي هي (Do-cere) في اللاتينية و (document) في الفرنسية، ويعني كل ما يعطينا معلومة من المعلومات.

(٦) الكاتب بمعنى المؤلف المبدع لم يظهر إلا في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني الهجري مع عبد الحميد الكاتب وغيره، شأنه في ذلك شأن اللفظ الفرنسي (écrivain) أي كاتب، فقد كانت تعني الناسخ قديماً (Scribe)، ولم تصبح تعني المؤلف المبدع إلا مع عصر النهضة، وكذلك قل في المصطلح اليوناني بيبليوغرافوم (biblio-graphum) فإنه كان يعني الناسخ الذي ينسخ الكتب في العصر المصطلح وأصبح في القرن التاسع عشر الكاتب الذي يكتب عن الكتب ولبس الذي ينسخها.

(٧) من المستحسن أن نشير إلى أن أصل كلمتي Lovre و bible تعنيان «كتابا» في اللاتينية واليونانية، هو قشرة الشجرة وهو لحاء الشجر عند العرب.

وقد أخذ لفظ «كتاب» معانٍ مختلفة في القرآن الكريم، فقد أطلق علي الكتاب الذي يكتبه الناس بأيديهم، كما أطلق على القرآن، وعلى الكتب السماوية الأخرى، وهي: التوراة، والإنجيل، وصحف إبراهيم، وقد جمعت آية هذه المعاني الثلاثة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ والكتاب الثاني التوراة، والثالث الجنس كتب الله سبحانه وتعالى وكلامه^(١).

فالكتاب الأول ما كتبوه بأيديهم المذكورة في قوله تعالى: ﴿قُولِ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، والكتاب الثاني التوراة، والثالث لجنس كتب الله أي ما هو شيء من كتب الله سبحانه وتعالى وكلامه^(٢) وقد يعني لفظ «كتاب» الكتب المنزلة كلها من عند الله، قال تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾^(٣) أي بالكتب المنزلة، فوضع ذلك موضع الجمع إما لكونه جنسًا كقولك الدرهم في أيدي الناس أو لكونه في الأصل مصدرًا^(٤).

والكتاب هو الصحيفة والدواة كما جاء في لسان العرب. يقول الراغب الأصفهاني: الكتاب في الأصل اسم للصحيفة مع المكتوب فيها، وفي قوله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾، فإنه يعني صحيفة فيها كتابة، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ أَوْ مَكْتُوبًا فِي قُرْطَاسٍ﴾^(٥).

والكتاب هو القَدَر^(٦) قال تعالى: ﴿لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾، وقوله: ﴿قُلْ لَنْ يَصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾. وجاء الكتاب في القرآن الكريم بمعنى العلم: قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ الْبَعْثِ﴾ أي في علمه وإيجابه وحكمه^(٧)، ويعني الكتاب كذلك الحكم، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي حكم. والكتاب ما أثبت على بني آدم من أعمال كما جاء في قوله تعالى في سورة الطور: ﴿وَالطُّورُ وَكِتَابٌ مُسَطُّورٌ﴾. والكتاب كذلك الحجة الثابتة من جهة الله، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾^(٨).

(١) آل عمران، ٧٨.

(٢) معجم الراغب الأصفهاني مادة كتب.

(٣) آل عمران، ١١٩.

(٤) معجم الراغب الأصفهاني مادة كتب.

(٥) معجم الراغب الأصفهاني: مادة كتب.

(٦) جاء في كتاب «شعراء النصرانية» للأب لويس شيخو أن عدي بن زيد الشاعر النصراني استعمل لفظ كتاب بمعنى القدر في بيت من شعره، ولكن يحتمل أن يكون هذا البيت من الشعر الموضوع بعد الإسلام. انظر شعراء النصرانية، ص ١٠٢.

(٧) معجم الراغب الأصفهاني: مادة كتب.

(٨) الحج، ٨.

هذه بإيجاز بعض معانى لفظ «كتاب» التي وردت في القرآن الكريم، وعند بداية حركة التأليف في التراث العربي فإن «كتاب» لم يكن يعني المعنى المتعارف عليه اليوم، بل كان يعني في الغالب الأعم باباً أو فصلاً أو جزءاً من الكتاب المعروف، فكان حجمه صغيراً؛ لذا أطلقت عليه تسميات أخرى توحى بصغره مثل المجلدة والكراسة وغيرها من المرادفات التي سنعود إلى معالجتها لاحقاً.

وبعد هذا أصبح لفظ «الكتاب» علماً على الكتب الأساسية في علوم العربية، فالكتاب معرّفاً يعني القرآن كما سبق ذكره، وإذا أطلق في النحو أريد به كتاب سيبويه (١٤٨ - ١٨٠هـ)؛ لأنه لم يوضع كتاب مثله في النحو قبله أو بعده كأنه قرآن النحو، وسمي كذلك؛ لأن سيبويه لم يتمه ولم يسمه بسبب الموت المبكر والمفاجئ لصاحبه.

وإذا ذكر الكتاب في الفقه أريد به مختصر القدوري في فروع الحنفية لأبي الحسين أحمد بن محمد القدوري البغدادي الحنفي (٤٢٨هـ)، إنه متن متين معتبر متداول بين الأئمة الأعيان وشهرته تغني عن البيان، قال صاحب مصباح أنوار الأدعية: «إن الحنفية يتبركون بقراءته في أيام الوباء، وهو كتاب مبروك من حفظه يكون أميناً من الفقر»^(١) وإذا أطلق الكتاب في المعاني والبيان أريد به كتاب «دلائل الإعجاز» للشيخ عبد القاهر الجرجاني، وأضاف أحمد بن سليمان بن كمال باشا التركي (٩٤٠هـ) أن الكتاب في عرف الأصوليين يطلق على أحد أركان الدين، وفي عرف المصنفين على طائفة من المسائل اعتبرت منفردة عما عداها^(٢).

وقد يكون لفظ كتاب جزءاً من العنوان فيجب كتابته مع عنوان الكتاب كـ«كتاب الأم» للإمام الشافعي، فلفظ «كتاب» هنا جزء لا يتجزأ من العنوان، ولا يجوز تسمية كتاب الشافعي بالأم، وقد خصص حاجي خليفة (١٠٧٦هـ) فصلاً في حرف الكاف من الجزء الثاني من «كشف الظنون» الذي يعتبر أول بليوغرافيا دولية عامة في التراث العربي

(١) يشتمل مختصر القدوري على اثني عشر ألف مسألة، وعليه شروح كثيرة ونظم وتلخيصات ومختصرات. وإذا أتبع لنا أن نطلق لفظ كتاب على مؤلف من المؤلفات المالكية فنطلقه بالدرجة الأولى على «رسالة ابن أبي زيد القيرواني» (٤٨٦هـ) التي كان يحفظها المالكيون، أو «المدونة في فروع المالكية» لعبد الرحمن بن القاسم (١٩١هـ) أو «مختصر الشيخ خليل» (٧٧٦هـ) الذي أعطى الشكل النهائي للمذهب المالكي، أما في المذهب الشافعي فقد يطلق الكتاب على «مختصر المزني الشافعي» (المتوفى ٢٦٤هـ) الذي يعتبر أحد الكتب الخمسة المشهورة بين الشافعية التي يتناولونها أكثر تداول وهي سائرة في كل الأمصار كما ذكره النووي في «التهذيب»، والمزني أول من صنف في مذهب الشافعي. وقد عاصر القدوري رجلين انتهت إليهما رئاسة مذهبيهما، هما: أبو حامد أحمد ابن محمد الإسفراييني الشافعي المتوفى ببغداد في عام ٤٠٦هـ وقد شرح المزني في تعليقه نحواً من خمسين مجلداً ذكر فيها مذاهب العلماء، وعبد الوهاب المالكي البغدادي الذي توفي بالقاهرة سنة ٤٢٢هـ ودفن بالقرافة. أما في ميدان التصوف فإن «الفتوحات المكية» لابن عربي الحاتمي المتوفى سنة ٦٢٨هـ أجدر بأن يطلق عليه لفظ «الكتاب».

(٢) كشف الظنون، ج ٢، ص ١٢٨٢.

المخطوط، وعنوانه كالتالى: فصل فى الكتب التى لا يصح تجريدتها عن الإضافة، وأعطى مجموعة كبيرة من الكتب التى يعتبر لفظ «كتاب» جزءاً لا يتجزأ من العنوان نذكر منها على سبيل المثال: «كتاب فعلت وأفعلت» لأبي علي القالي، و«كتاب الهاءات» لأبي بكر النحوى ٢٢٨هـ، و«كتاب الأبنية» لأبي إسحاق النحوى، و«كتاب الأخفش» فى النحو، و«كتاب الباء» لابن عربي تكلم فيه على أسرار الحروف، و«كتاب الياء» له كذلك، و«كتاب التصغير» لشعرب النحوى وغيرها كثير.

وقد سار على هذا المنوال إسماعيل باشا البغدادي (١٩٢٠م) مستدرکاً ما فات حاجي خليفة من الكتب التى يعتبر لفظ «كتاب» جزءاً من عنوانها، ولم يبين صاحبها الكشف وذيله «إيضاح المكنون» الطريقة التى توصلنا من خلالها إلى التأكد من الكتب التى لا يصح تجريدتها عن الإضافة، كما لم يشير إلى مصادرها فى هذا الباب، وقد ثبت بعد القراءة الدقيقة فى هذه العناوين أن حاجي خليفة صنف بعض الكتب باعتبار أول كلمة من العنوان، كما صنفها ضمن الكتب التى لا يصح تجريدتها عن الإضافة مثل كتابي أبي بكر ابن المنذر النيسابوري (٢١٨ هـ): «الإشراف على مذاهب الإشراف»، و«الاقتصاد فى الإجماع والخلاف». فالكتابان مصنفان فى باب الألف وضمن لفظ كتاب فى الكشف.

وأما مرادفات لفظ «كتاب» فهى متعددة رافقته منذ نشأته فى المجتمع العربى الإسلامى إلى العصر الحديث، وأول هذه المرادفات لفظ «قرآن» الذى انتهت معظم الأبحاث إلى أنه لفظ اقتبس العرب من الآرامية أو السريانية، وكلاهما لغة سامية ومعناه القراءة والتلاوة^(١).

وقد اضطر العرب إلى هذا الاقتباس؛ لأن فعل «قرأ» فى الجاهلية لم يكن يعنى التلاوة، بل كان يعنى الحمل والولادة، فيقال قرأت الناقة أي حملت، وقرأت المرأة أي ولدت، ولا يعنى هذا أن اللغتين الساميتين المذكورتين أقدم من العربية لأن وجود القرآن بمعنى القراءة فى اللغات السامية الأخرى، وعدم وجود نصوص عربية جاءت فيها هذه المادة هو السبب فى هذا الاقتباس، قال المستشرق الألمانى برجستراسر: إن اللغات الآرامية والحبشية، وهما ساميتان والفارسية، وهى إحدى اللغات الهندية

(١) قال المستشرق الألمانى شفالي (١٩١٩م): لفظ قرآن يعنى القراءة أي قراءة الكتب المقدسة بالسريانية، وقد تبعه فى ذلك معظم علماء أوروبا من المستشرقين، وكان شفالي قد أشرف على إعادة نشر كتاب «تاريخ القرآن» الذى وضعه أستاذه نولدكه (Nöldeke) وقد نقله من اللغة الألمانية إلى اللغة العربية الأستاذ جورج تامر ونشره فى نيويورك فى سنة ٢٠٠٠م.

الأوربية تركت في العربية آثاراً لا تنكر؛ لأنها كانت لغات الأقوام المتمدينة المجاورة للعرب في القرون السابقة للهجرة. وقيل القرآن بالهمز، وقيل قرآن^(١) بدون همز بحسب اختلاف مذاهب العلماء، وسواء كان مهموزاً أو بدون همز فإن معناه الجمع، يقول الراغب الأصفهاني: القراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل بمعنى جمع الحروف بالنطق، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِن عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ قال ابن عباس: إذا جمعناه وأثبتناه في صدرك فاعمل به^(٢). وقال بعض العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآنًا من بين كتب الله لكونه جامعاً لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، أما الذين قرأوا قرآن بدون همز فإنهم جعلوه مشتقاً من «قرن» بمعنى جمع، قال الأشعري: «قرن الشيء بالشيء إذا ضمه إليه»، ولأن السور والآيات تقرر فيه ويضم بعضها إلى بعض^(٣).

ولفظ كتاب يتأوب في الاستعمال مع لفظ قرآن في كلام الله^(٤) والكلمتان مترادفتان، وكثير من الآيات تؤكد نزول الكتاب أو القرآن مجزئاً من السماء، ومع ذلك فقد لاحظ المستشرق الدانماركي بوهل (Buhl) (المتوفى ١٩٣٢) أن من يدقق في استعمالهما معاً يخلص إلى أن هناك فرقاً بينهما بحيث إن لفظ كتاب أوسع دلالة من لفظ قرآن، وقد يسمى الوحي قرآنًا عندما يوحى به مجزئاً حسب الأحداث^(٥).

وفي الثلاثينيات من القرن العشرين استنتج المستشرق الإنجليزي ريشارد بل (Richard Bell) من دراسة الأبحاث التي وضعها كل من نولدكه (Nöldeke) ١٩٣٠م وتلميذه شفالي (F. Schwally) ١٩١٩م أن لفظ قرآن قد غلب استعماله في السور المكية والسور المدنية الأولى، وأن لفظ كتاب هو الأكثر استعمالاً في السور المدنية للتعبير عن القرآن الكريم، وقد استخلص من هذا أن فكرة القراءة والتلاوة كانت هي السائدة في المرحلة الأولى من نزول الوحي، وأن فكرة الكتابة بدأت تأخذ مكانها في التفكير الإسلامي لما استقر الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالمدينة المنورة^(٦)، ولا ينفي هذا فكرة كتابة الوحي في المرحلة المكية.

(١) من الذين رأوا أنه بدون همز الشافعي والفراء والأشعري، ومن رأى أنه مهموز الزجاج والليثاني وجماعة انظر:

«مباحث في عوم القرآن» لصبحي الصالح، ص ١٨.

(٢) معجم الراغب الأصفهاني: مادة قرأ.

(٣) البرهان، ٢٧٨/١.

(٤) لفظ كتاب أكثر استعمالاً في كلام الله من لفظ قرآن.

(٥) بوهل (Buhl): لفظ قرآن في دائرة المعارف الإسلامية في طبعها الأولى.

(٦) F. Déroche: le livre manuscrit arabe p. 13.

ومن أسماء القرآن الفرقان^(١) وهو كلام الله - تعالى - لفرقه بين الحق والباطل في الاعتقاد، والصدق والكذب في المقال، والصالح والطالح في الأعمال^(٢)، ولفظ «فرقان» لا يعنى بالفعل «كتاب»، بل يفيد كاسم مجرد معنى الوحي، وتستعمل للوحي سواء للوحي الذي تلقاه سيدنا محمد - ﷺ - أو باقي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(٤).

ومن مرادفات لفظ كتاب كلمة مصحف (مثلث الميم)^(٥) وهو الجامع للصحف المكتوبة بين الدفتين. وقبل أن يصبح اللفظ علمًا على القرآن كان يعنى بشكل عام الكتاب المجلد. يقول امرؤ القيس:

أنت حجج بعدى عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان

وروي عن جعفر الصادق أن رسول الله - ﷺ - قال لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : «يا علي القرآن خلف فراشي في المصحف والحريز والقراطيس فخطوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة».

ويؤكد هذا المعنى نص لابن عبد البر في كتابه «القصص والأمم» جاء فيه: «من جملة وما وجد في الأندلس اثنتان وعشرون مصحفًا محلاة كلها من التوراة ومصحف آخر محلى بفضة فيه منافع الأحجار والأشجار والدواب وطلسمات عجيبة، فحمل ذلك إلى الوليد (الأموي) وكان في المصاحف مصحف فيه عمل الصنعة وأصباغ اليواقيت»^(٦). وهذا النص لم يدع مجالاً للشك في أن معنى مصحف هو الكتب، وقد سمى القرآن مصحفًا بضم الميم؛ لأنه يعنى «كتاب»، ولأن الأحباش يسمون كتابهم المقدس مصحفًا بضم الميم، وقد تمت الموافقة على اللفظ الحبشي؛ لأن مادة (صحف) جذر سامي يوجد في العربية والحميرية أي العربية الجنوبية، كما يوجد في اللغة العربية^(٧).

(١) يوجد اللفظ في الآرامية والإثيوبية بكسر الفاء (فرقان).

(٢) «معجم ألفاظ القرآن»: مادة فرق.

(٣) الأنبياء، ٤٨.

(٤) الفرقان، ١.

(٥) تميم تكسرهما وقيس تضمها، لسان العرب: مادة صحف.

(٦) ابن عبد البر: «القصص والأمم»، ص ٢٤، طبعة القاهرة ١٣٥٠هـ.

(٧) تكاد تجمع المصادر على أن عبد الله بن مسعود هو الذي اقترح هذا اللفظ الحبشي ليسمى به القرآن يروى الجاحظ أن الأحباش يقولون: إن العرب نقلوا عنهم فيما نقلوا المصحف، انظر رسائل الجاحظ، ط. بريل، ليدن، ص ٧١ سنة ١٩٠٧م، وه الإتقان للسيوطي، و«تاريخ القرآن»: لتولدكه.

ومن مرادفات الكتاب الزبور والدفتري والمجلدة والرسالة والكناشة والكراسة والسفر والتقييد والمختصر وغيرها، وقد يسمى الكتاب كراسة عندما لا يتجاوز حجمه العشر ورقات. وأثبت البحث الكوديكولوجي في المخطوطات العربية أن كراسة تعني عشر ورقات وقد تكون اثنتي عشرة ورقة في بعض المخطوطات العربية بالأندلس التي ربما تكون من تأثير المخطوطات العربية التي بلغت فيها الكراسة اثنتي عشرة ورقة. أما المجلدة فمن الصعب تحديد حجمها؛ لأن القدماء كانوا يسمون الكتاب مجلدة كيفما كان حجمه، أما الزبور فيبدو أن أصله يعود إلى العربية الجنوبية بمعنى كتاب، ويطلق على كل كتاب غليظ الكتابة، وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم بمعنى الكتاب الديني، وقد غلب الزبور على صحف داود عليه السلام.

ويسمى الكتاب رسالة، وقد يسمى سفرًا؛ لأنه يبين الشيء ويوضحه، وهو لفظ سامي يوجد في العبرية والسريانية والنبطية^(١).

أما دفتري وهو مرادف للفظ كتاب فيعني الجلد في اللغة اليونانية. وكان يعني اللقافة البردية قبل أن يصبح معناه ملزمة أو كتابًا كبيرًا في العصر الإسلامي^(٢).

أما كناش أو كناشة فيوجد في كثير من لغات السامية، وقد دخل العربية من السريانية، وهو دفتري تقيد فيه الفوائد والشوارد للضبط وقد يعني الترجمة الذاتية^(٣).

وقد أطلق على الكتاب مصطلحات أخرى عبر التاريخ، أمثال: «التقييد» حيث أطلقه بعض القدماء عنوانًا على كتبهم مثل «تقييد العلم» للخطيب البغدادي، و«تقييد المهمل» للجيانى، و«المختصر» الذي أطلق على كتب الفقه الكبرى مختصر القدوري والمنزى والشيخ خليل.

وبعد، فهذه بعض مرادفات الكتاب في العربية في العصور السالفة، أما في العصر الحديث فإن الثورة التكنولوجية والثقافة التي أحدثتها الطباعة قد واجهتها ثورة أخرى أبدعت الكتاب الإلكتروني؛ فأصبح الميكروفيش والميكروفيلم - وغيرها من أنواع الكتب الحديثة التي لا تقرأ إلا آلياً - نوعًا من مرادفات الكتاب.

(١) «معجم مصطلحات المخطوط العربي»: أحمد شوقي بنين ومصطفى طوي.

(٢) أثبت المؤرخ اليوناني هيرودوت (Herodote) أن كلمة دفتري من الكلمات الفينيقية التي تسربت إلى اليونانية قديمًا.

(٣) «معجم مصطلح المخطوط العربي»: أحمد شوقي وطوي.

أطبيبات التسامح في التراث الإسلامي(*)

د. وجيهة محمد مرزوق(*)

التسامح التزام أخلاقي يوجبه الدين الإسلامي على كل مسلم ومسلمة ، وهو من القضايا الحضارية الهامة التي أثارت نظر الفلاسفة والسياسيين والمفكرين الدينيين عبر العصور، والتي أصبح لها مكانة خاصة في الفكر الفلسفي الحديث، لما لها من دور فعال وأثر قوي في العلاقات الداخلية على مستوى الأفراد في المجتمع ، وكذلك في العلاقات الخارجية على المستوى الدولي. فالتسامح خلق ينبع من سلوك الإنسان ، ويوجه حركته الاجتماعية والعالمية ، وهو في ذات الوقت يتأثر بالتنظيم السياسي والقيم الاجتماعية والدينية للأمة .

وتعتبر حقيقة التسامح أن عن مسؤولية حضارية على درجة كبيرة من الحساسية والخطورة في آن واحد ، إذ أن اختلاف العقيدة أو الفكر في المجتمع الديمقراطي المعاصر لا يجوز أن يؤدي إلى التعصب لما عليه بعض أفراد المجتمع ضد الآخرين ، وقد اهتم الإسلام بهذا الأمر اهتماماً خاصاً ، إذ نصت تعاليمه على الأسس النظرية العامة التي تحت على التسامح ، كما نصت على الوسائل العملية لممارسة التسامح في المجتمع الإنساني .

وفي تراثنا الإسلامي يجد الباحث أن جوهر العلاقات سواء أكانت بين المسلمين بعضهم البعض أم بين المسلمين وغير المسلمين تقوم على أساس احترام التعددية في كل أشكالها ، وفي كل مظاهرها ، فهي تطالب المسلم بالتعامل مع الآخرين بالسماحة، سواء أكانوا متفقين معه أم مختلفين عنه : في الدين ، أو المذهب ، أو الجنس ، أو اللغة ، أو الفكر ، وغير ذلك مما يمكن أن يكون فيه الاختلاف بين البشر ؛ فهي في مجملها تطلب من المسلم أن ينظر إلى الآخرين نظرة احترام يستطيع من خلالها أن يتعامل معهم تعاملًا إنسانيًا شريفًا ؛ ليحققوا جميعاً هدف وجودهم العمراني . وهذا ما يتبين لنا بالنظر إلى بعض التشريعات الإسلامية التي تقوم على أصول من القرآن الكريم ، وتستند إلى دلائل من السنة النبوية الشريفة وتدعمها السيرة النبوية، وتؤكدها حقائق تاريخية يشهد بها تاريخ الحضارة الإسلامية ، منها :

● الإيمان بوحدة النوع الإنساني ومبادئ المؤاخاة والمساواة.

● العفو أساس أخلاقيات المجتمع الإسلامي .

(*) محاضرة عربية بكلية التربية للبنات بغيريف ، المملكة العربية السعودية .

- العدل في معاملة الأعداء في الإسلام .
- عهد المودعة ومفهوم السلم الاجتماعي.
- توازنات التسامح في الجانبين المادي والروحي في تاريخ الحضارة الإسلامية.

* * *

الإيمان بوحدة النوع الإنساني ومبادئ المؤاخاة والمساواة:

إن وحدة النوع الإنساني ترجع إلى الارتباط بين البشر جميعاً ، في وحدة النشأة فكلهم لآدم ، وآدم خلق من تراب: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٨) وقد كرم الله - سبحانه وتعالى - الإنسان ، وخصه دون الملائكة بل دون سائر المخلوقات بالخلافة في الأرض : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠) ، ولكن الملائكة لم تكن لتتفهم هذا الأمر؛ وذلك لأنه يفوق مدى إدراكها وإحاطتها بحكمة العناية الإلهية ، فهي ترى أنها أحق من الإنسان بالخلافة بقولها : «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك» ، فهي تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية ، وهو الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير ، ولا يريد إلا الخير^(١) .

ويأتى الرد الإلهي على الملائكة موضعاً وجه التفضيل للإنسان عليها، وهو العلم الذي خص به البشر وحدهم على سائر المخلوقات : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة: ٣١-٣٣) .

فالبشر جميعاً من حيث أصل النشأة الأولى يتساوون في مادة النشأة «التراب» ، وفي السيادة في الأرض «الخلافة»، وفي خصوصية العلم بين الكائنات جميعاً .

هذه النشأة هي التي تعمق في النفس الإنسانية حقيقة أنه لا تمييز بين البشر ولا أفضلية ؛ وبهذا تصبح وحدة النشأة قاعدة سلوكية إنسانية تلغي الفوارق بين الإنسان وأخيه الإنسان ، مهما اختلفت القبائل والشعوب والأمم ، فالإنسان ليس سوى عضو في أسرة الإنسانية الكبيرة التي تبدأ بالأب آدم والأم حواء : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ

(١) الزمخشري، محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي، «الكشاف»، دار الفكر العربي ١٩٧٧م، ج ١ ، ص ٦١ .

اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ (النساء: ١) .
ولن يستطيع الإنسان تحقيق هذه النظرة إلى الآخرين إلا بالتسامح . وقد أرسى الإسلام من الدعائم ما يكفي لحماية أواصر هذه الأخوة الإنسانية ، وسلك في ذلك مسلكين :

المسلك الأول: تأكيد الأخوة بين المسلمين بعضهم البعض ، وقد أكد النبي - ﷺ - ذلك بقوله : «إنما المؤمنون مثل رجل - أو كرجل - واحد ، إذا اشتكى عيناه اشتكى كله ، وإذا اشتكى رأسه اشتكى كله» ^(١) ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يجعل العلاقة بين المسلمين ، مساوية للعلاقة بين أعضاء الجسد الواحد ، ومثلما يتداعى ويتألم سائر الجسد إذا أصاب أحد أعضائه مكروه ، ويتحرك بحركة شعورية تلقائية ، للمشاركة والتخفيف ، كذلك يتألم سائر المسلمين إذا أصاب أحدهم مكروه ، ويتحركون بنفس الحركة الشعورية التلقائية ، ومثلما تهدف الحركة في الحالة الأولى إلى المشاركة والتخفيف ، فإن الحركة في الحالة الثانية أيضا تهدف إلى المشاركة والتخفيف وكذلك يتألم سائر المسلمين إذا أصاب أحدهم مكروه ، ويتحركون بنفس الحركة الشعورية التلقائية ، ومثلما تهدف الحركة في الحالة الأولى إلى المشاركة والتخفيف ، فإن الحركة الثانية أيضا تهدف إلى المشاركة والتخفيف . وقد جسد النبي - ﷺ - هذه المشاركة التلقائية بقوله : «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً . وشبك بين أصابعه» ^(٢) .

وكان أعظم شاهد على ذلك ، بل أول شاهد على ذلك حفاظته عليه الصلاة والسلام بالأخوة الإسلامية ، تلك المؤاخاة التي عقدها بين المهاجرين والأنصار ، والتي تمثل الركيزة الأولى في تأسيس الدولة الإسلامية بعد هجرته وفور دخوله المدينة ، بقوله : «تآخوا في الله أخوين أخوين» ^(٣) . ثم أخذ النبي ﷺ يؤاخي بين المهاجرين والأنصار ، وفي ذلك يروي ابن هشام في سيرته النبوية : «كان حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله ﷺ ، وعم رسول الله ﷺ ، وزيد بن حارثة ، مولى رسول الله ﷺ أخوين ، وإليه أوصى حمزة يوم أحد ... وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ابن أبي قحافة ، وخارجة بن زهير ، أخو بلحارث بن الخزرج أخوين ...» ^(٤) . واستمر عليه الصلاة

(١) أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، كتاب الآداب دراسة وتحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، باب التعاون على البر والتقوى ، ص ٨٨ .

(٢) نفسه ، ص ٨٨ .

(٣) أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ، السيرة النبوية ، مراجعة لجنة من العلماء ، مطبعة الأنوار المحمدية ، ١٩٩١ م ، ج ٢ ، ص ١٠٧ .

(٤) نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٧ .

والسلام يؤاخي بين المهاجرين والأنصار ؛ ليعلم الناس أن الأخوة في الإسلام هي أخوة في الله تهدف إلى تحقيق المنهج السماوي الذي ينظر إلى الناس جميعاً على أنهم يتساوون في إنسانيتهم ، وأنه لا تمييز ولا أفضلية بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح .

أما المسلك الثاني : فإنه يتعلق بتأكيد الأخوة بين المسلمين وغير المسلمين ، وهذه الأخوة العامة في حقيقتها مكملة للأخوة الخاصة التي أقامها الإسلام بين المسلمين بعضهم البعض ؛ وذلك لأنها موجهة لتحقيق المصلحة للمجموع ، فالمجتمعات البشرية تضم أجناساً متعددة ﴿ ٠٠٠ ﴾ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (المائدة : ٤٨) .

وتبين لنا أهمية هذه الأخوة العامة حين يقوم الإنسان بدوره في الاجتماع والقضاء والسياسة ؛ لأنه بطبيعة الحال لن يكون منفرداً ، وإنما هو مرتبط بالآخرين الذين يقومون معه بنفس الرسالة في العمران ، وهنا يكون التعارف بهم والتداخل معهم قاعدة ملزمة ؛ لأن التعارف هو الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها تحقيق التعاون، وقد أكد هذا المعنى كثير من رجال الدين ، فنجد الدكتور محمود حمدي زقزوق يقول: «ولقد اقتضت حكمة الله في خلقه أن جعل الناس مختلفين في ألوانهم وألسنتهم ومداركهم وتصوراتهم ، ولكن الله جل شأنه لم يرد أن يكون هذا الاختلاف بين الناس مدعاة إلى النزاع والشقاق ، بل جعله دافعا إلى التآلف والوئام ٠٠٠ وهذا التعارف من شأنه أن يكون مبنياً على الاحترام المتبادل والفهم المتبادل ، ومؤدياً إلى التعاون المشترك»^(١) ، فبدون التعاون لا يمكن أن يقوم الإنسان بوظيفته في الخلافة ؛ فهذا الغرض لا يمكن أن تفي به القدرات الفردية ، سواء على مستوى الأفراد أو المجتمعات أو الدول ، وهنا تكون الأخوة العامة هي الضمان لحفظ أواصر تلك العلاقة الإنسانية.

مبدأ المساواة في الإسلام: إن مبدأ المساواة في الإسلام تتجلى مظاهره أكثر ما تتجلى في العدل المطلق ؛ فمن منطلق الإخاء الإنساني الذي تتحقق به الوحدة الإنسانية ، جاء الإسلام بمبدأ العدل ؛ ليحفظ الأمن والاستقرار بين الناس جميعاً ، والقرآن الكريم يأمر المسلمين بالعدل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (النساء: ٥٨) ، فالمسلمون عليهم أن يقيموا عدلهم بين الناس جميعاً، على

(٤) د. محمود حمدي زقزوق، سلسلة إعادة نشر تراث التقريب بين المذاهب الإسلامية ، المجلد الثاني ، ١٩٩٤م ،

أساس الأخذ بالحق والابتعاد عن الهوى ؛ ذلك أن العدل في الحكم بين الناس هو «تحري المساواة والمماثلة بين الخصمين ، والمسلمون مأمورون بالعدل في الأحكام والأقوال والأفعال والأخلاق»^(١) .

ولم تكن إقامة العدل داخل المجتمع الإسلامي في عهد النبوة بالأمر الذي يسهل على العرب قبوله وتنفيذه بهذه الصورة ؛ لما درجوا عليه من تقديم فروض العزة للسلادة والنبلاء ، فقد روي عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت : «إن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة، حب رسول الله ﷺ ؟ فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ - أتشفع في حد من حدود الله ؟، ثم قام فاختطب فقال: أيها الناس! إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»^(٢) .

وكانت نتيجة محاولتهم غير موفقة؛ لأن ذلك أغضب رسول الله ﷺ ، فقام وخطب فيهم مؤكداً لهم أن مبدأ العدل لا هوادة فيه ، وأن السارقة لو كانت ابنته لأقام الحد عليها؛ لأن المحاباة فيه تؤدي إلى الهلاك وضياع الأمم ، «فقد مضت سنة الله العادلة في خلقه بأن جزاء ترك العدل وعدم إقامة القسط في الدنيا هو ذل الأمة وهوانها ، واعتداء غيرها من الأمم على استقلالها ، ولجزاء الآخرة أذل وأخزى ، وأشد وأبقى . قال نبينا - ﷺ - : إذا ظلم أهل الذمة كانت الدولة دولة العدو» (رواه الطبراني عن جابر رضي الله عنه)^(٣) .

وبمبدأ العدل هذا يقر الإسلام معنى التسامح في نفوس المسلمين ؛ فتساويهم في القيمة الإنسانية معناه أيضاً تساويهم أمام القوانين التي تحكم علاقاتهم الاجتماعية ، فالتشريع الإسلامي يقرر مبدأ العدل للأشخاص على أنهم أفراد في أسرة إنسانية واحدة، ومن هذا المنطق يأمر الله المؤمنين بالعدل حتى ولو كان على أنفسهم : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ...﴾ (النساء : ١٣٥) .

(١) الشيخ محمد رشيد ، «تفسير المنار»، دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٣٦٧هـ ، ج ٥ ، ص ١٧٤ ، ١٧٩ .

(٢) «صحيح مسلم» ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، كتاب الحدود ، باب قطع السارق الشريف وغيره ، والنهي عن الشفاعة في الحدود ، ص ١٣١٥ .

(٣) الشيخ محمد رشيد رضا ، «تفسير المنار» ، ج ٦ ، ص ٢٧٤ .

ويتسع نطاق العدل في الإسلام ، فيكلف الله المسلمين باتباعه مع أعدائهم : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨) فهذه الآية الكريمة تحدد للمسلمين الآداب العامة ، والمبادئ الخلقية التي يجب عليهم الإتيان بها في المجتمعات التي يعيشون فيها مع الجميع حتى مع أعدائهم .

وقد أعد الله تعالى المسلمين بهذه الفضائل الخلقية ، والتي هي الأساس الذي يقوم عليه العدل في المجتمع ؛ ليستطيعوا في النهاية القيام بالتكليف الأكبر ، وهو إقامة العدل مع أعدائهم ؛ فهم مأمورون أولاً بأن يكونوا «قوامين لله» ومأمورون ثانياً بأن يكونوا «شهداء بالقسط» ، أى بإقامة العدل في مجتمعاتهم ؛ وذلك أيضاً بهدف حفظ الحقوق ، وتوثيق الروابط الاجتماعية بين كل من يضمه المجتمع الإسلامي، «فالشهادة بالقسط معروفة، وهى أن تكون بالعدل بدون محاباة مشهود له ولا مشهود عليه ، لا لقربته وولائه ، ولا لماله وجاهه ، ولا لفقره ومسكنته . فالشهادة هنا عبارة عن إظهار الحق للحاكم ليحكم به ، أو إظهاره هو إياه بالحكم به ، أو الإقرار به لصاحبه . والقسط هو ميزان الحقوق متى وقعت فيه المحاباة والجور لأى سبب أو علة من العلل زالت الثقة من الناس ، وانتشرت المفسد وضروب العدوان بينهم ، وتقطعت روابطهم الاجتماعية ، وصار بأسهم بينهم شديداً»^(١) .

ثم يتأكد هذا الأمر الإلهي بنهي المسلمين وتحذيرهم عن الجور بالحياد عن العدل «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله» ، فكما رأينا كان يكفي المسلمين الأمران السابقان لإقامة العدل وتحري الحق في مجتمعاتهم، ولكن هذا التحذير يقف حائلاً أمام من قد يدفعه ظلم الأعداء وحقدهم إلى عدم إقامة العدل معهم «ولا يكسبنكم ويحملنكم بغض قوم وعداوتهم لكم أو بغضكم وعداوتكم لهم على عدم العدل في أمرهم ، بالشهادة لهم بحقهم إذا كانوا أصحاب الحق ، ومثلها هنا الحكم لهم به ، فلا عذر لمؤمن في ترك العدل وإيثاره على الجور والمحاباة ، وجعله فوق الأهواء وحظوظ الأنفس ، وفوق المحبة والعداوة مهما كان سبيلهما . فلا يتوهم من متوهم أنه يجوز ترك العدل في الشهادة للكافر ، أو الحكم له بحقه على المؤمن . ولم يكتف بالتحذير من عدم العدل مهما كانت أسبابه والنية فيه ، بل أكد أمره بقوله «اعدلوا هو أقرب للتقوى» أي قد فرضت عليكم العدل فرضاً لا هواده فيه ، اعدلوا»^(٢) .

(١) الشيخ محمد رشيد رضا ، «تفسير المنار» ، ج ٦ ، ص ٢٧٢ .

(٢) نفسه ، ص ٢٧٤ .

ولولا التسامح الإنساني الذي رسخت تعاليم الإسلام مبادئه في نفوس المسلمين ما استطاعوا الوفاء بمثل هذا العدل مع أعدائهم؛ لأن هذا أمر شاق يفوق قدرة الإنسان. ولما كان التسامح في إقامة العدل مع الأعداء بهذه المشقة فقد ربطه الله - سبحانه وتعالى - شأنه بتقواه ورضاه عنهم؛ ليستطيعوا الإتيان به: «اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله» .

* * *

العفو أساس أخلاقيات المجتمع الإسلامي:

يُعد العفو في العلاقات الاجتماعية إصلاحاً، وضرورة تتطلبها طبيعة الاجتماع الإنساني، فالإنسان غير معصوم من الخطأ؛ لعدم قدرته في كل حال على الاحتفاظ بالتوازن السليم، مما يحتم ظهور خلافات ومنازعات داخل البناء الاجتماعي في كل المجتمعات البشرية. فالعفو يدعم الروابط الإنسانية داخل المجتمعات البشرية؛ وذلك من خلال الجمع بين الذات الفردية والجماعية في قالب إنساني واحد تتحقق معه وحدة الإنسانية وجوهر وجودها، «فكما أن للعفو أثره في نفس من يعفو، حيث يعينه على التقوى، وعلى راحة الضمير وسكينة النفس فإن له كذلك أثراً بالغاً فيمن يعفو الإنسان عنه، إنه يستشعر خطئه وإساءته، ويرى كيف قوبل خطؤه بالعفو والإحسان، فيثوب إلى الرشد والصواب، وتتطفى من داخله الكراهية وتذوب النزعة العدوانية»^(١).

ولكن العفو ليس بالأمر الهين الذي يستطيعه الجميع؛ ذلك أن العفو عند البشر موقف يقدر عليه البعض ولا يقدر عليه الآخرون، والإنسان يأخذ هذا الموقف في الحالة التي يستطيع فيها أن يتحكم في ضبط نفسه، حيث يسمو بها إلى مرتبة أعلى من مرتبة كظم الغيظ؛ لأن كتم الغيظ قد يكون على حقد وضمينة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٣-١٢٤).

وقد وضع الدكتور عبد الحليم محمود في سياق هذه الآية الكريمة المراحل التي يتدرج فيها المسلم، والتي يستطيع من خلالها أن يسمو بنفسه ويصل إلى مرحلة العفو، فقال: «إن الأخلاق القرآنية تحدد الخلق الكريم في حده الأدنى، وترسم الفضيلة في درجاتها الأولى، ثم لا يقتصر القرآن على ذلك، وإنما يرسم القمم من مكارم الأخلاق، ويوجه إلى السنام منها، ويقود إلى المشارف العليا من درجات المقربين».

(١) د. أحمد عمر هاشم، «في ظلال الشريعة الإسلامية»، مطبعة الكليات الأزهرية، ص ١٧٥.

إن مقابلة السيئة بالسيئة عدل ، يقول الله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ ولكن القرآن - مع بيان عدالة هذا - يذكر درجة أعلى من الخلق الكريم ، تلك هي درجة «كظم الغيظ» . وهذا يأتي في وصف المسلم الذي مع مقدرته على مقابلة السيئة بالسيئة، يكظم الغيظ ، وهذا أسمى في ميزان الأخلاق الكريمة من الذي يقابل السيئة بالسيئة.

ولا يقف القرآن الكريم عند هذا الحد؛ ذلك : أنه يرسم درجة ثالثة من الخلق الكريم ، وذلك أنه يتجاوز «مقابلة السيئة بالسيئة»، و «كظم الغيظ» إلى «العفو» والعفو مع المقدرة أسمى من مقابلة السيئة بالسيئة ، وأسما من كظم الغيظ .

ثم يتجاوز القرآن ذلك كله ، إلى الدرجة العليا ، درجة المقربين، وهي «الإحسان». يقول الله تعالى « والله يحب المحسنين»، إنها درجات من الخلق الكريم كلها كريمة، بيد أنها تتفاوت ، فيما بينها ، من كريم إلى أكرم ، كتفاوت الناس في الشرف من شريف إلى أشرف»^(١) .

وهذه الصورة التي رسمها القرآن الكريم للعافين عن الناس فيها حث لهم عليه، وتأكيد على ضرورته في بناء المجتمعات الإنسانية ؛ لأنه من المحتم وقوع خلافات ومنازعات بين البشر ؛ نظرا لوجود أنماط مختلفة من السلوك داخل الجماعة الواحدة، ووسط هذه الاختلافات ، وما قد ينشأ عنها من المنازعات ، لو أراد كل طرف من الأطراف الأخذ بحقه كاملا من الطرف الآخر لتحولت الحياة إلى جمرة مشتعلة من النيران. ومن هنا فإنه لا يمكننا القول بوجود معايير أخلاقية ثابتة مثل الثواب - وهو من المعايير الإيجابية - ، والعقاب - وهو من المعايير السلبية - ، يجب أن تحكم سلوكيات الأفراد في المواقف المتنوعة داخل المجتمعات؛ لوجود صراعات مستديمة بين المثل الأعلى للإنسان والمثل الأعلى للمحيطين به ، والذين هم يقاسمونه الحياة .

فبالإضافة إلى هذه الأنماط الثابتة المبنية على الثواب والعقاب لابد من وجود أنماط أخرى تتمثل في العفو والتسامح ؛ تحقيقاً للثبات والتماسك، ونشراً للحب داخل البناء الاجتماعي، فالعفو حين يتأصل في النفوس يجعلها قادرة على التفاهم والتعايش مع الآخرين ، ويجعلها تعالج نقائصهم بدلا من التصادم بهم ومعاداتهم ، وحين يوجه الإنسان حركته تجاه الآخرين قاصداً العفو والتسامح معهم فإن الضغينة ستذهب من النفوس ؛ لتحل محلها المحبة ، فيكون الترابط ولا يكون للتفرقة مكان حينئذ .

(١) د. عبد الحليم محمود ، سلسلة إحياء المفاهيم الإسلامية ، الإسلام والإيمان ، العدد الثاني . دار النصر للطباعة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٩م .

ولما كان العفو يتطلب من الإنسان أن يتنازل عن بعض من حقوقه في مواقف معينة من الانفعال تحقيقاً لمصلحة البناء الاجتماعي أصبح أمراً محتملاً ألا يستطيعه الجميع؛ فالعفو «ليس أصلاً في المعاملة بين الناس لأنه قدر زائد على العدالة ، بل هو ظلم بالفعل : ظلم المرء لنفسه بالتجاوز عن حقه ؛ وإنما نسمي هذا الظلم «عفواً»؛ لأنه اسم جميل لهذا الظلم النبيل»^(١) . من أجل ذلك لم يفرضه الله تعالى ، بل رغب فيه أو ندب إليه بوسائل شتى حيث نجد أن آيات العفو قد جاءت في أروع ما تنطق به الأساليب المرغبة النادرة تحاشياً لإثارة روح العناد في نفوس البشر؛ لتقبل عليه النفس الإنسانية بذاتها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَأَعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة : ١٠٩) . فإله تعالى يعدهم بأنه سيخفف عنهم ما يتحملونه . وقوله تعالى : ﴿...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة : ٢١٩) . فإله تعالى يجعل العفو من وجوه الإنفاق في سبيله . وقوله تعالى : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (النور : ٢٢) . فإله تعالى يعدهم بأنه سيرحمهم ويغفر لهم ذنوبهم ، مقابل عفوهم عن الآخرين .

وإذا انتقلنا إلى السيرة النبوية نجد أن النبي - ﷺ - له مواقف في ذلك لا تحصى ، وكل منها يعطينا أعظم الأمثلة على حرصه . عليه الصلاة والسلام . على العفو والتسامح ، ومن هذه الأمثلة التي تؤكد اختيار النبي ﷺ للعفو ، وبعده حتى عن مجرد الرغبة في العقاب والانتقام ما فعله مع أهل مكة الذين آذوه وشردوه ليس إلا لعقيدة التوحيد التي دعا إليها . فعندما جاء الرسول . عليه الصلاة والسلام . لدخول مكة أعلن المسلمين وأمراء الجيوش بما يريد ، وألزمهم به . فكان . عليه الصلاة والسلام . لا يريد القتال ؛ لذلك «أمن رسول الله - ﷺ - الناس إلا أربعة نفر وأمرأتين»^(٢)؛ وهنا أصبح لزاماً على الأمراء والمسلمين أن ينفذوا وصية رسول الله ، ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم باستثناء هؤلاء الستة . فقد كان لكل واحد من هؤلاء الستة قصة معروفة في نقض العهد ، والسخرية من النبي والمسلمين . وحتى هؤلاء الستة نال بعضهم نصيب من عفو

(١) د . مهدي علام ، «العفو في الإسلام» ، صحيفة دار العلوم ، العدد الأول ، ١٩٢٨م ، ص ٧١ ، ٧٢ .

(٢) أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي ، «البداية والنهاية» ، تحقيق أحمد فؤاد فتوح ، دار الحديث ، القاهرة ١٩٩٤م ، ج ٤ ، ص ٢٩١ .

الرسول الكريم ؛ فقد عفا النبي - ﷺ - عن اثنين منهم ، وهما : عكرمة ، وعبد الله بن أبي سرح^(١) ، لقد كان من حق النبي - ﷺ - أن يأخذ بحقه من أهل مكة دون انتقام أو زيادة في ذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (النحل: ١٢٦) . ولكنه - ﷺ - أراد أن يعلم المسلمين أعظم درس في القيادة السمة الحكيمة التي لا تطبق حتى المثلية في أمر العقوبة .

إن هذا الموقف يكشف لنا عن شخصية القائد السمة التي لا يعرف الانتقام إليه طريقاً ، وكيف يكون ذلك ، ومن أين يأتي مع نبي كان خلقه القرآن الكريم ، ومع نبي أخذ يعلم المسلمين أن العفو قوة ومقدرة ترفع مكانة الإنسان ، وهو يقول : « ما نقصت صدقة من مال . وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً . وما تواضع أحد لأحد إلا رفعة الله »^(٢) ؛ ليفرس في نفوسهم مفهوم العفو الذي ينبع من سلوك الإنسان ، ويوجهه في التعامل مع الآخرين لما فيه صالح الإنسانية . إنه العفو الذي ينبع من الأحكام الاعتقادية ويدخل في الأحكام العملية ، وكما أن الله سبحانه وتعالى لم يفرض العقائد على الإنسان وإنما جعله يعمل عقله للوصول إليها واعتناقها ؛ لتكون قوية راسخة في قلبه ، كذلك كان الحال مع العفو فلم يفرضه على الإنسان .

* * *

العدل في معاملة الأعداء في الإسلام

على الرغم من أن الحرب التي شرعها الإسلام هي الحرب الدفاعية ، فإننا نجد آيات القتال في القرآن الكريم ترتبط كلها بالتقوى في معاملة الأعداء ، فهي تهدف إلى وقف العدوان فحسب ، وهي تبعد المسلمين تماماً عن كل معنى من معاني الانتقام ، وفي هذه المعاني الأخلاقية العظيمة نجد :

- قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٠) . وقد اقترن هذا الأمر الإلهي بمبدأين يحددان للمسلمين الأصول التي تحكم الحرب التي أذن الله بها ، الأول منهما : النهي عن الابتداء بالقتال دون مشروعية « فالاعتداء يكون بابتداء القتال ، أو بقتال من نهيتهم عن قتاله من النساء والشيوخ والصبيان والذين بينكم وبينهم عهد ، أو بالمشاجرة من غير دعوة »^(٣)

(١) راجع « البداية والنهاية » ، لابن كثير ، تحقيق أحمد فؤاد فتحي ، دار الحديث ، القاهرة ١٩٩٤م ، ص ٢٩١ .
(٢) الإمام مسلم ، « صحيح مسلم » ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ج ٤ ، كتاب البر والصلة ، باب استحباب العفو والتواضع ، ص ٢٠٠١ .

(٣) الزمخشري ، « الكشاف » ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

والثاني منهما: النهى عن الاعتداء على المنتهين ﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ (البقرة: ١٩٣) أى فلا تعتدوا على المنتهين لأن مقاتلة المنتهين عدوان وظلم^(١).

- وقوله تعالى : ﴿... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة: ٢). فهذه الآية الكريمة تحدد لنا مبدأ سامياً من مبادئ الدين الإسلامي الذي يعمل على خلاص المسلمين من آفة الحقد والكراهية حتى مع أعدائهم، فهي تنهى المسلمين «عن استئناف الاعتداء على سبيل الانتقام ، فإن من يحمله البغض والعداوة على الاعتداء على من يبغضه يكون منتصرا لنفسه لا للحق ، وحينئذ لا يراعي المماثلة، ولا يقف عند حدود العدل»^(٢).

- وقوله تعالى : ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشُّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنَ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٩٤). فالله سبحانه وتعالى يأمر المسلمين بالعدل مع هؤلاء الأعداء المشركين، لأن المثلية هنا تعنى المساواة وعدم الجور «والقصد أن يكون الجزاء على قدر الاعتداء بلا حيف ولا ظلم ٠٠٠ وإلا فانت الحكمة لشرعية القتال وهى منع الظلم والعدوان ، والفتنة والاضطهاد ، وتقرير الحرية والأمان ، والعدل والإحسان . وهذه الشروط والآداب لا توجد إلا فى الإسلام»^(٣).

- وقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٨)، فالله سبحانه وتعالى يخبر المسلمين فى هذه الآية «أنه لا ينهى عن البر والعدل وحسن المعاملة للمشركين الذين لم يشتركوا فى قتال المسلمين ولا اضطروهم إلى الخروج من مكة . وقد استحال هذا البر لغير المسلمين فى عصر الفتوح وبعده . على مر الزمن حتى اليوم . قانوناً عاماً للمسلمين فى تعاملهم مع أصحاب الملل الأخرى المسالمين لهم تعاملًا سميحاً كريماً، سواء أكانوا من أهل الكتاب أو وثنيين من الصابئة والمجوس وأمثالهم من الوثنيين فى آسيا وأفريقيا . والله . بذلك . وضع للمسلمين قواعد مثلى فى تسامحهم مع كل الديانات ومع كل الأقوام ومع كل الأجناس والأعراق والألوان»^(٤).

(١) الزمخشري ، «الكشاف» ، ص ٢٤٢ .

(٢) الشيخ محمد رشيد رضا ، «تفسير المنار» ، ج ٦ ، ص ١٢٩ .

(٣) «نفسه» ، ج ٢ ، ص ٢١٢ .

(٤) د . شوقي ضيف ، «عالمية الإسلام» ، مكتبة الأسرة ، دار المعارف المصرية ، ص ٩٥ .

وبهذه الفضائل العالية، وبذلك التقوى الإسلامية، وبهذا التسامح المتأصل في وجدان الرسول - ﷺ - كان يوم فتح مكة ؛ فعلى الرغم من الصورة التي خرج بها النبي والمسلمون من مكة : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ (النساء: ٧٥) ، مهاجرين عبر الصحراء والفيافي، تاركين أوطانهم لمجرد عقيدة اعتنقوها مخالفة لما كانوا عليه من الشرك، فقد دخلوا مكة بالمسامحة والمسالمة ، وقد تجلت مظاهر هذا التسامح أول ما تجلت في خطبة النبي - ﷺ - التي قالها في المسلمين عند باب الكعبة، والتي منها قوله: «يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم خلق من تراب . ثم تلا رسول الله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾^(١). فنبى الإنسانية - ﷺ - بخطبته هذه يعرف المسلمين أنه لا تآر ولا انتقام في الإسلام ؛ لأن الناس كلهم أخوة ، وأن الإسلام دين السلام .

وعندما دخل النبي - ﷺ - مكة جاءه أبو سفيان فقال : «يا رسول الله أبيدت خضراء قريش . لا قريش بعد اليوم . قال أبو سفيان : قال رسول الله - ﷺ - : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن . ومن ألقى السلاح فهو آمن . ومن أغلق بابه فهو آمن»^(٢). وهذا التسامح من النبي عليه الصلاة والسلام لأهل قريش دفع أقرب الأقربين منه ، وهم الأنصار الذين آووا النبي والمسلمين ونصروهم، إلى الاعتقاد بأن النبي حن إلى عشيرته التي طردته ؛ حيث قال بعض من الأنصار لبعض: «أما الرجل فأدركته رغبة في قرابته ورأفة بعشيرته»، وجاء رسول الله - ﷺ - الوحي ، وكان إذا جاءه لم يخف علينا ، فقال . يا معشر الأنصار قلتم كذا وكذا قالوا قد كان ذلك يا رسول الله ، قال : كلا إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم فالمحيا محياكم والممات مماتكم ، فجعلوا ييكون»^(٣) ، وهذا البكاء إنما هو في حقيقته ندم لعدم إدراكهم حقيقة هذا التسامح النبوي، وإقرار منهم في نفس الوقت بهذا الموقف الإنساني العظيم الذي تعلموه من نبي الرحمة .

إن هذا العفو من النبي - ﷺ - عن الذين عذبوا المسلمين ، وقتلوههم وأخرجوهم من ديارهم ، يحدد لنا معالم الدين السمح الذي جاء به النبي - ﷺ - ، والذي جعله يصفح

(١) أبو جعفر بن جرير الطبري ، «السيرة النبوية»، تحقيق جمال بدران ، الدر المصرية ١٩٩٤م ، ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٢) الإمام مسلم ، «صحيح مسلم» تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، كتاب الجهاد والسير ، باب فتح مكة ، ص ١٤٠٨ .

(٣) أبو الحسن البلاذري ، «فتوح البلدان» ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ١٩٨٨م ، مراجعة رضوان محمد رضوان ،

إشراف لجنة تحقيق التراث ، ص ٥٢ ، ٥٣ .

هذا الصنف الكريم ، فإذا استعرضنا أبطال التاريخ من أوله إلى آخره لم نجد رجالاً واحداً وقف من أعدائه هذا الموقف الكريم ، فقابل الإساءة العاتية بالمغو العظيم والتسامح الكريم «نعم ، ليس في التاريخ كله موقف بلغ من السماحة ما بلغه هذا الموقف ، ولا صورة بلغت من السمو ما بلغت هذه الصورة؛ لأنه ليس في الناس كلهم بشر بلغ من الكمال الإنساني ما بلغه محمد رسول الله . ليس عجباً إذاً أن يقف رسول الله من أعدائه هذا الموقف الفريد في التاريخ ، فلم يكن - ﷺ - ملكاً ولا قائداً، ولم يكن يرمى إلى ما يرمى إليه الملوك والقواد من إرضاء شهوات النفوس ونزعات الهوى ، إنما كان رحمة من الله أرسلها إلى عباده»^(١) .

وقد فتح هذا التسامح قلوب العرب الجامدة الجاحدة ، على الخير الشامل ، والنور الأعظم ؛ فدخلوا في دين الله أفواجاً ، فقال الله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (سورة النصر) . فكان في تسامح النبي - عليه الصلاة والسلام - مع أهل مكة ما يغني عن القتال واستمرار العداوة بينهما ، وما يطفئ نار الكراهية ، وما يحقق الأمن والاستقرار لمجموع أهل مكة من المسلمين والقرشيين؛ ليمارسوا وظيفتهم في الدعوة إلى السلام ونشر نور الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، وعمران الحياة على وجه جديد لم تعرفه البشرية من قبل .

* * *

عهد المودعة ومفهوم السلم الاجتماعي:

وضع النبي - ﷺ - الأسس العريضة التي يجب أن تقوم عليها المجتمعات الإنسانية بعد قدومه إلى المدينة واستقراره بها بفترة قصيرة، فقد كانت المدينة عند مقدم الرسول - ﷺ - تضم عناصر لا يربطها نظام ولا وحدة ولا وفاق ، فكتب - ﷺ - كتاباً . أو دستوراً . لتنظيم العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع السياسي الجديد . وبالإضافة إلى التنظيمات التي تضمنها هذا الدستور، فإنه يتضمن «الالتزامات المعنوية والمادية التي يتطلبها الدخول في الأمة حتى يدخل فيها من يريد الدخول على بينه . وحتى يعلم أنه بدخوله هذا يدخل في أمة وعهد وعقد، بل يدخل في عصر جديد من حياته لا علاقة له بما مضى من عمره»^(٢) . وباستقراء نصوص هذه الوثيقة^(٣) التي سنّها الرسول - ﷺ - لأمته نجد أنها اشتملت على أهم القواعد التنظيمية الكافية لتوفير وحفظ السلم الاجتماعي، فهي تتضمن:

(١) أمين دويدار، «صور من حياة الرسول»، دار المعارف المصرية، ١٩٥٢م، ص ٥٤٠ .

(٢) د . حسين مؤنس، «دستور أمة الإسلام»، الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ١٠١ .

(٣) انظر موسوعة العلوم السياسية، تصدير شعيب عبد الله شعيب، الكويت ١٩٩٤م، ص ٢٤٠-٢٤١ .

- تقرير وحدة الأمة: فالمؤمنون والمسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم «أمة واحدة من دون الناس ... وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين» ولعل هذه هي المرة الأولى التي تظهر فيها لفظة «أمة» في تاريخ السيرة النبوية. وقد ارتبط مفهوم «الأمة» في هذه الوثيقة ارتباطاً وثيقاً بالإطار الجغرافي لدولة المدينة بحيث تضم العناصر التي كانت تعيش آنذاك فوق هذه الدولة الجديدة .

- تقرير حرية الدين: فقد أقر عهد المودعة مبدأ حرية العبادة ، حيث نص على أن «لليهود دينهم وللمسلمين مواليتهم وأنفسهم» وقد ارتبط بهذا المبدأ مبدأ آخر وهو اعتبار يثرب حرماً آمناً لأهلها «يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة». كما أقر العهد أيضاً مبدأ حرية الانتقال» من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم».

- تأكيد معاني وحدة السلم والفضاء : فقد ورد في دستور المدينة «أن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم»، وأن اليهود «إذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه ، فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين» .

-الأسوة أو العدالة : ويعتبر مبدأ الأسوة داخل المدينة من المبادئ المهمة التي سجلتها الوثيقة . فإن من تبع المسلمين من اليهود «فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ...والمؤمنون يبيء . من البوأة أي المساواة . بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله» . ولما كانت العدالة من الأمور المهمة للأمن والاستقرار فقد أشارت الوثيقة إلى ضرورة التصدي الجماعي للبغي والظلم «المؤمنون المتقون أيديهم على من بغى منهم أو ابتغى دسيغة ظلم . أي عزيمة ظلم . أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم» .

وكما هو ملاحظ فإن أساس المبادئ الواردة بالصحيفة أساس أخلاقي جماعي؛ لأن أخلاقيات أمة الإسلام كلها جماعية، أي أنها روابط أخلاقية كريمة بين أعضاء الأمة، وهذه الأخلاقيات الجماعية تكشف لنا عن جانب كبير من التسامح الذي تضمنه هذا الدستور، والذي ألزم رسول الإنسانية نفسه به وأوجبه كذلك على المسلمين. فكان ينطوي على تسامح عظيم يتفق و فطرة الإنسان واستعداداته، وكان هذا هو الضمان لقبول أهل المدينة لهذا الدستور وتوقيعه، ومن ثم العمل بما جاء فيه؛ ومرجع ذلك لسببين بارزين :

الأول منهما : أنه لم يكن يخاطب المسلمين وحدهم ، على الرغم من أنهم يمثلون

الأغلبية في مجتمع المدينة ، إنما جاء مخاطبا كل أهل المدينة من مسلمين ومشركون ويهود ، وهذا إشعار لهم ، بل وتأكيد في نفس الوقت بأن الدولة الجديدة تضعهم في الحسبان وتسوي بينهم وبين المسلمين ، فقوام العلاقة في الدولة الإسلامية العدل والمساواة وحفظ الحقوق لكل أبنائها الذين تضمهم؛ والإسلام بذلك وضع قاعدة خلقية قوية لحفظ الأمن الداخلي والسلم الاجتماعي لكل من يعيشون في الدولة الإسلامية ؛ فكل من يعيش في الدولة الإسلامية يصبح عضواً فعالاً فيها تمنحه حقوقه كاملة ؛ ليؤدي بالتالي دوره العمراني. فدولة الإسلام لا تميز فيها، ولا أفضلية لأكثرية على أقلية ، وإنما التفاضل بالعمل والمشاركة .

والثاني منهما : أن هذا الدستور ألزم كل طائفة في المدينة ، من الأطراف الموقعة على الوثيقة ، أي «المسلمين و اليهود» بأعباء والتزامات خاصة ضماناً لتحقيق التكافل بينهم ، وفي نفس الوقت جعل على الأمة تحقيق التضامن الاجتماعي لكل من يحتاجونه ، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، وفي ذلك تأكيد لغير المسلمين بأن حياتهم آمنة في الدولة الإسلامية الناشئة .

* * *

توازنات التسامح في الجانبين المادي والروحي في تاريخ الحضارة الإسلامية ازدهرت في العصر العباسي أعظم حضارة إنسانية في ظل مبادئ التسامح والتواصل الثقافي التي جاء بها الوعي الجديد ، وقد سجلت هذه الحضارة العظيمة نجاحاً عمرانياً هائلاً، يتأكد لنا من خلاله ضرورة التوافق والتلازم بين الجانبين المادي والروحي؛ ذلك أن «النشاط البشري وحدة متكاملة ذات جانبين، أحدهما روحي، والآخر مادي ، فالروحي يمد المجتمع بأسباب اليقين النفسي ودواعي الاطمئنان الروحي ، والمادي يمد المجتمع بوسائل الاستعلاء على الطبيعة وتذليلها لإرادته ومشيتته»^(١) ، وتتجلى مظاهر هذا التلازم في اهتمام الأمة الإسلامية بالمعرفة وما تقدمه شعوب العالم من ألوان العلوم والفنون في آفاقها النظرية والعملية .

وقد ترتب على هذا الاهتمام ظهور حركة الترجمة مبكراً ؛ وذلك لأن «حركة النقل والترجمة قد بدأت بدايتها الشكلية أيام بني أمية ، وتواصل اهتمام الخلفاء بحركة الترجمة هذه إلى درجة أنهم كانوا ينفقون عليها بسخاء، ومن ذلك على سبيل المثال أننا نجد أن الخليفة المأمون «كان يعطي وزن ما يترجم ذهباً ، فانهال عليه المترجمون من كل حذب وصوب : من الشام وفارس ، منهم : النساطرة واليعاقبة، والصابئة والمجوس ، والروم والبراهمة ، يساهمون جميعاً في حركة الترجمة من اليونانية والفارسية والسريانية والنبطية واللاتينية، وغيرها»^(١) .

(١) د. عصام الدين محمد علي، «بواكير الثقافة الإسلامية وحركة النقل والترجمة»، منشأة المعارف ، الإسكندرية

وهؤلاء المترجمون على اختلاف أصولهم ومذاهبهم إنما تم إسهامهم الجليل في حركة الترجمة بفضل سماحة ثقافية شجعت علماء الأمة على استقبال كل جديد مهما كان مصدره ما دام نافعا لحياة الأمة الإسلامية ، وكان العرب يقومون بعملية دراسة واسعة للعلوم والمعارف التي تمت ترجمتها، وهذا يدلنا على مدى وعيهم بذاتهم الحضارية وتراثهم الديني الخاص؛ وذلك لأنهم «قد درسوا هذا التراث اليوناني ، وعلقوا عليه ، وشرحوه ، وأضافوا إليه ملاحظاتهم ، وانتقدوه في مواضع كثيرة ، وأضافوا عليه في كثير من الأحيان مسحة إسلامية إشراقية خاصة بقدر ما مكنتهم ظروف العصر ، وأمانة النقلة السريان ، وضبطهم . وهكذا حمل العرب الفلسفة القديمة إلى العالم الحديث، فأعطوه المفاتيح الفكرية لعصر النهضة، وأصبحوا الأساتذة الذين ثقفوا العالم الحديث بنتاج العالم القديم» (١) .

وبذلك أصبحت هذه الحضارة الإنسانية شاهداً ودليلاً على أهمية التسامح في بناء الحضارات ؛ فالحضارات لا تقوم إلا حين تتآلف وتتداخل وتندمج الجنسيات المكونة للبناء الهيكلي للأمة التي تضمهم ؛ وهذا يتطلب أن ينظر الإنسان إلى الآخرين نظرة احترام وتقدير ، قوامها التسامح الديني والفكري. كذلك فقد تأكد من خلال المآثر العظيمة التي تركتها هذه الحضارة حتمية الأخذ والعطاء؛ فأى حضارة لا يمكن أن تقوم منفصلة عن غيرها من الحضارات؛ لأن هذا معناه أنها ستبدأ من نقطة الصفر، وبالتالي لن تتحقق النهضة المطلوبة ، فالنهضة الحقيقية تتحقق بالبدء من المرحلة التي وصلتها الحضارات المعاصرة لها والسابقة عليها ، وقبول ما تم إنجازه من نجاح عن طريقها ؛ وبذلك تتواصل رحلة النجاح الحضاري للإنسانية عبر التاريخ .

وهذا بطبيعته يتطلب عقولاً متسامحة مدركة تماماً لما تريد، فاحصة لما تتقبل من المفيد من ثمار العقل البشري وإلا كان التكبر والعلو الذي يدفع بدوره إلى النفور ثم الإعراض والغرور الذاتي والظن بأن لدى كل حضارة ما يكفيها لإحراز التقدم، وهذا العكوف على الذات والنكوص عن قبول ما ينفع مما أنجزته البشرية يؤدي في النهاية إلى مرحلة أكثر تخلفاً وأكثر انغلاقاً ، ثم يكون السقوط التاريخي الذي لا نهضة بعده . ويمكننا من هذا القليل الذي عرضناه من صفحات تراثنا الإسلامي تأكيد حقيقة التسامح في الإسلام باعتبارها قوة لا يمتلكها إلا أصحاب الهمم العالية والنفوس القويمة التي تستقي منهجها في الحياة من تعاليم الحنيفية السمحة، وتعرف أن التسامح في الإسلام يهدف إلى تحقيق الخير للفرد والجماعة والجنس البشري كله .

(١) د. عفت الشرقاوي ، في فلسفة الحضارة الإسلامية ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

قديمًا وحديثًا

فج سرقة وتفريب المخطوطات فج العراق

ط. أسامة النقشبندي

للمخطوطات العربية أهمية كبيرة في التاريخ الإسلامي، فهي الوعاء الذي حفظ لنا العلوم والمعارف والفنون، والآداب، وأخبار التاريخ وأحداثه، وكل نتاجات العقل العربي، وكان لها دور فاعل في التواصل الحضاري للأمة، ورفدها بأسباب النهوض في كل العصور، كما كان لها تأثير مهم في تقديم الحضارة الإنسانية، إضافة إلى قوامها المادي المتمثل بصناعاتها، من الورق والكتابة والتجليد والزخرفة والتزويق، فهي من الآثار المنقولة التي تفردت بها الحضارة العربية الإسلامية.

وقد عرف الغزاة الأجانب أهمية المخطوطات في حياة الأمة في كل المجالات؛ لذلك استهدفت المخطوطات وتعرضت خزائنها إلى الدمار والسرقه خلال الغزو الأجنبي؛ فقد دمر طغرل بيك السلجوقي العديد من خزائن المخطوطات وأحرق دار العلم في بغداد التي كانت تضم مئات الآلاف من المخطوطات، كما قام المغول عند احتلالهم بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م بتدمير وحرق خزائن المخطوطات، وسرقه أكثر من (٤٠٠) ألف مخطوط وتهريبها إلى مراغة بواسطة عمليهم الخواجه نصير الدين الطوسي المتوفى سنة ٦٧٢هـ / ١٢٧٤م؛ مما أدى إلى ضياع الكثير من الأصول والتأليف التي لم تصلنا إلا عناوينها.

ومع ذلك ظل اهتمام الأمة بتراثها قائماً ولم تكسل صناعة المخطوطات، وكانت خزائن الكتب تعمر بعد كل غزو وكارثة، ويتسابق الفيارى من أبناء الأمة على ردها بالمخطوطات من جديد لتستأنف دورها في سند الحركة الفكرية والثقافية.

ومثلما تعرضت المخطوطات سابقاً تعرضت مرة أخرى إلى الاستلاب والتهريب في مطلع القرن السابع عشر الميلادي عند مجيء طلائع الاستعمار المتمثلة في الشركات الأجنبية، والدبلوماسيين، والرحالة والمنقبين عن الآثار، فاستلبت المخطوطات من خزائنها ونقلت مئات الآلاف إلى خزائن أوروبا وأمريكا، وتشير معظم الفهارس التي صدرت عن تلك الخزائن إلى أسماء الأشخاص الذين هربوا المخطوطات إليها، وتضع رموزاً لأسمائهم ومجموعاتهم الخطية تخليداً لما قاموا به من انتزاع التراث العربي المخطوط وإبعاده عن موطنه الأصلي؛ لكي لا تعود الأمة ثانية إلى جذورها التي كانت سبب نهوضها بعد كل هجمة أجنبية تتعرض لها.

وكان من أشهر السراق الذي تفاخر بنقله أكثر من (١٢٠٠) مخطوطاً من العراق

ونقلها إلى مكتبة المتحف البريطاني هو الرحالة البريطاني «ولسن بتج» الذي طبع رحلته وختمها بقائمة تضمنت عناوين المخطوطات التي هربها إلى بريطانيا وأودعها المتحف البريطاني، وذكر أرقامها في ذلك المتحف، وقد رفعت تقريراً بذلك في الثمانينيات، معززاً بالقوائم التي صورتها من الرحلة المطبوعة والموجودة نسخة منها في مكتبة المتحف العراقي، وعلمت أن الهيئة العامة للآثار والتراث طالبت باسترجاعها استناداً إلى هذه الوثيقة دون فائدة. كما أن شركة الهند الشرقية قد اشترت المخطوطات التي جمعها المستشرق «ريتشارد جونسون»، ونقلت إلى مكتبة المتحف البريطاني، وتحتل مجموعته مكانة في تلك المكتبة، كما قام السويدي «ف. ر. مارتن» في أواخر القرن التاسع عشر بنقل مجموعة من المخطوطات والمنمنمات، ووصلت بعض المخطوطات التي جمعها إلى بوسطن في الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق «جاردنر».

ونشطت أسواق بيع المخطوطات والمنمنمات والآثار والتحف في أوروبا في مطلع القرن العشرين، وأقيمت لها معارض في باريس سنة ١٩٠٢، وميونخ ١٩١٠، وباريس ١٩١٢ وغيرها، وفي منتصف القرن العشرين صدرت بها كتالوجات وكتب ضخمة، واستمرت عملية المتاجرة والتهريب تجري في أسواق بغداد والموصل والبصرة والنجف وكربلاء وكركوك، حيث كانت تنقل آلاف المخطوطات إلى خارج العراق بمختلف الأساليب، من ذلك عملية الاحتيال التي قام بها أحد الدبلوماسيين الأجانب للاستحواذ على نسخة قيمة من مخطوطة «الحشائش» لديسقوريدس التي كانت محفوظة لدى إحدى البيوتات الموصلية، وذلك باستساح نسخة مشابهة لها بعد أن جلب الورق الجيد والألوان من باريس إلى الخطاط والمزخرف، وإعطاء المخطوطة المستنسخة الجديدة البراقة إلى حائزها وأخذ النسخة الأثرية النفيسة ونقلها إلى المكتبة الوطنية في باريس، وقد نشر المرحوم صلاح الدين ساقى في جريدة كركوك سنة ١٩٧٣ مقالة عن عمليات استلاب وتهريب المخطوطات، ومنها قيام مغترب لبناني من جامعة «برنستن» يصحبه بعض العارفين بالمخطوطات في العراق، وجمع كمية كبيرة من المخطوطات نقلت إلى جامعة «برنستن»، وقيام المهرب يهودا (د. س.) ببيع كمية كبيرة من المخطوطات؛ حتى وصل عدد المخطوطات في تلك الجامعة إلى أكثر من عشرة آلاف مخطوط وقد عمل لها يهودا فهرساً بطاقياً، اطلع المرحوم كوكيس عواد على جانب منه خلال زيارته للمكتبة المذكورة سنة ١٩٥٠، وأشار إليها بكتابه «فهارس المخطوطات العربية» في العالم ص ٢٤٢، وفي مطلع الخمسينيات من القرن الماضي قام يهودا المذكور بتهريب ستة آلاف مخطوط إلى أمريكا لقاء مبلغ (٧٢) ألف دولار، وقد نقل لى المرحوم الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني في منتصف الستينيات أنه اطلع خلال حضوره

مؤتمر الأدباء العرب الذي عقد في بغداد في منتصف الستينيات أنه اطلع خلال وجوده في نيويورك قبل حضوره للعراق على مجموعة من المخطوطات تقدر بعشرة آلاف مخطوط هربت من العراق عن طريق إيران إلى أمريكا، ولعل بعضها المتعلق بالتراث العلمي موجود الآن في مكتبة الجيش الأمريكية.

وقام شخص يدعى «مكنّا»، وهو عراقي من مدينة زاخو بنقل نحو ثلاثة آلاف مخطوط إلى مكتبة «سيلي أوك» في برمنكهام في بريطانيا، من بينها (٢٣١٧) مخطوطاً عربياً و(٦٠٦) مخطوطات سريانية وكرشونية مع مجاميع أخرى، ونقل (أغناطيوس الموصلي) مجموعة من المخطوطات العربية وأهداها إلى مكتبة الفاتيكان، وقائمة المخطوطات التي استلبت من العراق، والتي أشرنا إلى بعضها طويلة، والمخطوطات التي استلبت من الوطن العربي وبعض البلدان الإسلامية أطول، ويكفي أن أشير إلى بعض النوادر من المخطوطات التي كتبت في بغداد، ونقلت إلى مكتبات أوروبا وأمريكا في غفلة من الزمن، منها: المخطوطة النفيسة التي كتبها وزوقها الفنان العراقي في بغداد يحيى الواسطي والتي تفتخر بها المكتبة الوطنية في باريس، والتي نقلها إلى هناك شيفر الحريري، وكثيراً ما يشار إليها في المراجع باسمه، وهي المخطوطة الوحيدة لهذا الفنان العراقي وتمثل وخصائص فن التصوير في المدرسة البغدادية، والمصحف الكريم الذي كتبه وزخرفه أشهر خطاط في التاريخ، علي بن هلال ابن البواب المتوفى سنة ٤١٣ هـ والموجود في مكتبة المتحف البريطاني، وآلاف المخطوطات التي كتبها وزخرفها أعلام الخط والزخرفة في العراق، والمخطوطات الفريدة والنادرة في مختلف العلوم والمعارف حبيسة خزائن المتاحف والمكتبات في دول أوروبا وأمريكا، كما استحوذت تركيا على كمية كبيرة من نفائس المخطوطات في أواخر الحكم العثماني ونقلت إلى خزائنها ويفتقر إليها الباحث والمحقق العربي اليوم بعد أن سلخت من موطنها الأصلي.

وفي منتصف الثمانينيات عرض أحد تجار الآثار والتحفيات في لندن، وهو «أوليفر هور» بيع مصحف شريف وصل إلى حوزته، كتبه وزوقه الخطاط البغدادي الشهير بياقوت المستعصمي سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م وقد حاولت هيئة الآثار اقتناؤه واستعدادها لدفع مبلغ مقداره (١٠٠) ألف دولار بعد أن صدر قرار من اللجنة الفنية بذلك، فلم يردنا أي جواب، وبما أن هذه النسخة النفيسة من القرآن الكريم واحدة من الآثار المنقولة المهرية، وأنه من ممتلكات العراق ومشمول بقانون الآثار النافذ فقد فاتحت هيئة الآثار الانتربول في وزارة الداخلية بكتابها المرقم ٢٦٤ والمؤرخ في ١٨/٥/١٩٨٥ لمفاتحة السكرتارية العامة للشرطة الدولية في باريس لاتخاذ الإجراءات الأصولية

لإعادة هذا المخطوط الأثري النادر إلى موطنه الأصلي (العراق) من الشخص المذكور أعلاه دون أن نتلقى أى رد، وعلمنا أنه نقل إلى أمريكا لقاء مبلغ (٥٠٠) ألف دولار.

وفي شهر آذار من عام ١٩٨٢ ورد كتاب من الدائرة الصحفية في لندن رقم ٤٧ يعلم وزارة الثقافة والأعلام عن قيام مزاد علني للفترة من ٢٦ - ٢٩ من شهر نيسان في معارض سوثيربي بلندن، ستباع فيه مخطوطات ومنمنمات وعملات عربية وإسلامية قديمة، من بينها نسخة نفيسة من القرآن الكريم، ومخطوطة منطق الطير مؤرخة سنة ٩٧٧هـ، ومخطوطة نادرة أخرى في الاسطرلاب مؤرخة سنة ٦٢٨هـ لم تتم متابعتها مع الأسف.

وفي الستينيات زار العراق الكتبي المصري المشهور «عبد الرحمن الخانجي»، وجمع عددًا كبيرًا من المخطوطات المهمة بعضها عن طريق الشراء، وتمكن من الاستحواذ على مجموعة مهمة من المخطوطات بمساعدة بعض العارفين بالمخطوطات في العراق، ومن بينها مخطوطات من مكتبة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء في النجف الكبير تتعلق بعلوم مختلفة منها مخطوطة نادرة ترقى إلى القرن السابع الهجري تقع في ٦٠٠ ورقة تحتوي رسائل لأساطين الحكماء العرب كالفارابي وابن سينا وغيرهم، وقد باعها الخانجي إلى بعض المستشرقين، كما ذكر ذلك الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء بوثيقة بخطه وتوقيعه والتي يذكر فيها أنه قاضاه لدى المحاكم في مصر (أحتفظ بنسخة مصورة عنها).

وبعد العدوان الثلاثيني على العراق وخلال صفحة الغدر والخيانة تعرضت الكثير من المخطوطات إلى الدمار والسرقة كما فعل المفلول عند احتلالهم بغداد، فأحرقت خزانة دار مخطوطات كربلاء في الروضة الحسينية، وسرقت بعض مخطوطاتها، كما تعرضت مخطوطات دار صدام للمخطوطات التي نقلت إلى متحف كركوك البالغة نحو ٢٠ ألف مخطوط استطعنا من إنقاذ معظمها واستطاعت الجهات الأمنية وضع اليد على مجموعة بحوزة عصابة من الخونة وفقدت الدار (٣٦٤) مخطوطًا من بينها عدد من النوادر والأعلاق النفيسة تمت مطالبة الجهات الدولية لمتابعتها وإعادتها إلى العراق، وقدمنا قوائم بأرقامها وعناوينها وأوصافها بالعربية والإنكليزية.

وتعرضت مجاميع من مخطوطات مكتبات أخرى في العراق لم يعلم عن مصيرها حتى الآن، من بينها سرقة مخطوطات نفيسة ونادرة من مكتبة الأوقاف في الموصل وآثار مهمة كانت تحتفظ بها تلك المكتبة من بينها ثلاثة اسطرلابات كاملة مع صفائحها إحداها مؤرخة سنة ٦٠٤ هـ، وشمعدانات نحاسية مملوكية كبيرة، استطاعت الجهات

المختصة من استرجاع (٤١٦) مخطوطاً فقط، ويظهر أن البقية تسربت إلى خارج الحدود.

ثم بدأ نشاط بعض المهريين للاستحواذ على نوادر المخطوطات في العراق، ومنهم عصابة كان يديرها جاسوس يحمل جواز سفر لبناني لسرقة نسخة من القرآن الكريم بخط الإمام علي (عليه السلام) محفوظة في الروضة الحيدرية لتهربها إلى خارج العراق لقاء مبلغ خمسة ملايين دولار، استطاعت الجهات المختصة من القبض على هذه العصابة والحفاظ على هذا الأثر العظيم، كما قبضت الجهات المختصة الحدودية على شخص برازيلي كان يحوزته مصحف نفيس سرق من مجموعة لروضة الحيدرية في النجف بغرض تهريبه، وقد سلم إلى هيئة الآثار والتراث، وقدر ثمنه من قبل اللجنة الفنية بمبلغ (٢٥٠) مليون دينار، كما أجهضت هذه الجهات محاولات تهريب مجاميع عديدة في المراكز الحدودية وغيرها سلمت إلى هيئة الآثار.

ولا يفوتني أن أذكر المجاميع التي هربت إلى إيران منذ منتصف السبعينيات والثمانينيات، والتي تم وضع اليد على بعضها، وكان على رأس المهريين الإيراني «المرعشي» الذي كان مشرفاً على مخطوطات الروضة العباسية في كربلاء، ونقل هذه المجموعة إلى جهة مجهولة، فتمت متابعته، وأعيدت المخطوطات إلى مكانها، وأحيل إلى المحاكم على مخطوطات أخرى من قبل هيئة الآثار والجهات الأمنية سنة ١٩٧٦، إلا أنه لم يتوقف عند ذلك وحاول سرقة وتهريب مخطوطات المكتبة الهندية في كربلاء البالغة (٨٨٩) مخطوطاً فتم إنقاذها ونقلها إلى دار مخطوطات كربلاء في الروضة الحسينية، ثم قام الإيراني «الكاشاني» بتهريب (١٦٥) مخطوطاً إلى مدينة قم ولدينا قوائم بعناوينها، وقيام الإيراني «الهمداني» بتهريب (٢٩٦) مخطوطاً إلى إيران، من بينها مخطوطات نفيسة تعود إلى القرن السابع الهجري، وفي عام ١٩٧٨ وصل إلى النجف عدد من الإيرانيين كان على رأسهم «الشيخ البرقي» لتهريب مخطوطات مكتبة أمير المؤمنين العامة البالغة (٢٨٧٤) مخطوطاً، من بينها مخطوط نسبت كتابته إلى الإمام علي بن أبي طالب، وقد قام البرقي بوضع مجموعة من المخطوطات في صندوق خشبي ووضع فوقها عدداً من المصاحف الكريمة المطبوعة، وكتب فوق الصندوق «لايمسه إلا المطهرون»، وغادر النجف في ١٥/٢/١٩٧٨، وقد تم القبض على المخطوطات وأعادتها إلى مكانها، وقيام الإيراني الملقب بـ«البرغاني» بتهريب (٢٥٢) مخطوطاً إلى مدينة قزوین، وقيام الإيراني «القمني» بتهريب مخطوطات مكتبة القوام في النجف إلى إيران، ومحاولة بعض الأشخاص تهريب مخطوطات المكتبة العسكرية في سامراء التي تم نقلها إلى أحد البيوتات في مدينة الحيرة ببغداد تمهيداً لتهريبها

إلى مدينة مشهد في إيران بعد رزمها بصناديق من الكارتون كتب عليها العنوان الذي سترسل إليه في البحرين ومن هنالك إلى إيران، تمت متابعتها بالتعاون مع الجهات الأمنية ووضعت اليد عليها، ونقلها إلى دار صدام للمخطوطات أمانته، ثم صدر قرار بمصادرتها من قبل المحاكم المختصة بتاريخ ١٩٨٠/٧/٣٠، والقائمة تطول حول تهريب المخطوطات إلى إيران.

إن المعلومات التي استعرضتها أعلاه هي جزء يسير مما تعرضت له المخطوطات من الاستلاب والسرقه والتهريب مما يدمي القلب ويثير الآلام عند الغياري من أبناء الأمة. وقد أشرت إلى بعض الأسماء بألقابهم وذكرت بعض المعلومات دون تفصيل لضرورات أمنية واجتماعية، آملا في التعاون ومضاعفة الجهود من قبل كل الجهات المعنية لاسترجاع ما استلب وهرب، وإن القيادة الحكيمة قد وضعت كل الإمكانيات المادية وبكل سخاء، وأصدرت القرارات التاريخية المناسبة للحفاظ على هذا التراث الجليل.

الإمام الزركشى

ومكتابه

[الآلح المنثورة فح الأاحاءفث المشهورة]

ط. عبء الأمفر الأنس(*)

الحمد لله، والصلاة والسلام على سفءنا رسول الله ، وعلى آله وصعبه.

وبعد: فهذه سفاحة علمفة لفسء بالطوفلة مع أءء الأئمة الأءراك البارعفن . وكم لهم من أفاء على العلم . : العلامة بءر الءفن الزركشى، الذى ءوفى ولم ففلف الخمسفن، وءرك بعءه ءروة علمفة رائعة كانت محل اعءفاء العلماء وءقءفرهم، ومنها كءابه «الآلى المنثورة فى الأحاءفث المشهورة» . موضوع الءراسة . وهو من الكتب الرائءة فى بابه.

وقء جاءء هذه الءراسة فى ءلاثة مطالب:

المطلب الأول: الءرفف بالإمام الزركشى وبالأءفث المشهور، وففه:

أولا . نبءة عن الإمام الزركشى ومصنفاءه الءفءفة.

ءانفا . ءرفف الءفث المشهور.

ءالءا . أول من ألّف فى الأحاءفث المشهورة.

المطلب الءانى: الءرفف بكءابه «الآلى المنثورة» ، وففه:

أولا . اسمه.

ءانفا . مخطوطاءه.

ءالءا . خطفه ومصادره.

رابعا . أءره ففمن جاء بعءه.

خامسا . طبعفه ونقءها.

المطلب الءالء: مشكلة نسبة الكتاب إلى ابن حجر، وففه:

أولا . أول منّ وهم فى ذلك ومنّ ءبعه.

ءانفا . الأدلة على خطأ هذه النسبة، وإءباء أن الكتاب للزركشى.

ءالءا . نظراء فى منشأ الوهم.

وأرجو الله أن فكون الءوففق والصواب قء ءالفنى فى ذلك ، والحمد لله أولا وآءرا

(*) كبفر باءففن فى ءارالبءوآ للءراسات الإسلامفة وإءفاء الءراء بءبى، ومءفر ءءرفر مجلة «الأءمفة».

المطلب الأول

التعريف بالإمام الزركشي والحديث المشهور

المفتي الشيخ محمد بن بهادر الزركشي، ويقال : ابن الزركشي - بوزن الجعفري - ويلقب: بدر الدين.

- تركي الأصل، مصري المولد والوفاة.

- ولد بالقاهرة سنة (٧٤٥هـ)، وطلب العلم من صغره، وعكف عليه إلى أن توفاه الله سنة (٧٩٤هـ) عن عمر بلغ (٤٩) سنة، ودفن بالقرافة الصغرى.

- أخذ في القاهرة عن الشيخين جمال الدين الإسنى، وسراج الدين البلقيني، وسمع من الحافظ مغلطاي وتخرج به في الحديث، ورحل إلى دمشق فتفقه بها، وأخذ عن الحافظ ابن كثير الحديث، وإلى حلب وأخذ عن الشيخ شهاب الدين الأذري وغيره.

- أقبل علي التصنيف فكتب بخظه ما لا يحصى لنفسه ولغيره، وترك مصنفات كثيرة رائعة . علي الرغم من قصر عمره . في التفسير وعلوم القرآن، والحديث وعلومه، والفقه الشافعي وأصوله، والأدب والبلاغة والتاريخ، وكان له اختصاص بكتاب المناهج للنووي، فنسب إليه ف قيل عنه «المنهاجي».

- قال تلميذه البرماوي: كان منقطعاً إلى الاشتغال، لا يشتغل عنه بشيء، وله أقارب يكفونه أمر دنياه.

ولا يجب أن نهمل هنا قول المؤرخين إنه تولى إمامة الشافعية بالمدرسة الظاهرية، وولي مشيخة خانقاه كريم الدين بالقرافة الصغرى، ومعنى هذا أنه كان له مورد مالي غير الاعتماد على أقاربه.

- وقال ابن حجر: كان منقطعاً إلى منزله، ولا يتردد إلى أحد إلا إلى سوق الكتب، وإذا حضره لا يشتري شيئاً، وإنما يطالع في حانوت الكتبي طول نهاره، ومعه ظهور أوراق يعلق فيها ما يعجبه، ثم يرجع فينقله إلى تصانيفه.

- وُصف خطه بأنه كان ضعيفاً قلَّ من يحسن استخراجَه، وقد نشر الزركلي في الإعلام أنموذجاً منه، وكذلك فعل الأفغانى في صدر «الإجابة».

ومصنفاته الحديثية هي:

١٠ - شرح البخاري، لخصه من شرح ابن الملقن وزاد عليه كثيراً.

٢ - مختصر من شرح البخاري المتقدم سماه التقيح^(١)، ولعله يسمى أيضاً: النكت على البخاري (ط).

٣ - النكت على مقدمة ابن الصلاح^(٢) (ط).

٤ - الذهب الإبريز في تخريج أحاديث فتح العزيز.

٥ - المعتبر في تخريج أحاديث المنهاج والمختصر (ط).

٦ - شرح الأربعين النووية.

٧ - الإجابة لإيراد ما استدرسته عائشة علي الصحابة (ط).

٨ - المختصر في الحديث.

١٠ - جزء عن حديث «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»^(٣).

١١ - قال الكتاني في الرسالة المستطرفة ص ١٨٢ وهو يتحدث عن «نثر الدرر في أحاديث خير البشر»: وصنف البدر الزركشي مثله أيضاً.

وكل هذه المصنفات محررة متقنة.

إن الزركشي جدير حقاً أن يدرس ويكتب عن جهوده الحديثية، إضافة إلى نبوغه في العلوم الأخرى.

ثانياً - تعريف الحديث المشهور:

يقول السيوطي شارحاً كلام النووي:

«قال شيخ الإسلام - ابن حجر - : المشهور ما له طرق محصورة بأكثر من اثنين ولم يبلغ حد التواتر، سمي بذلك لوضوحه، وسماه جماعة من الفقهاء: المستفيض يكون في ابتدائه وانتهائه سواء، والمشهور أعم من ذلك، ومنهم من عكس.

هو قسمان: صحيح وغيره، أي حسن وضعيف، ومشهور بين أهل الحديث خاصة، ومشهور بينهم وبين غيرهم من العلماء والعامة، وقد يراد به ما اشتهر على الألسنة، وهذا يطلق على ما له إسناد واحد فصاعداً، بل ما لا يوجد له إسناد أصلاً، وقد صنف

(١) ذكر محقق كتاب «الحطة» للقنوجي الشيخ علي حسن الحلبي في فهرس الكتب الواردة في المتن ص ٥١١: نكت الزركشي علي التقيح، وهذا وهم، والصواب: نكت القاضي محب الدين أحمد بن نصر البغدادي العنيلي علي «التقيح» للزركشي.

(٢) نقل منه السخاوي والسيوطي وابن عراق وعلي اللكنوي والقاسمي في كتبهم.

(٣) ذكره المؤلف في كتابه «اللآلئ المنثورة» ص ١٧٢.

في هذا القسم الزركشي: التذكرة في الأحاديث المشتهرة^(١).

ثالثاً. أول من ألف في الأحاديث المشهورة:

قد يُؤخذ من كلام السيوطي أن الزركشي أول من ألف فيها، إذ لو علم أحداً تقدمه لذكره، والواقع أن الكلام على أحاديث دائرة بين الناس قديم لدى المحدثين والعلماء، ويذكر الدكتور محمد الصباغ أن من أول من أشار إلى الأحاديث الدائرة على الألسنة الإمام ابن قتيبة (ت: ٢٧٦ هـ)، فلقد أشار إلى وجودها ونقد أئمة الحديث لها، وذلك في كتابه «تأويل مختلف الحديث» يقول: «وقالوا في أحاديث موجودة على ألسنة الناس: ليس لها أصل»، ثم ذكر عدداً من هذه الأحاديث.

وعقد تلميذ الإمام النووي - وهو الشيخ علاء الدين بن العطار - في «فتاوى الإمام النووي» المسماة بـ «المسائل المنثورة» عقد باباً في الحديث جمع فيه أقوال النووي (ت: ٦٧٦ هـ) في أحاديث شائعة، وقد استفاد المؤلفون في هذا الفن من هذا الباب فائدة كبيرة.

وليس من شك في أن أول ما ألف في الموضوع رسالة صغيرة وهي «أحاديث يروها القصاص عن النبي - ﷺ - وبعضها عن الله»، أجاب عنها شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية (ت: ٧٢٨) ^(٢).

قلت: ثم جاء الإمام الزركشي فألف كتابه «اللآلئ المنثورة»، وكان أول كتاب جامع مرتب، تقدم بهذا اللون من التصنيف شوطاً كبيراً، هياً للسخاوي من بعده الخروج بكتابه العمدة في هذا الجانب «المقاصد الحسنة».

وقد أشار الزركشي إلى أن الأئمة تكلموا في شيء من ذلك فقال في فصل بعد المقدمة^(٣): «وقد تكلم^(٤) الأئمة في شيء من ذلك، فذكر أبو عبد الله الحافظ النيسابوري في كتاب «الجامع لذكر أئمة الأمصار المزكين»^(٥) لرواة الأخبار»، قال: قرأت على قاضي القضاة أبي الحسن محمد بن صالح الهاشمي، حدثنا عبد الله بن الحسين ابن موسى، حدثنا عبد الله بن علي بن المديني قال: سمعت أبي يقول: خمسة أحاديث يروونها ولا أصل لها عن رسول الله ﷺ....».

(١) «تدريب الراوي»: ١٥٧/٢.

(٢) مقدمة «مختصر المقاصد الحسنة» للزرقاني ص ١٦ - ١٧.

(٣) «اللآلئ المنثورة»، ورقة ٤ - ١، المطبوع ص ٣١.

(٤) تصحفت في المطبوع إلى: ترجم.

(٥) في المطبوع: المزكير ١.

المطلب الثاني

التعريف بكتابه «اللائئ المنثورة»

أولا - اسمه:

سماه مؤلفه - حسب ما جاء في مقدمته^(١) - «اللائئ المنثورة في الأحاديث المشهورة» ثم اختلف النقل فيه اختلافاً كبيراً، وإليك التفصيل:

١ - أول مَنْ ذكره - حسب تتبعي - الإمام ابن حجر العسقلاني وسماه: «الفوائد المنثورة في الأحاديث المشهورة»^(٢).

وأحسب أن لفظة «الفوائد» تصرف من النسخ، إذ كان ابن حجر قد وقف على الكتاب وطالعه وعلق عليه تعليقات نافعة، فلا بد أنه رأى تسمية المؤلف، وما كان ليعدل عنها، أو أنه سها في ذكر العنوان.

٢ - وجاء في مخطوطة كتبت سنة (٨٥٧ هـ): التذكرة في الأحاديث المشتهرة، وجاء فوق هذه التسمية: وسماه مؤلفه أيضاً بـ «اللائئ المنثورة في الأحاديث المشهورة»^(٣)، فجعل الأصل فرعاً، والفرع أصلاً.

٣ - ويبدو أن السيوطي اطلع على نسخة مخطوطة كُتِبَ عليها العنوان المستحدث «التذكرة» فاعتمده، كما جاء في كلامه المنقول سابقاً، وهذا غريب إذ اطلع على الكتاب، وتسميته بـ «اللائئ المنثورة»، واضحة كل الوضوح.

٤ - ثم جاء حاجي خليفة فقال في كشف الظنون: «تذكرة الزركشي - وهو بدر الدين»، ثم قال في موضع آخر: «اللائئ المنثورة» وسكت، ولم يبين الموضوع واسم المؤلف^(٤).

٥ - ثم جاء العجلوني فاعتمده في تأليف كتابه «كشف الخفاء» وسماه «اللائئ المنثورة في الأحاديث المشهورة»، ولكنه نسبته إلى ابن حجر العسقلاني^(٥) واستأنى مناقشة هذه المسألة في المطلب الثالث.

(١) «اللائئ»: الورقة ٤ - أ.

(٢) انظر «إنباء القمر» (٢/ ١٤٠).

(٣) انظر «مقدمة اللائئ المطبوع» ص ١٨.

(٤) «كشف الظنون» (١/ ٢٨٦، ٢/ ١٥٢٥).

(٥) «كشف الخفاء» (١/ ٧ - ٩).

٦ - ثم جاء إسماعيل البغدادي فذكر في هدية العارفين^(١): «التذكرة» ونشر اللآلئ! ولم يضيف شيئاً على ذلك.

٧ - ثم جاء الكتاني فتبع السيوطي، إذ كانت كتبه من مصادره في تأليف كتابه الرسالة المستطرفة قال: «والتذكرة في الأحاديث المشتهرة لبدر الدين الزركشي، والدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي، لخصه من التذكرة للزركشي، وزاد عليه»^(٢).

٨ - وقد ذكر بروكلمان التذكرة، وقال: هو كتاب اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة نفسه^(٣)، وهكذا وضع حداً للبلبل، ولكن المعاصرين ظلوا يتابعون السيوطي في تسميته، ومنهم:

- الأستاذ سعيد الأفغاني في مقدمة تحقيقه لكتاب الزركشي الإجابة ص ٩.
- الأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف في مقدمة تحقيقه للمقاصد الحسنة ص ١١.
- الدكتور محمد الصباغ في مقدمة تحقيقه لمختصر المقاصد الحسنة ص ١٧.
- الدكتور محمود الطحان في كتابه أصول التخريج ودراسة الأسانيد ص ٦١.
- ناشر «اللآلئ المنثورة» مصطفى عبد القادر عطا في مقدمة الكتاب ص ٨ - ١٣، وادعى أن هذا الكتاب قد ذكر في جميع المراجع باسم التذكرة، ولا يصح هذا فلم تجمع المراجع على تسميته «التذكرة» كما رأينا، وكان عليه اعتماد تسمية المؤلف وإهمال ما سواها.

- محمد عبد القادر عطا نشر «الغماز على اللماز» للسهمودي ص ٧.
- الشيخ أحمد مصطفى القضاة في مقدمة تحقيقه (١) لـ «الفرر السوافر» ص ٦.

والغريب أن الدكتور محمد الصباغ قال:

«وكدت أجزم أن اسم كتاب الزركشي هو «اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة» تبعاً لبروكلمان، لولا أنني قرأت تصريحاً للسيوطي في تدريب الراوي بأن اسم كتاب الزركشي هو التذكرة... وهكذا يتبين لنا أن للزركشي كتابين في هذا الفن، هما:

اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة، والتذكرة في الأحاديث المشتهرة»^(٤).

وهكذا صار للزركشي كتابان، والواقع أنه كتاب واحد لا غير، ولكن اختلاف

(١) انظر: (١٧٥، ١٧٤/٢).

(٢) «الرسالة المستطرفة» ص ١٩١، ١٩٢.

(٣) «تاريخ الأدب العربي» ١٠٨/٢، نقلاً عن مقدمة زهر العريش ص ٢٧.

(٤) مقدمة مختصر الزرقاني ص ١٧، ١٨.

العناوين أربك الأمر.

ولم يتفرد الصباغ بجعل الكتاب كتابين، بل لحقه آخرون، وسبقه الأستاذ سعيد الأفغاني، فقد ذكر للزركشي التذكرة ثم اللآلئ، وقال عن الثاني: «تفرد بذكره للمؤلف بروكلمان في الذيل، أما صاحب كشف الظنون فقد ذكره مغفلاً من التعريف واسم المؤلف»^(١)، ويبدو أن الأفغاني - رحمه الله - لم يطلع على كلام ابن حجر في إنباء الفهر الذي تقدم نقله.

٩ - وقد جاء على غلاف مخطوط بغداد من الكتاب هذا «اللآلئ المنتشرة في الأحاديث المشتهرة»، وهذه تسمية رابعة.

والخلاصة:

أن الاسم العَلَمي الذي ذكره الرمام الزركشي لكتابه هو «اللآلئ المنتشرة في الأحاديث المشهورة»، فهو المعتمد وما سواه فحقه الإهمال،

ثانياً . مخطوطاته:

للكتاب عدة نسخ، منها نسختان في دار الكتب المصرية:

١ - الأولى برقم وفن حديث طلعت (٥١٧) تتكون من (٢٦) ورقة، قال ناشر الكتاب مصطفى عطا: على هامشها تقييدات بخط ابن حجر^(٢)، وقد نسخت نقلاً عن نسخة وجدها الناسخ بخط ابن المصنف، وهو نقلها من خط والده، وتاريخ نسخها سنة (٨٥٧هـ).

٢ - الثانية ضمن مجموعة برقم وفن حديث طلعت (٥٢٦)، وهي برقم (٢) في المجموعة من صفحة (٢٢) إلى صفحة (٥٩)، يبدو من خطها حداثة تاريخ نسخها^(٣)، ويبدو أن أخطاءها كثيرة.

ونسختان في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد:

٣ - نسخة مخرومة الآخر حديثة الخط كتبت سنة (١٢٣٢ هـ) ضمن مجموعة ، تقع في (٦٧) ورقة^(٤)، وتحمل الرقم (٨/١٢١٣٧ مجاميع).

(١) مقدمة الإجابة ص ١٤.

(٢) هكذا قال الناشر ص ١٥ عن وفاته: إن ابن حجر توفي قبل نسخ الكتاب بـ (٥) سنوات ١١.

(٣) مقدمة اللآلئ ص ١٦.

(٤) فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الأوقاف العامة في بغداد (٢٨٨/١).

٤ - والثانية تحمل الرقم (٢٩٤٢)، وهي في (٤٤) ورقة^(١)، في كل لوحة (١٧) سطرًا، وهي نسخة قديمة وخطها واضح جميل، ويبدو على ناسخها الضبط والاهتمام^(٢).

وقد جاء في آخرها: «قال كاتب هذه النسخة [القائل هو ابن المصنف]: إلى هنا انتهى ما وجدته في الأصل، والحمد لله على تمام ذلك، وهو حسبي ونعم الوكيل. هذا آخر ما وجدته بخط ابن المصنف، وهو نقل من خط والده رحمهما الله تعالى، الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا أبدًا، قال كاتب هذه النسخة: وجدت في ذيل هذا الكتاب بخط ابن المصنف ما صورته».

ومثل ما هنا جاء في نسخة دارالكتب المصرية الأولى، وهذا يعني أحد شيئين:

١ - إما أن ناسخ نسخة بغداد - وهو مجهول لدى - نقل من نسخة ابن المصنف.

٢ - أو أنه نقل من نسخة دارالكتب المصرية هذه نقلًا مباشرًا أو بواسطة.

وقد رأيت عدة مواضع بيضاء، فكانها مطموسة في الأصل غير واضحة.

هذا، ولم أستطع معرفة تاريخ نسخها، ولكن جاء في تملك علي الفلاف: «دخل في ملك الفقير عبده إبراهيم مناع بن أحمد مناع البقاعي في شهر شوال سنة (١١٩١هـ)». وعلى الكتاب ختم هذا نصه: «هذا الكتاب وقف المرحوم الحاج محمد أمين أفندي الكهيا في بغداد سابقًا على كتبخانه جامعة الواقع في محلة دكان شناوه (١٢٢١هـ)»، وجاء علي الفلاف بجانب العنوان «قلت: ويليه الذيل لابنه رحمهما الله تعالى أمين». وهو يبدأ من الورقة (٤٥ - ب)، وقد سها عن ذلك المفهرس الدكتور عبد الله الجبوري.

وعلى صفحات الكتاب تقييدات للحافظ ابن حجر يذكرها الناسخ بقوله: حش بخط ابن حجر. ومعني هذا أن ابن حجر وقف على كتاب اللائل المنثورة بخط ابن المصنف، وعلق عليه وعلى إضافات ابن المصنف بعض التعليقات، وقد أحصيتها فبلغت (١٦) تعليقة، وكان ينبغي على ناشر الكتاب أن يذكرها في الحواشي؛ فهي تعليقات مهمة، ولكنه لم يفعل..

(١) في «فهرس المخطوطات» (٢٨٨/١) ذكر المفهرس الأستاذ عبد الله الجبوري أنها في (٧٦) ورقة، والواقع أنها تنتهي في نهاية الورقة (٤٤)، وما بعدها ذيل لابن المصنف، وكذلك القول في النسخة المذكورة أولاً.

(٢) وفي حوزتي نسخة مصورة عنها.

ثالثاً . خطته ومصادره:

قال رحمه الله في المقدمة: «أما بعد: فإن من النصيحة الواجبة في الدين التنبية على ما يشتهر بين الناس مما ألفه الطبع، وليس له أصل في الشرع، وقد صنف الإمام تاج الدين الفزاري كتاباً في فقه العوام وإنكار أمور قد اشتهرت بينهم لا أصل لها، أجاد فيها الانتقاد، وصان الشريعة أن يدخل فيها ما أخل بالاعتقاد، شكر الله صنعه وأثاب جمعه.

وقد رأيت ما هو أهم من ذلك، وهو تبیین الأحاديث المشتهرة على السنة العوام وكثير من الفقهاء الذين لا معرفة لهم بالحديث، وهي إما أن يكون لها أصل يتعذر الوقوف عليه لغرابة موضعه، أو لذكره في غير مظنته، وربما تفاه بعض أهل الحديث لعدم إطلاعه عليه، والنافي له كمن نفى أصلاً من الدين، وضل عن طريقه المبين، وإما لا أصل لها البتة، فالناقل لها يدخل تحت قوله ﷺ: «مَنْ نَقَلَ عَنِّي مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»... وسميته باللائئ المنثورة في الأحاديث المشهورة» ورتبته على أبواب....»^(١).

وقبل أن يدخل في الأبواب ذكر فصلاً في أن الأئمة تكلموا في شيء من ذلك.

أما الأبواب التي دار عليها الكتاب فهي - مضافاً إليها عدد الأحاديث المذكورة فيها:

الباب الأول: فيما اشتهر على ألسنتهم من أحاديث الأحكام (٣١) حديثاً.

الباب الثاني: في أحاديث الحكم والآداب (٦٠ حديثاً).

الباب الثالث: في الزهد (٣١ حديثاً).

الباب الرابع: في الطب والمنافع (١٨ حديثاً).

الباب الخامس: في أبواب الفضائل (٥٢ حديثاً).

الباب السادس: في الأدعية والأذكار (٤ أحاديث).

الباب السابع: في القصص والأخبار (١٤ حديثاً).

الباب الثامن: في الفتن (٩ أحاديث).

الباب التاسع: في أمور منثورة (٣ أحاديث).

ويكون المجموع (٢٢٢) حديثاً تراوحت بين الصحيح والحسن، والضعيف

والموضوع، أما رسالة «أحاديث القصاص» لابن تيمية فقد اشتملت على (٧٩) حديثاً.

(١) «اللائئ»: الورقة (٢ - ١، ٤ - ١).

وقد حكم المؤلف (الزركشي) على عدد من الأحاديث بأنه لم يجدها، واعتمد على حكم الحفاظ في أحاديث أخرى، وتلقيت أحكامه بالقبول، مما يدل على بحثه التام وتتبعه الكامل.

أما مصادره:

فقد أحصيت ما صرح بالنقل منه، فبلغ العدد (١٢٥) مصدرًا تتوزع على كل القرون ابتداءً من القرن الثاني حتى القرن الثامن الذي عاش هو في نصفه الثاني.

وهناك نقولُ لم يذكر مصدرها، كأن يقول: قال فلان، أو يقول: نقلت من خط فلان...^(١) وعلى هذا يرتفع عدد مصادره إلى أكثر من (١٤٠) مصدرًا جزمًا.

وهكذا نرى أهمية هذا الكتاب ، ومزيد اعتناء مؤلفه به، وجدارته بأن يخدم خدمة علمية صحيحة؛ ليأخذ مكانه اللائق في المكتبة الحديثية الإسلامية لدى الخاصة والعامة.

والآن أذكر أسماء الكتب التي صرح بها:

. الإبانة: للوائلى.

. الأحاديث الواهية: لابن الجوزي (ط).

. - الأحكام: لعبد الحق.

. الأحكام: للحافظ المقدسي.

. أخلاق حملة القرآن: للأجرى (ط).

. أدب الرملاء: لأبى سعد السمعاني (ط).

. الأذكار: للنووي (ط).

. الإرشاد: للخليلي (ط).

. الاستذكار: لابن عبد البر (ط).

. الأسماء والصفات: للبيهقي (ط).

. الأطعمة: للدارمي.

. الاقتراح: لتقى الدين [ابن دقيق العيد] (ط).

. الأمالي: لأبى القاسم بن بشران (ط).

. الأمثال: لابن الجوزي.

(١) نقل عن : ابن الصلاح، والمزي، وابن حزم، وابن تيمية (من كتبه أحاديث القصاص، ولكن لم يصرح)، والمنذري، وابن طاهر المقدسي، والسبكي، وغيرهم.

- الأمثال: لأبي أحمد العسكري.
- البحر: للرويانى (ط).
- البر والصلة: لعبد الله بن المبارك (ط).
- بيان العلم: لابن عبد البر (ط).
- تاريخ أصبهان: لأبي نعيم (ط).
- تاريخ بغداد: للخطيب (ط).
- تاريخ سمرقند: لأبي سعد الإدريسي.
- التاريخ: لابن كثير (ط).
- تاريخ مصر: لابن يونس.
- تاريخ نيسابور: للحاكم (ط منتخب منه).
- التصحيف: للدارقطني.
- التعليق: لأبي حامد.
- تفسير ابن كثير (ط).
- تفسير الطبري (ط).
- تفضيل العرب: لان قتيبة (ط).
- التمهيد: لابن عبد البر (ط).
- تهذيب الآثار: للطبرى (ط بعضه).
- الثقات: لابن حبان (ط).
- الجامع لذكر أئمة الأمصار المزكين لرواة الأخبار: للحاكم أبى عبد الله الحافظ النيسابورى.
- الجامع: للخطيب (ط).
- الجرح والتعديل: لابن أبى حاتم (ط).
- جزء ابن الفطريف (ط).
- جزء المزكى.
- جزء عن البطيخ: لأبى عمر محمد بن أحمد التوقاني.
- جزء عن حديث «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»: للمؤلف.
- جزء عن حديث «يا سارية»: لقطب الدين عبد الكريم الحلبي.
- الجليس الصالح: لأبى الفرج النهرواني (ط).
- الجنائز: لأبى موسى المديني.

- الحجة: لنصر المقدسي (ط).
- الحلية: لأبي نعيم (ط).
- دلائل النبوة: للبيهقي (ط).
- الذخيرة: لابن طاهر (ط).
- ذم الكلام: لشيخ الإسلام الهروي (ط).
- رسالة الحسن البصري.
- الرواة عن مالك للخطيب.
- رواية الكبار عن الصغار: لأبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم البغدادي.
- الرياح والراح: لابن فارس اللغوي.
- الزهد: لأحمد بن حنبل (ط).
- الزهد: لأحمد بن حنبل (ط).
- الزهد: للبيهقي (ط).
- سؤالات ابن الجنيد: لابن معين (ط).
- السؤدد: لأبي بشر.
- السنة: للطبراني.
- سنن ابن ماجه (ط).
- سنن البيهقي (ط).
- سنن الترمذي (ط).
- سنن النسائي (ط).
- سيرة ابن إسحاق (ط بعضه).
- شرح الإمام: لأبي الفتح القشيري.
- شرح المذهب: للنووي (ط).
- شرح صحيح البخاري: لابن بطال (ط).
- شعب الإيمان: للبيهقي (ط).
- شعب الإيمان: للحليمي (ط).
- الشهاب: للقضاعي (ط).
- صحيح ابن حبان (ط ترتيبه).
- صحيح البخاري (ط).
- صحيح مسلم (ط).

- الضعفاء: لأبي الفضل السليماني.
- الطب: لأبي نعيم (ط).
- الطبقات: لابن الصلاح (ط).
- العرش: لابن أبي شيبه (ط).
- العقل: لأبي الحسن التيمي (من الحنابلة).
- العلل: لابن أبي حاتم (ط).
- العلل: لابن ماجه.
- العلل: للترمذي (ط).
- العلل: للدارقطني (ط ١١ مجلدًا منه).
- علوم الحديث: لابن الصلاح (ط).
- عيون الأمثال: لابن خلاد الرامهرمزي.
- غريب الحديث: لأبي عبيد (ط).
- الفائق: للزمخشري (ط).
- الفتاوى: للنووي (ط).
- الفردوس: لأبي شجاع الديلمي (ط).
- فضائل الشام: للرعي (ط).
- فضل القرآن: لأبي عبيد (ط).
- القواطع: لأبي المظفر بن السمعاني (ط).
- الكامل: لابن عدي (ط).
- المجتبى في الكلمات التي تفرد بها النبي ﷺ: لابن دريد (ط).
- المحكم: لابن سيده (ط).
- مختصر المستدرك: للذهبي (ط).
- مختصر سنن البيهقي: للذهبي.
- المدخل: للبيهقي (ط ناقصًا).
- مرآة الزمان: لسبط ابن الجوزي (ط بعضه).
- المراسيل: لأبي داود (ط).
- مسائل الكرمانى: لأحمد بن حنبل (ط).
- المستدرك: للحاكم (ط).
- مسند أبي عوانة (ط).

- مسند أبي يعلى الموصلي (ط).
- مسند أحمد (ط).
- مسند إسحاق بن راهويه (ط بعضه).
- مسند البزار (ط).
- مسند الفردوس.
- مسند عبد بن حميد (ط المنتخب).
- مصنف عبد الرازق (ط).
- المصنف: لابن أبي شيبة (ط).
- المصنف: لأبي علي بن السكن.
- المعتبر في تخريج أحاديث المنهاج والمختصر: للمؤلف (ط).
- المعجم الأوسط: للطبراني (ط).
- المعجم الكبير: للطبراني (ط).
- المعجم: لابن جميع (ط).
- المعجم: لأبي القاسم البغوي (ط، وهو ناقص).
- المعجم: للقاضي أبي الفضل ابن موسى (ط).
- معرفة الرجال: لأبي جعفر محمد بن الحسين البغدادي.
- معرفة الصحابة: لأبي موسى المديني.
- معرفة الصحابة: لأبي نعيم (ط).
- المعرفة: للبيهقي (ط).
- المغنى: لابن قدامة (ط).
- مكارم الأخلاق: لأبي الشيخ.
- مكارم الأخلاق: لأبي بكر ابن لال.
- منازل السائرين: للأنصاري.
- مناقب أحمد بن حنبل: للبيهقي.
- منهاج القاصدين: لابن الجوزي.
- الموضوعات: لابن الجوزي (ط).
- الموطأ: للإمام مالك (ط).
- نهاية الغريب (ط).
- نوادر الأصول: للحكيم الترمذي (ط).

- الوهم والإيهام: لابن القطان (ط).

- اليواقيت: للمطرزي.

رابعاً - أثره فيمن جاء بعده:

١ - أول أثر يظهر لنا عند ابن المصنف:

يقول رحمه الله في آخر النسخة التي نقلها من خط والده: «وهذه أحاديث تتعلق بهذا الكتاب ظفرت بها فأرادت إثباتها في ذيل هذا الكتاب، فمن ذلك:....» ثم ذكر (٢١) حديثاً، وبعدها يأتي نقل من «مختصر كتاب الأباطيل للجوزقاني» للذهبي، دون تصريح باسمي الجوزقاني والذهبي، ثم تأتي فصول في موضوعات متعددة.

ولا أعلم هل هذا كله من زيادات ابن المصنف أو بعضه، وتعليقات ابن حجر تتوقف في الأحاديث الأولى من الزيادات، فهل هذا يشعر أن الزيادات ابن المصنف تنتهي بنهاية الأحاديث الواحد والعشرين؟

والجدير بالذكر أن الزيادات تمتد من (ورقة ٤٥ - أ) إلى (ورقة ٧٦ - أ) وتنتهي فجأة دون تصريح بالنهاية، ودون أي تعليق من الناسخ، وكان ناشر الكتاب قد رأى أن هذه الزيادات كلها لابن المصنف، وقال: «وقد أورد ابن المصنف عدداً من الأحاديث والفوائد العظيمة ما يصلح أن يكون كتاباً منفرداً، ففضلت فصله عن كتاب والده، واعتباره كتاباً منفرداً نطلق عليه مجازاً اسم «ذيل تذكرة الزركشي» وسنقوم بإعداده إن شاء الله»^(١).

٢ - والأثر الثاني يظهر في تعليقات ابن حجر على الكتاب، وقد كان رحمه الله مهتماً بالزركشي وآثاره، ويظهر هذا الاهتمام من ترجمته له، ومن وقوفه على آثاره والاستفادة منها، ويمكن إفراد هذه الفكرة بدراسة، وهي جديرة بذلك للوقوف على مصادر ابن حجر.

٣ - والأثر الثالث يظهر عند السخاوي (ت: ٩٠٢هـ) في «المقاصد الحسنة». فقد نقل عن الزركشي وصرح باسمه مرات، وأدخل مادة «اللآلئ» في «المقاصد»، ولكنه لم يذكر «اللآلئ» ولا مرة واحدة.

ومن ذلك قوله في حديث «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» ص ٢٨٦: «قال شيخنا [ابن حجر] ومن قبله الدميري والزركشي: إنه لا أصل له»، وهذا الكلام للزركشي مأخوذ من اللآلئ.

(١) «اللآلئ» ص ١٥. ولم أقف على هذه الذيل مطبوعاً.

وقد بلغت أحاديث الأبواب عند السخاوي (١٣٥٦) حديثاً، وهو بذلك قد أوصل هذا الفن من التأليف إلى الذروة عدداً وكيفية؛ إذ كان من العلماء المتقنين المتخصصين.

٤ - والأثر الرابع يظهر عند السيوطي (ت : ٩١١هـ) في «الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة». قال في «تدريب الراوي» حين ذكر كتاب الزركشي في مبحث «المشهور» : «وقد ألفت فيه كتاباً مرتباً على حروف المعجم استدركت فيه ما فاته من الجم الغفير»^(١)، وقال في مقدمة «الدرر المنتثرة» : «إن من المهم بيان حال الأحاديث التي اشتهرت على السنة العامة، ومن ضاهاهم من الفقهاء الذين لا علم لهم بالحديث، وبيان ما له أصل من ذلك من غيره، وقد ألف الشيخ بدر الدين الزركشي في ذلك كتاباً لطيفاً، غير أنه محتاج إلى تنقيح وزيادة، وتنكيث وإفادة، فلخصته هنا مع زيادة الجم الغفير، ونبّهت على ما فيه اعتراض من كلامه وتنقيح، وميزت ما زدته به : «قلت» في أوله وب«انتهى» في آخره، ورتبته على حروف المعجم»^(٢).

وقال المجلوني عن «الدرر» هذه : «هي نسختان صفري وكبرى»^(٣) قال الدكتور الصباغ : «وقد وقفت عليهما عندما جمعت عدداً من مخطوطات الكتاب»^(٤).

٥ - والأثر الخامس يظهر عند الشيخ على القاري (ت : ١٠١٤هـ).

فقد نقل عنه في كتابيه : المصنوع في معرفة الحديث الموضوع، وهو الموضوعات الصفري، والأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة، وهو الموضوعات الكبرى^(٥)، ولكن لم يشر القاري في كلا الكتابين إلى اسم كتاب الزركشي.

٦ - والأثر السادس يظهر عند غرس الدين محمد بن أحمد الخليلي الأنصاري الشافعي المدني (المتوفى : ١٠٥٧هـ) إذ نظم قصيدة سماها «كشف الالتباس عن الأحاديث التي تدور بين الناس» قال فيها :

وألّفوا مؤلفات جمه	في ذالكم نصيحة للأمه
من ذلكم مقاصد السخاوي	فهو لمعظم الحديث حاوي
أعنى أن يجري على الألسنة	جوزي خيراً عن أهالي السنة
والزركشي قبله قد ألفا	لآلئنا تحكي نظاماً ألفا

(١) «تدريب الراوي» (١٥٧/٢).

(٢) «الدرر المنتثرة» ص ١٧ ، ١٨.

(٣) «كشف الخفاء» (٩/١).

(٤) مقدمة «مختصر الزرقاني» ص ١٩، وقد طبع الدرر عدة طبعات.

(٥) انظر «المصنوع» بتحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والأسرار المرفوعة بتحقيق الدكتور الصباغ.

ثم شرحها بكتاب سماه «تسهيل السبيل إلى كشف الالتباس» وذكر في مقدمته أن أحاديثه مأخوذة من أربعة كتب، وهي: «اللائى» للزركشي، و«الدرر» للسيوطي، و«المقاصد» للسخاوي، و«تميز الطيب» لابن الديبع^(١).

٧ - والأثر السابع يظهر عند نجم الدين محمد بن محمد الغزي (ت: ١٠٦١ هـ) في كتابه: «إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن».

قال في مقدمته بعد أن ذكر كتب للزركشي والسخاوي والسيوطي: «رأيت الجمع بين الكتب الثلاثة في كتاب، مع زيادات لا غنى عنها لطالب هذا الباب»^(٢).

٨ - والأثر الثامن يظهر عند العجلوني (ت: ١١٦٢ هـ) في كتابه «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس» فقد أدخل مادته في كتابه الكبير هذا الذي بلغت أحاديثه (٣٢٨١) حديثاً، ولكنه نسبته إلى ابن حجر، وهذا غريب. ورأيته أحياناً يصرح باسم الزركشي، وحين تتبعت ذلك تبين لي أن نقله عنه بواسطة إما السخاوي وإما القاري من الذين نقلوا عن الزركشي مباشرة^(٣).

خامساً - طبعته ونقدها:

طبع كتاب «اللائى» للمرة الأولى عام (١٤٠٦ - ١٩٨٦)، وقامت بطباعته دار الكتب العلمية في بيروت^(٤)، وكتب على غلافه: «دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا»، ولهذا الرجل ولآخرين من أسرته أعمال متعددة، وتسجل على أعمالهم ملاحظات كثيرة. وقد ذكر المحقق (١) أنه اعتمد على نسختين للكتاب. وقد سبق ذكرهما - الأولى كتبت سنة (٨٥٧ هـ)، والأخرى حديثة، وذكر أنه نسخ الكتاب من القديمة وقارنها بالحديثة، ويبدو أن هذا بجانب للحقيقة؛ فمن خلال مقارنة النماذج المخطوطة المصورة في أول الكتاب مع ما ورد فيه تبين لي أنه اعتمد على النسخة الحديثة، لوجود أخطائها في النص المحقق، هذا شيء، والشئ الآخر أنه جاء في ص ١٨٨ في صلب

(١) مقدمة «مختصر» الزرقاني ص ٢٠ - ٢١، ومن الكتاب نسخة مخطوطة في مكتبة الحرم المكي.

(٢) «إتقان ما يحسن» (٢٤/١).

(٣) ذكر الشيخ محمد إسحاق محمد إبراهيم السلفي محقق كتاب «الغماز على اللماز» للسهمودي (ت: ٩١١ هـ) أن من مصادره فيه: اللائى المنشورة في الأحاديث المشهورة للزركشي، وقال ص ١١: «يظهر أن المؤلف اطلع عليها»، يقصد الكتب التي ذكرها في الأحاديث المشهورة، ومنها اللائى.

قلت: وهذا بعيد، فهو لم يصرح باسم الزركشي إلا مرة واحدة، وأغلب نقوله من السخاوي والسيوطي. ومن الذين نقلوا عنه بواسطة كذلك الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في كتابه «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة».

(٤) وعلى منشورات هذه الدار كلام طويل.

النص [قال السيوطي...]، وعلق المحقق على ذلك: «ما بين المعقوفين هو من كلام السيوطي في اختصاره لكتاب الزركشي هذا... فإن الزركشي لا يصح أن يكون ناقلًا عن السيوطي». أقول: وهذا يستحيل أن يكون في النسخة المكتوبة سنة (٨٥٧هـ) ، وكان على المحقق ألا يحشره في صلب النص إذا كان اعتمد على النسخة القديمة، فتأمل!.

أما تعليقاته: فأغلبها نقل حرفي من «المقاصد الحسنة»، ولا أدري ما الفائدة من تكرار الكتب في النقول والحواشي؟ وقد ترك نقول الزركشي دون توثيق.

وبالنسبة للنص : فإن الأخطاء والتحريفات والسقط والزيادات المقحمة الواردة فيه أكثر من أن تحصى، وأذكر هنا نماذج قليلة منها، وأضع بجانبها الصواب:

الخطأ	الصواب	الخطأ	الصواب
الفزاري	الفزاري	الصالب	الطالب
مظنه	مظنته	ترجم	تكلم
إطاعته	إطلاعه	المزكير	المزكين
العاقل	العادل	الخفاري	المغاري
كبير	كثير	نسبه	فيه
يقبل	يجهل	المنهى	المغمى
عليه	علمه	بكريز	كثير

ولهذا يجب إعادة تحقيقه، وضبطه، وتوثيق نقوله، وتقديم دراسة شاملة عنه، تكشف عنه، وعما حدث من أوهام في: اسمه، ونسبته، ومسيرته عبر القرون.

المطلب الثالث

مشكلة نسبة الكتاب إلى ابن حجر

تعرض هذا الكتاب لثلاث مشكلات:

الأولى: الوهم في اسمه،

والثانية: إخراج هذه الصورة الشائعة.

والثالثة: نسبته إلى غير مؤلفه، أعني للإمام ابن حجر،

وقد سبق الكلام عن المشكلتين الأوليين، وأتناول هنا المشكلة الثالثة.

أولاً. أول من وهم في ذلك ومن تبعه:

أول من وهم في ذلك - حسب بحثي الآن - الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني (ت: ١١٦٢هـ) في كتابه «كشف الخفاء»، قال رحمه الله في المقدمة: «إذ من النصيحة في الدين - كما قال الحافظ ابن حجر في خطبة كتابه «اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة» - التنبية على ما يشتهر بين الناس مما ألفه الطبع...»، ثم قال: «واعلم أنني حيث أقول: قال في اللآلئ أو ذكر فيها فالمراد به كتاب الحافظ العسقلاني المذكور»^(١).

وأخذ المتأخرون من هذا أن لابن حجر كتاباً في الأحاديث المشهورة اسمه اللآلئ المنثورة غير كتاب الزركشي المسمى - عندهم - بالتذكرة، ومن هؤلاء:

- ١ - الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف في مقدمة المقاصد ص ١١.
- ٢ - الدكتور محمد الصباغ في مقدمة المختصر للزرقاني ص ١٨.
- ٣ - الدكتور محمود الطحان في كتابه أصول التخریج ص ٦١، ٦٤.
- ٤ - محمد عبد القادر عطا في مقدمة تحقيقه «الغماز» للسهمودي ص ٧.

ثانياً. الأدلة على خطأ هذه النسبة، وإثبات أن الكتاب للزركشي:

الصواب الذي لا ريب فيه أن هذا الكتاب للزركشي، ويؤيد هذا:

- ١ - أن ابن حجر نفسه قد نسب هذا الكتاب للزركشي - كما مر معنا -

(١) كشف الخفاء ص ٧ - ٩، ونتج عن ذلك أن العجلوني ينقل كلام الزركشي منسوباً إلى ابن حجر، ثم يقول - أحياناً - : قال الزركشي - ناقلاً لكلامه من السخاوي - ولا بُد في إخراج «كشف الخفاء» من معالجة هذا الارتباك والتبويه عليه.

٢ - أن أحداً من الذين ترجموا لابن حجر أو ذكروا كتبه كالبقاعي والسخاوي والسيوطي وحاجي خليفة^(١) لم يذكر له هذا الكتاب، ولا كتاباً في الأحاديث المشهورة، ولو كان اللآلئ له لما نقل السخاوي منه على أنه للزركشي، والسخاوي من أعرف الناس بابن حجر وهو أشهر تلميذ له، ومع ذلك لم يذكر له شيئاً من ذلك.

٣ - في اللآلئ دلائل صريحة تنفي أن يكون هذا الكتاب لابن حجر نفيًا قاطعًا:

أ - ففيه يروى المؤلف عن الحافظ مغلطاي، وهو قد توفي قبل ولادة ابن حجر بـ (١١) سنة.

ب - ويذكر الحافظ ابن كثير بلفظ: شيخنا، وقد توفي ابن كثير ولابن حجر من العمر سنة واحدة^(٢).

وهذان الشيخان من شيوخ الزركشي كما مر معنا.

ج - ثم إنه يذكر مؤلفين له؛ أحدهما: «المعتبر في تخريج أحاديث المنهاج والمختصر»، ولا يعرف لابن حجر كتاب كهذا، بل إن ابن حجر نفسه قد نسب «المعتبر» للزركشي في ترجمته له في «إنباه الفهر»^(٣).

ثالثاً - نظرات في منشأ الوهم:

ما سبق يجعلنا نتساءل:

١ - كيف لم يكتشف العجلوني في استحالة أن يكون الكتاب لابن حجر وهو قد وقف عليه ونقل منه واشتغل به طيلة مدة تأليفه لـ «كشف الخفاء»؟

٢ - وما الذي جعله يعتقد أنه لابن حجر؟

ولاجواب عن السؤال الأول إلا القول بأن الكمال لله، والعصمة للأنبياء، وأما السؤال الثاني فقد قال في جوابه ناشر الكتاب مصطفى عطا: «والجدير بالذكر أن مخطوطة الزركشي قد كتبت عليها بعض التقييدات والحواشي علي هامش بعض الصفحات بخط ابن حجر [١١]... ولعل الخطأ قد أتى من هنا فاعتقد أن الكتاب لابن حجر العسقلاني»^(٤).

(١) انظر «عنوان الزمان» (١/٢٥ - ٧٤) من مخطوطة كوبريلي للبقاعي، و«الجواهر والدرء» (٢/٦٥٩ - ٦٩٦) للسخاوي، و«نظم العقيان» ص ٤٥ - ٥٢ للسيوطي، و«كشف الظنون» لحاجي خليفة، وكتاب «ابن حجر العسقلاني ودراسة مصنفاته ومنهجه وموارده في كتابه الإصابة» للدكتور شاكر محمود عبد المنعم.

(٢) انظر «اللآلئ» المطبوع ص ٣٤، ١٦٠.

(٣) انظر (٢/١٤٠).

(٤) مقدمة اللآلئ ص ١٤.

قلت: ويحتمل أن النسخة التي وقعت للعجلوني كتب عليها اسم ابن حجر خطأ من الناسخ، ولم يقرأها الشيخ رحمه الله قراءة ناقدة متفحصة، ولعلنا لو بحثنا في مخطوطات دمشق وعثرنا على نسخة من «اللائئ المنتورة» لاتضح الأمر لنا.

بعد كتابة هذا رجعت إلى «المنتخب من مخطوطات الحديث» - في الظاهرية بدمشق - للشيخ الألباني فوجدته ذكر نسختين من هذا الكتاب، الثاني، وعنوانها: «اللائئ المنتورة في الأحاديث المشهورة» لم يذكر مؤلفها، أما الأولى وعنوانها: «اللائئ المنتثرة في الأحاديث المشتهرة» فيقول عنها الشيخ ص ٢٩٢: «كتب علي الغلاف بخط مغاير لخط الكتاب أنه تأليف الحافظ ابن حجر العسقلاني، وليس له قطعاً، فإنه يذكر ابن كثير ويقول «شيخنا»، وعلى حاشية الكتاب بعض التعليقات عليه يصدرها كاتبها بقوله (حاشية بخط ابن حجر...) ولعل هذا هو منشأ وهم من كتب ذلك على الغلاف، ويغلب على الظن أنه للزركشي فيحقق» ا. هـ.، ولعل هذه النسخة هي التي وقعت للعجلوني، وبهذا ينحل الإشكال^(١)، لكن يبقى تساؤل مهم وهو: كيف مر الشيخ العجلوني على نسبة الكتاب إلى ابن حجر وهو يري تعليقات عليه منقولة من خط ابن حجر فيها نقد للمؤلف، كقوله في بعضها: «هذا قصور شديد، فإن الحديث عند الترمذي» ١٩.

ثم كيف لم يتوقف عند اتحاد المعلومات التي ينقلها عن الزركشي بواسطة السخاوي والمعلومات التي ينقلها عن كتاب نفسه المنسوب - عنده - إلى ابن حجر ١٩.

هذا ما بدا لي والله سبحانه أعلم، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(١) قد يقال: إن العنوان المثبت على الغلاف هو «اللائئ المنتثرة في الأحاديث المشتهرة»، بينما يذكره العجلوني باسم «اللائئ المنتورة في الأحاديث المشهورة».

أقول: لعل العجلوني اعتمد التسمية التي نص عليها المؤلف في المقدمة.

المصادر والمراجع

- ١ - ابن حجر العسقلاني؛ «مصنفاته ودراسة فيمنهجه وموارده في كتابه الإصابة» :للدكتور محمود عبد المنعم ، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).
- ٢ - «إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن» : للغزي (ت: ١٠٦١هـ)، تح: خليل ابن محمد العربي، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر - القاهرة، ط ١ (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).
- ٣ - «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة» : للزركشي (ت: ٧٩٤هـ)، تح: سعيد الأفغاني، المكتب الإسلامي، ط ٢ (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
- ٤ - «الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة» : للقاري (ت: ١٠١٤هـ)، تح: محمد الصباغ، المكتب الإسلامي - بيروت، ط ٢ (١٤٠٥هـ - ١٩٨٦م).
- ٥ - «أصول التخريج ودراسة الأسانيد» : للدكتور محمود الطحان، مكتبة المعارف - الرياض، ط ٢ (١٤١٢هـ - ١٩٩١م).
- ٦ - «الأعلام» : للزركلي (ت: ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، ط ١١ (١٩٩٥م).
- ٧ - «إنباء الفمر بأبناء العمر» : لابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، مصورة دار الكتب العلمية عن الطبعة الهندية.
- ٨ - «تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي» : للسيوطي (ت: ٩١١هـ)، تح: د. أحمد عمر هاشم، دار الكتاب العربي، - بيروت، (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).
- ٩ - «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» : للسخاوي (ت: ٩٠٢هـ)، تح: إبراهيم باجس عبد المجيد، دار ابن حزم - بيروت، ط ١ (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م).
- ١٠ - «الحطة في ذكر الصحاح الستة» : للقنوجي (ت: ١٣٠٧هـ)، تح: علي حسن الحلبي، دار الجيل - بيروت ودار عمار - عمان، ط ١ (١٤٠٨هـ - ١٩٨٧).
- ١١ - «الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة» : للسيوطي (ت: ٩١١هـ)، تح: محمود الأرناؤوط ومحمد بدر الدين قهوجي، دار العروبة - الكويت، ط ٢ (١٤١٠هـ - ١٩٠٩م).
- ١٢ - «الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة» : للكتاني (ت: ١٣٤٥هـ) كتب مقدماتها ووضع فهارسها محمد المنتصر الكتاني، دار البشائر الإسلامية - بيروت.

- ١٣ - «زهر العريش في تحريم الحشيش» : للزركشي، تح: د. السيد أحمد فرج، دار الوفاء - المنصورة، ط ١ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- ١٤ - «عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران» : للبقاعي (ت: ٨٨٦هـ)، الجزء الخاص بابن حجر، في مكتبة الدكتور شاكر محمود، مصور عن نسخة كوبريلي.
- ١٥ - «الفرر السوافر عما يحتاج إليه المسافر» : للزركشي، تح: أحمد مصطفى القضاة، المكتب الإسلامي ودار عمار - عمان، ط ١ (١٤٠٩ - ١٩٨٩م).
- ١٦ - «الغماز على اللماز» : للسهمودي (ت : ٩١١هـ):
- تح : محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
- تح : محمد إسحاق محمد إبراهيم السلفي، (١٤٠١هـ).
- ١٧ - «فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الأوقاف العامة في بغداد» : لعبد الله الجبوري، مطبعة الإرشاد - بغداد، ط ١ (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).
- ١٨ - «فهرس مخطوطات دارالكتب الظاهرية المنتخب من مخطوطات الحديث» وضعه محمد ناصر الدين الألباني، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، (١٤٩٠هـ - ١٩٧٠م).
- ١٩ - «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» : للشوكاني (ت : ١٢٥٠هـ)، تح : عبد الرحمن المعلمي، المكتب الإسلامي - بيروت، ط ٣ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- ٢٠ - «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس» : للعجلوني (ت : ١١٦٢هـ)، بعناية أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- ٢١ - «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» : لحاجي خليفة (ت: ١٠٦٧هـ) ، مصورة دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٢٢ - «اللائئ المنثورة في الأحاديث المشهورة» : للزركشي.
- نسخة خطية في مكتبة الأوقاف العامة في بغداد بعنوان «اللائئ المنثورة في الأحاديث المشتهرة» ورقمها (٢٩٤٣).
- تح : مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١ (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
- ٢٣ - «مختصر المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة»:

للزرقاني (ت: ١١٢٢هـ)، تح: د. محمد الصباغ، المكتب الإسلامي، ط ٤ (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

٢٤ - «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع»: للقاري (ت: ١٠١٤هـ)، تح: عبد الفتاح أبوغدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، ط ٣ (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

٢٥ - «المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة»: للسخاوي (ت: ٩٠٢هـ)، تح: عبد الله محمد الصديق، مصورة دارالكتب العلمية - بيروت (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

٢٦ - «نظم العقيان في أعيان الأعيان»: للسيوطي (ت: ٩١١هـ)، تح: د. فيليب حتى، مصورة المكتبة العلمية - بيروت.

٢٧ - «هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين»: للبغدادي (١: ١٢٣٩هـ)، مصورة دار إحياء التراث العربي - بيروت.

[مختصم] فف المخطوطات العربية(*)

تألفه : آدم غتشم(**)

عصام محمد الشنطي(***)

إن دراسة الملاحظات التي في العادة ما يدونها ناسخو المخطوطات ومالكوها الأوائل تُعدُّ بحق من الجوانب الأكثر تشويقاً في مجال علم الخطوط وتطوره، ومن بين الملاحظات يجد الباحث كافة أنماط الأدعية والتعاويذ السُحرية.

وأحدى هذه الأدعية تتضمن استعمال كلمة «كبيكج» التي يكتنفها كثير من الغموض: وهي - في الغالب - تُكتب على الورقة الأولى أو الأخيرة من المخطوطة. وكثيراً ما تسبق هذه الكلمة أداة النداء «يا»، فتضفي عليها روحاً خاصة، وغالباً ما يتم تكرارها عدة مرات (يا كبيكج، يا كبيكج، يا كبيكج) أو تظهر في صورة جملة مثل: يا كبيكج احفظ الورق، أو أن يلحقها صفة حافظ أو حفيظ (يا كبيكج يا حافظ)^(١).

وإذا ما رجع الباحث إلى معجم فير للغة العربية المعاصرة^(٢) يجد أن هذه الكلمة تعني قدم الغراب الآسيوي.

(*) مقالة نشرها Adam Gacek، باللغة الإنجليزية، بعنوان :

The use of "Kabikaj" in Arabic manuscripts

في مجلة : 49 - 53 pp. (Leisen 1989) Manuscripts of the Middle East, Vol. 1.

ويشكر المؤلف في آخر الحواشي الدكتور ف. كيشفارتس على مساعدته في النصوص الفارسية، والدكتور جان جست ويتكام الذي اختار من مجموعة مخطوطات «ليدن» بعض نماذج بـ«كبيكج»، وزوّده بصور منها.

(**) تشيكي الأصل، ولد في ٢٠ ديسمبر ١٩٤٩م. وقيم الآن في كندا، رئيساً لمكتبة الدراسات الإسلامية جامعة ماكجيل، ومحاضراً في معهد الدراسات الإسلامية التابع لها، وهو أحد الباحثين المدققين في حقل علم المخطوطات العربية والإسلامية، وعلم المكتبات، له كتب كثيرة نذكر منها: فهرس المخطوطات العربية في جامعة ماكجيل (١٩٩١م)، والكتب العربية المطبوعة بالليثوغراف «طبع حجر» (١٩٩٦م)، وتراث المخطوط العربي: بليوغرافيا ومعجم للمصطلحات (ليدن، إبريل ٢٠٠١م)، وهو إنجاز رائد، ومن بحوثه ما كشف فيه عن طريقة لصناعة الورق في اليمن، في القرن السابع الهجري، وهي غير الطريقة المعروفة في المخطوطات - المترجم.

(***) خبير معهد المخطوطات العربية (القاهرة)، مدير سابقاً، والشكر خالص للصديق د. أيمن فؤاد سيد الذي أعارني عدد المجلة المتضمن هذه المقالة القيمة التي تجيب على سؤال طالما سئلته.

(١) انظر مثلاً:

R. Selheim, Materialien Zur arabischen Literaturgeschichte, Teil I (wiesbaden, 1978), pp. 50, 355;

A. Gacek, Catalogue of Arabic manuscripts in the library of the Institute of Ismaili Studies (London, 1984), Vol. 1, No. 139R

(حيث يُستعمل مصطلح كبيكج للإيجاء بفحيج الأفاعي)، وأيضاً (illus) No. 28, and p. 80 والكلمة غالباً ما تكتب كبيكج أو كبيج.

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة عربي - إنكليزي. H. Wehr. Adictionary of modern written Arabic, ed by

J. M. Cowan (New York, 1976), p. 812.

ويعرّف ستينجاس^(١) الكلمة بأنها: «نوع من نبات المَقْدُونِس البري ذي سُمّ قاتل، وأنها الملاك الحارس للزواحف، وملك الصراصير (في الهند كثيراً ما تُكتب الكلمة في الصفحة الأولى من الكتاب، لاعتقاد خرافي لديهم أن الصراصير سوف تُحجم عن إيذاء الكتاب احتراماً لاسم ملكهم)».

وفي ضوء هذا التعريف فإن «كبيكج» تعني - في آن واحد - نباتاً، كما تعني نوعاً من الجنّ، يكفي ذكر اسمه، ليحمي الكتاب من الديدان (الأَرَضَة والسوس) والحشرات.

ويخبرنا «دوزي»^(٢) بدوره أن «كبيكج» في أصلها كلمة فارسية، بينما «دايخدا»^(٣) مشيراً إلى مصادر مختلفة يذكر للكلمة مرادفاتا العربية مثل: كف السبوع (أو كف الأسد)، وكف الضبّ، وشجرة الضفادع، والشقيق (ورد الحب)، والشقيق بالعربية، والذي يُعرف أيضاً بالشقيق النعماني أو شقيق البساتين، له عديد من الأشكال مثل: التبني، والحريف والشرير (ويسمى أيضاً زَغَلِيلَة)، والبصيلي (ويسمى أيضاً ضُفَيْدَع)^(٤).

ويرى معين^(٥) أن «كبيكج» هي تعريف لـ Kabikag (وهي في الأصل كبيكه) ولها صور أخرى هي كبيكنج، ويضيف أنه كان يُعتقد أن الحشرات تهرب من رائحتها.

ويقدم «دايخدا» معلومة أخرى مفادها أنه يُعتقد أن الكلمة بالسريانية هي اسم ملك ذي سلطان على الحشرات، إلا أن هذه المقولة لا يمكن تأكيدها؛ لأن علم دلالات الألفاظ وتطوره في اللغة السريانية يجعلها غير محتملة.

أما البيروني (توفي ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م) فيرى أن الكلمة مشتقة من كلمة كابي الهندية (السنسكريتية)، بمعنى قرد وقدم تفسيرين جديرين بالتقدير، أولهما لأن القرد دائم الحركة ولا يهدأ، ومن يقترب من ذلك النبات يصبح مثله، والثاني لأن القرد يحب ذلك النبات، فاكسب النبات اسمه^(٦)، وكلمة كج تعني ملتو ومنحن، وهي صفة تناسب النبات بجذوره الليفية السمكة وأوراقه المتسلقة.

(١) F. Steing ass, Persian - English dictionary (Farhang - Istoyngas) (London 1977), p. 1013

(٢) R. Dozy, Supplement aux dictionnaires arabes, 3e ed. (Paris, 1967), Vol. 2, p. 441;

وانظر أيضاً Wörterbuch der klassischen arabischen Sprache

حيث ترد الإشارات إلى أعمال طبية عربية أخرى، Band I (Wiesbaden, 1970) P. 542.

(٣) Ali Akbar Dihkhuda, Lughat, namah (Teheran, 1366 - 1400 [1964 - 1979]), Vol. 27, p. 331

(٤) Hassan Kamal, Encyclopaedia of Islamic medicine (Cairo, 1974), p. 555

(٥) Muhammad Muin, Farhang - i Farsi - i mutavassit (Teheran 1398 - 99/ 1977 - 78), Vol. 3, p. 2895

(٦) Mahammad ibn Ahmad Al-Biruni, Saydanah, (translated into persian by Abu Bakr ibn Ali al-Kasani Teheran, 1977), Vol. 2, p. 579.

ملاحظة: الاسم اللاتيني «ranunculus» - (عائلة نباتية) هو تصغير rana بمعنى ضفدع إن اشتقاق كلمة «كبيكج» من

وفي المخطوطات المغربية تظهر الكلمة بصورتها المحرّفة «كيكتج»، وتُستعمل بوضوح طَلْسَمًا (تمويذة، تحويطة)^(١)، ويخبرنا بكر الإشبيلي (توفي ٦٢٨ أو ٦٢٩ هـ/ ١٢٢١ - ١٢٢٢ م)، في الفصل الأخير من كتابه «التيسير في صناعة التفسير» عن دور طائر الهدد وريشه في حفظ المخطوطات. كما يذكر نقلا عن شخص يُدعى محمد السميري أنه إذا كتب أحدهم «يا كيكتج» على الورقة الأولى والأخيرة من الكتاب، فمن المؤكد أن الديدان لن تهاجمه^(٢).

وواضح أن الأثر السحري لكلمة «كبيكج» يشبه إلى حد كبير أثر كلمة «بدوح» حينما تُكتب على المخطوطات أو غيرها من الأشياء، سواء في صورتها الكاملة بالحروف، أو ما يقابلها بحساب الجُمَّل (٢، ٤، ٦، ٨)^(٣).

ومن وجهة نظر علم النبات فإن «كبيكج» (ويعرف أيضاً بنبات الحوذان الفارسي أو ذي العمامة) نبات ينتمي إلى العائلة الحوذانية، وهي عائلة يندرج تحتها نحو أربعمئة نوع، كثير منها ذو سُمِّية عالية^(٤).

إن استخدام غراء الحوت أو معجون النشا أو العسل في صناعة تجليد الكتب العربية كثيراً ما كان يجلب أنواع الديدان والحشرات كافة، وكان الأمل أن يقوم نبات الكبيكج بطردها جميعاً، لذا فإن المرء كثيراً ما يلقي أوراقاً نباتية جافة في المخطوطات، ولكنها ليست بالضرورة من أوراق الكبيكج.

ولاشك أن إضفاء قوى سحرية على «كبيكج» أسهم في سرعة اختفاء معرفة الخصائص السامة لهذا النبات، على أنه من الصعوبة بمكان أن نجزم بقدرة الكبيكج على حفظ الورق، دون تحليل كيميائي دقيق.

اللفة السنسكريتية فيه طرافة، خاصة حين نعلم أن كابي مصطلح ينسحب على الإله «فيشنو» (وهو الحامي الهندوسي المقدس) (انظر J. T. platts, A dictionary of Urdu, Classical Hindi and English Oxford, 1982, p. 811).

وعند A. Dietrich في كتابه (Medicinalia Arabica, (Göttingen, 1966), p. 41, n. 1) ما يفيد أن قيمة تكرار ذكر يا كبيكج ٦٦ مرة تساوي ذكر اسم الله ﷻ.

(١) عبد الهادي التازي «الرموز السرية في المراسلات المغربية عبر التاريخ»، الرباط، ١٩٨٣، ص ٢٥.

(٢) بكر بن إبراهيم الإشبيلي، كتاب «التيسير في صناعة التفسير»، تحقيق عبد الله كتون، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، ٧ - ٨ (١٩٥٩ - ٦٠)، ص ٤٠ وللهدهد انظر: A. J. Wensinck, E. I. 2, Vol. 3, pp. 541 - 542.

(٣) D. B. Macdonald, «Buduh», E. I. 2, Suppl., Fasc. 3 - 4, pp. 153 - 154.

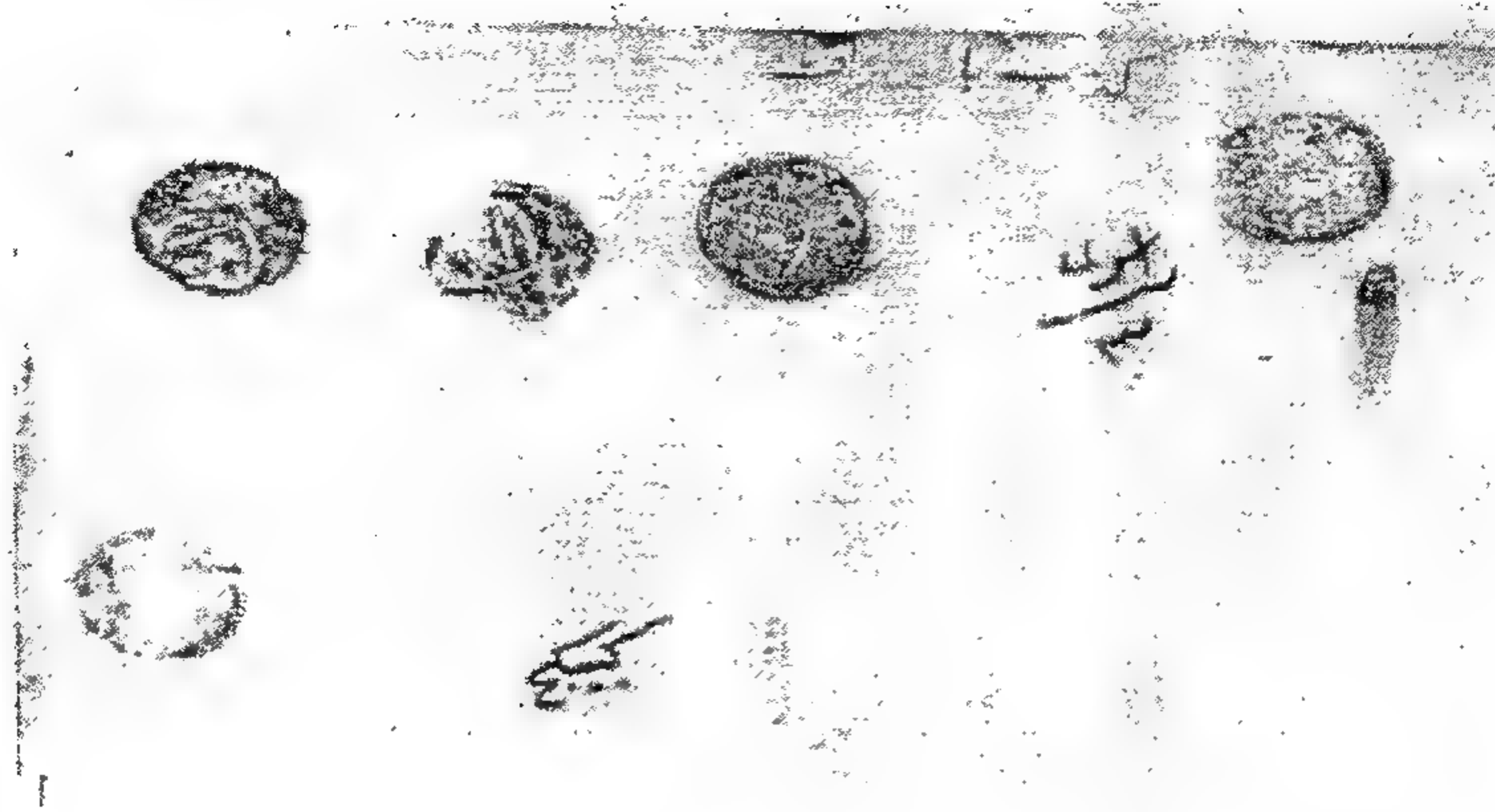
وانظر مثله أيضاً في الترجمة العربية (دائرة المعارف الإسلامية)، المجلد، ص ٤٩٦ - ٥٠٤.

و Silvestre de Sacy, chrestomathie arabe, 2 ed, (Paris, 1826 - 27), Vol. 3, pp. 364 - 366.

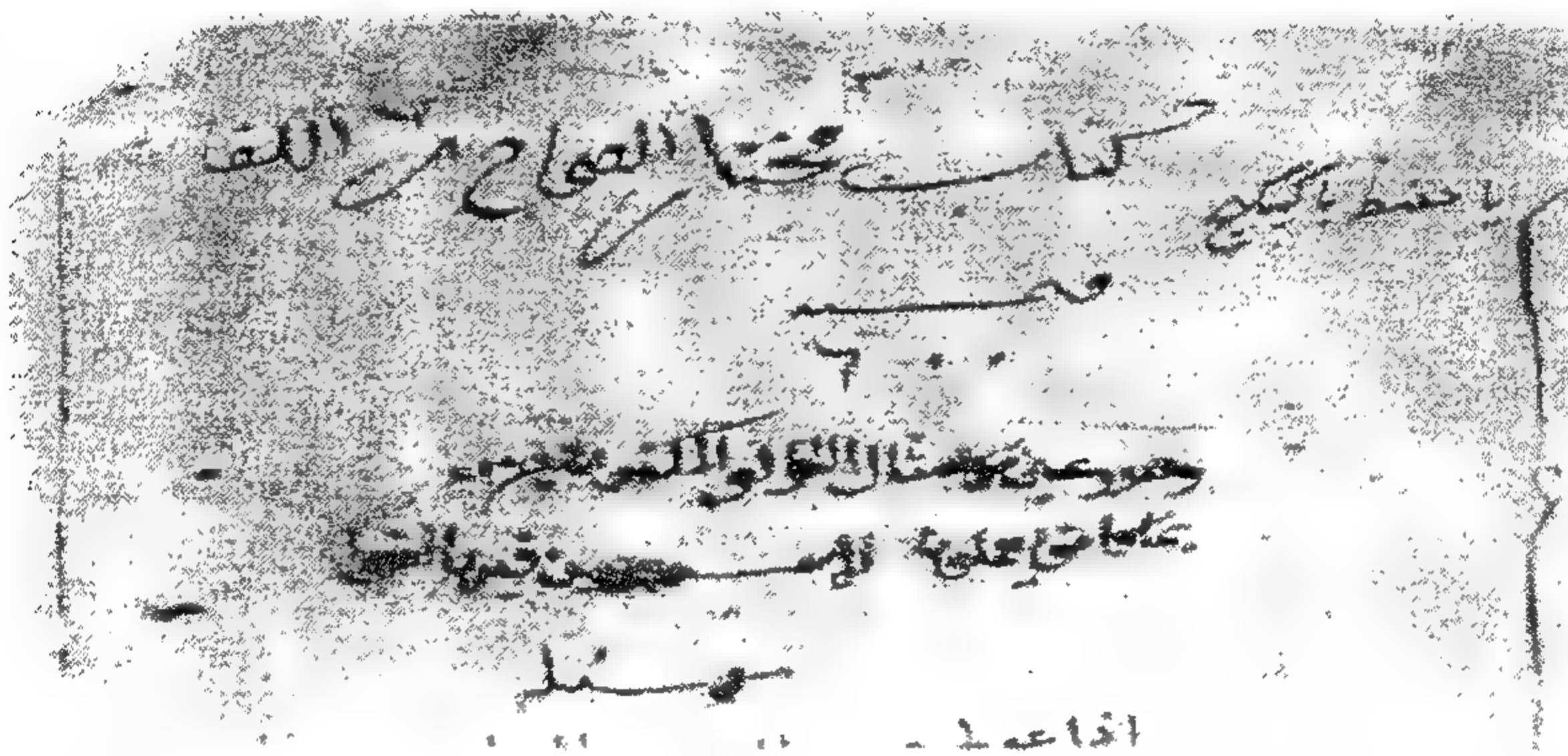
(٤) انظر على سبيل المثال: F. Stary, poisonous plants (London, Hamlyn, 1983), p. 170.

نماذج وأمثلة لـ «كبيكج» مختارة من مخطوطات مكتبة جامعة ليدين

- ١ - كبيكج. مخطوطة رقم or. 11.610 : المختارات . في الفقه الحنفي. لـ علي بن أحمد الجمالي (توفي ٩٣١هـ / ١٥٢٥م). تركيا، القرن ١٨م [١٢هـ].
- ٢ - يا حفيظ يا كبيكج. مخطوطة رقم or. 11. 601 : مختار الصُّحاح . مختصر معجم الجوهرى مؤرخة ٩٣٥هـ / ١٥٢٩م. من تركيا.
- ٣ - يا كبيكج يا حفيظ مخطوطة رقم or. 11. 564 : متقن الرواية في علوم القراءة والدُّرّاية، لـ ابن الكَتَّاني (القرن ١٨ - ١٩م) / [١٢ - ١٣ هـ]، مؤرخة في إستانبول ١٢٢٩هـ / ٨١٤م.
- ٤ - يا كبيكج احفظ مخطوطة رقم or. 8513 : «خلاصة الإعراب»، لـ حاجي بابا . شرح على المصباح للبيضاوي، تركيا، القرن ١٨م. ١٢ هـ.
- ٥ - يا كنينكج. مخطوطة رقم or. 14. 257 ، ورقة ٢٢٩ ب: «شرح لب الألباب في علم الإعراب»، لـ نقره كار، من تركيا أو إيران، القرن ١٧ - ١٨م [١١ - ١٢ هـ].
- ٦ - أكيكنج كج كج، مخطوطة رقم or. 11. 684 : «زبدة البيان في حرفة عيون الأعيان» . شرح لموجز أبي زيد عبد الرحمن الأخضري . في العقيدة الإسلامية مؤرخة ١١٨٧هـ / ١٧٧٣م. من المغرب.
- ٧ - يا كيخ. ويا كيخ، مخطوطة رقم or. 14. 316 : الصفحة الأولى من مجموع يتضمن أربعة نصوص في النحو، من أتشه Aceh، إندونيسيا القرن ١٩ [١٢هـ].



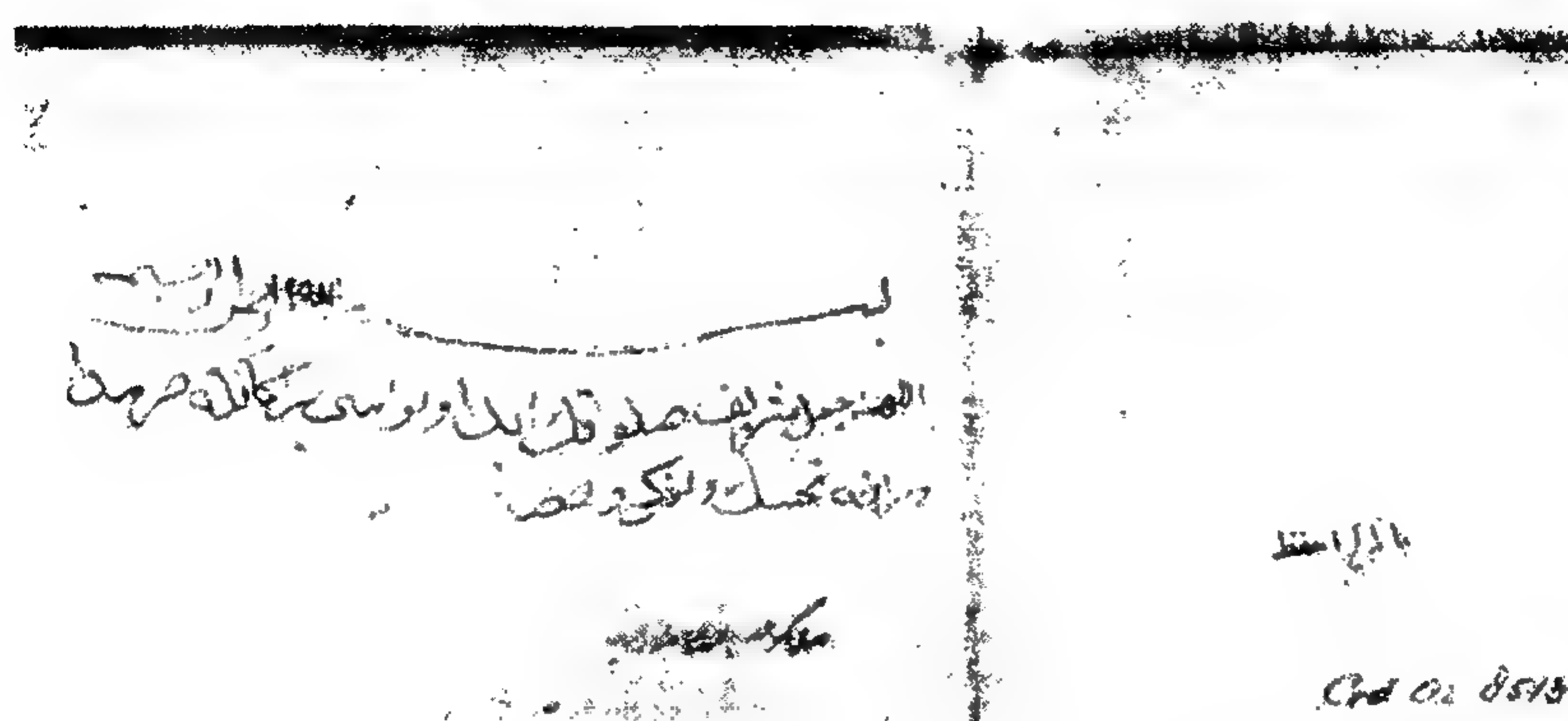
كبيكج. مخطوط رقم Or.11.610: المختارات - في الفقه الحنفي، لعلبي بن أحمد الجمالي (توفي ٩٣١هـ) /
١٥٢٥م). تركيا، القرن ١٨م [١٢هـ].



يا حفيظ يا كبيكج. مخطوطة رقم Or.11.601: مختار الصحاح - مختصر معجم الجوهري. مؤرخة ٩٣٥هـ /
١٥٢٩. من تركيا.



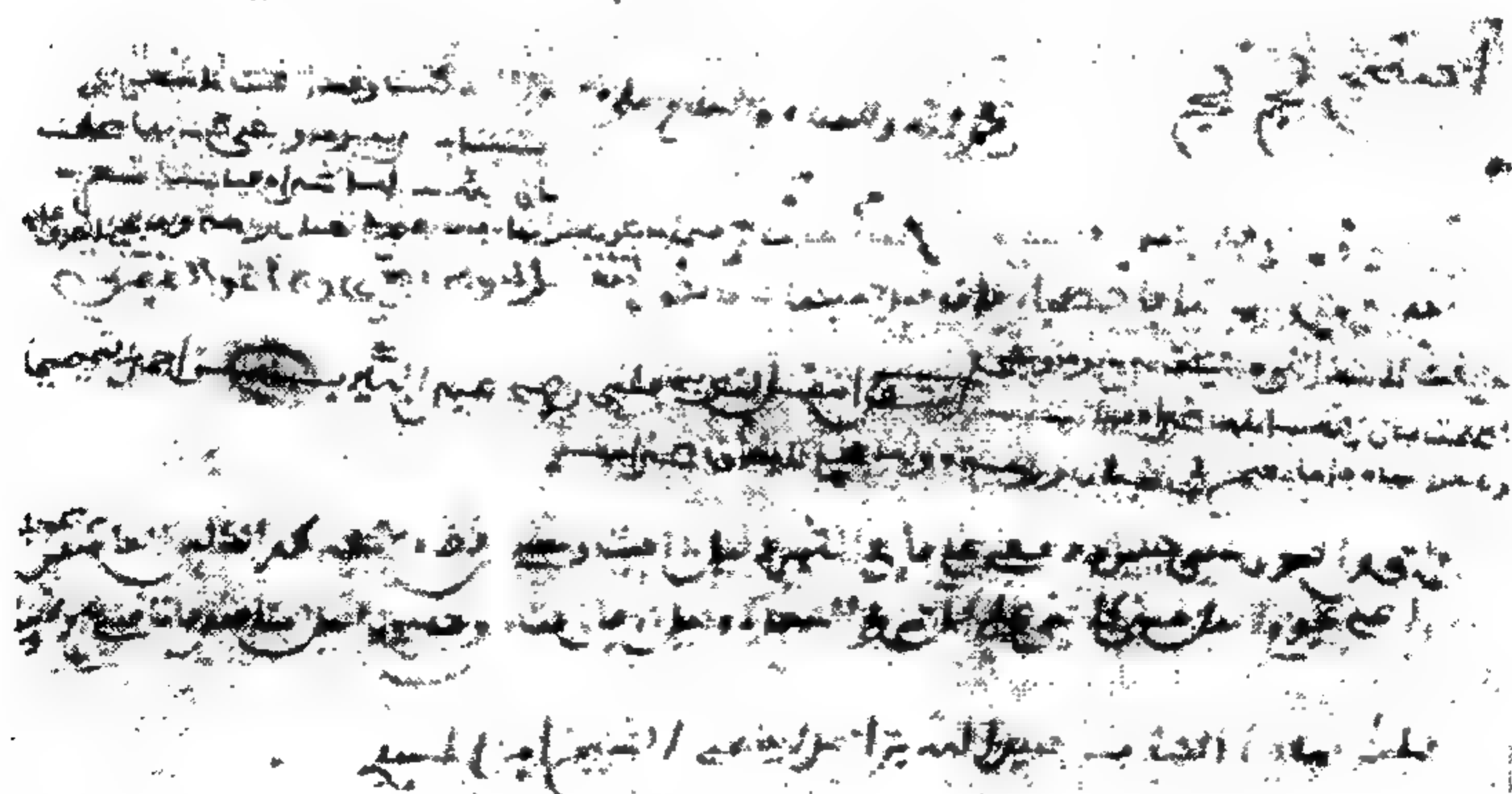
يا كبيكج يا حفيظ. مخطوطة رقم Or.11.564: متن الرواية في علوم القراءة والدراية، لابن الكثاني (القرن ١٨ -
١٩) / [١٢ - ١٣]. مؤرخة في إستانبول ١٢٢٩هـ / ١٨١٤م.



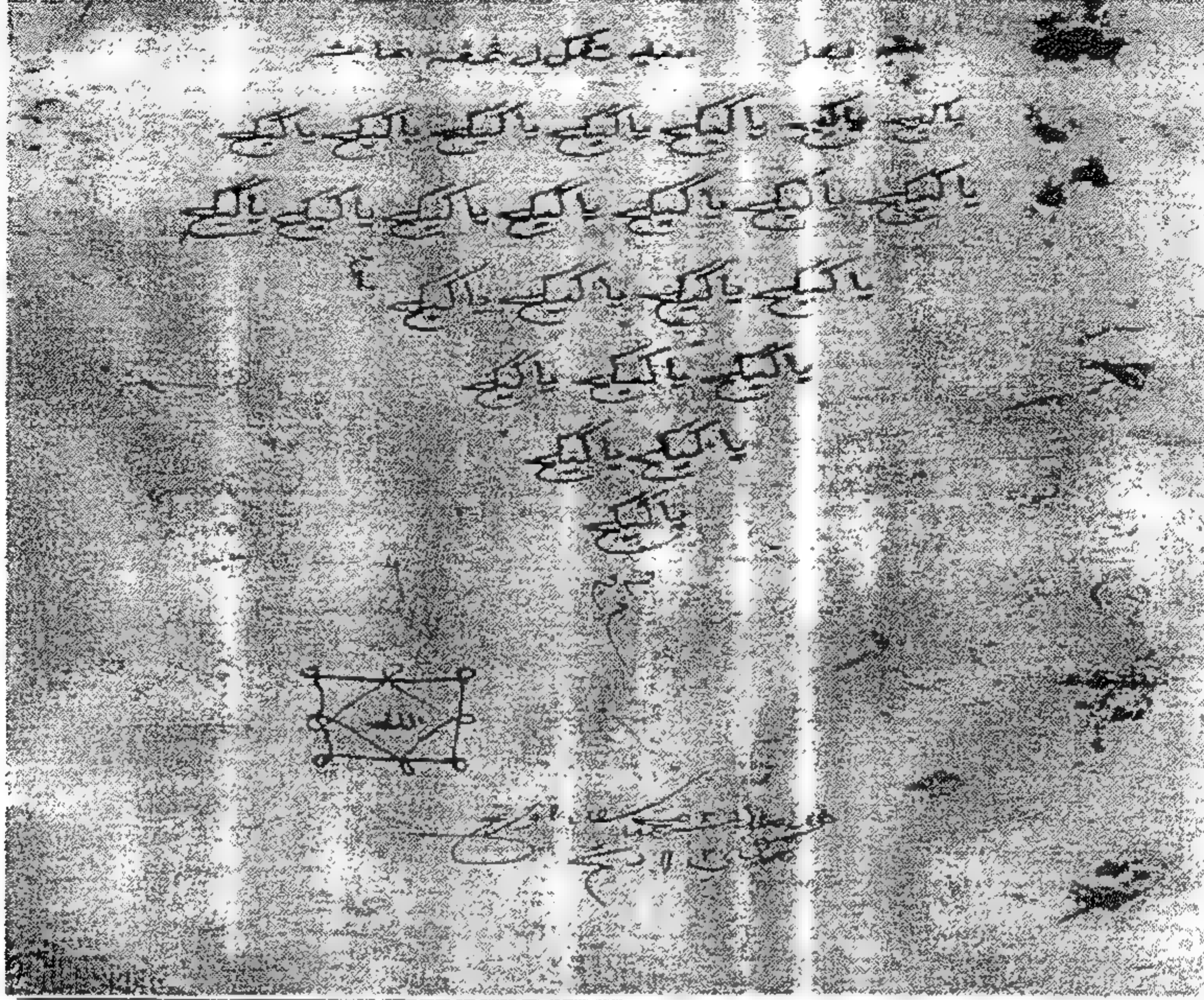
يا كبيكج احفظ. مخطوطة رقم Or.8513: خلاصة الإعراب، لحاجي بابا - شرح على المصباح للبيضاوي. تركيا القرن ١٨م [١٢هـ-].



يا كنينكج. مخطوطة رقم Or.14. 257، ورقة ٢٢٩ب: شرح لب الألباب في علم الإعراب، لنقرة كار. من تركيا، أو إيران. القرن ١٧ - ١٨م [١١ - ١٢هـ-].



أكيكج كج كج. مخطوطة رقم Or. 11. 684: زبدة البيان في حرفة عيون الأعيان - شرح لموجز أبي زيد عبد الرحمن الأخضري - في العقيدة الإسلامية. مؤرخة ١١٨٧هـ / ١٧٧٣م. من المغرب.



يا كيح، ويا كييح. مخطوطة رقم Or. 14. 316: الصفحة الأولى من مجموع يتضمن أربعة نصوص في النحو. من
أتشه Aceh، إندونيسيا، القرن ١٩م [١٣هـ].

متابعات نقدية

السيرة النبوية والمستشرقون اليهود

ط. إبراهيم عوض

فى قائمة «المفضلة» عندي فى المشباك موقع يحمل اسم «Jewish En-cyclopedia.com» (الموسوعة اليهودية) كنت أرجع إليه بين الحين والآخر أستطلع وجهة النظر اليهودية فيما أكون بصدد البحث فيه من الموضوعات. وقبل أيام خطر لي أن أفتح الموسوعة على مادة «Mohammed»؛ لأرى ما الذى لدى اليهود ليقولوه عن نبينا الكريم، فراعني أن كاتب المادة ينظر إلى السيرة النبوية من منظور يهودي ضيق ومتعصب يقوم على التدليس والكذب ولّى الحقائق، والزعم بأن الرسول ﷺ قد استفاد فى تشريعاته من اليهود حين هاجر إلى المدينة وأصبح على علم بما فيها بعد أن كان لا يعرف عنها قبل وصوله إلى المدينة إلا معلومات غامضة مضطربة التقطها من هنا ومن ههنا، ثم أن الكاتب قد ركّز معظم المادة للحديث عن اليهود وما وقع بينهم وبينه عليه السلام بطريقة توحى بأنه لم يكن هناك تقريباً شيء آخر ذو أهمية فى حياته سواهم!

يقول الكاتب مثلاً: إن الرسول لم يكن فى بداية هجرته إلى المدينة ينظر إلى اليهود على أنهم أصحاب دين مختلف عن دينه. ولا أدري على أى أساس ولا بأية أمانة يقول ذلك. أم ترى الأمر لا يزيد على أن يتوهم الإنسان الشيء، أو بالأحرى يزعمه زعماً، فيكون الأمر كما أراد أن يتوهم أو يزعم. لكن العلم والحقيقة لا يرتاحان لمثل هذه الألاعيب ولا يعترفان بها حتى لو سُجِّلَتْ فى موسوعة عالمية لها موقع على المشباك يزوره القراء من كل أرجاء الدنيا! هل يستطيع الكاتب أن يقدم لنا شاهداً أو دليلاً واحداً يتيماً على ما يقول؟ هل صدر عن الرسول ما يفيد أنه كان ينظر إلى اليهود على أن دينهم لا يختلف فى شيء عن دينه؟ فلم جاء برسالة جديدة إذاً؟ بل لم قال القرآن منذ وقت مبكر، وقبل أن يهاجر الرسول الكريم إلى يثرب ويصطبغ بخلقة اليهود هناك: إن رسالته عالمية تخاطب البشر جميعاً ولا تقتصر على بني إسرائيل (أو غير بني إسرائيل) وحدهم؟ وهذا إن أمكن أصلاً أن يكون، وهو العرى، نبياً لبني إسرائيل. لقد ظهر النبيُّ فى محيطٍ عربى هو مكة، ولم يحاول أن يتصل باليهود أو يبحث عنهم، ولا أثنى عليهم ولا قال القرآن أيَّ شيء يُفهم منه ولو من بعيد. أنه يرى أن دينهم هو دين محمد، ولا أفردهم بما يميزهم عن غيرهم ويجعل لهم خصوصية فى دعوته دون مَنْ قَصَّ أخبارهم من الأمم السابقة! بالعكس لقد حمل القرآن عليهم فى

الوحي المكي مرارًا، وذكر جحودهم وارتدادهم في كل سانحة إلى الكفر والعصيان، مما يدل على أن الدعوة الجديدة لم تكن ترى فيهم منذ البداية صديقًا بلّة مثيلاً على أي نحو من الأنحاء! ومن الممكن أن يرجع القارئ الكريم إلى «الأنعام/ ١٤٦» و«الأعراف/ ١٣٩-١٧١» و«الإسراء/ ٤-٨» و«طه/ ٨٣-٩٨» على سبيل المثال حيث تكلم القرآن عن ظلمهم وبغيهم، وعبادتهم العجل الذهبي الذي كادوا أن يقتلوا هارون بسببه، وإلحاحهم على موسى أن يصنع لهم صنماً يعبدونه كأصنام القوم الذين أتوا عليهم عقب انشقاق البحر لهم وعبورهم إياه، وكذلك عن الإفساد الذي سيفسدونه في الأرض مرتين حين يعلّون علواً كبيراً قبل أن يسلط الله عليهم من ينتقم منهم. فهل يمكن أن يُفهم من هذه الآيات القرآنية أنه عليه السلام لم يكن في بداية هجرته للمدينة يرى في ديانة اليهود شيئاً مختلفاً عما جاء به؟ ليس ذلك فقط، بل معروف أنه عليه السلام، عند مهاجره للمدينة، قد كتب معاهدة بين طوائف سكانها يتضح منها أن اليهود شيء، والمسلمين شيء آخر، وأن دين هؤلاء غير دين أولئك. وهذا نص الكلام: «كتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم. إنهم أمة من دون الناس. وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرٍ عليهم. وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم: مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم». فما الرأي في هذا الكلام؟ من البين الجلي أن كاتب المقال يهرف باطلاً، ويتنفس كذباً وميئناً. إنه يريد أن يقرر في عقول القراء أن الرسول الكريم كان يتخبط في دعوته ولا يدري ماذا يفعل، وأنه لم يكن مرسلًا من ربه، بل اخترع الإسلام اختراعاً، وأنه لم يكن يعرف شيئاً عن اليهود، بل كانت المعلومات تأتيه من تجاربه الشخصية وما يسمعه من الناس من حوله لا من الوحي، شأنه في ذلك شأن أي إنسان آخر لا علاقة له بالسماء.

كذلك يكذب الكاتب حين يزعم أن الرسول والمسلمين قد استعاروا من اليهود بعض شعائريهم كالصلاة الجماعية في أوقات منتظمة، والصيام، والقبلة، ومحرمات الطعام. ولنتأمل قوله إن استعارة هذه الشعائر قد تمت من قبل الرسول والمسلمين، وهو ما يفيد أن الإسلام ليس صناعة محمدية فحسب على ما في ذلك من طامة ثقيلة، بل يدخل معه في الصناعة والاختراع المسلمون أيضاً. وكأن الإسلام لعبة يعبت بها كل من هب ودب، ولا يقتصر أمرها على يد واحدة. ولنبدأ بالدعوى الأولى الخاصة بالصلاة الجماعية: لقد كان المسلمون يؤدون الصلاة جماعة منذ وقتٍ جدٍ مبكرٍ في

مكة. يتضح ذلك من الأخبار التالية: جاء في «الروض الأتف» للقاضي عياض: «قال ابن إسحاق: ذكر بعض أهل العلم أن رسول الله - ﷺ - كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شِعَاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا. فمكثا كذلك إلى ما شاء الله أن يمكثا، ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان، فقال لرسول الله - ﷺ -: يا ابن أخي، ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال: «أَيَّ عَمٍّ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم (أو كما قال ﷺ)، بعثني الله به رسولا إلى العباد. وأنت، أَيَّ عَمٍّ، أحقُّ مَنْ بذلتُ له النصيحة ودعوته إلى الهدى، وأحقُّ مَنْ أجابني إليه وأعانني عليه»، أو كما قال. فقال أبو طالب: «أي ابن أخي، إنني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكنَّ والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيتُ». وذكروا أنه قال لعلي: «أَيَّ بُنَيٍّ، ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ فقال: «يا أبت، آمنتُ بالله وبرسول الله وصدقته بما جاء به وصليتُ معه لله واتبعته». فزعموا أنه قال له: «أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه». وفي سيرة ابن هشام: «قال ابن إسحاق: وكان أصحاب رسول الله - ﷺ - إذا صلُّوا ذهبوا في الشُعَاب فاستخفُّوا بصلاتهم من قومهم. فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله - ﷺ - في شِعْبٍ من شِعَاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلُّون فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم. فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلا من المشركين بلحِي بغير فشجَّه، فكان أول دم أُهريق في الإسلام».

بل إن المسلمين قد أدَّوا شعيرة الجمعة قبل أن يصل النبي عليه السلام إلى المدينة ويرى وجه اليهود أو حتى قفاهم. وتنقل هنا ما جاء في «زاد الميعاد» لابن الجوزي: «قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال: حدثني عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: كنت قائد أبي حين كُفَّ بصره، فإذا خرجتُ به إلى الجمعة فسمع الأذان بها استغفر لأبي أمامة أسعد بن زرارة. فمكث حيناً على ذلك، فقلت: إن هذا لَعَجْزٌ ألا أسأله عن هذا. فخرجت به كما كنت أخرج، فلما سمع الأذان للجمعة استغفر له فقلت: يا أبتاه، أرايتَ استغفارك لأسعد بن زرارة كلما سمعتَ الأذان يوم الجمعة؟ قال: أي بُنَيٍّ، كان أسعد أول من جمَعَ بنا بالمدينة قبل مقدم رسول الله - ﷺ - في هزم النبييت من حرَّة بني بياضة في نقيع يقال له: نقيع الخضمات. قلت: فكم كنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلا. قال البيهقي ومحمد بن إسحاق: «إذا ذكر سماعه من الراوي وكان الراوي ثقة استقام الإسناد، وهذا حديث حسن صحيح الإسناد». انتهى. قلت: وهذا كان مبدأ الجمعة. ثم قدم رسول الله - ﷺ - المدينة فأقام بقباء في بني عمرو

ابن عوف كما قاله ابن إسحاق يوم الإثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس، وأسس مسجدهم. ثم خرج يوم الجمعة، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي، وكانت أول جمعة صلاها بالمدينة، وذلك قبل تأسيس مسجده. قال ابن إسحاق: وكانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ فيما بلغني عن أبي سلمة بن عبد الرحمن (ونعوذ بالله أن نقول على رسول الله ما لم يقل) أنه قام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «أما بعد أيها الناس، فقدّموا لأنفسكم. تَعْلَمُنَّ واللّٰه ليضعقنّ أحدكم، ثم لِيَدَعَنَّ غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه، وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلغك وآتيتك ما لا وأفضلتُ عليك؟ فما قَدَمْتَ لنفسك؟ فليَنظُرَنَّ يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم لِيَنظُرَنَّ قدامه فلا يرى غير جهنم. فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق من تمره فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تُجْزَى الحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضِعْف. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته». قال ابن إسحاق: ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة أخرى فقال: «إن الحمد لله أحمدُه وأستعينه. نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضِلَّ فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. إن أحسن الحديث كتاب الله. قد أفلح من زينّه الله في قلبه وأدخله في الإسلام بعد الكفر فاختره على ما سواه من أحاديث الناس. إنه أحسن الحديث وأبلغه. أَحِبُّوا ما أَحَبَّ الله. أَحِبُّوا الله من كل قلوبكم، ولا تملؤا كلام الله وذِكْرَه، ولا تَقْسُ عنه قلوبكم، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى. قد سماه الله خَيْرَته من الأعمال ومصطفاه من العباد والصالح من الحديث ومن كل ما أوتي الناس من الحلال والحرام. فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتقوه حق تَقَاتِه، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابُّوا بروح الله بينكم. إن الله يفضب أن يُنكَثَ عهده، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ولا ينبغي أن ننسى أن الصلاة الأسبوعية عندنا إنما تُؤدَّى يوم الجمعة لا السبت، وأنه ورد عن الرسول الكريم أن اليهود والنصارى قد ضيَّعوا الجمعة: فاختر الأولون السبت، والآخرون الأحد حسبما ورد في الحديث التالي: «روى الدارقطني عن عثمان ابن أحمد بن السماك قال: نا أحمد بن محمد بن غالب الباهلي قال: نا محمد بن عبد الله أبو زيد المدني قال: نا المغيرة بن عبد قال: حدثني مالك عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: أذن النبي صلى الله عليه وسلم بالجمعة قبل أن يهاجر، ولم يستطع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجمع بمكة ولا ييدي لهم، فكتب

إلى مصعب بن عمير: أما بعد فانظر اليوم الذي تَجْهَرُ فيه اليهود بالزُّيُورِ لِسَبْتِهِمْ فاجتمعوا نساءكم وأبناءكم، فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال من يوم الجمعة فتقربوا إلى الله بركعتين. قال: فأوَّلُ من جَمَعَ مصعب بن عمير، حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فجمَعَ عند الزوال من الظهر وأظهر ذلك». وفى ضوء هذا ينبغى أن نفهم قول النبي للمسلمين عن يوم الجمعة: «أضلَّته اليهود والنصارى، وهذاكم الله إليه». وكذلك من المعروف أن النبي لم يستحبَّ أن يكون بوق اليهود (أو ناقوس النصارى) هو أداة نداء المسلمين للصلاة، بل أنه لم يكن مستريحاً للاتجاه إلى بيت المقدس بعد مهاجره إلى المدينة، وظل يبتهل إلى الله أن يأذن له فى التوجه إلى البيت الحرام، حتى أنزل سبحانه وتعالى عليه الآيات التى تعطيه الإذن بذلك. ولتوضيح هذه النقطة لا بد أن نعرف أنه عليه السلام كان إذا صلَّى وهو بمكة يقوم جنوب الكعبة مُولِّياً وجهه نحو الشَّمال، فتكون قبلته الكعبة وبيت المقدس جميعاً، ثم لما هاجر لم يعد من الممكن استقبال القبلتين جميعاً معاً؛ إذ لم يعد موجوداً فى الشمال الآن إلا بيت المقدس. وكان عليه السلام يريد أن تكون قبلته إلى الكعبة لا إلى بيت المقدس؛ حتى لا يشترك فى نفس القبلة مع اليهود. ولم تكن الأمور قد ساءت بَعْدُ بين الفريقين حتى يقال، كما يزعم بعض المستشرقين كذباً، إنه عليه السلام قد جاملهم فى البداية بالصلاة إلى قبلتهم كي يكسبهم فى دينه، ثم لما عجز عن أن يجعلهم من أتباعه قام بتغيير القبلة بعد أن لم يعد للمجاملة معنى! ذلك أن القِبْلَةَ قد حُوِّلت قبل غزوة بدر، أى قبل وقوع أى من المصادمات أو حتى الخلافات الأولية بين اليهود والمسلمين، فلا معنى إذن لمثل هذه التفسيرات السخيفة المتنطعة التى يراد من ورائها الإيهام بأن الإسلام ما هو إلا تعبير عن مواقف الرسول وآرائه، ولا وشيجة تصله بالسماء! فحقيقة الأمر إذن أن مسألة القِبْلَةَ قد جَرَتْ على خلاف ما ادَّعى الكاتب، إذ كان المسلمون قبل الهجرة يصلُّون إلى الشمال ميمِّمين وجوههم حيال بيت المقدس (وحيال الكعبة فى نفس الوقت)، ثم لما هاجر الرسول لم يرتح إلى الصلاة إلى قبلة اليهود، لكنه لم يتحول عنها رغم هذا إلا بعد أن استجابت السماء ونزل الوحي بالإذن له بذلك! وإلى القارئ ما جاء فى «الدُّرَر فى اختصار المَفَازي والسِّيَر» لابن عبد البر عن هذا الموضوع: «وصُرِفَت القِبْلَةُ عن بيت المقدس إلى الكعبة فى السنة الثانية على رأس ستة عشر شهراً، وقيل سبعة عشر شهراً، من مَقْدَم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وذلك قبل بدر بشهرين». وفوق هذا فصلاة الجماعة فى الإسلام لا تحتاج لكهنوت كما هو الحال فى اليهودية التى توجب أن يرأس طقوسها كاهن من سلالة هارون عليه السلام حسبما

ينص العهد القديم، بل يصح أن يؤمها أى فرد من المسلمين. وفضلاً عن ذلك فمفردات الصلاة فى الإسلام من أفعال وأقوال تختلف تمام الاختلاف عن مثيلاتها فى صلاة اليهود. وهذا كله مما يؤكد أن الإسلام حريص على تمايز المسلمين عن اليهود وغير اليهود، فكيف يزعم زاعم أنه - ﷺ - قد استعار من اليهود شعائر العبادات الإسلامية؟

ثم هل يُعقل، لو كان الإسلام قد استعار من اليهود شعيرة الصلاة الجماعية، أن يسخر هؤلاء اليهود أنفسهم من تلك الشعيرة نفسها فيتخذوها هُزُؤاً ولَعِباً كلما سمعوا النداء إليها؟ قال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (المائدة/ ٥٨). وأدهى من ذلك وأمر أن يلجأوا إلى أساليب التآمر الخبيث فى حربهم لدين محمد، وليس هذا أسلوب الواثق من نفسه تجاه من يستمدون منه شعائره ويقتدون به، بل أسلوب الحاقد الذى يؤرّقه ما فى يد الآخرين من الجواهر الأصلية النفيسة، والملتوي الذى لا يعرف المواجهة الصريحة واحترام النفس. وفى فضح هذه الأساليب المجرمة يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ (المائدة/ ٦١). فلماذا ينافقون المسلمين لو كانوا يَرَوْنَ أن المسلمين يستعيرون منهم عباداتهم وأساليب تنظيمها؟ بل لقد كانوا يتواصون بالتظاهر بالدخول فى دين أولئك المسلمين أنفسهم أول النهار ثم إعلان الخروج منه آخر اليوم بغية تشكيكهم فى دينهم؛ إذ كانوا يتصورون أن الصحابة سوف يرتابون عندئذ فى الإسلام ويتوهمون أن به عيوباً فاتتهم وتبّه اليهود لها فدفعتهم إلى تركه بعدما خبروه عن قرب؟ قال جل جلاله: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (آل عمران/ ٧٢). لا، لا، لا يمكن أن يكون هذا هو أسلوب المطمئن إلى نفسه، الواثق بما فى يده، الذى يرى الآخرين ينقلون عنه عباداتهم وصور أدائها بل إنهم هم أنفسهم قد لاحظوا مع الفيظ المر الشديد أن الرسول - ﷺ - لا يترك شيئاً مما يفعلونه إلا خالفهم فيه، فما معنى هذه الافتراءات الرخيصة؟ عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - : «كانت اليهود إذا حاضت فيهم المرأة لم يؤاكلوها ولم يجامعوها فى البيوت، فسأل أصحابُ النبي رسولَ الله عن ذلك، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ (البقرة/ ٢٢٢)، فقال: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»، فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه». رواه مسلم فى صحيحه.

وبالمناسبة فقد ترجم بلاشير المستشرق الفرنسى الآية الأخيرة على النحو

التالي: «وقالت طائفة من أهل الكتاب: آمَنُوا بالذي أُنْزِلَ على الذين آمَنُوا وَجَّهَ النهار واكفروا آخِرَهُ لعلهم يرجعون عن ضلالهم»، مضيفاً إلى النص القرآني الكريم هذه الكلمات الثلاث الدنيئة السامة: «de leur erreur عن ضلالهم»، التي يريد أن يقول من خلالها إن اليهود كانوا يعتقدون في ضمائرهم أن المسلمين على ضلال، وإنهم كانوا يعملون على هدايتهم من ضلالهم (انظر كتابي: «المستشرقون والقرآن- دراسة لترجمات نفر من المستشرقين الفرنسيين للقرآن وآرائهم فيه»/ ط٢/ دار القاهرة/ ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م/ ٥٩). لكن هذا لا يمكن أن يكون، فالذي يعتقد أنه على حق ويريد أن يهدي الآخرين من ضلالهم لا يلجأ لمثل هذه الأساليب التأميرية الوضيعة، وبخاصة في مجال الضمائر والإصلاح والأديان! ثم ما الذي كان اليهود ينفونه من وراء هذا؟ أكانوا يريدون هداية المسلمين إلى اليهودية؟ أبداً! لأن اليهود لا يدعون أحداً إلى دينهم كما هو معروف، إذ يزعمون أن الله هو إلههم الخاص بهم يراعيهم من دون العالمين! أم كانوا يقصدون أن الوثنية الجاهلية أفضل من دين التوحيد كما قالوا للمشركين حين سألوهم: أي الدينين أفضل: الإسلام أم الوثنية؟ فما كان جواب الضالين (الذين يزعم بلاشير العريق في الضلالة مثلهم أنهم كانوا يريدون هداية المسلمين من ضلالهم) إلا أن قالوا إن دين الشرك خير من دين التوحيد: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ (النساء/ ٥١-٥٢) نعم بكل تأكيد هذا ما كانوا يريدونه، فهل أمثال هؤلاء يمكن أن يدور في عقولهم النجسة العمل على هداية أحد من ضلاله؟ إن هذا التفسير لا يمكن أن يدور في ذهن أي شخص يحترم الحقيقة ولا يعرف الخبث ولا التواء الضمير. وهذا يدل على أن المؤامرة على الإسلام لا تزال ماضية في طريقها على أشدها لا تعرف الهدوء ولا التوقف ولا التراجع إلى الحق المبين! وبالمناسبة أيضا فبلاشير هذا كان من أصدقاء طه حسين المقربين، وطه حسين (كما نعرف) كان يتعاون مع اليهود ثقافياً وأكاديمياً ويعاونهم على الخروج من مصر إلى فلسطين أيام الصراع العربي الصهيوني على مَسْرَى النبي الكريم قبل أن تُحَسَم جولته الأولى بامتلاك الأمم المتحدة والقوى الكبرى المجرمة لتلك الأرض المباركة من أيدي العرب والمسلمين وإعطائها لليهود، كما كان يزعم أن القرآن يعمل على التقرب منهم ويستعين بالأساطير الخرافية لهذا الغرض حسبما بيَّنا في كتابنا «معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين»، وكذلك في عدد من الدراسات التي نُشِرت في بعض المواقع المشبكية. فالأمر، كما يشاهد

القارئ، مثل شبكة الأواني المستطرقة: كل إناء منها يوصل إلى كل إناء آخر، ويساويه في مدى ارتفاع السائل الذي يحويه، وفي نوعيته، وفي كل خصيصته أخرى من خصائصه!

أما بالنسبة لما قاله كاتب الموسوعة عن استعارة الرسول المزعومة لشعيرة الصوم من اليهود فإنني أحيل القارئ إلى ما كتبه ذات الموسوعة في مادة «Fasting and Fast-Days»، إذ قالت إن الصوم موجود في كل الأديان رغم اختلاف أشكاله. أي أن اليهودية ليست وحدها التي تعرف الصوم، حتى إذا شرعه الإسلام كان ذلك بالضرورة متابعاً لليهودية بالذات. يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة/ ١٨٣). ونضيف إلى هذا أن المسلمين كانوا يصومون، مثل العرب، يوم عاشوراء في مكة قبل أن يهاجروا إلى يثرب ويلتقوا باليهود هناك. وهذا يتعارض مع ما قاله كاتب المادة من أن الرسول حينما هاجر ووجد اليهود يصومون يوم عاشوراء صامه تقليداً لهم. صحيح أنه وجدهم يصومونه كما جاء في بعض الروايات، لكنه كان يصومه هو والمسلمون قبل الهجرة كسائر العرب كما قلنا لتونا. كل ما هنالك أنه سأل عن السبب الذي يصومه من أجله اليهود، فلما أُخبر أنهم يصومونه ابتهاجاً بانفلاق البحر لموسى ونجاته هو وقومه من مطاردة فرعون ردّ بأن المسلمين أجدر بصيامه ابتهاجاً بنجاة ذلك النبي الكريم وحصول المعجزة الإلهية على يديه بوصفه أخاً له في الرسالة. ولا بد أن نعرف أن يوم عاشوراء عند المسلمين يختلف عنه عند اليهود: فهو عندنا العاشر من المحرم، وهو شهر قمري، على حين أنه عندهم يقع يوم الكفارة الذي يتبع التوقيت العبري، إذ هو العاشر من شهر تسري، فهما توقيتان مختلفان تماماً كما نرى. والملاحظ أن كاتب المادة الخاصة بالصيام في «الموسوعة اليهودية» قد أهمل ما قاله صاحب مادة «Muhammad» من أن امتداد الصيام في الإسلام لمدة شهر كامل مأخوذ من النصارى، إذ نراه بدلاً من ذلك يقول بأن الرسول قد استعار صوم رمضان من اليهودية أيضاً. وهو، كما ترى، تناقضٌ فجّ، علاوة على أن مدة أي نوع من الصوم عند النصارى ليست شهراً كما هو معروف، كما أن توقيت الصيام عندهم يختلف عن توقيتنا!

ليس ذلك فحسب، فصيام اليهود ينحصر في الامتناع عن الأكل والشرب كما يقول واضع مادة «الصيام» في الموسوعة المذكورة، بل إن بعض الأصوام عندهم يجوز فيها الأكل والشرب أيضاً ما عدا اللحم والخمر حسبما جاء في المادة التي نحن بصدددها، أما في الإسلام فيمتنع الصائم عن الأكل والشرب، وكذلك النكاح أيضاً، علاوة على ما

لفت إليه الرسول الكريم من أن الصيام عن هذه الثلاثة لا يكفي، إذ لا بد أن يصوم المسلم معها عن الغيبة والتميمة وقول الزور والعمل به... إلخ. أي أن الصيام في الإسلام ليس صياماً بدنياً فقط بل أخلاقياً أيضاً. كذلك فالصيام الفرض عند اليهود متعددٌ وموزعٌ على مدار العام، أما في الإسلام فليس إلا رمضان. ولا ننس أن صومنا يجري على التوقيت القمري، بخلاف صيامهم. كما أنهم يبدأون الصيام من شروق الشمس، وينتهون منه حين تبدو أول نجوم المساء. أما في ديننا فتصوم من الفجر (وليس من الشروق كما كتب واضع المادة)، ونُفَطِّر مع الغروب. فكيف يقال بعد هذا كله إن الرسول قد استعار شعيرة الصوم من اليهود؟ ومع ذلك فينبغي أن نقول كلمة سريعة عن الصوم عند النصارى كي يتبين الحق من الباطل في هذه النقطة، فهم (كما جاء في مادة «Fasting» في «thefreedictionary.com» [تحرير Farlex، و«The New Advent Catholic Encyclopedia»]) يصومون أصواماً متعددة تختلف من مذهب لمذهب، ومن بلد لبلد، علاوة على أن الصيام عندهم متعدد وموزع على فصول السنة أيضاً بخلافه في دين سيد الرسل. أما عن كيفية الصوم فالكاثوليك يكتفون في صيامهم بوجبة واحدة خالية من اللحوم وما إليها يتناولونها في منتصف النهار، وقد يتناولون إلى جانبها وجبتين أُخْرَتَيْنِ خفيفتين في أول اليوم وآخره، أما الأرثوذكس فيمتنعون عن جميع الأطعمة الحيوانية وزيت الزيتون، وربما باقي الزيوت الأخرى أيضاً، إلى جانب الخمر والكحوليات. وفي البروتستانتية نراهم يختلفون ما بين الاعتقاد في أهمية الصوم أو عدم أهميته في الحصول على الخلاص. لكن النصارى على تباين مذاهبهم لا يمتنعون عن الجماع كما نفعل نحن. وهو ما يبين بكل جلاء أن صيامنا يختلف اختلافاً شديداً عن صيام أهل الصليب أيضاً.

وتبقى دعوى الكاتب بأن القرآن لم يأت في مجال التشريعات الطعامية بشيء يخالف ما في شريعة اليهود، وهذه دعوى يكذبها الواقع الذي يفقأ عيون المدلسين؛ فقارئ القرآن يعلم تمام العلم أنه لم يحرم من الأطعمة إلا ﴿الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ وَمَا أَهَلَ لغيرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ (المائدة/ ٣)، مع السماح للمضطر أن يتناول من ذلك على قدر الضرورة لا يعدوها. وكان سبحانه قد حرّم على اليهود جزاءً بغيرهم ﴿كُلُّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمَنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اختَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ (الأنعام/ ١٤٦). وقد اعترض يهود المدينة على إباحة الإسلام لبعض الأطعمة التي يحرمونها هم، فرد القرآن عليهم قائلاً: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا

حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَاتَّبِعُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتَّبَلُّوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ (آل عمران / ٩٣ - ٩٤). ذلك أنهم لا يأكلون مثلاً الجمل ولا الأرنب ولا الوبر ولا حيوان البحر عديم الزعانف والفلوس (تنثية / ١٤ / ٧، ١١)، أما المسلمون فليس عليهم فى أكلها من حرج. كذلك فالإسلام يشدد فى تحريم الخمر تشديداً مطلقاً حتى ليُضْرَبَ بها المثل فى التحريم الذى لا تساهل فيه ولا مخرج منه، على عكس ما هو الأمر فى اليهودية وكذلك النصرانية. فكيف بعد هذا كله يزعم الكاتب أن دين محمد لم يأت فى مجال الأطعمة إلا بما لدى اليهود؟ وبعد فإنه لا يضير الإسلام فى شيء أن تتشابه بعض شرائعه مع شرائع التوراة أو الإنجيل؛ لأن المصدر واحد، وهو وحى السماء، إلا أن القول بأن الرسول الكريم قد استمد تشريعاته استمداداً من اليهود أو النصارى أنفسهم لا عن طريق الوحى هو شيء مختلف عما نحن بسبيله هنا كما لا يخفى على كل من له عينان للإبصار، وأذنان للسمع، وقلب للتفقه والاعتبار.

ويزعم الكاتب أيضاً أن الإسلام، منذ بداية أمره حتى الفترة المكية المتأخرة، لم يكن يختلف فى شيء عن اليهودية والنصرانية، وأن الرسول لم يكن يوجه دعوته إلا إلى مشركي العرب، وأن اشتراط الإيمان بنبوته عليه السلام لم يُطْرَحْ على بساط الاعتقاد إلا فى المدينة؛ إذ لم تكن مهمته آنئذٍ إرساء القواعد اللاهوتية، بل الدعوة إلى القيم الخلقية ليس إلا، مع النص على أن ما جاء به حينذاك ليس شيئاً غير ما عند «أهل الكتاب». ولست أدري ماذا يمكن أن يقال لمثل هذا الكائن الذى يبدو وكأنه قد فقد عقله، وإن كان فى واقع الأمر لم يفقده، بل فَقَدَ، وبملاء وعيه وتخطيطه وخبثه، خُلُقَ الصدق واحترام حقائق التاريخ ومراعاة نصوص الدين الذى يتحدث عنه، وكأنه يتحدث عن دين ضاعت كتبه فى مراحل ما قبل التاريخ!

إن القرآن المكي يفيض بالنصوص التى تتحدث عن رسالة محمد، وتضعه مع الرسل والأنبياء السابقين فى نفس السياق، وتقيس ما يلقاه من قومه على ما كان نظراؤه من أنبياء الأمم الأخرى يَلْقَوْنَهُ، وأن الله هو رب السماوات والأرضين، وخالق الكون كله ومدبر أمره، وهو الرازق المنعم، والرحمن الرحيم، والشديد العقاب ذو الطَّوْلِ، وأن القرآن هو وحى السماء، نزل به الروح الأمين جبريل على قلبه ليكون من المنذرين، وأن الله قد تكفل بحفظه، وأن هناك بعثاً وحشراً وحساباً وثواباً وعقاباً، وأن من يجحد بذلك فهو من أهل الجحيم حيث العذاب الدائم الذى لا يطاق. أليست هذه كلها أموراً اعتقادية؟ بطبيعة الحال كانت هناك توجيهات أخلاقية ودعوة إلى الإصلاح

الاجتماعي، لكن كانت هناك أيضاً مسائل اعتقادية تتعلق، كما قلت، بالله والرسول والملائكة والشياطين والجنة والنار، فبأي حق يكذب الكاتب الصفيق ويدّعي أن الإسلام في المرحلة المكية لم يكن سوى مجموعة من التوجيهات الخلقية لا أكثر ولا أقل، وأن الإيمان بنبوة محمد لم يكن جزءاً من هذا الدين حينذاك؟ إن هذا عبثٌ دونه عبثُ الأطفال السفهاء! وما هكذا تكون حروب الرجال لخصومهم! ولكن متى كان أمثال الكاتب يعرفون معنى للرجولة أو الشرف في خصوماتهم مع الإسلام؟ إننا هنا إزاء نسخة أخرى من يهود المدينة، الذين لم يكن لهم قطّ موقفٌ رجوليٌّ رغم كل الجمعيات والمؤامرات التي برعوا فيها، والتي كانت تقع مع هذا على رؤوسهم في كل مرة وقوع الصواعق المدمرة، حتى انتهى أمرهم مع سيدنا رسول الله إلى ما انتهى إليه جرّاء غدرهم وكفرهم وسفاهتهم وسفالتهم! ولن أقف الآن إلا عند النصوص القرآنية المكية التي تنصّ على نبوة الرسول الكريم وتدعو إلى الإيمان به: ﴿الرَّكَابُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (هود / ١-٢)، ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (الإسراء / ١٠٥-١٠٦)، ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الأحقاف / ٢٩-٣٢)، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ...﴾ (الأحقاف / ٣٥)، ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ...﴾ (الأعراف / ١٥٧)، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (فصلت / ٦)، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف / ١٥٨)، ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ (الأعراف / ١٥٨)، ﴿وقال الرسول: يا رب، إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ (الفرقان / ٥٧)، ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا؟﴾ (الإسراء / ٩٣)، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا؟﴾ (المزمل / ١٥-١٧)، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ (الجن / ٢٣)، ﴿وكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾

(الأنعام/١١٢)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء/ ١٠٧)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ/ ٢٨)... إلخ. بل إن هناك (كما نرى) آيات تنص نصاً على أن رسالته - عليه الصلاة والسلام - موجهة إلى الناس جميعاً لا إلى قومه فحسب، فضلاً عن الآيات ٢٩-٣٢ من سورة «الأحقاف»، التي تشير إلى أنه لم يكن رسولا إلى الإنس وحدهم بل إلى الجن أيضاً، كما أن آيات سورة «الأعراف» موجهة إلى العالمين وكذلك اليهود أنفسهم، وهو ما يوضح بكل قوة مزاعم هذا الأفاك! وقد انصب تكذيب المشركين من قوم الرسول - عليه الصلاة والسلام - على إنكارهم لنبوته، واشترطهم أن ترسل السماء نبياً من الملائكة لا من البشر، وأن يأتيهم بما يقترحونه عليه من آيات: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ (يوسف/ ١٠٩)، ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ (الأنبياء/ ٥)، ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا^(٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ﴾ (الإسراء/ ٩٠-٩٣) ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا: أُبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٤) قل: لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ (الإسراء/ ٩٤-٩٥)، فكيف يقال بعد هذا كله إن دعوة محمد في مرحلتها المكية كانت تخلو من الكلام عن نبوته ولا تشترط الإيمان به .

ﷺ

أما عن زعم كاتبنا أن الآيات المكية المتأخرة ذاتها تنص على أن ما جاء به الرسول الكريم ليس شيئاً آخر سوى ما عند «أهل الكتاب: men of the revelation»، أي اليهود والنصارى كما يقول، فلسوف أفاجئ القارئ بما يجعله يفغر فاه دهشاً لجرأة الكاتب العجيبة وقدرته الفذة على الاختراع والتدليس دون أن يطرف له جفن، وأقول له: إن القرآن إذا ذكر «أهل الكتاب» فإنما يذكرهم في مقام المجادلة لهم والزراية عليهم وتخطئتهم واتهامهم بالعناد والكفر، اللهم إلا عندما يعلن أحد منهم إيمانه بمحمد ويعتق الإسلام مثلما هو الأمر في الآية قبل الأخيرة من سورة «آل عمران» مثلاً، وإن المواضع الإحدى والثلاثين التي ورد ذكرهم فيها في كتاب الله كلها آيات مدنية ما عدا مرة واحدة يتيمة، هي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ (العنكبوت/ ٤٦)، وهي (كما ترى) في الجدل والخلاف أيضاً لا في الإشارة إلى تناغم الدعوة المحمدية مع ما عندهم كما يزعم مؤلف المادة! أما كلمة «يهودي» (مرة واحدة)،

وكلمة «يهود» (٨ مرات)، وكلمة «نصراني» (مرة واحدة)، وكلمة «نصارى» (١٤ مرة) فلم يرد منها شيء البتة في الوحي المكي، كما أن السياقات التي وردت فيها هي كلها سياقات اتهام وتهديد بمصير أليم، اللهم إلا حين تقول: إن باب النجاة مفتوح لهم كما هو مفتوح للمسلمين بشرط أن يؤمنوا بالله واليوم الآخر، أي يعتنقوا دعوة محمد ويدخلوا الإسلام، أو إنهم قد أسلموا فعلا كما هو الحال في آيات سورة «المائدة» المشهورة التي يظن بعض الناس أنها تنبئ على النصارى بما هم نصارى، مع أنها تقول بصريح اللسان إن القساوسة والرهبان الذين ورد ذكرهم فيها قد سمعوا ما أنزل إلى الرسول ففاضت أعينهم من الدمع تأثراً بآيات الله وأعلنوا إيمانهم بمحمد - ﷺ - . ١

عجبي من هذا الكذب الوقح الوجه، السميكة الجلد على أن القرآن مع هذا قد يشير، في خطابه للنبي - ﷺ - في المرحلة المكية، إلى «الذين يقرأون الكتاب من قبلك» أو إلى «أهل الذكر»، لكن هذه الإشارات إنما تتحدث عن الذين كانوا يتوقعون منهم مجيئه أو أولئك الذين صدّقوا فعلا برسالته بعد أن أعلن بها، وتستشهد بهم على أن ما جاء به هو الحق الذي لا ريب فيه، كما في حالة ورقة بن نوفل مثلاً. أما «أهل الكتاب» أو «اليهود والنصارى» فكلاً ثم كلاً، وهذه آيات القرآن موجودة لمن يريد أن يرجع إليها.

وكذلك هي موجودة لمن يريد أن يتحقق من كذب المؤلف في زعمه أيضاً أن الإسلام في مكة لم يأت بشيء يختلف عما عند اليهود والنصارى: فالمعروف أن القرآن المكي يؤكد أنه سبحانه وتعالى «لا تدركه الأبصار» وأنه «ليس كمثله شيء» وأنه «على كل شيء قدير»، وأنه «هو القوى المتين»، وهذا يتعارض مع ما يقوله العهد القديم مثلاً من أن يعقوب قد ظل يصارعه، عزّت قدرته، طوال الليل ممسكا به بطريقة يصعب معها أن يفلت منه مما لم يجد الله معه بدءاً من أن يضربه ضربة مؤلمة على حُقّ فخذه، وباركه فوق البيعة؛ ربما إعجاباً بمهارته في المصارعة، تلك المهارة التي تفوق فيها على الله، إذ أمسك بتلابيبه إمساكة لم يستطع أن يتفلفص منها إلا بعد أن نزل على شرطه وأعطاه البركة، وكأننا في مصارعة بين «فتوتين» في «مولد» أحد الأولياء، «شيء لله يا سيدنا الولي»! ولا أدري كيف فاتت هذه صلاح جاهين فلم يضمّنها رائعته «الليلة الكبيرة» حتى تكمل وتحلو وتبقى ليلة فلّيلة! (تكوين / ٢٢ / ٢٥ - ٣١، و٢٥ / ١٠٩)، كما يتعارض مع ما يقوله العهد القديم أيضاً من أن موسى وهارون وناداب وأيهو وسبعين رجلاً من قومه قد رأوا الله «وَتَحَتَ رَجُلَيْهِ شِبْهُ صَنْعَةٍ مِنَ الْعَقِيقِ الْأَزْرَقِ الشَّفَافِ وَكَذَاتِ السَّمَاءِ فِي النَّقَاوَةِ.. فَرَأَوْا اللَّهَ وَأَكَلُوا وَشَرِبُوا» (خروج / ٢٤ / ١٠ - ١١). الله أكبر! ما هذا الهنا الذي نحن فيه؟ وبالمثل ينفي القرآن عن رب العزة أنه يمكن أن يلحقه تعب؛

فيحتاج من ثم إلى شيء من الراحة بعد أن فرغ من خلق السماوات والأرض (ق/ ٢٨)، على عكس ما نقرأ في سفر «التكوين» (٢/ ١-٣) من أنه سبحانه، بعد أن انتهى من خلقهما في ستة أيام، «استراح في اليوم السابع». كما أن القرآن منذ وقت مبكر في مكة قد حمل على من يجعلون لله ولداً بما فيهم النصارى، الذين خطأهم في قولهم ببنوة عيسى عليه السلام لله مؤكداً في نصوص عنيفة أنه ليس إلا عبداً له سبحانه أنعم الله عليه وجعله نبياً لبني إسرائيل (الأنعام/ ١٠١، والإسراء/ ١١١، والكهف/ ٤-٥، ومريم/ ٣٠-٤٠، ٨٨-٩٥، والأنبياء/ ٢٢، والمؤمنون/ ٩١، والفرقان/ ٢، والزخرف/ ٥٧-٦٥ مثلاً). ونحن نعلم أن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة قد وجدوا أنفسهم في موقفٍ حرجٍ لا يُحسدون عليه حينما سألهم القساوسة في مجلس النجاشي بتحريضٍ من رسولٍ قريشٍ عن عقيدتهم في عيسى عليه السلام، لكنهم رغم ذلك لم يجمعوا ولم يجاملوا، بل صدعوا بما تقوله سورة «مريم» من أنه عليه السلام ليس إلا عبداً نبياً، وهو ما لقيَ القبولَ من العاهل الحبشي الذي فتح الله قلبه لنور الحق وأعلن أن ما قالوه لا يختلف عما يؤمن هو به في ذلك النبي الكريم أدنى اختلاف! ومعروف أيضاً أن النصارى يؤمنون بتوارث البشر عن أبيهم آدم وأمهم حواء ما يسمونه: «الخطيئة الأصلية»، كما أن اليهود يؤمنون بامتداد العقاب للجيل الثالث والرابع من ذرية المخطئ؛ لا لشيء سوى أنهم من سلالة (خروج/ ٢٠/ ٥، و٢٤/ ٧، وتثية/ ٥/ ١٠)، فجاء القرآن يحطم هذا الاعتقاد الذي لا معنى له ولا عدل فيه، مكرراً بعبارات متنوعة وفي مواضع مختلفة من آياته ﴿أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (٢٨) وأنَّ ليس للإنسان إلا ما سعى (النجم/ ٢٨-٢٩). ومن عجب، وأمور القرآن كلها عجب في عجب، أن النص القرآني الحالي يستيق الأمر ويرد مقدماً على كل من تسول له نفسه الهجوم الكاذب عليه، فنراه في الآيتين السابقتين على آيتين هاتين يلفت الأنظار إلى أن هذا المبدأ قد نصَّ عليه نصاً في صحف موسى، على خلاف ما هو مثبت الآن في العهد القديم من أن العقاب على الخطيئة يطول الجيل الثالث والرابع من ذرية المخطئين! ثم يقول الكذاب: إن الإسلام لم يأت في مكة بشيء جديد ليس عند اليهود النصارى! الحق أن القرآن المكِّي لم يأت فقط بأشياء ليست في يد اليهود ولا النصارى، بل يخطئهم أيضاً ويعلمهم الصواب الذي كان عندهم يوماً لكنهم أخفوه أو محوه! ونكتفي بهذه الخطوط العامة، وفي ميدان العقيدة فقط، فلا ندخل في أخطاء الكتاب المقدس التي ترشدنا إليها المقارنة بينه وبين القرآن الكريم، أو الاختلافات الموجودة بين الكتابين في مسائل العبادات والمواريث والنجاسات والمعاملات، أو الطريقة البشعة التي صوِّر بها مؤلفو

الكتاب المقدس رسلَ الله وأنبياءه: فجعلوهم قتلَةً مجرمين، وزناةً متهتكين، وللجنس مع المحارم ممارسين، وشُرَّيبى خمرٍ سَكَّيرين، وعبادة الأوثان راضين، فجاء القرآن وعدل الصورة بحيث تليق بمن اصطفاهم الله وجعلهم نبيين مصلحين، وإلا فلن تنتهي!

على أن الكاتب قد تجاهل أن العكس في مسألة التأثير التشريعي هو الصحيح، إذ نقل اليهودُ الذين كانوا يعيشون في المجتمع الإسلامي غَيْرَ قليل من تشريعات الإسلام وجعلوها جزءاً لا يتجزأ من عباداتهم وأحوالهم الشخصية. ولأترك أحد المتخصصين في لغة اليهود وآدابهم، وهو د. محمد جلاء إدريس يُلقِي بعض الضوء على هذه النقطة، إذ جاء ردُّه على سؤالٍ سُئِلَ عن مدى تأثير الفقه الإسلامي على نظيره اليهودي على النحو التالي: «عاش اليهود في بيئة عربية إسلامية على مدى ١٤٠٠ سنة، فمن الطبيعي أن ينقل هؤلاء معهم بعد هجرتهم إلى إسرائيل التراث العربي والإسلامي والمصري على وجه الخصوص، وهذا التأثير كان له عدة مظاهر، منها: حفظهم للقرآن واستشهاداتهم بآياته، وكذلك الحديث وبعض الجمل الشعبية الأخرى مثل «عليّ الطلاق»، «والله العظيم» و «أقسم بالله». ومن اللافت للنظر أيضاً نقل الأفكار الإسلامية مثل التأثير الجبرية والجبريين، وبعضهم تأثر بالفقه الإسلامي والمهدي المنتظر والفكر الشيعي. فقد أخذت طائفة القرائين (من اليهود) عن الفقه الإسلامي تحريم زوجة الأب، وقد اعترف علماءهم اعترافاً صريحاً في ذلك بالأخذ عن مذاهب المسلمين، وتأثيرات إسلامية في مجال العبادات اليهودية كثيرة، مثل غسل الرجلين والذراعين، ومسح الأذنين، والمسح على الرأس، كما اشترطوا ضرورة اغتسال المحتلم للصلاة، وأبطل موسى بن ميمون سرية الصلاة وجعلها جهراً مخالفاً بذلك شرائع التلمود ومقلداً للمسلمين، فظهر ما أُطْلِقَ عليه: «الإسلاميات» في العقيدة اليهودية، وكتب الفقه لدى اليهود على غرار الفقه الإسلامي» (من حوار أجراه معه منير أديب بعنوان «الاستشراق الصليبي» في مجلة «المنار» المشبكية).

وفي العلاقة بين الرسول واليهود في يثرب يقول الكاتب: إنهم لم يعودوا قادرين مع الأيام على السكوت إزاء ما كان القرآن يحرفه من روايات الكتاب المقدس عن شخصياتهم التاريخية مثل إبراهيم، الذي يزعم صاحبنا أن القرآن قد صيَّره عربياً ونسب إليه بناء الكعبة. وبالمثل يزعم أن الرسول لم يكن يطبق أن يصحح له أحد شيئاً من معلوماته المضطربة؛ ومن ثم أخذ يمطر اليهود بشتائم العنيفة بعد أن كان يكتفي في بداية أمره معهم بالهمز واللمز. وحين كانوا يستشهدون بالتوراة على صحة ما يقولون كان رده عليهم أنهم «كالحمار يحمل أسفارا». ولأن معرفته بالتوراة كانت معرفة

غير مباشرة حسبما يقول الأفاك، فقد اتهمهم بأنهم لا يفهمونها كما ينبغي، أو أنهم يتعمدون إخفاء معناها الحقيقي. ثم يضيف الكاتب بالباطل أنه كان واضحاً من سياق الأحداث أن عدوانه عليهم قادم لا محالة، لولا أن كراهيته كانت متجهة في ذلك الوقت إلى القرشيين الذين كان ينظر إلى تأييدهم عليه وموقفهم من أتباعه على أنه إهانة شخصية له ليس من سبيل إلى محوها غير شن الحرب عليهم؛ ومن ثم نزلت النصوص القرآنية تترى في الحض على الجهاد وتدمير الحياة نفسها بوصفه جزءاً لا يتجزأ من الإيمان. صحيح أن النصوص القرآنية الأولى في هذا الصدد كانت تحصر دوافع القتال في رد العدوان، إلا أن الأمر اختلف بعد ذلك حسبما يزعم الكاتب، فرأينا الآيات تخض على المبادرة بالهجوم على الآخرين: فإما اعتنقوا الإسلام، وإما استحقوا القتل.

ويمضي الرجل في كذبه وتدليسه في وقائع التاريخ وحقائق الأخبار فيتهم النبي الكريم بأنه كان يحقد على اليهود؛ لأنهم كشفوا جهله بالتوراة ولم يَرْضَوْا أن يدخلوا في دينه الزائف. وفاته أن التاريخ مسجل لم يضيع أو يعبث بحقائقه أحد كما ضاعت التوراة فزيفها اليهود، ولعبت أيديهم النجسة فيها، ثم ادَّعَوْا أن عَزِيزاً قد استعادها كلمةً من الذاكرة لم يخرم منها حرفاً واحداً. والذين يقرأون كلام صاحبنا من الأوربيين دون أن يكون لديهم علم بما حدث بين النبي واليهود سوف يصدقون كذب الرجل، فيظنون أن النبي فعلاً كان صاحب اليد السفلى في العلم بالتوراة! لكن ماذا يكون الحال يا ترى لو عرفوا أن بعض أحبار اليهود في المدينة قد أسلموا نزولاً على صوت الحق النابع من أعماق ضمائرهم، وأن الذين عاندوا فلم يدخلوا في دين الرسول قد فضحهم الله على أسنة أقاربهم ممن كُتِبَ لهم شرف اعتناق الإسلام؟ لننظر في قصة عبد الله بن سلام ومُخَيَّرِيق وحَيَّ بن أخطب مثلاً لنرى أين الحقيقة وأين الباطل.

يقول ابن هشام في «السيرة النبوية» عن عبد الله بن سلام وظروف اعتناقه دين محمد: «قال ابن إسحاق: وكان من حديث عبد الله بن سلام كما حدثني بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أسلم، وكان حَبِيراً عالماً، قال: لما سمعتُ برسول الله - ﷺ - عرفتُ صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوَكَّفُ له، فكنتُ مُسِيراً لذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله - ﷺ - المدينة. فلما نزل بقاء في بني عمرو بن عوف أقبل رجلٌ حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة ابنة الحارث تحتي جالسة. فلما سمعتُ الخبر بقدوم رسول الله - ﷺ - كَبَّرْتُ، فقالت لي عمتي حين سمعتُ تكبيرِي: خَيْبَكَ الله! والله لو كنتُ سمعتُ بموسى بن عمران قادمًا ما زدت. قال: فقلت لها: أيَّ عَمَّةٍ هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، بُعِثَ بما بُعِثَ به. فقالت: أي ابن أخي،

أهو النبي الذي كنا نُخَبِّرُ أنه يُبْعَثُ مع نفس الساعة؟ قال: فقلت لها: نعم. قال: فقالت: فذاك إذا. قال: ثم خرجتُ إلى رسول الله - ﷺ - فأسلمتُ، ثم رجعتُ إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا. قال: وكنتمُ إسلامي من يهود، ثم جئتُ رسول الله - ﷺ - فقلت له: يا رسول الله، إن يهود قومٌ بُهتَ، وإني أُحِبُّ أن تُدْخِلَنِي في بعض بيوتك وتغيِّبَنِي عنهم ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني. قال: فأدخلني رسول الله - ﷺ - في بعض بيوته ودخلوا عليه فكلّموه وساءلوه، ثم قال لهم: أي رجل الحُصَيْنُ بن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا وحَبْرنا وعالمنا. قال: فلما فرغوا من قولهم خرجتُ عليهم فقلتُ لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله - ﷺ - وأومن به وأصدقّه وأعرفه. فقالوا: كذبت، ثم واقعوا بي. قال: فقلت: يا لرسول الله - ﷺ -! ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قومٌ بُهتَ، أهل غدر وكذب وفجور؟ قال: فأظهرتُ إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث فحَسُنَ إسلامها».

وعن مُخَيَّرِيق يقول ابن هشام أيضاً: «قال ابن إسحاق: وكان من حديث مخيريق، وكان حَبْرًا عَالِمًا، وكان رجلاً غنياً كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته وما يجد في علمه، وغَلَبَ عليه إلفُ دينه، فلم يزل على ذلك، حتى إذا كان يوم أُحُد، وكان يوم أُحُد يوم السبت، قال: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق. قالوا: إن اليوم يوم السبت. قال: لا سَبْتُ لكم! ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله - ﷺ - بأُحُد، وعهد إلى من وراءه من قومه: إن قُتِلْتُ هذا اليوم فأموالي لمحمد - ﷺ - يصنع فيها ما أراه الله. فلما اقتتل الناس قاتل حتى قُتِلَ، فكان رسول الله - ﷺ -، فيما بلغني، يقول: مخيريق خَيْرُ يهود. وقبض رسول الله - ﷺ - أمواله، فعامةُ صدقات رسول الله - ﷺ - بالمدينة منها».

وأخيراً هذا حديث صفية بنت حُيَيِّ بن أخطب، فلتنصت جيداً إلى ما يرويه كذلك ابن هشام لنعرف ما كان يدور خلف الستار: «قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، قال: حَدَّثْتُ عن صفية بنت حُيَيِّ بن أخطب أنها قالت: كنتُ أَحَبُّ وَلَدِ أَبِي إِلَيْهِ وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قطُّ مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه. قالت: فلما قدم رسول الله - ﷺ - المدينة ونزل قُبَاءَ في بني عمرو بن عوف غداً عليه أبي حُيَيِّ بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مُفْلِسَيْن. قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس. قالت: فأتيا كَالَيْنِ كسلانين ساقطين يمشيان الهُوَيْنَى. قالت:

فَهَشِشْتُ إِلَيْهِمَا كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ، فَوَاللَّهِ مَا التَّقْتُ إِلَيَّ وَاحِدَ مِنْهُمَا مَعَ مَا بِهِمَا مِنَ الْغَمِّ. قَالَتْ: وَسَمِعْتُ عَمِي أَبَا يَاسِرٍ، وَهُوَ يَقُولُ لِأَبِي حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبٍ: أَهْوْ هُو؟ قَالَ: نَعَمْ وَاللَّهِ. قَالَ: أَتَعْرِفُهُ وَتُثَبِّتُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَا فِي نَفْسِكَ مِنْهُ؟ قَالَ: عداوتهُ وَاللَّهِ مَا بَقِيَتْ لَهُ.

فأما أن القرآن أو حتى المسلمين يقولون إن إبراهيم كان عربياً فلا أدري من أين للكاتب بهذا الكلام؟ إن كل ما يقولونه هو أنه أبو إسماعيل الذي ترى بين أظهر العرب وتزوج منهم، فصارت ذريته جزءاً من هؤلاء العرب. فإبراهيم إذاً هو جدّهم (أو «أبوهم» بتعبير القرآن)، لكنه هو نفسه لم يكن عربياً. وهذا كلام يعرفه كل إنسان، فكان أخرى بالكاتب (لو كان ممن يحترمون أنفسهم وينزلون على كلمة التاريخ وأخلاق العلماء في عدم كتمان الحقيقة والبعد عن التلاعب بها تبعاً لأهواء الباحث وعصبية الدينية أو القومية أو القبلية) أن يراعيه فيما يخطه قلمه! وبالنسبة لذهاب إبراهيم إلى الحجاز وبنائه هو وإسماعيل الكعبة لا بد أن ننبه القارئ إلى أن هذه الرواية ليست من ابتداء القرآن، بل كان العرب يرددونها طوال تاريخهم قبل الإسلام، ولا نعرف أن اليهود قد أنكروها عليهم يوماً، بل لم يحدث أن كذبوا النبي بشأنها رغم كثرة اعتراضاتهم السخيفة التي كانوا يشغبون بها عليه، فما الذي جدّ الآن حتى يتهم الكاتب رسول الله بأنه يستقي معلوماته التاريخية عن اليهود من مصادر غير موثوقة من هنا وهناك؟ لو أن إبراهيم عليه السلام لم يذهب إلى الحجاز، أكان اليهود قد سكتوا كل هذه المدة المتطاولة فلم يردوا على العرب ما كانوا يقولون؟ إن اليهود لا ينكرون أن العرب إسماعيليون، فما وجه الصعوبة إذاً، أو ما وجه الاستحالة في أن يذهب إبراهيم إلى البلد الذي يقيم فيه ابنه، والذي أصهر إلى أهله وتزوج امرأة من نسائه؟ ثم لماذا يخترع العرب هذه القصة؟ لقد كانوا يستطيعون أن ينسبوا بناء الكعبة إلى نبي عربي مثل هودٍ أو صالح مثلاً حتى يكون الشرف الحاصل من هذا الإنجاز عربياً، فلماذا لم يفعلوا واختاروا إبراهيم بدلاً من ذلك؟ هل كانوا يريدون التقرب من اليهود؟ لكن أين في تصرفاتهم أو أشعارهم أو أمثالهم ما يدل على أنهم كانوا يعملون على هذا التقرب؟ وما الذي كان يمثل اليهود في ذلك الوقت عالمياً أو محلياً حتى يفكر العرب في التقرب منهم؟ لقد كان اليهود غرباء طارئین على بلاد العرب، لجأوا إليها هروباً من الاضطهاد الذي أنزله الرومان بهم في بيت المقدس، وكان الأوس والخزرج في يثرب يجيرونهم. وناسٌ مثلهم لا يمكن أن يشكّلوا لأهل الديار أية أهمية، فضلاً عن أن أخلاق اليهود ونفسياتهم الملتوية وجشعهم وحبهم الجارف للمال وحقدهم على البشر جميعاً ليست مما يبعث العرب على التفكير في التشرف بهم! ثم إن العلاقة بين الیثرییین والیهود لم

تكن علاقة مودة حتى يقال إن أهل يثرب كانوا حريصين على التقرب منهم. والنص التالي من «السيرة الحلبية»، وهو متعلق بالآية ٩٠ من سورة «البقرة»، يلقي الضوء على طبيعة تلك العلاقة التي لا يمكن أبداً أن ترشّح لظهور مثل تلك الرغبة المزعومة عند العرب في التقرب من يهود والابتهاج بالانتساب إليهم: «من ذلك ما حدث به عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا: إنما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى لنا وهُدَاه ما كنا نسمع من أحبار يهود. كنا أَهْلَ شِرْكٍ أَصْحَابَ أَوْثَانٍ، وكانوا أهل كتابٍ عندهم علمٌ ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: قد تقارب زمانُ نبيٍّ يُبْعَثُ الآنَ يقتلكم قَتْلَ عادٍ وإِرمَ، أي يستأصلكم بالقتل. فكان كثيراً ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله محمداً - ﷺ - أجبناه حين دعانا إلى الله - عز وجل - ، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه فأمنّا به وكفروا. ففي ذلك نزلت هذه الآية في «البقرة»: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. وعلى أية حال فلم يكن سائر العرب خارج يثرب يهتمون باليهود، بل ربما لم يكونوا على علم بوجودهم هناك، إذ لم تكن ليثرب في نظر العرب آنذاك أية أهمية، على عكس ما حدث بعد الهجرة النبوية إليها حيث اقتربت مكانتها في الضمير الإسلامي من مكانة أم القرى.

ولنفترض أن هذه المسألة مما لا يمكن البت فيها تاريخياً، فهل الكتاب المقدس من العصمة بحيث لا يمكن أية رواية تخالف ما جاء فيه، أو على الأقل لم يذكرها بين ما ذكر من أحداث ووقائع، إلا أن تكون كاذبة أو خاطئة؟ تعالوا ننظر في بعض ما رواه ذلك الكتاب لنرى مدى ما فيه من منطق أو سخف لا يقبله العقل، ومدى ما فيه من التاريخية أو الأسطورية والخرافة، ومدى ما فيه من التلاؤم أو التناقض بين أجزائه. ولنكن من الآن على دُكْرٍ من أن الشك يحيط بالكتاب المقدس من كل أطرافه، سواء من جهة مؤلفي أسفاره، أو من جهة سلامته من العبث والتحريف، أو من جهة المعلومات التاريخية والعلمية التي يحتويها، أو من جهة الأرقام التي يذكرها... إلخ، وهذا ما يقوله علماءهم أيضاً لا علماءنا وحدهم، ودَعُونَا من العوامِّ واعتقادات العوامِّ، فليس لهؤلاء نكتب ما نكتبه هنا. والآن مع بعض نصوص الكتاب المقدس نوردها شواهد على ما نقول في حق هذا الكتاب من أنه لا يصمد للعقل ولا للبحث العلمي، وأنه يناقض الحقائق التاريخية والطبيعية والرياضية:

«١٠. وَكَانَ نَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ عَدْنٍ لِيَسْقِيَ الْجَنَّةَ وَمِنْ هُنَاكَ يَنْقَسِمُ فَيَصِيرُ أَرْبَعَةَ رُؤُوسٍ:

١١ اسْمُ الْوَاحِدِ فَيَشُونَ وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ الْحَوِيلَةِ حَيْثُ الذَّهَبُ. ١٢ وَذَهَبُ تِلْكَ الْأَرْضِ جَيِّدٌ. هُنَاكَ الْمُقْلُ وَحَجَرُ الْجَزَعِ. ١٣ وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّانِي جِيحُونَ. وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ كُوشَ. ١٤ وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّلَاثِ حَدَاقِلُ. وَهُوَ الْجَارِي شَرْقِيَّ أَشُورَ. وَالنَّهْرُ الرَّابِعُ الْفُرَاتُ» (تكوين / ٢). أرايت، أيها القارئ العزيز، هذه الدرر الجغرافية والجيولوجية الحلمنتيشية التي يتقاصر دونها كل ما في كتب علماء الجغرافيا والجيولوجيا؟

«٦ فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلْأَكْلِ وَأَنَّهَا بَهْجَةٌ لِلْعُيُونِ وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضاً مَعَهَا فَأَكَلَ. ٧ فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تَيْنٍ وَصَنَعَا لِنَفْسِهِمَا مَآزِرَ. ٨ وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ إِلَهِ مَاشِيّاً فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ إِلَهِ فِي وَسْطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. ٩ فَنَادَى الرَّبُّ إِلَهِ آدَمَ: «أَيْنَ أَنْتَ؟». ١٠ فَقَالَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ لَأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ» (تكوين / ٣). ترى أهذا إله أم عُمْدَةٌ من عُمَدِ الرِّيفِ عِنْدَنَا فِي مِصْرَ خَرَجَ لَتَفْقِدَ حَقُولَهُ بَعْدَ غَفْوَةِ الْقِيلُولَةِ وَهَبُوبِ نَسَمَةِ الْعِصَارِيِّ؟ ثُمَّ أَى إِلَهٍ هَذَا الَّذِي يَخْتَبِئُ مِنْهُ عِبَادُهُ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْرِفَ أَيْنَ اخْتَبَأُوا فَيُضْطَرُّ إِلَى رَفْعِ صَوْتِهِ يَسْأَلُهُمْ أَيْنَ يَخْتَبِئُونَ؟

«١ أَوْحَدَتْ لَمَّا ابْتَدَأَ النَّاسُ يَكْثُرُونَ عَلَى الْأَرْضِ وَوُلِدَ لَهُمْ بَنَاتٌ ٢ أَنَّ أَبْنَاءَ اللَّهِ رَأَوْا بَنَاتِ النَّاسِ أَنَّهُنَّ حَسَنَاتٌ. فَاتَّخَذُوا لِنَفْسِهِمْ نِسَاءً مِنْ كُلِّ مَا اخْتَارُوا. ٣ فَقَالَ الرَّبُّ: «لَا يَدِينُ رُوحِي فِي الْإِنْسَانِ إِلَى الْأَبَدِ. لِيَزِفَانِهِ هُوَ بَشَرٌ وَتَكُونُ أَيَّامُهُ مِئَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً». ٤ كَانَ فِي الْأَرْضِ طُغَاءٌ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ أَيْضاً إِذْ دَخَلَ بَنُو اللَّهِ عَلَى بَنَاتِ النَّاسِ وَوُلِدْنَ لَهُمْ أَوْلَاداً - هَؤُلَاءِ هُمُ الْجَبَابِرَةُ الَّذِينَ مُنْذُ الدَّهْرِ ذُووُ اسْمٍ. ٥ وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ شَرَّ الْإِنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ كُلَّ تَصَوُّرِ أَفْكَارِ قَلْبِهِ إِنَّمَا هُوَ شَرٌّ كُلُّ يَوْمٍ. ٦ فَحَزَنَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الْإِنْسَانَ فِي الْأَرْضِ وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ. ٧ فَقَالَ الرَّبُّ: «أَمَحُوا عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ الْإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ: الْإِنْسَانَ مَعَ بَهَائِمٍ وَدَبَابَاتٍ وَطُيُورِ السَّمَاءِ. لَأَنِّي حَزِنْتُ أَنِّي عَمِلْتُهُمْ» (تكوين / ٦). هل سمع أحد من عقلاء البشر أو حتى مجانينه أن لله أولاداً؟ فَمَنْ أُمُّهُمْ يَا تَرَى؟ ثُمَّ عِنْدَمَا ذَهَبَ أَوْلَادُ اللَّهِ لِيُخْطَبُوا بَنَاتِ النَّاسِ، هَلْ أَخَذُوهُ مَعَهُمْ لِيَفَاتِحَ آبَاءَهُمْ وَيَتَّفِقَ مَعَهُمْ عَلَى الشَّبَكَةِ وَالْمَهْرِ وَالشَّقَةِ وَالْأَثَاثِ وَالَّذِي مِنْهُ؟ ثُمَّ أَى إِلَهٍ ذَلِكَ الَّذِي يَأْسَفُ وَيَنْدَمُ عَلَى مَا فَعَلَ؟ هَذَا لَيْسَ هُوَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بَلْ إِلَهٌ مِنَ آلِهَةِ الْوُثْنِيِّينَ الْبِدَائِيِّينَ بُلَغَ مِنْ غَضَبِهِ وَنَدَمِهِ أَنَّ تَشَوُّشَ عَقْلِهِ فَلَمْ يَعِدْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ بِأَتْفِهِ الْعَمَلِيَّاتِ الْحِسَابِيَّةِ، فَمَرَّةً يَقُولُ لِنُوحٍ: خُذْ مِنْ كُلِّ كَائِنٍ حَيٍّ اثْنَيْنِ ذَكَراً وَأُنْثَى، ثُمَّ

ينسى ما قاله بعد قليل فيجمل العدد من الحيوانات الطاهرة ومن طير السماء سبعة سبعة ذكوراً وإناثاً، ليعود مرة أخرى إلى عدد الاثنين (تكوين/ ٦ / ١٩ - ٢٠، و٧ / ٢ - ٣، ١٥ - ١٦).

وبمناسبة الحديث عن أبناء الله نحب أن ننبه القارئ أن الكتاب المقدس لا يكتفى بهؤلاء الأبناء المذكورين هنا، بل يذكر له سبحانه أبناء آخرين كآدم وإبراهيم وإسرائيل وداود وبنى إسرائيل جميعاً. وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَفْضُرُ لِمَنْ يَشَاءُ...﴾ (المائدة/ ١٨)، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجمعة/ ٦ - ٨).

وطبعاً يستطيع أي عاقل لم يتلوث فكره أو ضميره أو تأخذه العصبية عن رؤية الحق والشهادة به أن يدرك الفرق الرهيب بين النظرة الإسلامية الإنسانية التي تسوى بين البشر جميعاً في صلتهم بالله، وبين هذه الرؤية الأنانية المتعصبة المجنونة التي تزعم أن الله يفرق بين عباده: فيقرب بعضهم ويُقصي بعضهم لا على أساس من إيمانهم وعملهم، بل محاباة عمياء هوجاء لا تليق بأى إنسان حكيم، بله إلهاً عظيماً رحيماً عادلاً كريماً يعلو فوق العصبية القبلية والوطنية والقومية والعرقية واللونية؛ ببساطة لأنه خالق الكل، ويرحم الكل، ويرزق الكل، ويريد الخير والهداية للكل، ولا مقياس عنده للتفاضل غير النية الطيبة والإيمان المستقيم والعمل الصالح والطاعة والإخبات! ومرة أخرى لا يكتفى الكتاب المقدس بهذا، بل يجعل له سبحانه زوجة. ولم لا، والأولاد لا يأتون، كما نعرف، من أكمام الحاوى، بل لا بد من زوج وزوجة! جاء في «المزامير» على لسان داود مخاطباً الله تعالى: «وقفتُ زوجتك عن يمينك، وعِصَاصُهَا من ذهب. أيتها الابنة، اسمعى وميلى بأذنك، وأبصرى وأنسى عشيرتك وبيت أبيك فيهواك الملك، وهو الربّ والله، فاسجدي له طوعاً». كان هذا في النسخة التي في يد ابن حزم. رحمته الله، ثم غير مترجمو البروتستانت في العصر الحديث ذلك فحذفوا كلمة «زوجتك» ووضعوا مكانها لفظة «الملّكة»، كما استبدلوا بعبارة «وهو الرب والإله» قولهم: «لأنه هو سيدك!» (انظر المزمور ٩ / ١١، وقارن بالترجمة القديمة الموجودة في «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم/ تحقيق د. محمد إبراهيم نصرود. عبد الرحمن عميرة/ مكتبات عكاظ/ ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م / ١ / ٢٠٧ - ٢٠٨).

ولعل هنا المكان المناسب لنعرّف القارئ الطيب القلب بطبيعة العلاقة بين الله سبحانه وتعالى وزوجته كما يصورها مؤلفو الكتاب المقدس. إنه زوج مسكين (استغفره سبحانه وأبرأ إليه من هذا الرجس، ولكن ماذا تفعل؟ ما باليد حيلة، فإن الأحقاد تأكل قلوب القوم فلا يرتاحون إلا بالتطاول على سيد المرسلين، وهم لن يرتاحوا أبداً، فما كان الحقد يوماً بمريح صاحبه، فيضطروننا من ثم إلى الرد عليهم من واقع كتبهم التي يرفعونها في وجه نبينا الكريم متصورين أنهم يمكن أن يُجلبوا على القارئ الطيب الذي ليس عنده فكرة عما يقولون فيظن، لسلامة طويته، أنهم لا يكذبون)، نعم إنهم يصورونه، تباركت أسماؤه، بصورة الزوج المسكين الذي تمرّع زوجته كل يوم شرفه في الرغام فيهدد ويتوعد ويملاً الدنيا بصراخه وشتائمه، ثم لا يفعل شيئاً سوى العودة إليها صاغراً راغماً وتجرع كأس المذلة من جديد: «٢ يا ابن آدم، عرّف أورشليم برجاساتها ٣ وقُل: هكذا قال السيّد الرب لأورشليم: مخرجك ومولدك من أرض كنعان. أبوك أموري وأمك حثية. ٤ أمّا ميلادك يوم ولدت فلم تقطع سُرّتك، ولم تغسلي بالماء للتّظف، ولم تملحي تمليحاً، ولم تقمطي قميطاً. ٥ لم تشفق عليك عين لتصنع لك واحدة من هذه لترقّ لك. بل طرحت على وجه الحقل بكراهة نفسك يوم ولدت. ٦ فمررت بك ورأيتك مدوسة بدمك، فقلت لك: بدمك عيشي. قلت لك بدمك عيشي. ٧ جعلتك ربوة كنبات الحقل، فربوت وكبرت وبلغت زينة الأزيان. نهّد ثدياك ونبت شعرك وقد كنت عريانة وعارية. ٨ فمررت بك ورأيتك، وإذا زمنك زمن الحب. فبسطت ذيلي عليك وسترت عورتك، وحلفت لك ودخلت معك في عهد يقول السيّد الرب، فصرت لي. ٩ فحممتك بالماء وغسلت عنك دماءك ومسحتك بالزيت، ١٠ وألبستك مطرزة، ونعلتك بالتخس، وأزرّتك بالكتان وكسوتك بزاً، ١١ وأحلّيتك بالحلي، فوضعت أسورة في يديك وطوقاً في عنقك. ١٢ ووضعت خزامة في أنفك وأقراطاً في أذنيك وتاج جمال على رأسك. ١٣ فتحلّيت بالذهب والفضة ولباسك الكتان والبر والمطرز. وأكلت السميد والغسل والزيت، وجملت جداً جداً فصلحت لمملكة. ١٤ وأخرج لك اسم في الأمم لجمالك، لأنه كان كاملاً بيّهائي الذي جعلته عليك يقول السيّد الرب. ١٥ فاتكّلت على جمالك وزنيت على اسمك، وسكبت زناك على كلّ عابر فكان له. ١٦ وأخذت من ثيابك وصنعت لنفسك مرتفعات موشاة وزنيت عليها. أمر لم يأت ولم يكن. ١٧ وأخذت أمتعة زينتك من ذهبي ومن فضتي التي أعطيتك، وصنعت لنفسك صوراً ذكور وزنيت بها. ١٨ وأخذت ثيابك المطرزة وغطيته بها ووضعت أمامها زيتي ويخوري. ١٩ وأخبري الذي أعطيتك، السميد والزيت والغسل الذي أطعمتك، وضعتها أمامها رائحة سرور. وهكذا كان يقول السيّد

الرَّبُّ. ٢٠ أَخَذَتْ بَنِيكَ وَبَنَاتِكَ الَّذِينَ وَلَدَتْهُمْ لِي وَذَبَحْتَهُمْ لَهَا طَعَامًا. أَهْوَ قَلِيلٌ مِنْ زَنَّاكَ ٢١ أَنْكَ ذَبَحْتَ بَنِيَّ وَجَعَلْتَهُمْ يَجُوزُونَ فِي النَّارِ لَهَا ٢٢ وَفِي كُلِّ رَجَاسَاتِكَ وَزَنَّاكَ لَمْ تَذْكُرِي أَيَّامَ صِبَاكَ، إِذْ كُنْتَ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً وَكُنْتَ مَدُوسَةً بِدَمِكَ. ٢٣ وَكَانَ بَعْدَ كُلِّ شَرْكَ. وَتِلْ وَتِلْ لَكَ يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، ٢٤ أَنْكَ بَنَيْتَ لِنَفْسِكَ قُبَّةً وَصَنَعْتَ لِنَفْسِكَ مُرْتَفَعَةً فِي كُلِّ شَارِعٍ. ٢٥ فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيقٍ بَنَيْتَ مُرْتَفَعَتَكَ وَرَجَسْتَ جَمَالَكَ، وَفَرَجْتَ رَجْلَيْكَ لِكُلِّ عَابِرٍ وَكَثَّرْتَ زَنَّاكَ. ٢٦ وَزَنَيْتَ مَعَ جِيرَانِكَ بَنِي مِصْرَ الْفِلَاطِ اللَّحْمِ، وَزَدْتَ فِي زَنَّاكَ لِإِعْظَمِي. ٢٧ فَهَتَّنَا قَدْ مَدَدْتَ يَدِي عَلَيْكَ، وَمَنَعْتَ عَنْكَ فَرِيضَتَكَ، وَأَسْلَمْتُكَ لِمَرَامِ مُبْغِضَاتِكَ بَنَاتِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ اللَّوَاتِي يَخْجَلْنَ مِنْ طَرِيقِكَ الرَّذِيلَةِ. ٢٨ وَزَنَيْتَ مَعَ بَنِي أَشُورَ إِذْ كُنْتَ لَمْ تَشْبَعِي فَرَنَيْتَ بِهِمْ، وَلَمْ تَشْبَعِي أَيْضًا. ٢٩ وَكَثَّرْتَ زَنَّاكَ فِي أَرْضِ كَثْعَانَ إِلَى أَرْضِ الْكَلْدَانِيِّينَ، وَبِهَذَا أَيْضًا لَمْ تَشْبَعِي. ٣٠ أَمَا أَمْرَضَ قَلْبَكَ يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، إِذْ فَعَلْتَ كُلَّ هَذَا فِعْلَ امْرَأَةٍ زَانِيَةٍ سَلِيطةٍ ٣١ بَيْنَانِكَ قُبَّتِكَ فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيقٍ، وَصَنَعْتَ مُرْتَفَعَتَكَ فِي كُلِّ شَارِعٍ. وَلَمْ تَكُونِي كَزَانِيَةٍ، بَلْ مُحْتَقِرَةُ الْأَجْرَةِ. ٣٢ أَيْسَهَا الزَّوْجَةُ الْفَاسِقَةُ، تَأْخُذُ أَجْنَبِيِّينَ مَكَانَ زَوْجِهَا. ٣٣ الْكُلُّ الزَّوَانِي يُعْطُونَ هَدِيَّةً، أَمَا أَنْتِ فَقَدْ أَعْطَيْتِ كُلَّ مُحِبِّيكِ هَدَايَاكَ، وَرَشَيْتَهُمْ لِيَأْتُوكَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِلزَّانَا بِكَ. ٣٤ وَأَصَارَ فِيكَ عَكْسُ عَادَةِ النِّسَاءِ فِي زَنَّاكَ، إِذْ لَمْ يُزْنَ وَرَاءَكَ، بَلْ أَنْتِ تُعْطِينَ أَجْرَةً وَلَا أَجْرَةً تُعْطَى لَكَ، فَصِرْتَ بِالْعَكْسِ! ٣٥ فَلِذَلِكَ يَا زَانِيَةُ اسْمَعِي كَلَامَ الرَّبِّ. ٣٦ هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ قَدْ أَنْفَقَ نَحَاسُكَ وَأَنْكَشَفَتْ عَوْرَتُكَ بِزَنَّاكَ بِمُحِبِّيكِ وَبِكُلِّ أَصْنَامِ رَجَاسَاتِكَ، وَلِدِمَاءِ بَنِيكَ الَّذِينَ بَذَلْتَهُمْ لَهَا، ٣٧ لِذَلِكَ هَتَّنَا أَجْمَعُ جَمِيعَ مُحِبِّيكِ الَّذِينَ لَذَذْتَ لَهُمْ، وَكُلِّ الَّذِينَ أَحْبَبْتَهُمْ مَعَ كُلِّ الَّذِينَ أَبْغَضْتَهُمْ، فَأَجْمَعُهُمْ عَلَيْكَ مِنْ حَوْلِكَ، وَأَكْشِفُ عَوْرَتَكَ لَهُمْ لِيَنْظُرُوا كُلَّ عَوْرَتِكَ. ٣٨ وَأَحْكُمُ عَلَيْكَ أَحْكَامَ الْفَاسِقَاتِ السَّافِكَاتِ الدَّمِ، وَأَجْعَلُكَ دَمَ السَّخَطِ وَالْغَيْرَةِ. ٣٩ وَأَسْلَمُكَ لِيَدِهِمْ فَيَهْدِمُونَ قُبَّتَكَ وَيُهْدِمُونَ مُرْتَفَعَاتِكَ وَيَنْزِعُونَ عَنْكَ ثِيَابَكَ وَيَأْخُذُونَ أَدَوَاتِ زِينَتِكَ، وَيَتْرَكُونَكَ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً. ٤٠ وَيُصْعِدُونَ عَلَيْكَ جَمَاعَةً وَيَرْجُمُونَكَ بِالْحِجَارَةِ وَيَقْطَعُونَكَ بِسُيُوفِهِمْ، ٤١ وَيُحْرِقُونَ بَيْتَكَ بِالنَّارِ وَيُجْرُونَ عَلَيْكَ أَحْكَامًا قَدَامَ عُيُونِ نِسَاءٍ كَثِيرَةٍ. وَأَكْفُكَ عَنِ الزَّانَا، وَأَيْضًا لَا تُعْطِينَ أَجْرَةً بَعْدُ. ٤٢ وَأَحِلُّ غَضَبِي بِكَ فَتَتَصَرَّفُ غَيْرَتِي عَنْكَ فَاسْكُنْ وَلَا أَعْضَبُ بَعْدُ. ٤٣ مِنْ أَجْلِ أَنْكَ لَمْ تَذْكُرِي أَيَّامَ صِبَاكَ بَلْ أَسَخَطْتَنِي فِي كُلِّ هَذِهِ، فَهَتَّنَا أَيْضًا أَجْلِبُ طَرِيقَكَ عَلَى رَأْسِكَ يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. فَلَا تَفْعَلِينَ هَذِهِ الرَّذِيلَةَ فَوْقَ رَجَاسَاتِكَ كُلِّهَا» (حزقيال / ١٦).

«٢ حَاكِمُوا أَمْكُمُ حَاكِمُوا لِأَنَّهُا لَيْسَتْ امْرَأَتِي وَأَنَا لَسْتُ رَجُلَهَا لِتَعْمَلَ زَنَاهَا عَنْ وَجْهِهَا وَفَسَقَهَا مِنْ بَيْنِ نَدَبِيهَا ٣ لِئَلَّا أُجْرِدَهَا عُرْيَانَةً وَأَوْقِفَهَا كَيَوْمِ وَلَادَتِهَا وَأَجْعَلَهَا كَقَفَرٍ

وَأَصْنِيَرَهَا كَأَرْضِ يَابَسَةٍ وَأَمِيَّتَهَا ب/لَعَطَش. ٤ وَلَا أَرْحَمُ أَوْلَادَهَا لِأَنَّهُمْ أَوْلَادُ زَنَى. ٥ «لَأَنَّ أُمَّهُمْ قَدْ زَنَتْ. الَّتِي حَبَلَتْ بِهِمْ صَنَعَتْ خِزْيًا. لِأَنَّهَا قَالَتْ: أَذْهَبُ وَرَاءَ مُحِبِّي الَّذِينَ يُعْطُونَ خُبْرِي وَمَائِي صُوفِي وَكُتَّانِي زَيْتِي وَأَشْرِيَّتِي. ٦ ذَلِكَ هَتَّنَدَا أُسَيِّجُ طَرِيقَكَ ب/لَشَوْكَ وَأَبْنِي حَائِطَهَا حَتَّى لَا تَجِدَ مَسَالِكَهَا. ٧ فَتَتَّبِعُ مُحِبِّيَهَا وَلَا تُدْرِكُهُمْ وَتَقْتَشُ عَلَيْهِمْ وَلَا تَجِدُهُمْ. فَتَقُولُ: أَذْهَبُ وَأَرْجِعُ إِلَى رَجُلِي الْأَوَّلِ لِأَنَّهُ حِينْتُدُ كَانَ خَيْرٌ لِي مِنَ الْآنَ. ٨» وَهِيَ لَمْ تَعْرِفْ أَنِّي أَنَا أَعْطَيْتُهَا الْقَمْحَ وَالْمِسْطَارَ وَالزَّيْتَ وَكَثَّرْتُ لَهَا فِضَّةً وَذَهَبًا جَعَلُوهُ لِبَعْلٍ. ٩ ذَلِكَ أَرْجِعُ وَأَخْذُ قَمْحِي فِي حِينِهِ وَمِسْطَارِي فِي وَقْتِهِ وَأَنْزَعُ صُوفِي وَكُتَّانِي اللَّذِينَ لَسْتَرُ عَوْرَتَهَا. ١٠ وَالْآنَ أَكْشِفُ عَوْرَتَهَا أَمَامَ عَيُونِ مُحِبِّيَهَا وَلَا يُنْقِذُهَا أَحَدٌ مِنْ يَدِي. ١١ وَأَبْطُلُ كُلَّ أَفْرَاحِهَا: أَعْيَادَهَا وَرُؤُوسَ شُهُورِهَا وَسُبُوتَهَا وَجَمِيعَ مَوَاسِمِهَا. ١٢ وَأُخْرِبُ كَرَمَهَا وَتِينَهَا اللَّذِينَ قَالَتْ: هُمَا أَجْرَتِي الَّتِي أَعْطَانِيهَا مُحِبِّي وَأَجْعَلُهُمَا وَغَرًا فَيَأْكُلُهُمَا حَيَوَانُ الْبَرِّيَّةِ. ١٣ وَأَعَاقِبُهَا عَلَى أَيَّامِ بَعْلِيمِ الَّتِي فِيهَا كَانَتْ تُبْخَرُ لَهُمْ وَتَتَزَيَّنُ بِخَزَائِمِهَا وَحُلِيِّهَا وَتَذْهَبُ وَرَاءَ مُحِبِّيَهَا وَتَتَسَانِي أَنَا يَقُولُ الرَّبُّ. ١٤ اسْلُكِي هَتَّنَدَا أَتَمْلُقُهَا وَأَذْهَبُ بِهَا إِلَى الْبَرِّيَّةِ وَالْأَطْفُفِهَا ١٥ وَأَعْطِيهَا كُرُومَهَا مِنْ هُنَاكَ وَوَادِي عَخُورَ بَابًا لِلرَّجَاءِ. وَهِيَ تُغْنِي هُنَاكَ كَأَيَّامِ صِبَاهَا وَكَيَوْمِ صُعُودِهَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. ١٦ وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَقُولُ الرَّبُّ أَنْكَ تَدْعِينَنِي «رَجُلِي» وَلَا تَدْعِينَنِي بَعْدُ «بَعْلِي» (هوشع / ٢)...

ونكتفي بهذين النصين، وهناك نصوص أخرى غيرهما لمن يفتح الكتاب المقدس ويقرأ ولا يكتفى بثقافة الأذن كأذناب الغرب من بيننا الذين يحلو لهم، بسبب غيائهم وسلطنة أسنتهم، أن يعيبوا «الإسلام» بأنه «ثقافة البعير». وفاتهم، لحماقتهم وسفالتهم، أن المشكلة ليست في «ثقافة البعير»، بل فيما رُكِبَ في رؤوسهم من «عقول الحمير»!

أما في النص التالي فإن كاتبه يرتكب التزييف بغباء ليس بعده من غباء، فقد رزق الله خليله إبراهيم بإسماعيل، ثم مكث عليه السلام بعد ذلك عدة أعوام قبل أن يرزقه أيضاً بإسحاق، ومع هذا نقرأ في الكتاب المسمى بـ«المقدس» أمر الله له بأن يأخذ ابنه «وحيدة» ليقدمه له ضحية. ويقول المنطق والعقل ونصوص الكتاب المقدس ذاتها إن الكلام لا يمكن أن يكون إلا عن إسماعيل؛ لأنه هو الذي يمكن أن يطلق عليه: «وحيد إبراهيم»، إذ مكث، كما قلنا، عدة أعوام قبل أن يلحق به إسحاق، أما إسحاق فلم يكن وحيد أبيه يوماً! لكن مهلاً أيها القارئ، فأنت مع «الكتاب المقدس» ذي التفانين والتعاجيب، وعلى هذا فلا تستغرب أن يصادم مؤلف هذا السُّفَر المنطق والعقل والكلام الذي كتبه هو قبل ذلك بيده التي سيأكلها الدود في القبر وتحرقها النار يوم القيامة، فيقول على لسان الله سبحانه: «خذ ابنك وحيدك الذي تحبه: إسحاق...» (تكوين / ٢٢ /

١- ١٣). فماذا كان إسماعيل إذن يا ترى؟ ألعنه كان ابن الجيران؟ أم ترى نسي الله عز وجل أنه كان قد وهب إبراهيم قبل عدة أعوام ابناً اسمه إسماعيل؟ ثم يأتي في آخر الزمان صوّحِبُنَا هذا ويجد في نفسه الجرأة ليكذب رسولنا بهذه الطريقة السفهية!

وإذا قرأنا قصة ولادة موسى، وما فعلته أمه بعد أن لم تستطع الاستمرار في إخفائه عن عيون رجال فرعون الموكّلين بقتل الرضيع من بني إسرائيل نجد كاتب القصة يقول إنها أخذت سَفَطاً من البردي وطلّته بالحُمَر والزفت، وأرقدت فيه الطفل، ثم وضعت بين الحلفاء على حافة النهر حيث التقطته ابنة فرعون. وواضح أن التابوت، حسب هذه الرواية، لم يُلقَ في الماء. وإنما لنتساءل: فلم إذن طلّته أم موسى بالحُمَر والزفت، وهما المادتان اللتان تُطلّى بهما القوارب لمنع دخول الماء فيها حتى لا تفرق؟ فإذا مضينا في القراءة فوجدنا بأن ابنة فرعون تسمى الطفل: «موسى» قائلة: «إني انتشلتُه من الماء» (خروج/ ٢ / ٢- ٤، ١٠). وهكذا يتبين لنا مما يقوله كاتب السفر نفسه أن السَفَط كان قد أُلْقِيَ في النهر ولم يوضع على الحلفاء فوق الشط. ومعنى هذا بكل بساطة ووضوح أن القصة تتناقض مع نفسها، أما القرآن فقد قال قولاً واحداً إن الله سبحانه قد ألهم أم الرضيع أن تلقى به في تابوت ثم تقذف به في اليمّ (طه/ ٣٨- ٣٩، والقصص/ ٧).

وفي سفر «الخروج» (٢٣ / ٢٠) نقرأ قول الرب لموسى: «لا تقدر أن ترى وجهي، لأن الإنسان لا يراني ويعيش»، وإن قيل عقب ذلك إن من الممكن أن ينظر موسى وراء الله بعد أن يجتاز، وكأن لله خلفاً وقداماً، وظهراً ووجهاً بالمعنى المألوف. ونسي كاتب السفر أنه قال في موضع آخر إن الله كان يكلم موسى «وجهاً لوجه» كما يكلم الرجل صاحبه» (خروج/ ٣٣ / ١١)، وهو ما أكدته سفر «العدد»، إذ جاء فيه (١٢ / ٧- ٨): «وأما عبدي موسى فليس هكذا، بل هو أمين في كل بيتي. فمّا إلى فمّ وعيانتا أتكلم معه لا بالألفاظ»، وقاله موسى نفسه حسبما جاء في سفر «التثية» (٥ / ٤): «وجهاً لوجه» تكلم الرب معنا من وسط النار». ليس ذلك فحسب، بل رأى الله، مع موسى، هارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ بني إسرائيل كما مرّ من قبل.

كذلك يجد القارئ الطيب في الكتاب المقدس، لو أراد، قصصاً عن الأنبياء تشيب لهولها الولدان (والبنات أيضاً، أليس لهن نفس؟): فهذا لوط تنام في أحضانه ابنتاه بعد أن سقته خمراً وتمارسان الفحشاء معه بالدور، كل واحدة في ليلة خاصة بها، حتى تحبلا ويكون لهما ذرية! وهذا إبراهيم يقدم زوجته للملك مقابل بعض الماشية، وكاد الملك أن يرتكب معها الفاحشة لولا رؤيا رآها في المنام عرف منها أن المرأة ليست

أختاً لإبراهيم، بل زوجته! وهذا داود يرى من فوق سطح قصره امرأة قائد العسكرى يوريا الحيثي، وهي تستحم في فناء بيتها عارية كما ولدتها أمها، فتقع طبعاً في نفسه ويرسل فيحضرها ويزني بها، ثم لا يكتفي بهذا، بل يدبر بكل ندالة مؤامرة للتخلص من زوجها القائد العسكرى المخلص، ويتم له المراد فيلحق المرأة بحريمه بعد أن تنتهي من مدة الحداد (والله فيه البركة!). وهذه المرأة هي أم سليمان عليه السلام حسبما يقول مزيفو الكتاب المقدس، أما سليمان ذاته فينظم نشيدا في الغزل الشهواني لا يستطيع نزار قباني ولا ستون واحدا كنزار قباني أن ينظمه، وكله في الأعكان اللدنة والسُرر المدوّرة والأثداء الممتلئة والأفخاذ الملفوفة والتهديدات الحارة والأحضان الملتهبة واللقاءات الليلية الدنسة! ولم لا؟ أليس ابن بَشَبَع، التي لم يكن في قصر زوجها (يا حبة عيني!) مكان تتوارى فيه عن الأنظار وهي تستحم، فكانت تفتسل في الفناء على طريقة راقصات الإستريتيز؟ وهذا... وهذا... وأستغفر الله على نقل هذا الكلام، ولكن ما العمل؟ وما باليد حيلة إزاء السفالات التي يغادينا ويماسينا بها القوم بكل وقاحة، وكأنهم يمسون على سيدنا رسول الله زلة فإذا جئت تكلمهم وتقول لهم إن أنبياءكم، حسب شهادتكم أنتم لا غيركم، فعلوا كذا وكذا كان ردّهم: «إنهم بشر، والله قد غفر لهم!» طيب يا أولاد الأفاعي (كما قال فيكم السيد المسيح - عليه السلام - حسب روايات الأنجيل)، لم لا تنظرون بنفس العين إلى ما تدعونه على سيد البشر كذباً، وهو لا يبلغ واحداً على الألف مما تقولون أنتم بعظمة لسانكم إن أنبياءكم قد ارتكبوه؟ أم تراكم تقولون إن عفو الله حين بلغ محمداً قد نفد وانتهى، ولم يعد من الممكن التعاقد على «طلبية» أخرى منه لأن خطوط الإنتاج في «مصانع العفو والمغفرة» قد أُغْلِقَتْ، وبيعت المصانع نفسها «خُرْدَة» لمقاول من مقاولي القطاع الخاص إياهم؟ غني عن البيان أن القرآن لا يعترف بمثل هذه الحكايات المجرمة الكافرة، فالأنبياء فيه رجالٌ بلغوا الذروة في الإيمان القويم والخلق الكريم؛ لأن الله قد اصطفاهم من خيرة خلقه وصنّعهم على عينه، ولم يُلْمَهُم من شُذَّاذ الحوارى ومتشرّدي الأزقة!

إن الكتاب المقدس مملوء بالعبر، ومن يقلّب صفحاته يجد العجب، ولو تركتُ لنفسي حبلها على غاريها فلن تتوقف، ولن يخذلها أيضاً الكتاب المقدس المملوء بالخرافات والروايات التي تُضْحِكُ التَّكَلَّى إضحاكاً. لكنى أستسمح القارئ أن أحكي له هذه الطُّرْفَة وأَعِدُّه أنها ستكون آخر طرفة في هذا السياق: ففي سفر «أخبار الأيام الثاني» نجد أن يهورام الملك حين ارتقى سدة الحكم كان عمره اثنتين وثلاثين سنة، وظل يحكم ثمانى سنوات، ثم مات. فماذا كان عمره حينذاك؟ أربعين سنة طبعاً. لكننا

نفاجاً بكاتب السفر بعد ثلاثة أسطر يقول لنا إن ابنه أخزيا، الذي تولى الحكم بعده مباشرة، كان عمره اثنتين وأربعين سنة (٢١ / ٢٠، و٢٢ / ١ - ٢). وليس لهذا من معنى إلا أن الولد كان يكبر أباه بسنتين!!! انتهت النكتة!!!

إن صاحبنا يريد أن يوهم القارئ بأن المشكلة إنما تكمن في الرسول، فهو لم يكن مطلعاً على التوراة، بل كانت معرفته بها شذرات من طريق العوام من هنا وهناك؛ ومن ثم كانت معلوماته عنها خاطئة، ولم يكن يطيق أن يصحح اليهود له أخطاءه، فكان ينقم عليهم ويشعر بالجدد تجاههم. عظيم! خلنا وراء الكذاب لحد باب الدار! فماذا يكون جوابه إذاً لو بيّنا للقارئ أن ما قاله القرآن والرسول في حق اليهود (كسّر حقهم!) أخفّ كثيراً جداً مما يقوله العهد القديم وأنبيائهم هم أنفسهم فيهم؟.

ولنبداً بالمسيح، الذي كان إسرائيلياً مثلهم، وترى في وسطهم، وتعلم كتابهم، وسمع أحبارهم، وتردد على معبدهم، والذي كثيراً ما صبّ لعناته فوق رؤوسهم النجسة، ودعا عليهم بالويل والثبور ووسمهم بـ«المرائين»، و«قتلة الأنبياء وراجمي المرسلين»، و«أولاد الأفاعي»، و«خراف بني إسرائيل الضالة»، و«فاعلي الإثم»، و«الشعب الصلب الرقبة»، و«الجيل الشرير»، و«لصوص المغارة»... وهلمّ جرّاً مما لا يُعدّ ما وصفهم القرآن به شيئاً يُذكر! أم تراه سيعترض بأنهم لا يعترفون به عليه السلام نبياً؟ فلننتقل إذن إلى غيره، ولنأخذ زكريا وإرميا وعزرا وموسى على سبيل المثال، وسنختار النصوص التالية مجرد عينة ليس إلا: «^١ فِي الشَّهْرِ الثَّامِنِ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لِدَارِيُوسَ كَانَتْ كَلِمَةُ الرَّبِّ إِلَى زَكَرِيَّا بْنِ بَرَخِيَّا بْنِ عِدُو النَّبِيِّ: ^٢ قَدْ غَضِبَ الرَّبُّ غَضَباً عَلَى آبَائِكُمْ. ^٣ فَقُلْ لَهُمْ: [هَكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ: ارْجِعُوا إِلَيَّ يَقُولُ رَبُّ الْجُنُودِ فَأَرْجِعَ إِلَيْكُمْ يَقُولُ رَبُّ الْجُنُودِ. ^٤ لَا تَكُونُوا كَأَبَائِكُمُ الَّذِينَ نَادَاهُمْ الْأَنْبِيَاءُ الْأَوَّلُونَ: هَكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ: ارْجِعُوا عَنْ طُرُقِكُمُ الشَّرِّيرَةِ وَعَنْ أَعْمَالِكُمُ الشَّرِّيرَةِ. فَلَمْ يَسْمَعُوا وَلَمْ يُصْنَفُوا إِلَيَّ] (نبوءة زكريا / ١)، «^٥ وَكَانَ كَلَامُ الرَّبِّ إِلَى زَكَرِيَّا: ^٦ هَكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ: اقْضُوا قَضَاءَ الْحَقِّ وَاعْمَلُوا إِحْسَاناً وَرَحْمَةً كُلُّ إِنْسَانٍ مَعَ أَخِيهِ. ^٧ وَلَا تَظْلِمُوا الْأَرْمَلَةَ وَلَا الْيَتِيمَ وَلَا الْغَرِيبَ وَلَا الْفَقِيرَ وَلَا يُفَكِّرْ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَرّاً عَلَى أَخِيهِ فِي قَلْبِهِ. ^٨ فَأَبُوا أَنْ يُصْنَفُوا وَأَعْطُوا كَتَفاً مُعَانِدَةً وَثَقَلُوا آذَانَهُمْ عَنِ السَّمْعِ. ^٩ بَلْ جَعَلُوا قُلُوبَهُمْ مَاساً لئَلَّا يَسْمَعُوا الشَّرِيعَةَ وَالْكَلامَ الَّذِي أَرْسَلَهُ رَبُّ الْجُنُودِ بِرُوحِهِ عَنْ يَدِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَوَّلِينَ. فَجَاءَ غَضَبٌ عَظِيمٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّ الْجُنُودِ. ^{١٠} فَكَانَ كَمَا نَادَى هُوَ فَلَمْ يَسْمَعُوا كَذَلِكَ يُنَادُونَ هُمْ فَلَا أَسْمَعَ قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ. ^{١١} وَأَعْصَفَهُمْ إِلَى كُلِّ أُمَمٍ الَّذِينَ لَمْ يَعْرِفُوهُمْ. فَخَرِبَتِ الْأَرْضُ وَرَاءَهُمْ لَا ذَاهِبَ وَلَا آتِبَ. فَجَعَلُوا الْأَرْضَ الْبَهْجَةَ خَرَاباً] (نبوءة زكريا / ٧).

« كَيْفَ جَلَسَتْ وَحَدَّهَا الْمَدِينَةُ الْكَثِيرَةُ الشَّعْبِ؟ كَيْفَ صَارَتْ كَارْمَلَةَ الْعَظِيمَةِ فِي الْأُمَمِ؟ السَّيِّدَةُ فِي الْبُلْدَانِ صَارَتْ تَحْتَ الْجَزْيَةِ ١ تَبْكِي فِي اللَّيْلِ بُكَاءً وَدُمُوعُهَا عَلَى خَدَّيْهَا. لَيْسَ لَهَا مَعَزٌ مِنْ كُلِّ مُحِبِّهَا. كُلُّ أَصْحَابِهَا غَدَرُوا بِهَا. صَارُوا لَهَا أَعْدَاءً. ٢ قَدْ سُبِّتَ يَهُودًا مِنَ الْمَذَلَّةِ وَمِنْ كَثْرَةِ الْعُبُودِيَّةِ. هِيَ تَسْكُنُ بَيْنَ الْأُمَمِ. لَا تَجِدُ رَاحَةً. قَدْ أَدْرَكَهَا كُلُّ طَارِدِيهَا بَيْنَ الضِّيَقَاتِ. ٣ طُرُقُ صِهْيَوْنَ نَائِحَةٌ لِعَدَمِ الْآتِينَ إِلَى الْعِيدِ. كُلُّ أَبْوَابِهَا خَرِبَةٌ. كَهَنَتُهَا يَتَنَهَّدُونَ. عَذَارَاهَا مُذَلَّلَةٌ وَهِيَ فِي مَرَارَةٍ. ٤ صَارَ مُضَايِقُوهَا رَأْسًا. نَجَحَ أَعْدَاؤُهَا لِأَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَذَلَّهَا لِأَجْلِ كَثْرَةِ ذُنُوبِهَا. ذَهَبَ أَوْلَادُهَا إِلَى السَّبْيِ قُدَّامَ الْعَدُوِّ. ٥ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ بَنَتِ صِهْيَوْنَ كُلُّ بَهَائِهَا. صَارَتْ رُؤْسَاؤُهَا كَأَيَّامٍ لَا تَجِدُ مَرْعَى فَيَسِيرُونَ بِلا قُوَّةٍ أَمَامَ الطَّارِدِ. ٦ قَدْ ذَكَرَتْ أُورُشَلِيمُ فِي أَيَّامِ مَذَلَّتِهَا وَتَطَوَّحِهَا كُلُّ مُسْتَهْيَاتِهَا الَّتِي كَانَتْ فِي أَيَّامِ الْقَدَمِ. عِنْدَ سُقُوطِ شَعْبِهَا بِيَدِ الْعَدُوِّ وَلَيْسَ مَنْ يُسَاعِدُهَا. رَأَتْهَا الْأَعْدَاءُ. ضَحِكُوا عَلَى هَلَاكِهَا. ٧ قَدْ أَخْطَأَتْ أُورُشَلِيمُ خَطِيئَةً مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ صَارَتْ رَجْسَةً. كُلُّ مُكْرَمِيهَا يَحْتَقِرُونَهَا لِأَنَّهُمْ رَأَوْا عَوْرَتَهَا وَهِيَ أَيْضًا تَتَنَهَّدُ وَتَرْجِعُ إِلَى الْوَرَاءِ. ٨ نَجَّاسَتُهَا فِي أَذْيَالِهَا. لَمْ تَذْكُرْ آخِرَتَهَا وَقَدْ انْحَطَّتْ انْحِطَاطًا عَجِيبًا. لَيْسَ لَهَا مَعَزٌ. (مراثي إرميا / ١ / ٨ - ٩).

« أَوَلَمَّا كَمَلْتَ هَذِهِ تَقْدَمَ إِلَى الرُّؤَسَاءِ قَائِلِينَ: أَلَمْ يَنْفَصِلْ شَعْبُ إِسْرَائِيلَ وَالْكَهَنَةُ وَاللَّوِيُّونَ مِنْ شُعُوبِ الْأَرَاضِي حَسَبَ رَجَاسَاتِهِمْ مِنَ الْكَتَعَانِيِّينَ وَالْحَثِّيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ وَالْعَمُونِيِّينَ وَالْمُوَابِيِّينَ وَالْمِصْرِيِّينَ وَالْأَمُورِيِّينَ. ١ لِأَنَّهُمْ اتَّخَذُوا مِنْ بَنَاتِهِمْ لَأَنْفُسِهِمْ وَلِبَنَاتِهِمْ وَاخْتَلَطَ الزَّرْعُ الْمُقَدَّسُ بِشُعُوبِ الْأَرَاضِي. وَكَانَتْ يَدُ الرُّؤَسَاءِ وَالْوَلَاةِ فِي هَذِهِ الْخِيَانَةِ أَوَّلًا ٢. [فَلَمَّا سَمِعْتُ بِهَذَا الْأَمْرِ مَرَّقْتُ ثِيَابِي وَرَدَائِي وَتَنَفَّتُ شَعْرَ رَأْسِي وَذَقْنِي وَجَلَسْتُ مُتَحِيرًا. ٣ فَاجْتَمَعَ إِلَيَّ كُلُّ مَنْ ارْتَعَدَ مِنْ كَلَامِ إِلَهِ إِسْرَائِيلَ مِنْ أَجْلِ خِيَانَةِ الْمَسْبِيِّينَ وَأَنَا جَلَسْتُ مُتَحِيرًا إِلَى تَقْدِمَةِ الْمَسَاءِ. ٤ وَعِنْدَ تَقْدِمَةِ الْمَسَاءِ قُمْتُ مِنْ تَذَلُّلِي وَفِي ثِيَابِي وَرَدَائِي الْمُمَرَّقَةِ جَثَوْتُ عَلَى رُكْبَتَيَّ وَبَسَطْتُ يَدَيَّ إِلَى الرَّبِّ إِلَهِي ٥ وَقُلْتُ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَخْجَلُ وَأَخْزَى مِنْ أَنْ أَرْفَعَ يَا إِلَهِي وَجْهِي نَحْوَكَ لِأَنَّ ذُنُوبَنَا قَدْ كَثُرَتْ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَثَامُنَا تَعَاطَمَتْ إِلَى السَّمَاءِ. ٦ مُنْذُ أَيَّامِ آبَائِنَا نَحْنُ فِي إِثْمٍ عَظِيمٍ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ. وَلِأَجْلِ ذُنُوبِنَا قَدْ دُفِعْنَا نَحْنُ وَمُلُوكُنَا وَكَهَنَتُنَا لِيَدِ مُلُوكِ الْأَرَاضِي لِلسَّيْفِ وَالسَّبْيِ وَالنَّهْبِ وَخِزْيِ الْوُجُوهِ كَهَذَا الْيَوْمِ. ٧ وَالْآنَ كُلِّحِظَةُ كَانَتْ رَافَةً مِنْ لَدُنِ الرَّبِّ إِلَهِنَا لِيُبْقِيَ لَنَا نَجَاةً وَيُعْطِينَا وَتَدًا فِي مَكَانٍ قُدْسِهِ لِيُنِيرَ إِلَهِنَا أَعْيُنَنَا وَيُعْطِينَا حَيَاةً قَلِيلَةً فِي عِبُودِيَّتِنَا. ٨ لِأَنَّنَا عَبِيدٌ نَحْنُ وَفِي عِبُودِيَّتِنَا لَمْ يَتْرُكْنَا إِلَهُنَا بَلْ بَسَطَ عَلَيْنَا رَحْمَةً أَمَامَ مُلُوكِ فَارِسَ لِيُعْطِينَا حَيَاةً لِنَرْفَعَ بَيْتَ إِلَهِنَا وَنُقِيمَ خَرَائِبَهُ وَلِيُعْطِينَا حَائِطًا فِي يَهُودَا وَفِي أُورُشَلِيمَ. ٩ وَالْآنَ

فَمَاذَا نَقُولُ يَا إِلَهَنَا بَعْدَ هَذَا لَأَنَّا قَدْ تَرَكْنَا وَصَايَاكَ ١١ الَّتِي أَوْصَيْتَ بِهَا عَنْ يَدِ عَبْدِكَ
الْأَنْبِيَاءِ قَائِلًا: إِنَّ الْأَرْضَ الَّتِي تَدْخُلُونَ لِمَتَلِكُوهَا هِيَ أَرْضٌ مُتَجَسِّسَةٌ بِنَجَاسَةِ شُعُوبِ
الْأَرَاضِي بِرَجَاسَاتِهِمُ الَّتِي مَلَأُوهَا بِهَا مِنْ جَهَةِ إِلَى جَهَةِ بِنَجَاسَتِهِمْ. ١٢ وَالْآنَ فَلَا تُعْطُوا
بَنَاتِكُمْ لِبَنِيهِمْ وَلَا تَأْخُذُوا بَنَاتِهِمْ لِبَنِيكُمْ وَلَا تَطْلُبُوا سَلَامَتَهُمْ وَخَيْرَهُمْ إِلَى الْأَبَدِ لِنَتَشَدَّدُوا
وَتَأْكُلُوا خَيْرَ الْأَرْضِ وَتُورِثُوا بَنِيكُمْ إِيَّاهَا إِلَى الْأَبَدِ. ١٣ وَبَعْدَ كُلِّ مَا جَاءَ عَلَيْنَا لِأَجْلِ
أَعْمَالِنَا الرَّدِيئَةِ وَأَثَامِنَا الْعَظِيمَةِ - لَأَنَّكَ قَدْ جَازَيْتَنَا يَا إِلَهَنَا أَقَلَّ مِنْ أَثَامِنَا وَأَعْطَيْتَنَا نَجَاةً
كَهَذِهِ ١٤ أَفَنَعُودُ وَنَتَعَدَّى وَصَايَاكَ وَنُصَاهِرُ شُعُوبَ هَذِهِ الرَجَاسَاتِ؟ أَمَا تَسْخَطُ عَلَيْنَا
حَتَّى تُقْنِنَنَا فَلَا تَكُونَ بَقِيَّةً وَلَا نَجَاةً؟ ١٥ أَيُّهَا الرَّبُّ إِلَهَ إِسْرَائِيلَ أَنْتَ بَارٌّ لَأَنَّا بِقِينَا نَاجِينَ
كَهَذَا الْيَوْمِ. هَا نَحْنُ أَمَامَكَ فِي أَثَامِنَا لِأَنَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَقِفَ أَمَامَكَ مِنْ أَجْلِ هَذَا]»
(عزرا / ٩).

«أَوَلَمَّا رَأَى الشَّعْبُ أَنَّ مُوسَى أَبْطَأَ فِي النُّزُولِ مِنَ الْجَبَلِ اجْتَمَعَ الشَّعْبُ عَلَى هَارُونَ
وَقَالُوا لَهُ: «قُمْ اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا لَأَنَّ هَذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا مِنْ أَرْضِ
مِصْرَ لَا نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ». ٢ فَقَالَ لَهُمْ هَارُونَ: «انزِعُوا أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِ
نِسَائِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَأَتُونِي بِهَا». ٣ فَتَزَعَ كُلُّ الشَّعْبِ أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِهِمْ
وَأَتُوا بِهَا إِلَى هَارُونَ. ٤ فَأَخَذَ ذَلِكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَصَوَّرَهُ بِالْإِزْمِيلِ وَصَنَعَهُ عِجْلاً مَسْبُوكاً.
فَقَالُوا: «هَذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ». ٥ فَلَمَّا نَظَرَ هَارُونَ بَنَى
مَذْبَحاً أَمَامَهُ وَنَادَى هَارُونَ وَقَالَ: «غداً عِيدٌ لِلرَّبِّ». ٦ فَبَكَّرُوا فِي الْغَدِ وَأَصْعَدُوا مُحْرِقَاتٍ
وَقَدَّمُوا ذَبَائِحَ سَلَامَةٍ. وَجَلَسَ الشَّعْبُ لِلْأَكْلِ وَالشُّرْبِ ثُمَّ قَامُوا لِلْعِب. ٧ فَقَالَ الرَّبُّ
لِمُوسَى: «أَذْهَبِ انْزِلْ! لِأَنَّهُ قَدْ فَسَدَ شَعْبُكَ الَّذِي أَصْعَدْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. ازَاغُوا سَرِيعاً
عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي أَوْصَيْتُهُمْ بِهِ. صَنَعُوا لَهُمْ عِجْلاً مَسْبُوكاً وَسَجَدُوا لَهُ وَذَبَحُوا لَهُ وَقَالُوا:
هَذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ». ٩ وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «رَأَيْتُ هَذَا
الشَّعْبَ وَإِذَا هُوَ شَعْبٌ صُلْبُ الرِّقْبَةِ. ١٠ أَفَالَا أَنْ تَرْكُنِي لِيَحْمِيَ غَضَبِي عَلَيْهِمْ وَأُفْنِيَهُمْ
فَأُصَيِّرَكَ شَعْباً عَظِيماً». ١١ فَتَضَرَّعَ مُوسَى أَمَامَ الرَّبِّ إِلَهِهِ وَقَالَ: «لِمَاذَا يَا رَبُّ يَحْمِي
غَضَبُكَ عَلَى شَعْبِكَ الَّذِي أَخْرَجْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ وَيَدٍ شَدِيدَةٍ؟ ١٢ لِمَاذَا
يَتَكَلَّمُ الْمِصْرِيُّونَ قَائِلِينَ: أَخْرَجَهُمْ بِخُبْثٍ لِيَقْتُلَهُمْ فِي الْجِبَالِ وَيُفْنِيَهُمْ عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ؟
ارْجِعْ عَنْ حُمُومِ غَضَبِكَ وَانْدَمْ عَلَى الشَّرِّ بِشَعْبِكَ. ١٣ أَذْكَرُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَإِسْرَائِيلَ
عَبِيدَكَ الَّذِينَ حَلَفْتَ لَهُمْ بِنَفْسِكَ وَقُلْتَ لَهُمْ: أَكْثَرُ نَسْلِكُمْ كُنُجُومُ السَّمَاءِ وَأُعْطِي نَسْلَكُمْ
كُلَّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي تَكَلَّمْتُ عَنْهَا فَيَمْلِكُونَهَا إِلَى الْأَبَدِ». ١٤ أَقْنَدِمَ الرَّبُّ عَلَى الشَّرِّ الَّذِي
قَالَ إِنَّهُ يَفْعَلُهُ بِشَعْبِهِ. ١٥ فَأَنْصَرَفَ مُوسَى وَنَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ وَلَوْحَا الشَّهَادَةِ فِي يَدِهِ: لَوْحَانِ

مَكْتُوبَانِ عَلَى جَانِبَيْهِمَا. مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا كَانَا مَكْتُوبَيْنِ. ١٦ وَاللُّوحَانِ هُمَا صَنَعَةُ اللَّهِ وَالْكِتَابَةُ كِتَابَةُ اللَّهِ مَنقُوشَةٌ عَلَى اللُّوحَيْنِ. ١٧ وَسَمِعَ يَشُوعُ صَوْتَ الشَّعْبِ فِي هَتَافِهِ فَقَالَ لِمُوسَى: «صَوْتُ قِتَالٍ فِي الْمَحَلَّةِ». ١٨ فَقَالَ: «لَيْسَ صَوْتُ صِيَاحِ النُّصْرَةِ وَلَا صَوْتُ صِيَاحِ الْكُسْرَةِ. بَلْ صَوْتُ غِنَاءٍ أَنَا سَامِعٌ». ١٩ وَكَانَ عِنْدَمَا اقْتَرَبَ إِلَى الْمَحَلَّةِ أَنَّهُ أَبْصَرَ الْعِجْلَ وَالرَّقْصَ. فَحَمِيَ غَضَبُ مُوسَى وَطَرَحَ اللُّوحَيْنِ مِنْ يَدَيْهِ وَكَسَّرَهُمَا فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ ٢٠ ثُمَّ أَخَذَ الْعِجْلَ الَّذِي صَنَعُوا وَأَحْرَقَهُ بِالنَّارِ وَطَحَنَهُ حَتَّى صَارَ نَاعِمًا وَذَرَّاهُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ وَسَقَى بَنِي إِسْرَائِيلَ. ٢١ وَقَالَ مُوسَى لِهَارُونَ: «مَاذَا صَنَعَ بِكَ هَذَا الشَّعْبُ حَتَّى جَلَبْتَ عَلَيْهِ خَطِيئَةً عَظِيمَةً؟» ٢٢ فَقَالَ هَارُونَ: «لَا يَحِمُّ غَضَبُ سَيِّدِي! أَنْتَ تَعْرِفُ الشَّعْبَ أَنَّهُ شَرِيرٌ. ٢٣ فَقَالُوا لِي: اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا. لَأَنَّ هَذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ لَا نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ. ٢٤ فَقُلْتُ لَهُمْ: مَنْ لَهُ ذَهَبٌ فَلْيَنْزِعْهُ وَيُعْطِنِي. فَطَرَحْتُهُ فِي النَّارِ فَخَرَجَ هَذَا الْعِجْلُ». ٢٥ وَلَمَّا رَأَى مُوسَى الشَّعْبَ أَنَّهُ مُعْرِى (لَأَنَّ هَارُونَ كَانَ قَدْ عَرَّاهُ لِلْهَرَجِ بَيْنَ مُقَاوِمِيهِ) ٢٦ وَقَفَ مُوسَى فِي بَابِ الْمَحَلَّةِ وَقَالَ: «مَنْ لِلرَّبِّ فَايِلٌ!» فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَمِيعُ بَنِي لَأَوِي. ٢٧ فَقَالَ لَهُمْ: «هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: ضَعُوا كُلُّ وَاحِدٍ سَيْفَهُ عَلَى فَخْذِهِ وَمُرُوا وَارْجِعُوا مِنْ بَابِ إِلَى بَابٍ فِي الْمَحَلَّةِ وَقَاتِلُوا كُلُّ وَاحِدٍ أَخَاهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ قَرِيبَهُ». ٢٨ فَفَعَلَ بَنُو لَأَوِي بِحَسَبِ قَوْلِ مُوسَى. وَوَقَعَ مِنَ الشَّعْبِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نَحْوُ ثَلَاثَةِ آلَافٍ رَجُلًا. ٢٩ وَقَالَ مُوسَى: «امْلَأُوا أَيْدِيَكُمْ الْيَوْمَ لِلرَّبِّ حَتَّى كُلُّ وَاحِدٍ بِإِبْنِهِ وَبِأَخِيهِ فَيُعْطِيَكُمْ الْيَوْمَ بَرَكَةً». ٣٠ وَكَانَ فِي الْغَدِ أَنَّ مُوسَى قَالَ لِلشَّعْبِ: «أَنْتُمْ قَدْ أَخْطَأْتُمْ خَطِيئَةً عَظِيمَةً. فَأَصْعَدُ الْآنَ إِلَى الرَّبِّ لَعَلِّي أَكْفِّرُ خَطِيئَتَكُمْ». ٣١ فَارْجَعَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ وَقَالَ: «آهٍ قَدْ أَخْطَأَ هَذَا الشَّعْبُ خَطِيئَةً عَظِيمَةً وَصَنَعُوا لَأَنْفُسِهِمْ آلِهَةً مِنْ ذَهَبٍ. ٣٢ وَالْآنَ إِنَّ غَضْرَتِ خَطِيئَتَهُمْ - وَالْآنَ فَاْمَحْنِي مِنْ كِتَابِكَ الَّذِي كَتَبْتَ». ٣٣ فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مَنْ أَخْطَأَ إِلَيَّ أَمْحُوهُ مِنْ كِتَابِي. ٣٤ وَالْآنَ اذْهَبْ اهِدِ الشَّعْبَ إِلَى حَيْثُ كَلَّمْتُكَ. هُوَذَا مَلَائِكِي يَسِيرُ أَمَامَكَ. وَلَكِنْ فِي يَوْمِ افْتِقَادِي أَفْتَقِدُ فِيهِمْ خَطِيئَتَهُمْ». ٣٥ فَضْرَبَ الرَّبُّ الشَّعْبَ لِأَنَّهُمْ صَنَعُوا الْعِجْلَ الَّذِي صَنَعَهُ هَارُونَ» (خروج/ ٣٢).

٤ أَوْ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «هُوَ ذَا أَيَّامِكَ قَدْ قَرُبْتُ لِمَوْتٍ. ادْعُ يَشُوعَ وَقِفَا فِي خِيْمَةِ الْجَمْعِ لِكَي أُوصِيَهُ». فَانْطَلَقَ مُوسَى وَيَشُوعُ وَوَقَفَا فِي خِيْمَةِ الْجَمْعِ ١٥ افْتَرَاىَ الرَّبُّ فِي الْخِيْمَةِ فِي عَمُودٍ سَحَابٍ وَوَقَفَ عَمُودُ السَّحَابِ عَلَى بَابِ الْخِيْمَةِ. ١٦ أَوْ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «هَآ أَنْتَ تَرَقُدُ مَعَ آبَائِكَ فَيَقُومُ هَذَا الشَّعْبُ وَيَفْجُرُ وَرَاءَ آلِهَةِ الْأَجْنَبِيِّينَ فِي الْأَرْضِ الَّتِي هُوَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا فِي مَا بَيْنَهُمْ وَيَتْرَكُنِي وَيَنْكُثُ عَهْدِي الَّذِي قَطَعْتُهُ مَعَهُ.

١٧ فَيَشْتَعِلْ غَضَبِي عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَأَتْرَكُهُ وَأَحْجُبُ وَجْهِي عَنْهُ فَيَكُونُ مَأْكَلَةً وَتُصِيبُهُ شُرُورٌ كَثِيرَةٌ وَشَدَائِدُ حَتَّى يَقُولَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ: أَمَّا لَأَنَّ إِلَهِي لَيْسَ فِي وَسْطِي أَصَابَتِي هَذِهِ الشُّرُورُ! ١٨ وَأَنَا أَحْجُبُ وَجْهِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِأَجْلِ جَمِيعِ الشَّرِّ الَّذِي عَمِلَهُ إِذِ التَّفَتَ إِلَى آلِهَةٍ أُخْرَى. ١٩ فَالآنَ اكْتُبُوا لَأَنْفُسِكُمْ هَذَا النَّشِيدَ وَعَلِّمُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِيَّاهُ. ضَعُهُ فِي أَفْوَاهِهِمْ لِيَكُونَ لِي هَذَا النَّشِيدُ شَاهِدًا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ. ٢٠ لِأَنِّي أَدْخَلُهُمُ الْأَرْضَ الَّتِي أَقْسَمْتُ لِأَبَائِهِمُ الْفَائِضَةَ لِبَنًا وَعَسَلًا فَيَأْكُلُونَ وَيَشْبَعُونَ وَيَسْمَنُونَ ثُمَّ يَلْتَفِتُونَ إِلَى آلِهَةٍ أُخْرَى وَيَعْبُدُونَهَا وَيَزْدَرُونَ بِي وَيَنْكُثُونَ عَهْدِي. ٢١ فَمَتَى أَصَابَتْهُ شُرُورٌ كَثِيرَةٌ وَشَدَائِدُ يُجَاوِبُ هَذَا النَّشِيدُ أَمَامَهُ شَاهِدًا لِأَنَّهُ لَا يُنْسَى مِنْ أَفْوَاهِ نَسْلِهِ. إِنِّي عَرَفْتُ فِكْرَهُ الَّذِي يُفَكِّرُ بِهِ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ أَدْخِلَهُ إِلَى الْأَرْضِ كَمَا أَقْسَمْتُ». ٢٢ فَكَتَبَ مُوسَى هَذَا النَّشِيدَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَعَلَّمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِيَّاهُ. ٢٣ وَأَوْصَى يَشُوعُ بَنَ نُونٍ وَقَالَ: «تَشَدَّدْ وَتَشَجَّعْ لِأَنَّكَ أَنْتَ تَدْخُلُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْأَرْضَ الَّتِي أَقْسَمْتُ لَهُمْ عَنْهَا وَأَنَا أَكُونُ مَعَكَ». ٢٤ فَعِنْدَمَا كَمَلَ مُوسَى كِتَابَةَ كَلِمَاتِ هَذِهِ التَّوْرَةِ فِي كِتَابٍ إِلَى تَمَامِهَا ٢٥ أَمَرَ مُوسَى اللَّاوِيِّينَ حَامِلِي تَابُوتِ عَهْدِ الرَّبِّ: ٢٦ «خُذُوا كِتَابَ التَّوْرَةِ هَذَا وَضَعُوهُ بِجَانِبِ تَابُوتِ عَهْدِ الرَّبِّ إَلَيْكُمْ لِيَكُونَ هُنَاكَ شَاهِدًا عَلَيْكُمْ. ٢٧ لِأَنِّي أَنَا عَارِفٌ تَمَرُّدُكُمْ وَرَقَابِكُمْ الصُّلْبَةَ. هُوَذَا وَأَنَا بَعْدُ حَيٌّ مَعَكُمْ الْيَوْمَ قَدْ صِرْتُمْ تُقَاوِمُونَ الرَّبَّ فَكَمْ بِالْحَرِيِّ بَعْدَ مَوْتِي ٢٨ اجْمَعُوا إِلَيَّ كُلَّ شَيْخٍ أَسْبَاطِكُمْ وَعُرَفَاءِكُمْ لِأَنْطِقَ فِي مَسَامِعِهِمْ بِهِذِهِ الْكَلِمَاتِ وَأَشْهَدَ عَلَيْهِمُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ. ٢٩ لِأَنِّي عَارِفٌ أَنَّكُمْ بَعْدَ مَوْتِي تَفْسِدُونَ وَتَزِيغُونَ عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ وَيُصِيبُكُمْ الشَّرُّ فِي آخِرِ الْأَيَّامِ لِأَنَّكُمْ تَعْمَلُونَ الشَّرَّ أَمَامَ الرَّبِّ حَتَّى تُفِيطُوهُ بِأَعْمَالِ أَيْدِيكُمْ» (نشية/ ٢١).

والآن، وبعد ذلك كله، أيستكثر الكاتب أن يقول القرآن عن اليهود إنهم «كالحمار يحمل أسفاراً»؟ على أن صاحبنا يكذب هنا أيضاً؛ إذ يزعم أن اليهود كانوا إذا أظهروا للنبي خطاه بذكر ما قالته التوراة مما يتعارض مع ما يقوله هو عنها وعنهم حنق عليهم وشتمهم قائلاً إنهم «كالحمار يحمل أسفاراً». ووجه الكذب في هذا الكلام أنه لم يحدث قط أن حاكم اليهود الرسول - عليه الصلاة والسلام - إلى التوراة، بل هو الذي كان يحاكمهم إليها ويتحداهم أن يأتوا بها ويتلوا ما فيها مما يختلفون معهم حوله، حتى يتبين من منهما على الحق، ومن على الباطل. وقد ذكر القرآن الكريم شيئاً من ذلك حين اختلف الطرفان حول الحكم الإلهي في بعض الأطعمة، إذ قال الرسول إن لحوم الإبل وألبانها حلال، بينما قال اليهود إنها حرام عندهم في التوراة، فنزل قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ

قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (آل عمران/ ٩٣-٩٥).

فهذه حادثة تدل على أن الذي طلب مراجعة التوراة هو النبي عليه السلام لا اليهود. وثمة حادثة أخرى تدل على الأمر نفسه، وهي مأخوذة من تفسير الطبري للآية الرابعة والأربعين من سورة «المائدة»: «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: زَنَى رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ بِامْرَأَةٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: اذْهَبُوا بِنَا إِلَى هَذَا النَّبِيِّ، فَإِنَّهُ نَبِيٌّ بُعِثَ بِتَخْفِيفٍ، فَإِنْ أَفْتَانَا بِفُتْيَا دُونَ الرِّجْمِ قَبْلِنَاهَا وَاحْتَجَجْنَا بِهَا عِنْدَ اللَّهِ وَقَلْنَا: فُتْيَا نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَائِكَ! قَالَ: فَأَتُوا النَّبِيَّ ﷺ. وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ فِي أَصْحَابِهِ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ مِنْهُمْ زَنِيَا؟ فَلَمْ يُكَلِّمَهُمْ كَلِمَةً حَتَّى أَتَى بَيْتَ الْمَدْرَاسِ، فَقَامَ عَلَى الْبَابِ، فَقَالَ: «أَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى، مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أَحْصَيْنَ؟» قَالُوا: يُحْمَمُ وَيُجَبَّهَ وَيُجْلَدُ (وَالْتَجَبِيهِ: أَنْ يُحْمَلَ الزَّانِيَانِ عَلَى حِمَارٍ تُقَابِلُ أَقْفَيْتَهُمَا، وَيُطَافُ بِهِمَا). وَسَكَتَ شَابٌّ، فَلَمَّا رَأَاهُ سَكَتَ أَلْظَّ بِهِ النَّشْدَةَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِذْ نَشَدْتَنَا، فَإِنَّا نَجِدُ فِي التَّوْرَةِ الرِّجْمَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَمَا أَوَّلُ مَا ارْتَخَصَ أَمْرُ اللَّهِ؟» قَالَ: زَنَى رَجُلٌ ذُو قَرَابَةٍ مِنْ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِنَا فَأَخَّرَ عَنْهُ الرِّجْمَ، ثُمَّ زَنَى رَجُلٌ فِي أُسْرَةٍ مِنَ النَّاسِ، فَأَرَادَ رَجْمَهُ، فَحَالَ قَوْمُهُ دُونَهُ وَقَالُوا: لَا تَرْجُمُ صَاحِبَنَا حَتَّى تَجِيءَ بِصَاحِبِكَ فَتَرْجُمَهُ، فَاصْطَلَحُوا عَلَى هَذِهِ الْعُقُوبَةِ بَيْنَهُمْ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَإِنِّي أَحْكُمُ بِمَا فِي التَّوْرَةِ». فَأَمَرَ بِهِمَا فَرُجِمَا». وهذا معنى قوله تعالى: «وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ، وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ، ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ؟ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ». وفي سنن أبي داود مثلاً أن اليهود حين أحضروا التوراة بناءً على طلب الرسول ليقرأوا ما فيها من عقوبة الزاني جعل أحدهم يضع يده على النص كما يفعل الأولاد الصغار، ظناً منه أنه بهذا يستطيع أن يخفي الكلام الذي يفضح كذبهم. وهذا هو الحديث المقصود: «حدثنا عبد الله بن مسلمة قال: قرأت على مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر أنه قال: إن اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ، فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الزنا؟ فقالوا: نفصيحهم ويجلدون. فقال عبد الله بن سلام: كذبتُم! إن فيها الرجم. فأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَتَشْرُوهَا، فَجَعَلَ أَحَدُهُمْ يَدُهُ عَلَى آيَةِ الرِّجْمِ، ثُمَّ جَعَلَ يَقْرَأُ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: ارْفَعْ يَدَيْكَ. فَرَفَعَهَا، فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرِّجْمِ، فَقَالُوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ، فِيهَا آيَةُ الرِّجْمِ. فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَرُجِمَا».

ومثل ذلك رَدُّ القرآن عليهم هم والنصارى حين ادَّعى كل منهما أن إبراهيم عليه السلام كان على دينه، فنزل قوله سبحانه يسخِّف عقل الفريقين جميعاً ويحيلهم مرة أخرى إلى التوراة والإنجيل، متهمًا إياهم في أصل وجههم بأنهم إنما يخوضون فيما ليس لهم به علم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران/ ٦٥ - ٦٧). ومثله أيضاً هاتان الآيتان اللتان تقرعان اليهود على أنهم، في الوقت الذي يتشددون في التمسك بحكم التوراة الخاص بمفاداة أمثالهم من اليهود إذا وقعوا في الأسر، فإنهم لا يتحرجون في معاونة الآخرين من حلفائهم غير اليهود عليهم وإخراجهم من ديارهم رغم أن ذلك مما تحرّمه شريعتهم نفسها، ومن ثم تحيلهم الآيتان إلى التوراة لتذكيرهم بما يتجاهلونه من أحكامها: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرَجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرَجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة/ ٨٤ - ٨٥). فمن إذا الذي يخالف ما تقول به التوراة؟ ومن ذا الذي يحيل إليها ويستشهد بما جاء فيها ويتحدى الطرف الآخر به؟

أم ترى كان اليهود أوفياء لتوراتهم ويعرفونها أفضل من محمد ويتحاكمون إليها عندما جاءهم وثيؤ قريش يسألونهم أى الدينين هو الدين الحق: وثنيتهم أم الإسلام الذي جاء به محمد؟ فكان جوابهم أن الوثنية القرشية هي الدين الصحيح؟ يقول - جل شأنه -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ (النساء/ ٥١ - ٥٢). إن الكاتب يعمى على حقائق التاريخ ويلتوي بها كمادة اليهود، لكن الحق أبلج، والباطل لجلج، والمضيحة له بالمرصاد مهما كذب ودلس وأطلق الاتهامات الباطلة ضد سيدنا رسول الله - ﷺ - ! أليس من الحق الذي لا يستطيع أن يجادل فيه من كان عنده ذرة من عقل وضمير أن الذين يجيبون هذا الجواب هم «كالحمار يحمل أسفارا»؟ هل يمكن أن يصل الحقد والحمق إلى هذا المدى عند بعض الناس فينصّروا الوثنية وعبدّة الأصنام على الإسلام في الوقت الذي يزعمون

فيه أنهم القَوَّام على التوحيد في العالم وأنهم شعب الله المختار؟ لكن ماذا تقول في اليهود، وهذه أسفار العهد القديم تدمدم بالفضب الإلهي عليهم وتفيض باللعنات المنصبة فوق رؤوسهم لكثرة ما نبذوا التوحيد وارتكسوا في عبادة الأصنام والأوثان؟ بل إن تشتيت الله لهم في الأرض وتسليطه الأمم الأخرى عليهم تسومهم الخسف والهوان والخزي هو، حسبما يقول الكتاب المقدس، نتيجة هذا الشرك الوثني الذي لم تبرأ منه قلوبهم يوماً، فكانوا يرتدون إليه كلما سنحت سائحة منذ العجل الذهبي الذي صنعوه، ولمّا تكن أقدامهم قد استراحت من عبور البحر بعد أن نجاهم الله منه وأغرق فيه فرعون وجنوده! إنها نفسيتهم وشخصيتهم الملتوية طوال العصور. ولقد شوها سيرة نبي الله هارون، إذ زعموا أنه هو الذي صنع العجل من حليّ المصريين كي يعبد به بنو إسرائيل أثناء غياب موسى فوق الجبل لتلقّي الألواح، كما لطخوا بنفس الطريقة صورة نبي الله سليمان، الذي ادّعوا عليه أنه تزوج من مئات النسوة الوثنيات، وبنى لهنّ المذابح الوثنية في بيته ليعبدنها على راحتهن دون أن يتجشمن مشقة الانتقال إليها، وعبدها هو أيضاً مثلهن! لا عجب إذاً أن يفعلوا ما فعلوه مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. لقد فعلوا ما كانوا يفعلونه في كل البلاد وبين كل الشعوب، حتى لقد أصبحوا يمثلون مشكلة في أي مكان يحلّون فيه وأي مجتمع يعيشون بين ظهرائه، وصار هناك موضوع دائم مُلح يطرقه المفكرون الذين يخبرونهم اسمه: «المسألة اليهودية»!

أما الغزوات التي غزاها - ﷺ - فيهم فلم تكن بسبب الحقد عليهم والطمع في أموالهم كما قال الكاتب زوراً وبهتاناً، بل كانت بسبب غدرهم وانتقاضهم على ما كان بينهم وبينه عليه السلام من معاهدة على التعاون ضد من يريد أياً من الفريقين بشر: وكان أوّل من بدرت منه الخيانة بنو قينقاع، إذ ما إن انتصر المسلمون على المشركين في بدر حتى دبت عقارب البغضاء في قلوبهم فشرعوا يثيرون المشاكل ويلمزون الرسول والمسلمين ويحقرون من شأن انتصارهم على الكفار ويتحدّونهم قائلين إن القرشيين لا علم لهم بفرن القتال، وإنه متى ما يشتبك المسلمون معهم فسوف يعلمون كيف تكون الحرب، ثم قفّوا على ذلك بالتحرش بنساء المسلمين، إذ وفدت عليهم إحداهن في سوقهم ببضاعة تبيعها وجلست إلى صائغ منهم، فأرادوها على كشف وجهها لكنها أبت، فما كان منهم إلا أن عمدوا إلى حيلة مجرمة غادرة مثلهم كشفوا بها لا وجهها بل سواتها نفسها، وأخذوا يضحكون ويقهقهون عليهم لعنات الله، وهي تشعر بالهوان والعار شأن كل حرة عفيفة ليست من فاجرات يهود، فلم يتمالك أحد المسلمين الذين تصادف وجودهم آنذاك في السوق نفسه من غليان دم الكرامة والحمية في عروقه، وضرب

اليهودي في ثورة غضبه فقتله، فقتله اليهود بدورهم. أي أنهم، بدلاً من أن يكونوا إلّياً مع الرسول ضد الكفار حسبما تقضي بنود الصحيفة، انقلبوا عليه وعلى المسلمين وأخذوا يثيرون لهم المشاكل، ويعتدون منهم على من يوقعهم سوء حظهم تحت رحمتهم، ويتآمرون ويحرّضون ويكشفون عن مخططاتهم الخيانية. ومع ذلك لم يأخذهم الرسول بغتة، بل نبذ إليهم أولاً العهد الذي كان بينه وبينهم في الصحيفة رغم أن غدرهم كان كافياً وأكثر من كافٍ لأخذهم مباغته، وطلب منهم الخروج من المدينة تاركاً لهم أموالهم وأثقالهم وأسلحتهم الخفيفة يحملونها معهم. أولو كان طامعاً في أموالهم كما يدّعي المدّعون الكذّابون، أكان يتركهم يخرجون بهذه الأموال بتلك السهولة؟

ونأتي لبني النضير، وقد كانوا مُلْزَمِينَ - بنص المعاهدة التي كانت بينهم وبين المسلمين - أن يتعاونوا معهم في الحرب والديات وما إلى ذلك، ومن ثم كان يجب عليهم أن يشتركوا في القتال جنباً إلى جنب معهم في أحد ضد مشركي مكة الذين اتّوا لمهاجمة يثرب، لكنهم تعلّوا نفاقاً وجبناً وكذباً وغدرًا بالسبت، وهى نفس الحجة التي طالما تعلّوا بها عند المسيح كي يَنْكِلُوا عن أداء الواجب، وتهكّم بسببها عليهم وعلى نفاقهم الذى يريدون أن يُلبِسوه كسوة الإيمان الصارم (متى/ ١٢/ ١، ولوقا ٦/ ٢، و١٤/ ٣)، اللهم إلا واحدا منهم يسمّى مُخَيَّرِيقُ أبت عليه رجولته أن يخنس في عهده مع الرسول، فاشترك في الحرب معه عليه السلام حيث مات كريماً شريفاً. ثم حدث بعد ذلك أيضاً أن ذهب النبي إليهم بعد أخذ في دية بعض القتلى يطلب منهم المساهمة في دفعها، فأجلسوه بجوار حائط لهم وأوهموه أنهم سيُحْضِرُونَ له المال المطلوب حالاً. ثم كلّفوا أحدهم أن يصعد إلى أعلى الجدار، ويلقي برحى ثقيلة على رأسه - ﷺ - فتهدّثه، لكن المؤامرة انكشفت فقام النبي من مكانه مغادراً في الحال، ثم أرسل إليهم أن اخرجوا من المدينة. يبيّن أن المنافقين نقثوا في روعهم أن يَبْقَوْا حيث هم وأكدوا لهم أنهم سوف يقضون بجانبهم ولن يتركوهم يخرجون، وإلا فلسوف يخرجون هم أيضاً تضامناً معهم. فانخدع اليهود بكلام المنافقين الجبان وبَقَوْا في حصونهم، مما اضطر المسلمين لمحاصرتهم حتى نزلوا على ما كانوا رفضوه من قبل بسبب التحريض النفاقي. وكان من يهود بني النضير زعيمٌ شاعرٌ دأب على نظم القصائد في التشبيب بنساء المسلمين، فضلاً عن ذهابه هو وأمثاله من القادة النّضيريين إلى المشركين في مكة وتحريضهم على مهاجمة يثرب...وما إلى ذلك، وهو ابن أبي الحُقَيْق، الذى لم يجد من أبناء قبيلته من يفكر في كفه عن هذه المؤامرات المدمّرة، ويذكره بالعهد الذى كان بينهم وبين المسلمين، ويقول له: «إن هذا لا يصح»، بل وجد بدلاً من ذلك من يعمل على

تشجيعه ويتعاون معه فى التآمر والخيانة والوقاحة، ومعالجة الرسول والمسلمين بالعداء، والتحالف مع مشركي مكة فى حربهم السافرة ضد الدولة التى يعيشون فى كنفها وتبسط عليهم جناح حمايتها، فكان مصيره هو المصير الذى يستحقه أمثاله، كما أصبحت مجاورة النضيريين للمسلمين فى المدينة أمراً غير معقول ولا محتمل، فكان الإجماع مثلاً حدث من قبل لبني قينقاع. ومرة أخرى نرى الرسول - ﷺ - يصبر عليهم لآخر المدى، ويرأف بهم رغم تكرار الغدر والسفالة والتآمر منهم، كما تركهم يخرجون بأموالهم ومتاعهم لم يصادره منهم، مع أنهم لو كانوا ظفروا بالمسلمين لكان انتقامهم مروءة حسبما تقضى شريعة العهد القديم وطبيعتهم الحاكمة على البشرية والرغبة فى إيذاء الآخرين المتأصلة فى نفوسهم حباً فى الإيذاء! ويشكك الكاتب فى موضوع مؤامرة الرّحى قائلاً إن محمداً إنما لجأ إلى القول بأن الوحي هو الذى كشف له أمرها كي يوجد لنفسه العذر فى الغدر بهم طمعاً فى أموالهم رغم أنه لم تكن هناك مؤامرة ولا يحزنون حسبما يقول! وهذا، والحق يقال، كلام العهرة، فقد ترك الرسول بني النضير أيضاً يخرجون بأموالهم ومتاعهم، حتى لقد خلعوا أبواب دورهم وحملوها معهم على الإبل. بل إنه لم يمسّهم بأذى رغم كل ما فعلوه، ولو كان قد جَزَرَ رقاب طائفة من هؤلاء الخنازير ما لامه أحد، فالأمر أمر مصير دولة وأمة، وليس شروة طماطم. وكان عليه الصلاة والسلام قد سمح لهم، قبل أن يشمسوا بتحريض من المنافقين، بأن يأخذوا معهم كل ما يريدون وأن يحتفظوا كذلك ببساتينهم مع إقامة وكلاء عنهم فيها، إلا أن تماديهم فى العصيان والتحدى، وعدم انتهاز الفرصة المواتية ورفض تلك الشروط اللينة المتسامحة قد جعلته - ﷺ - يتشدد فى شروط خروجهم عند استسلامهم الجبان الذليل فى آخر المطاف فيصادر منهم بساتينهم. ثم إنهم لم يكونوا لِيَسْكُتُوا لو كان الرسول هو الذى اخترع هذه المؤامرة من عند نفسه، إلا أنهم قد خنسوا تماماً فلم يفتحوا أفواههم النجسة بينت شفة اعتراضاً أو توضيحاً! أو تظلماً أو حتى لتشويه صورة النبي الكريم الذى كانوا يكرهونه كراهية العمى والموت.

ونبلغ غزوة بني قُرَيْظَةَ، الذين لم يتعظوا مما وقع لبني قينقاع ولا لبني النضير. ويبدو أن اللين الذى عامل به النبي هاتين القبيلتين من قبل قد أغرى القُرَظِيَّين بأن يجربوا هم أيضاً حظهم من الخيانة والغدر، وبخاصة أنهم قد اتخذوا من الإجراءات والتخطيطات ما جعلهم يعتقدون أنهم يستطيعون توجيه ضربة قاتلة لمحمد ولدينه هذه المرة، إذ ذهب وفد من زعمائهم إلى مكة فحرضوا القرشيين على غزو المدينة والقضاء على المسلمين ودخلوا معهم فى حلف أقسموا عليه عند أوثان الكعبة، ثم لم

يكتفوا بذلك، بل شفعوه بالذهاب إلى قبائل عربية أخرى وثنية أيضاً وحرصوها بنفس الطريقة، ومنَّوها بثروات المدينة، وتحالفوا معهم كذلك على هذا. ثم إنهم حين بلغ النبي ما فعلوه وما انتَوَوْه وأراد التثبت منه فأرسل إليهم من يفاتحهم في المسألة ليعلم حقيقة أمرهم، كان ردهم في غاية الوقاحة والسوء، وأعلنوا موقفهم بصراحة لا تحتل أي لبس، وهددوا وتوعَّدوا وأنكروا أن يكون بينهم وبينه أية معاهدة، أي أن عليه أن يبلّ الصحيفة ويشرب ماءها كما نقول في لغتنا العامية! ولم يكتف الخونة بهذا، بل بدأوا بالتحرك والاتصالات بالغزاة منذ اللحظة الأولى وظهرت منهم علائم الخيانة والغدر في وقت كانت ظروف المسلمين في منتهى الحرج والصعوبة والضيق! ولولا أن الأقدار هيأت للإسلام في ذلك الوقت العصيب نعيم بن مسعود الغطفاني، الذي أسلم سراً، وأتى رسول الله وعرض عليه خطته في إيقاع الشكوك بين الأحزاب وبين بني قُريظة ووُفق في تنفيذها لكان المسلمون قد ذهبوا أدراج الرياح إلى الأبد، ولما كان هناك إسلام ولا يحزنون. ثم هبت الريح العاصفة التي أرسلها الله على خيام الأحزاب فأطارتها وأوقعت الرعب في قلوبهم، فهبوا إلى إبلهم فارّين لا يلوون على شيء. وعندئذ كان لا بد من العقاب لهؤلاء الأوغاد الخونة الذين لا يتعلمون الدرس أبداً ولا يتعظون ولا يقدرّون على النظر أبعد من أنوفهم، فإذا شامُوا شيئاً من القوة في أنفسهم، وهى في العادة قوة مستعارة من الآخرين، فَجَرُوا وانتفشوا كما يفعلون هذه الأيام مع العرب والمسلمين اغتراراً بقوة أمريكا والغرب، غافلين عن أن الأمريكان والأوربيين إذا كانوا أقوياء اليوم، وكان العرب ضعفاء أذلاء بُلْداء، فإن الأمور لا يمكن أن تستقيم على هذه الحال إلى الأبد! المهم أن الرسول قد غزاهم وحاصرهم حتى استسلموا كالنعاج، فحوكموا على يد رجل من حلفائهم في الجاهلية هو سعد بن معاذ، فحكم عليهم بقتل محاربيهم الغدرة الفجرة الكفرة، وسبى نسائهم وذرياتهم. وهنا يولول الكاتب ويصرخ متهمًا الرسول والمسلمين بالقسوة، وكأن الرحمة تقتضي صاحبها أن يكون، كالمسلمين في هذه الأيام النَّحِسَات، أبله غيباً لا يعرف أمور الحياة، فيُلْدَغ من الجحر الواحد مرات ومرات! أي رحمة يتكلم عنها الكاتب، وهو يعلم تمام العلم أن أسلافه الخائنين لو كانوا ظفروا بما خططوا له لما تركوا على ظهرها من بَشَرٍ أو دابةٍ ولأبادوا محمداً وأتباعه وحيواناتهم تمام الإبادة على ما تأمرهم به شريعتهم التي تقول في مثل هذا الموقف:

« ١٠ حينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِيُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا لِلصُّلْحِ ١١ فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلَى الصُّلْحِ وَفَتَحَتْ لَكَ فَكُلْ الشَّعْبَ الْمَوْجُودَ فِيهَا يَكُونُ لَكَ لِلتَّخْيِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لَكَ. ١٢ وَإِنْ لَمْ تُسَالِمَكَ بَلْ عَمِلْتَ مَعَكَ حَرْباً فَحَاصِرْهَا. ١٣ وَإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلَيْكَ فَاصْرَبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا

بَحْدُ السَّيْفِ. ٤ وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ وَالْبَهَائِمُ وَكُلُّ مَا فِي الْمَدِينَةِ كُلُّ غَنِيمَتِهَا فَتَغْتَنِمُهَا لِنَفْسِكَ وَتَأْكُلُ غَنِيمَةَ أَعْدَائِكَ الَّتِي أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ. ٥ هَكَذَا تَفْعَلُ بِجَمِيعِ الْمُدُنِ الْبَعِيدَةِ مِنْكَ جَدًّا الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ مَدُنِ هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ هُنَا. ١٦ وَأَمَّا مَدُنُ هَؤُلَاءِ الشُّعُوبِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ نَصِيبًا فَلَا تَسْتَبِقُ مِنْهَا نَسَمَةً مَا ١٧ بَلْ تُحَرِّمُهَا تَحْرِيمًا... كَمَا أَمَرَكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ» (تشية / ٢ / ١٠ - ١٦)، «١٥ أَلَا أَنْ أَذْهَبَ وَاضْرِبَ عَمَالِيقَ وَحَرَمُوا كُلَّ مَا لِي وَلَا تَعْفَ عَنْهُمْ بَلْ أَقْتُلْ رِجَالًا وَامْرَأَةً، طِفْلًا وَرَضِيعًا، بَقْرًا وَغَنَمًا، جَمَلًا وَحِمَارًا» (صموئيل الأول / ٣).

فضلاً عن أن ما اجترحه اليهود إنما هو الخيانة العظمى بلحمها وشحمها، وليس شيئاً أقل من ذلك. ثم من الذي كان يتطلع إلى أموال الآخرة؟ إنهم ليسوا المسلمين بحال، بل اليهود الذين رأيناهم يمتنون المشركين بثروات المدينة قبل قليل! وتبقى غزوة خيبر، هذه الواحة التي كانت قد أضحت معقلاً للتآمر اليهودي بعد سقوط بني قريظة، كما كان زعماءها ضمن اليهود الذين ذهبوا لتحزيب الأحزاب للهجوم على يثرب والقضاء النهائي على المسلمين ودينهم، فكان لا بد من كسر شوكتهم، وهو ما حدث. وقد أجلى الرسول الكريم الخطيرين منهم، وأقر الباقيين في ديارهم وأملاكهم على أن يدفعوا له نصف غلة أرضيهم وبساتينهم. ومرة أخرى نجد أنفسنا أمام ذات المعاملة الكريمة التي لا يستحقها الخونة الأوغاد الذين لو قُدر لهم الظفر بالمسلمين لما رَعَوْا فيهم إلا ولا ذمة!

والغريب أن يصدع الكاتب، كعامة المستشرقين والمبشرين، أدمغتنا بالكلام عن القسوة التي عامل النبي الكريم بها اليهود، ناسياً أن كتابهم يذكر عنهم وعن قوادهم، بفخر مجلجل، ما يدل على ما كانوا يعاملون به الآخرين من قسوة مفرطة ليس فيها أدنى مراعاة لضمير أو قانون، فضلاً عن أنه يعزوه إلى بركة الله ورضاه عن بني إسرائيل: من ذلك مثلاً ما جاء في الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر «التكوين» على النحو التالي: «وَأَخْرَجَتْ دِينَةُ ابْنَةِ لَيْئَةَ الَّتِي وَلَدَتْهَا لِيَعْقُوبَ لِيَنْظُرَ بَنَاتِ الْأَرْضِ ٢ فَرَأَاهَا شَكِيمُ ابْنُ حَمُورَ الْحَوِيِّ رَئِيسِ الْأَرْضِ وَأَخَذَهَا وَاضْطَجَعَ مَعَهَا وَأَذَلَّهَا. ٣ وَتَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بِدِينَةِ ابْنَةِ يَعْقُوبَ وَأَحَبَّ الْفَتَاةَ وَلَا طِفْهَا. ٤ فَقَالَ شَكِيمُ لِحَمُورَ أَبِيهِ: «خُذْ لِي هَذِهِ الصَّبِيَّةَ زَوْجَةً». ٥ وَسَمِعَ يَعْقُوبُ أَنَّهُ نَجَسَ دِينَةَ ابْنَتِهِ. وَأَمَّا بَنُوهُ فَكَانُوا مَعَ مَوَاشِيهِ فِي الْحَقْلِ فَسَكَتَ يَعْقُوبُ حَتَّى جَاءُوا. ٦ فَخَرَجَ حَمُورُ أَبُو شَكِيمَ إِلَى يَعْقُوبَ لِيَتَكَلَّمَ مَعَهُ. ٧ وَأَتَى بَنُو يَعْقُوبَ مِنَ الْحَقْلِ حِينَ سَمِعُوا. وَغَضِبَ الرِّجَالُ وَاغْتَاظُوا جَدًّا لِأَنَّهُ صَنَعَ قَبَاحَةً فِي إِسْرَائِيلَ بِمُضَايَعَةِ ابْنَةِ يَعْقُوبَ. وَهَكَذَا لَا يُصْنَعُ». ٨ وَقَالَ لَهُمْ حَمُورُ: «شَكِيمُ ابْنِي قَدْ

تَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بِابْنَتِكُمْ. أَعْطَوْهُ إِيَّاهَا زَوْجَةً ٩ وَصَاهَرُونَا. تُعْطُونَنَا بَنَاتِكُمْ وَتَأْخُذُونَ لَكُمْ بَنَاتِنَا ١٠ وَتَسْكُنُونَ مَعَنَا وَتَكُونُ الْأَرْضُ قُدَّامَكُمْ. اسْكُنُوا وَاتَّجَرُوا فِيهَا وَتَمْلِكُوا بِهَا». ١١ ثُمَّ قَالَ شَكِيمُ لِأَبِيهَا وَلِإِخْوَتِهَا: «دَعُونِي أَجِدَ نِعْمَةً فِي أَعْيُنِكُمْ. فَالَّذِي تَقُولُونَ لِي أُعْطِي. ١٢ اكْثُرُوا عَلَيَّ جَدًّا مَهْرًا وَعَظِيَّةً فَأَعْطِي كَمَا تَقُولُونَ لِي. وَأَعْطُونِي الْفَتَاةَ زَوْجَةً». ١٣ فَأَجَابَ بَنُو يَعْقُوبَ شَكِيمَ وَحَمُورَ أَبَاهُ بِمَكْرٍ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ نَجَسَ دِينَةَ أُخْتِهِمْ: ١٤ «لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْعَلَ هَذَا الْأَمْرَ أَنْ نُعْطِيَ أُخْتَنَا لِرَجُلٍ أَغْلَفَ لِأَنَّهُ عَارٌّ لَنَا. ١٥ غَيْرَ أَنَّنَا بِهِذَا نُؤَاتِيكُمْ: إِنْ صِرْتُمْ مِثْلَنَا بِخَتْنِكُمْ كُلِّ ذَكَرٍ. ١٦ نُعْطِيكُمْ بَنَاتِنَا وَنَأْخُذُ لَنَا بَنَاتِكُمْ وَنَسْكُنُ مَعَكُمْ وَنَصِيرُ شَعْبًا وَاحِدًا. ١٧ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعُوا لَنَا أَنْ تَخْتَنُوا نَأْخُذُ ابْنَتَنَا وَنَمْضِي». ١٨ فَحَسُنَ كَلَامُهُمْ فِي عَيْنَيِ حَمُورَ وَفِي عَيْنَيِ شَكِيمَ بْنِ حَمُورَ. ١٩ وَلَمْ يَتَأَخَّرِ الْغُلَامُ أَنْ يَفْعَلَ الْأَمْرَ لِأَنَّهُ كَانَ مَسْرُورًا بِابْنَةِ يَعْقُوبَ. وَكَانَ أَكْرَمَ جَمِيعِ بَيْتِ أَبِيهِ. ٢٠ فَآتَى حَمُورَ وَشَكِيمَ ابْنَهُ إِلَى بَابِ مَدِينَتِهِمَا وَقَالَ لِأَهْلِ مَدِينَتِهِمَا: ٢١ «هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ مُسَالِمُونَ لَنَا. فَلْيَسْكُنُوا فِي الْأَرْضِ وَيَتَّجَرُوا فِيهَا. وَهَؤُذَا الْأَرْضُ وَاسِعَةٌ الطَّرَفَيْنِ أَمَامَهُمْ. نَأْخُذُ لَنَا بَنَاتِهِمْ زَوَاجَاتٍ وَنُعْطِيهِمْ بَنَاتِنَا. ٢٢ غَيْرَ أَنَّهُ بِهِذَا فَقَطْ يُؤَاتِينَا الْقَوْمُ عَلَى السَّكَنِ مَعَنَا لِنَصِيرَ شَعْبًا وَاحِدًا: بِخَتْنِنَا كُلِّ ذَكَرٍ كَمَا هُمْ مَخْتُونُونَ. ٢٣ أَلَا تَكُونُ مَوَاشِيَهُمْ وَمُقْتَنَاهُمْ وَكُلُّ بَهَائِمِهِمْ لَنَا؟ نُؤَاتِيهِمْ فَقَطْ فَيَسْكُنُونَ مَعَنَا». ٢٤ فَسَمِعَ لِحَمُورَ وَشَكِيمَ ابْنِهِ جَمِيعُ الْخَارَجِينَ مِنْ بَابِ الْمَدِينَةِ. وَاخْتَنَ كُلُّ ذَكَرٍ - كُلُّ الْخَارَجِينَ مِنْ بَابِ الْمَدِينَةِ. ٢٥ فَحَدَّثَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ إِذْ كَانُوا مُتَوَجِّعِينَ أَنَّ ابْنِي يَعْقُوبَ شَمْعُونُ وَلَاوِي أَخُوِي دِينَةَ أَخَذَا كُلِّ وَاحِدٍ سَيْفُهُ وَآتَى عَلَى الْمَدِينَةِ بِأَمْنٍ وَقَتْلًا كُلِّ ذَكَرٍ. ٢٦ وَقَتْلًا حَمُورَ وَشَكِيمَ ابْنَهُ بِحَدِّ السَّيْفِ وَأَخَذَا دِينَةَ مِنْ بَيْتِ شَكِيمَ وَخَرَجَا. ٢٧ ثُمَّ أَتَى بَنُو يَعْقُوبَ عَلَى الْقَتْلَى وَنَهَبُوا الْمَدِينَةَ لِأَنَّهُمْ نَجَسُوا أُخْتَهُمْ. ٢٨ غَنَمَهُمْ وَبَقَرَهُمْ وَحَمِيرَهُمْ وَكُلُّ مَا فِي الْمَدِينَةِ وَمَا فِي الْحَقْلِ أَخَذُوهُ. ٢٩ وَسَبَّوْا وَنَهَبُوا كُلَّ ثَرَوَتِهِمْ وَكُلَّ أَطْفَالِهِمْ وَنِسَاءَهُمْ وَكُلَّ مَا فِي الْبُيُوتِ. ٣٠ فَقَالَ يَعْقُوبُ لَشَمْعُونُ وَلَاوِي: «كَدَّرْتُ مَآلِي بِتَكْرِيهِكُمَا إِيَّايَ عِنْدَ سُكَّانِ الْأَرْضِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْفِرِزِيِّينَ وَأَنَا نَفَرٌ قَلِيلٌ. فَيَجْتَمِعُونَ عَلَيَّ وَيَضْرِبُونَنِي فَأَبِيدُ أَنَا وَبَيْتِي». ٣١ فَقَالَا: «أَنْظِرْ زَانِيَةً يَفْعَلُ بِأَخْتِنَا؟».

ومثله ما فعله كل من بني بنيامين وبني إسرائيل بالطرف الآخر رغم القرابة اللصيقة التي تربط بينهم، إذ أفنى كل منهم من خصمه عشرات الألوف، وأعمل السيف في جميع سكان المدن التي دخلها، وكل ذلك بسبب اعتداء بضعة أشخاص من بني بنيامين على سُرِّيَّة رجل من بني إسرائيل (قضاة/ ١٩ - ٢٠). ولنقرأ فقط هذه الفقرة التي يختم بها المؤلف الرواية: «٤٨ وَرَجَعَ رِجَالُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى بَنِي بَنِيَامِينَ وَضَرَبُوهُمْ

بَحْدَ السَّيْفِ مِنَ الْمَدِينَةِ بِأَسْرِهِا حَتَّى الْبَهَائِمِ حَتَّى كُلِّ مَا وَجِدَ وَأَيْضاً جَمِيعُ الْمُدُنِ الَّتِي وَجِدَتْ أَحْرَقُوهَا بِالنَّارِ». ومن ذلك الوادي ما فعله النبي إيليا حين ذبح كلَّ كهان البعل بالسيف، وعددهم أربعمائة وخمسون (كما جاء في الفقرة ٢٢ من الإصحاح التالي)، لم يَبْقَ مِنْهُمْ عَلَى أَحَدٍ: «٣١ ثُمَّ أَخَذَ إِيلِيَّا اثْنَيْ عَشَرَ حَجَرًا، بَعَدَ اسْتِبَاطِ بَنِي يَعْقُوبَ (الَّذِي كَانَ كَلَامُ الرَّبِّ إِلَيْهِ: [إِسْرَائِيلُ يَكُونُ اسْمُكَ]) ٣٢ وَبَنَى الْحِجَارَةَ مَذْبَحًا بِاسْمِ الرَّبِّ، وَعَمَلَ قَنَاةَ حَوْلَ الْمَذْبَحِ تَسْعَ كَيْلَتَيْنِ مِنَ الْبِزْرِ. ٣٣ ثُمَّ رَتَّبَ الْحَطَبَ وَقَطَعَ الثَّوْرَ وَوَضَعَهُ عَلَى الْحَطَبِ وَقَالَ: [امْلَأُوا أَرْبَعَ جَرَّاتِ مَاءٍ وَصُبُّوا عَلَى الْمُحْرِقَةِ وَعَلَى الْحَطَبِ] ٣٤ ثُمَّ قَالَ: [ثَبُّوا] فَثَبُّوا. وَقَالَ: [ثَلُّوا] فَثَلُّوا. ٣٥ فَجَرَى الْمَاءُ حَوْلَ الْمَذْبَحِ وَامْتَلَأَتِ الْقَنَاةُ أَيْضاً مَاءً. ٣٦ وَكَانَ عِنْدَ إِصْعَادِ التَّقْدِيمَةِ أَنَّ إِيلِيَّا النَّبِيَّ تَقَدَّمَ وَقَالَ: [أَيُّهَا الرَّبُّ إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَإِسْرَائِيلَ، لِيُعْلَمَ الْيَوْمَ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ فِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنِّي أَنَا عَبْدُكَ، وَبِأَمْرِكَ قَدْ فَعَلْتُ كُلَّ هَذِهِ الْأُمُورِ. ٣٧ اسْتَجِبْنِي يَا رَبُّ اسْتَجِبْنِي، لِيُعْلَمَ هَذَا الشَّعْبُ أَنَّكَ أَنْتَ الرَّبُّ إِلَهُ، وَأَنَّكَ أَنْتَ حَوَّلْتَ قُلُوبَهُمْ رُجُوعاً] ٣٨ فَسَقَطَتْ نَارُ الرَّبِّ وَأَكَلَتِ الْمُحْرِقَةَ وَالْحَطَبَ وَالْحِجَارَةَ وَالتُّرَابَ، وَلَحَسَتِ الْمِيَاهُ الَّتِي فِي الْقَنَاةِ. ٣٩ فَلَمَّا رَأَى جَمِيعُ الشَّعْبِ ذَلِكَ سَقَطُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ وَقَالُوا: «الرَّبُّ هُوَ اللَّهُ! الرَّبُّ هُوَ اللَّهُ!» ٤٠. فَقَالَ لَهُمْ إِيلِيَّا: «أَمْسِكُوا أَنْبِيَاءَ الْبَعْلِ وَلَا يُفْلِتْ مِنْهُمْ رَجُلٌ». فَأَمْسَكُوهُمْ، فَتَنَزَّلَ بِهِمْ إِيلِيَّا إِلَى نَهْرٍ فَيَشُونُ وَذَبَحَهُمْ هُنَاكَ» (الملوك الأول / ١٨). ومثلما صنع إيليا صنع أيضاً ياهو بن شافاط، الذي أقامه النبي أليشاع ملكاً على بني إسرائيل وحرَّضه على استئصال بيت آحاب على بكرة أبيه، فقام بالواجب، ثم زاد فأباد جميع عباد البعل وكهنته بعد أن خدعهم وجمعهم في المعبد الوثني متظاهراً أنه هو أيضاً من عباده ثم قتلهم لم يُفْلِتْ مِنْهُمْ رَجُلًا (الملوك الثاني / ٩). ومنه ما فعله بنو إسرائيل ببني يهوذا إخوانهم في النص التالي من الإصحاح الثامن والعشرين من سفر «الأيام الثاني»: «إِذَا كَانَ أَحَازُ ابْنُ عِشْرِينَ سَنَةً حِينَ مَلَكَ وَمَلَكَ سِتُّ عَشْرَةَ سَنَةً فِي أُورُشَلِيمَ وَلَمْ يَفْعَلِ الْمُسْتَقِيمَ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ كَدَاوُدَ أَبِيهِ ٢ بَلْ سَارَ فِي طُرُقِ مُلُوكِ إِسْرَائِيلَ وَعَمَلَ أَيْضاً تَمَاثِيلَ مَسْبُوكَةً لِلْبَعْلِيمِ. ٣ وَهُوَ أَوْقَدَ فِي وَادِي ابْنِ هِنُومَ وَأَحْرَقَ بَنِيهِ بِالنَّارِ حَسَبَ رَجَاسَاتِ الْأُمَمِ الَّذِينَ طَرَدَهُمُ الرَّبُّ مِنْ أَمَامِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. ٤ وَذَبَحَ وَأَوْقَدَ عَلَى الْمُرْتَفَعَاتِ وَعَلَى التَّلَالِ وَتَحْتَ كُلِّ شَجَرَةٍ خَضِرَاءَ. ٥ فَدَفَعَهُ الرَّبُّ إِلَهُهُ لِيَدِ مَلِكِ أَرَامَ فَضَرَبُوهُ وَسَبُّوا مِنْهُ سَبِيًّا عَظِيماً وَأَتَوْا بِهِمْ إِلَى دِمَشْقَ. وَدَفَعَ أَيْضاً لِيَدِ مَلِكِ إِسْرَائِيلَ فَضَرَبَهُ ضَرْبَةً عَظِيمَةً. ٦ وَقَتَلَ فَصَحُّ بْنُ رَمَلِيَا فِي يَهُوذَا مِئَةَ وَعِشْرِينَ أَلْفًا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ - الْجَمِيعُ بَنُو بَاسَ - لِأَنَّهُمْ تَرَكُوا الرَّبَّ إِلَهَ آبَائِهِمْ. ٧ وَقَتَلَ زَكْرِي جَبَّارُ أَفْرَايِمَ مَعْسِيًّا ابْنَ الْمَلِكِ وَعَزْرِيْقَامَ رَئِيسَ الْبَيْتِ وَالْقَانَةَ ثَانِي الْمَلِكِ. ٨ وَسَبَى بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ

إخوتهم مئتي ألف من النساء والبنات ونهبوا أيضاً منهم غنيمة وافرة وأتوا بالغنيمة إلى السامرة». ومنه كذلك ما فعلته يهوديت الأرملة اليهودية الجميلة التي ذهبت إلى معسكر الآشوريين وعملت على إغراء قائدهم الحربي بما تفرى به الأنثى الرجال وسقته خمرا حتى فقد وعيه، ثم احتزّت رأسه وهربت من المعسكر إلى قومها... إلخ. وبسببها انتصر بنو إسرائيل بعد أن كانوا قد أزمعوا الاستسلام لأولئك الأعداء كعادتهم في كثير من الأحوال! (انظر سفر «يهوديت» في النسخة الكاثوليكية من الكتاب المقدس). أذكر هذا على علّاته بغض النظر عن تاريخية القصة أو خيالياتها، فإن دارسى الكتاب المقدس يشكّون في صحة هذه الواقعة ويروّنها حكاية مصنوعة (انظر مقدمة سفر «يهوديت» في الترجمة الكاثوليكية للكتاب المقدس).

على أن الأمر لا يقف عند هذا الحد، فهناك الأمنيات التي يتمنى بنو إسرائيل وقوعها بالأمم الأخرى، وهى أمنيات بشعة تكشف ما فى قلوبهم من أحقاد لا ينطفئ لها لظى. ولنأخذ فقط بعض ما يتوبنا نحن المصريين من هذا الحب، ولنقرأ ما جاء فى نبوءة أشعيا فى الإصحاح التاسع عشر: «أَوْحَى مِنْ جَهَةِ مِصْرَ: «هُوَذَا الرَّبُّ رَاكِبٌ عَلَى سَحَابَةٍ سَرِيعَةٍ وَقَادِمٌ إِلَى مِصْرَ فَتَرْتَجِفُ أَوْتَانُ مِصْرَ مِنْ وَجْهِهِ وَيَذُوبُ قَلْبُ مِصْرَ دَاخِلَهَا. ٢ وَأَهْيِجُ مِصْرِيِّينَ عَلَى مِصْرِيِّينَ فَيُحَارِبُونَ كُلُّ وَاحِدٍ أَخَاهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ: مَدِينَةُ مَدِينَةٍ وَمَمْلَكَةٌ مَمْلَكَةً. ٣ وَتَهْرَاقُ رُوحُ مِصْرَ دَاخِلَهَا. وَأُقْنِي مَشُورَتَهَا فَيَسْأَلُونَ الْأَوْتَانُ وَالْعَازِفِينَ وَأَصْحَابَ التَّوَابِعِ وَالْعَرَافِينَ. ٤ وَأُغْلِقُ عَلَى الْمِصْرِيِّينَ فِي يَدِ مَوْلَى قَاسٍ فَيَتَسَلَّطُ عَلَيْهِمْ مَلِكٌ عَزِيزٌ يَقُولُ السَّيِّدُ رَبُّ الْجُنُودِ. ٥ وَتُشَفُّ الْمِيَاهُ مِنَ الْبَحْرِ وَيَجْفُ النُّهْرُ وَيَيْبَسُ. ٦ وَتُتَبَّنُ الْأَنْهَارُ وَتَضْعُفُ وَتَجْفُ سَوَاقِي مِصْرَ وَيَتَلَفُ الْقَصَبُ وَالْأَسَلُ. ٧ وَالرِّيَاضُ عَلَى حَافَةِ النَّيْلِ وَكُلُّ مَرْزَعَةٍ عَلَى النَّيْلِ تَيْبَسُ وَتَتَبَدَّدُ وَلَا تَكُونُ. ٨ وَالصِّيَادُونَ يَنْتُونُ وَكُلُّ الَّذِينَ يُلْقُونَ شِصًا فِي النَّيْلِ يَبْجُونُ. وَالَّذِينَ يَبْسُطُونَ شَبَكَةً عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ يَحْزَنُونَ ٩ وَيَخْزَى الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الْكَتَانَ الْمُمَشَّطَ وَالَّذِينَ يَحْكِيُونَ الْأَنْسِجَةَ الْبَيْضَاءَ. ١٠ وَتَكُونُ عُمْدُهَا مَسْحُوقَةً وَكُلُّ الْعَامِلِينَ بِالْأَجْرَةِ مُكْتَبِي النَّفْسِ. ١١ إِنْ رُؤَسَاءُ صُوعَنَ أَغْبِيَاءُ! حُكَمَاءُ مُشِيرِي فِرْعَوْنَ مَشُورَتُهُمْ بِهِيمِيَّةً. كَيْفَ تَقُولُونَ لِفِرْعَوْنَ: أَنَا ابْنُ حُكَمَاءَ ابْنِ مُلُوكٍ قَدَمَاءَ. ١٢ فَأَيْنَ هُمْ حُكَمَاؤُكَ؟ فَلْيُخْبِرُوكَ. لِيَعْرِفُوا مَاذَا قَضَى بِهِ رَبُّ الْجُنُودِ عَلَى مِصْرَ. ١٣ رُؤَسَاءُ صُوعَنَ صَارُوا أَغْبِيَاءَ. رُؤَسَاءُ نُوفَ انْخَدَعُوا. وَأَضَلَّ مِصْرَ وَجْوهُ أَسْبَاطِهَا. ١٤ امْزَجَ الرَّبُّ فِي وَسْطِهَا رُوحَ غِيٍّ فَأَضَلُّوا مِصْرَ فِي كُلِّ عَمَلِهَا كَتَرَنَجَ السُّكْرَانِ فِي قَيْئِهِ. ١٥ فَلَا يَكُونُ لِمِصْرَ عَمَلٌ يَعْمَلُهُ رَأْسٌ أَوْ ذَنْبٌ نَخْلَةٌ أَوْ أَسَلَةٌ. ١٦ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَكُونُ مِصْرُ كَالنِّسَاءِ فَتَرْتَعِدُ وَتَرْجَفُ مِنْ هَزَّةٍ يَدِ رَبِّ الْجُنُودِ الَّتِي يَهْزُهَا عَلَيْهَا.

١٧ «وَتَكُونُ أَرْضُ يَهُودَا رُغْبًا لِمِصْرَ. كُلُّ مَنْ تَذَكَّرَهَا يَرْتَعِبُ مِنْ أَمَامِ قَضَاءِ رَبِّ الْجُنُودِ الَّذِي يَقْضِي بِهِ عَلَيْهَا». ١٨ «فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُ فِي أَرْضِ مِصْرَ خَمْسُ مِئَاتٍ تَتَكَلَّمُ بِلُغَةِ كَنْعَانَ وَتَحْلِفُ لِرَبِّ الْجُنُودِ يُقَالُ لِأَحَدَاهَا «مَدِينَةُ الشَّمْسِ». ١٩ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُ مَذْبَحٌ لِلرَّبِّ فِي وَسْطِ أَرْضِ مِصْرَ وَعَمُودٌ لِلرَّبِّ عِنْدَ تَحْمِهَا. ٢٠ فَيَكُونُ عَلَامَةً وَشَهَادَةً لِرَبِّ الْجُنُودِ فِي أَرْضِ مِصْرَ. لِأَنَّهُمْ يَصْنُرُخُونَ إِلَى الرَّبِّ بِسَبَبِ الْمُضْطَاقِينَ فَيُرْسِلُ لَهُمْ مُخْلَصًا وَمُحَامِيًا وَيُنْقِذُهُمْ. ٢١ فَيَعْرِفُ الرَّبُّ فِي مِصْرَ وَيَعْرِفُ الْمِصْرِيُّونَ الرَّبَّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَيَقْدُمُونَ ذَبِيحَةً وَتَقْدِمةً وَيَنْذَرُونَ لِلرَّبِّ نَذْرًا وَيُوفُونَ بِهِ. ٢٢ وَيَضْرِبُ الرَّبُّ مِصْرَ ضَارِبًا فَشَافِيًا فَيَرْجِعُونَ إِلَى الرَّبِّ فَيَسْتَجِيبُ لَهُمْ وَيَشْفِيهِمْ». ٢٣ «فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَكُونُ سَكَّةٌ مِنْ مِصْرَ إِلَى أَشُورَ فَيَجِيءُ الْأَشُورِيُّونَ إِلَى مِصْرَ وَالْمِصْرِيُّونَ إِلَى أَشُورَ وَيَعْبُدُ الْمِصْرِيُّونَ مَعَ الْأَشُورِيِّينَ. ٢٤ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُ إِسْرَائِيلُ ثَلَاثًا لِمِصْرَ وَلَأَشُورَ بَرَكَةً فِي الْأَرْضِ ٢٥ بِهَا يَبَارِكُ رَبُّ الْجُنُودِ قَائِلًا: مُبَارَكٌ شَعْبِي مِصْرُ وَعَمَلُ يَدَيَّ أَشُورُ وَمِيرَاثِي إِسْرَائِيلُ».

(ملاحظة: هذه المادة اشترك في كتابتها ثلاثة أشخاص، لكني جريت على ما يجري عليه الكلام في مثل هذه الظروف عادة، إذ قلت: «الكاتب»، وليس «الكتاب» على أساس أن كلا منهم استقلّ بجزء من المادة، فمناقشتي لأي شيء فيها إذن هو مناقشة للكاتب الفرد الذي كتبه فقط لا لجميع من اشتركوا في كتابة المادة كلها).

[كتاب أخبار نيل مصر] لابن العمامة الأقفهسي (٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م)

قراءة نقدية

أ. أحمد عبد الباسط حامد (*)

«مصر هبة النيل» مقولةٌ قالها أبو التاريخ هيرودوت، وانتصر لها أقوامٌ رأوا أن الفضلَ فيما وصل إليه المصريون يرجع إلى تلك البيئة الجغرافية المتميزة؛ فمصر هبة النيل، وحضارتها من ثمار البيئة الطبيعية، ولولا هذا الوطن الصالح ما قامت لمصر حضارة، ولا كان للمصريين ذكرٌ في التاريخ.

بينما يرى آخرون أن «مصر هبة المصريين»؛ فالنيل شأنه شأن أي قوة طبيعية أخرى، يمكنه أن يخلق كما يمكنه أن يدمر، والإنسان وحده هو الذي يستطيع تحويل قوى التدمير إلى شيءٍ صالحٍ له ولبنيته. وقد استطاع المصريون الأوائل أن يسيطروا على تلك القوة الطبيعية (النيل)، ونجحوا في أن يحولوا تلك الأحراش والمستنقعات إلى حقولٍ وجداولٍ وسدود، ومضوا به نحو مجتمع مدنيّ.

وهناك فريقٌ ثالث يرى رأياً وسطاً؛ حيث يتقبل القولين معاً: «مصر هبة النيل» و«مصر هبة المصريين» دون تعارض بينهما.

ففي مصر وُجدت البيئة الطبيعية المناسبة، كما وُجد من استطاع استغلال هذه البيئة أحسن استغلال وتوجيهها الوجهة النافعة؛ فالبيئة المصرية والإنسان المصري قد استطاعا معاً في تمازج تام أن ينهضا بهذا الوطن الذي نعيش فيه^(١).

وقدماً ارتبطت حياة المصريين بالنيل ارتباطاً وثيقاً، فجعلوه محط أنظارهم وعنايتهم وتقديرهم، بل بلغ من حُبهم إياه وإعزازهم له أن قدّسوه وألّوه، ونشأ لديهم اعتقاد بأن النيل ينبع من النهر السماوي المحيط بالعالم عند انعطافه ناحية الجنوب، وأطلقوا عليه اسم «حابي».

ولم يكن المصريون في العصر الإسلامي أقلَّ اهتماماً بالنيل من ذي قبل؛ فلقد أدركوا جيداً أن النيل مصدرُ الخير والبركة والحياة لهم ولبلدهم الطيب، فأعطوه كل اهتمام وعُنوا به عنايةً كبيرة بدراسته ووصفه، ورصد أوقات فيضانه، وأقاموا المقاييس لتتبع مقادير زيادته ونقصانه؛ بل وأقاموا النظم لربط السنة الهجرية بالسنة الشمسية

(*) باحث بمركز تحقيق التراث، بدار الكتب والوثائق المصرية.

(١) حول هذا الموضوع انظر: محمد حمدي المناوي: نهر النيل في المكتبة المبرية. القاهرة: الدار القومية للطباعة

والنشر، ١٩٦٦م. ص ٩٠٧.

التي تسير بدورها مع مواعيد فيضان النيل.

لذا لم يكن من الغريب أن نجد عددًا كبيرًا من الجغرافيين^(١)، والمؤرخين^(٢)، والرحالة^(٣) يؤلفون الكتب والفصول للتاريخ لنهر النيل، أو لوصف ودراسة فروعه وترعه وخلقانه وجسوره وقنواته وقناطره ومقاييسه.

* * *

وقد ظهر في الفترة المماليكية في مصر (٦٤٨-٩٢٣هـ) عددٌ غير قليل من المؤلفات التي جعلت من نهر النيل موضوعها الأساسي، تحدث فيها أصحابها عن نقاط معينة، مثل: فضل نهر النيل، ذكره في القرآن الكريم والسنة النبوية، والمكان الذي ينبع منه، ورحلته من منبعه حتى مصبه، ومقاييسه، وخراجه، وما كان يقام عند وفائه من أعياد ... إلى غير ذلك من موضوعات شديدة الصلة به.

ومن تلك المؤلفات رسالة «نيل مصر وأهرامها» لشهاب الدين أبي العباس أحمد ابن عماد بن يوسف بن عبد النبي، المعروف بابن العماد الأقفهسي (٧٥٠-٨٠٨هـ / ١٣٤٩-١٤٠٦م)، وهي رسالة طريفة في موضوعها، فرغ من تأليفها سنة ٧٨٠هـ^(٤)، وقد قامت بتحقيقها مؤخرًا الباحثتان: الدكتورة/ لبيبة إبراهيم مصطفى، والأستاذة/ نعمات عباس محمد، في طبعة فاخرة بمركز تحقيق التراث، بدار الكتب المصرية. تحت عنوان «كتاب أخبار نيل مصر». وقد اعتمدتا في تحقيقها علي نسختين خطيتين بدار الكتب المصرية، وهما:

(١) مثل: محمد بن موسى الخوارزمي، وكتابه «صورة الأرض»؛ وأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي، وكتابه «البلدان»؛ وأبي علي أحمد بن عمر، المعروف بابن رسته، وكتابه «الأعلاق النفيسة»؛ ويحيى بن سيرايبون، المعروف بسهراب، وكتابه «عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة»؛ وأبي القاسم محمد بن حوقل، وكتابه «صورة الأرض»؛ وشهاب الدين أحمد بن يحيى، المعروف بابن فضل الله العمري، وكتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار».

(٢) مثل: عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، والمعروف بابن عبد الحكم، وكتابه «فتوح مصر وأخبارها»؛ وأبي الحسن علي بن الحسين، المعروف بالمسعودي، وكتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر»؛ والحسن بن إبراهيم بن الحسن، المعروف بابن زولاق، وكتابه «فضائل مصر وأخبارها»؛ وتقي الدين أحمد بن علي المقرئ، وكتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»؛ وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، وكتابه «كوكب الروضة في تاريخ النيل وجزيرة الروضة».

(٣) مثل: رحلة أبي الحسين محمد بن أحمد الكتاني، المعروف بابن جبير؛ وموفق الدين أبي محمد عبد اللطيف بن يوسف، المعروف بعبد اللطيف البغدادي، ورحلته «الإفادة والاعتبار»؛ وشمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي، المعروف بابن بطوطة، ورحلته المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار».

(٤) ذكر ذلك ابن العماد في رسالته تلك أثناء حديثه عن حائط المعجوز، ص ٦٦: «وَأَثَرُ هَذَا الْحَائِطِ مَوْجُودٌ إِلَى هَذَا الْوَقْتِ، وَهُوَ سَنَةُ ثَمَانِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ، وَيَعْرِفُ بِحَائِطِ الْمَعْجُوزِ». كما جزم به يوسف إليان سركيس في كتابه «معجم المطبوعات العربية والمعربة»، ج ١/ ٤٦٢.

١ - نسخة رقم ٤٧١ الزكية، نسخت سنة ١٩٩٠هـ، ولم يرد بها ذكر للناسخ، وأُتخذت أصلاً.

٢ - نسخة رقم ٩ جغرافيا حليم، قام بنسخها مصطفى بن عبد الله سنة ١٠٧٧هـ، وأُتخذت نسخة مساعدة.

وقد قُدم التحقيق بـ «دراسة وتقديم» من إعداد الدكتورة/ لبيبة إبراهيم مصطفى، تناولت فيها الحديث عن محاولات المصريين القدماء ثم اليونان ثم العرب لاستكشاف نهر النيل، معتمدة في جلّ ذلك على كتاب «نهر النيل» لمؤلفه محمد عوض محمد.

ثم تحدثت بعد ذلك عمّا شاع من حكايات تشوبها الخرافات والأساطير حول النيل، في كتب الجغرافيين والمؤرخين في العصر المماليكي، وعمّا ذُكر بها من قصص ديني أو حديث نبوي أو أثر صحابي مما يعطي للنيل قداسة وأهمية.

ثم تحدثت أخيراً عن فيضان نهر النيل وبلوغه الزيادة، أو نقصان مائه عن حد الوفاء، وعن مقاييس النيل الموجودة بمصر، وبيان سبب خضرة مياهه.

تأتي بعد ذلك مباشرة مقدمة التحقيق من إعداد الباحثة نفسها، حيث بدأت بالترجمة لابن العماد الأقفهسي وذكر بعض مؤلفاته، تلا ذلك الحديث عن الرسالة وأهميتها، ووصف النسختين الخطيتين اللتين اعتمد عليهما في التحقيق، ثم الحديث عن مصادر المخطوطة ومنهج المؤلف فيها، ثم يأتي - أخيراً - منهج التحقيق، ويتلخص فيما يلي:

- ١- اعتماد نسخة الزكية «ز» أصلاً، ونسخة حليم «ح» نسخة مساعدة.
- ٢- المقابلة بين النسختين، وإثبات الفروق في هوامش الصفحات.
- ٣- تصويب الأخطاء، وإثبات الساقط من المتن بين حاصرتين.
- ٤- مراجعة النص على معظم المصادر التي نقل عنها المؤلف، والتي ذكرها صريحة في مواضعها، وإثبات الفروق في الهوامش.
- ٥- الترجمة للأعلام الواردة في المتن.
- ٦- التعريف بالأماكن والبلدان والمواقع والمصطلحات.
- ٧- تخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة.
- ٨- تزويد الكتاب بملحق في نهاية المتن يضم عدداً من الخرائط المثبت عليها

المعالم الجغرافية والأماكن التي أوردتها المؤلف في الرسالة.
وتُختم مقدمة التحقيق بنماذج مصورة من النسختين الخطيتين.

* * *

يأتي بعد ذلك متن الرسالة، وهي تشتمل على مقدمة وفصلين: أما المقدمة فقد بيّن فيها ابن العماد الدافع له على التأليف؛ حيث يقول:

«ولما كان إقليم مصر مشتملاً على فوائد وأمر عجيبة - استخرتُ الله تعالى في أن أجمع فيه من نفيس الغرائب ما لا ينبغي لذوي العلم إهمالها، ولا لساكن مصر إغفالها وكيف وكلهم - أو أكثرهم - لو سُئِلَ عن نهر النيل: من أين يخرج من الأرض؟ وفي أي مكان يذهب؟ ولو سُئِلَ عن طوله، وعن سبب تكدره وخضرته في وقت الزيادة، ومن أين تمده الزيادة؟ وفي أي مكان تذهب زيادته إذا نقص؟ - لما أجاب عن ذلك. وأنا إن شاء الله مبين لجميع ذلك، قاصداً فيه الاختصار»

ثم ينتقل إلى موضوعه مباشرة، فيتحدث في الفصل الأول عن فضائل نهر النيل ومصر من خلال الروايات المختلفة في الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، ومن نزل مصر من الأنبياء والمرسلين، وغيرهم من عظماء الرجال، وما فيها من مواضع مقدّسة، وما في النيل من أعاجيب من أنواع الحيوان والسمك.

ثم يأتي الفصل الثاني من الكتاب، والذي ينقسم بدوره إلى فصول أخرى متفاوتة الحجم، وهي:

- ١- فصل في بيان المكان الذي يخرج أصل النيل منه.
- ٢- فصل في كُورَة أسيوط وجبل أبي فائدة الذي على النيل.
- ٣- فصل في الأهرام.
- ٤- فصل في الحائط الممتدة بالجانب الشرقي عن النيل (حائط العجوز).
- ٥- فصل في المقاييس الموضوعة بمصر لمعرفة زيادة النيل ونقصانه منه.
- ٦- فصل في زيادة النيل.
- ٧- فصل في المكان الذي يذهب فيه ماء النيل.

٨- فصل في الكلام على الأنهار الثلاثة: جيحون، وسيحون، والفرات.

٩- فصل في الفرق بين النهر والبحر.

١٠- فصل في الماء الذي ينبع من الأرض.

ثم يختم ابن العماد رسالته ببحث فقهي في الماء الذي يجوز التطهر به وما لا يجوز.

تلك نظرة عامة على محتوى الرسالة، وما تضمنته من مواضيع وأفكار.

وقد قامت المحققتان بعمل كشافات تحليلية في نهاية الرسالة، مرتبة على هذا النحو:

١- كشف الأعلام.

٢- كشف الأمم والشعوب والقبائل والفرق والجماعات.

٣- كشف الأماكن والبلدان.

٤- كشف الألفاظ الاصطلاحية.

٥- كشف بأسماء الكتب الواردة في النص.

٦- كشف الآيات القرآنية.

٧- كشف الأحاديث النبوية.

وأخيراً ينتهي التحقيق بـ :

١- مصادر ومراجع التحقيق (المخطوطات - المصادر العربية المطبوعة - المراجع العربية).

٢- فهرس الموضوعات.

إلى هنا أراني قد وفّيتُ في التعريف بالرسالة، ومنهج التحقيق الذي اتبعته المحققتان الفضليان، في محاولةٍ منهما لإخراج المتن في أقرب صورةٍ أرادها مؤلفه له.

* * *

والآن حان لي أن أذكر ما وقع فيه التحقيق من عشرات وزلات، عسى أن يتم استدراكها فيما بعد:

١- جاء عنوان الرسالة على الغلاف «كتاب أخبار نيل مصر»، وهو عنوانٌ اجتهادي من المحققين، جيء به معبراً عن مضمون الرسالة فقط.

فقد جاء العنوان على النسختين الخطيتين اللتين اعتمد عليهما في التحقيق هكذا:

«كتاب يذكر فيه نيل مصر، من أين يخرج من الأرض، وفي أي مكان يذهب، وسبب تكدره وخضرته في وقت الزيادة، ومن أين تمده الزيادة، وفي أي مكان تذهب زيادته إذا نقص»؛ ومن ثم فقد اجتهدت المحققتان في أن يكون العنوان مختصراً من هذا كله، ومعبراً في الوقت نفسه عن مضمون الرسالة.

لكن الواقع يخالف ذلك؛ فإن أقدم نسخة موجودة للرسالة - كما سيأتي - والتي تم الفراغ منها في رمضان سنة ٧٨١هـ - جاء عنوانها «نيل مصر وأهرامها».

ولما كانت هذه النسخة أقدم النسخ الموجودة، وقد كُتبت في حياة المؤلف، بل وبعد تأليفه لهذه الرسالة بعام واحد - فيمكن اعتبارها المخطوط الأصلي؛ ومن ثم يكون العنوان الصحيح الذي وضعه ابن العماد لمؤلفه هو «نيل مصر وأهرامها» وليس «كتاب أخبار نيل مصر».

٢- جاء في مقدمة التحقيق، ص ١٥، ما نصه^(١):

«أما عن مؤلفاته فهي عديدة، منها: التعقبات على المهمات، وشروح المنهاج، وأحكام المساجد، وأحكام النكاح، وآداب الطعام، والإبريز فيما يقدم على موت التجهيز، القول التام في أحكام المأموم والإمام، وموقف المأموم والإمام، وشرح العمدة، والأربعين النووية، والبردة، والتبيان فيما يحل ويحرم من الحيوان، والتبيان في آداب حملة القرآن، والاقتصاد في كفاية العقاد، وكشف الأسرار، والدرة الفاخرة، والآخرة، وقصيدة نظم الدرر في هجرة خير البشر، وآداب دخول الحمام، ونظم التذكرة لابن الملقن في علوم الحديث وشرحها، وأخبار نيل مصر، والبيان التقريري في تخطئة الكمال الدميري، والمواطن التي تباح فيه الغيبة، والدماء المجبورة، والأماكن التي تؤخر فيها الصلاة عن أول وقت، والدر النفيس في النجاسات العفو عنها».

يلاحظ مما سبق ما يلي:

أ- لم يُتبع في ترتيب تلك المؤلفات أي منهج علمي؛ فلم تُرتب حسب الترتيب الهجائي، أو حسب التصنيف الموضوعي، أو حسب تأريخ التأليف ... أو غير ذلك من أنواع الترتيب.

(١) آثرتُ الإتيان بالنص كاملاً كما ذكر في مقدمة التحقيق؛ مشاركة من القارئ فيما سأورده من ملاحظات.

ب- جاءت بعض هذه العناوين مبهمة وبها أخطاء، بل وغير صحيحة؛ وإنما ذلك راجعٌ إلى أن المحققين لم تعتمدوا على المراجع التي من شأنها توثيق العنوان ونسبته إلى مؤلفه، فقط اعتمدوا على ما ذكره ابن حجر في «المجمع المؤسس»، والسخاوي في «الضوء اللامع»، مثال ذلك:

● شروح المنهاج: كذا ذكر، وإنما الصواب أن لابن العماد شرحين فقط على كتاب منهاج الطالبين للنووي: كبير، ويسمى «البحر العجاج في شرح المنهاج»، وصغير يسمى «التوضيح في شرح منهاج الطالبين».

● أحكام المساجد: كذا ذكر، وإنما اسمه «تسهيل المقاصد لزوار المساجد». وهو مطبوع^(١).

● أحكام النكاح: كذا ذكر، وإنما اسمه «توقيف الحكام على غوامض الأحكام». وهو مطبوع^(٢).

● الإبريز فيما يقدم على موت التجهيز: كذا ذكر، اعتماداً على ما ذكر - خطأ - في «الضوء اللامع»، وإنما الصواب «الإبريز فيما يقدم على مؤنة التجهيز».

● التبيان في آداب حملة القرآن: كذا ذكر، ومعلوم أن هذا الكتاب من تأليف يحيى ابن شرف النووي، وإنما نظمه ابن العماد وسماه «تحفة الإخوان في نظم التبيان في آداب حملة القرآن».

● الاقتصاد في كفاية العقاد: كذا ذكر، اعتماداً على ما ذكر - خطأ - في «الضوء اللامع»، وإنما الصواب «الاقتصاد في كفاية الاعتقاد».

● آداب دخول الحمام: كذا ذكر، وإنما اسمه «القول التمام في آداب دخول الحمام».

ج - لم تُشر المحققان إلى ما طبع من هذه المؤلفات، وما الذي لا يزال مخطوطاً، وما المفقود منها. وكان الأولى بهما أن توضحا ذلك.

د - أغفلت المحققان كثيراً من مؤلفات ابن العماد، لا سيما التي عُرف بها واشتهر، وكان الأولى بهما أن تحصر جميع ما ألفه ابن العماد الأقفهسي؛ مما يُعرّف القارئ بمكانة ابن العماد العلمية، وبموسوعيته، ومن تلك الكتب:

(١) طبع بتحقيق أحمد فريد المزيدي، في ١٧٦ ص.

(٢) طبع بتحقيق نصير خضر سليمان الشافعي عن دار الكتب العلمية، في ٤٩٦ ص.

- إكرام مَنْ يعيش بتحريم الخمر والحشيش: طبع عن دار الصحابة (طنطا) في ٦٨ ص، سنة ٩٩١م، ثم طبع في ذيل «رفع الإلباس عن وهم الوسواس» عن دار الكتب العلمية (بيروت) عام ١٩٩٥م، بتحقيق محمد فارس، ومسعد السعدني.
- رفع الإلباس عن وهم الوسواس: طبع عن دار الكتب العربية (بيروت)، عام ١٩٩٥م، ويليهِ «إكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش» في ٣١١ ص، بتحقيق محمد فارس ومسعد السعدني.
- السر المستبان مما أودعه الله من الخواص في أجزاء الحيوان: وهو الكتاب الأم الذي اختصره ابن العماد في كتابه «التبيان فيما يحل ويحرم من الحيوان»^(١)، وقد طبع الكتاب عن دار العربي للنشر والتوزيع (القاهرة)، عام ١٩٩٥م، في ٣٢٩ ص، بتحقيق صابر إدريس.
- القول النبيل بذكر التطفيل: طبع عن مكتبة ابن سينا (القاهرة)، عام ١٩٨٩م، في ١٩٢ ص، بتحقيق مصطفى عاشور.
- كشف الأسرار عما خفي عن الأفكار: طبع طبعة قديمة بمطبعة بني لاجوداكس (الإسكندرية)، عام ١٨٩٧م، في ٢١٥ ص.

٣- جاء في الحديث عن الرسالة وأهميتها، ص ١٦ ما يلي:

«أما مخطوطة أخبار نيل مصر، فترجع أهميتها إلى أن المعلومات التي وردت بها توضح بجلاء أن العلماء المسلمين لم يقفوا مكتوفي الأيدي في ميدان الاستكشاف والتفسير، سواء ما كان متعلقاً بنهر النيل، أو ببعض الظواهر الطبيعية، أو بالآثار القديمة، بل إنهم بذلوا كل ما لديهم من جهد، واجتهدوا في ضوء ما لديهم من معلومات وإمكانات، ولم يكتفوا بالنقل ممن سبقوهم، بل حاولوا تفسير كل شيء على قدر استطاعتهم، وهذا يوضح المنهج العلمي للعلماء المسلمين».

قد يكون هذا صحيحاً في غير هذا المؤلف، لكن ابن العماد في هذه الرسالة لم يكن أكثر من ناقل؛ ففي الفصل الأول نجده عالمة على ما كتبه ابن الكندي، وابن عبد الحكم، وابن زولاقي. وفي الفصل الثاني أخذ ينقل بالنص عن «مروج الذهب» للمسعودي. بل إننا نراه قد أخفق - كما سنرى - في اجتهاداته التي تعدُّ على أصابع اليد الواحدة، والتي ذكرها في هذه الرسالة.

(١) طبع هذا المختصر عن دار الكتب العلمية - بيروت، عام ١٩٩٦م، في ١٩٢ ص، بتحقيق محمد حسن إسماعيل.

يقول محمد حمدي المناوي في كتابه القيم «نهر النيل في المكتبة العربية»^(١):

«وكان من المنتظر وقد ألف الأقفهسي كتابه عن النيل خاصة، أن يأتي بمعلومات جديدة أو يعالج الموضوع بتوسع مثلما عالجه المقرئزي مثلاً وهو معاصر له، ولكن كل ما أورده المؤلف من معلومات نقلها عن الكتب السابقة، ففي الفصل الأول الخاص بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية اعتمد المؤلف على ابن عبد الحكم، والكندي، وابن زولاق، وفي الفصل الثاني لم يكن أكثر من ناقلٍ عن «مروج الذهب» للمسعودي.

ولم يتعرض الأقفهسي لوصف النيل في مصر، وخلقاته، وترعه، وما كان يقام عند وفائه من أعياد، أو يبين أثر النيل في مصر من الناحية الاقتصادية، والخراج، ونظم الزراعة والملاحة، وهي موضوعات اهتم بها مؤلفون سابقون له كابن ممتي، والقلقشندي أو معاصرون له كالمقرئزي».

وانتي لأرجع السبب في هذا إلى أن ابن العماد الأقفهسي عُرِفَ فقيهاً وإماماً من أئمة الشافعية، ولم يُعرفَ جغرافياً أو مؤرخاً. كذلك لم يكن في خاطره وهو يؤلف رسالته تلك أنه سيقوم مقام المستكشف لمنابع النيل، أو المفسر والباحث وراء بعض الظواهر الطبيعية. بل إنه ألف رسالته تلك لغرض بسيط أوضحه في المقدمة، وهو مجرد تعريف المصريين عن أشياء لا تقع تحت أبصارهم، مثل: منابع النيل وفيضانه وسبب خضرته، والتعريف ببعض الأماكن كالأهرام ونحوها.

لذلك كله كان من الأولى بالمحققين أن تكتفيا في الحديث عن أهمية الرسالة بأن مؤلفها جمع نصوص الجغرافيين والمؤرخين السابقين عن نهر النيل في مكان واحد وهو هذه الرسالة.

٤- جاء في مقدمة التحقيق، ص ١٦، وفي معرض الحديث عن الرسالة وأهميتها. أيضاً :-

«وقد ذكر ابن العماد ذلك صراحة في عنوان المخطوطة وقال: «جمعه

الشيخ شهاب الدين بن العماد الأقفهسي».

من البديهي أن هذا القول من وضع الناسخ، وليس من وضع ابن العماد الأقفهسي؛ ومما يؤكد صحة ما ذهب إليه أن تكلمة الجملة هي: «جمعنا الله وإياه في الجنة بمنه وكرمه، والمسلمين أجمعين. آمين آمين آمين».

(١) انظر: نهر النيل في المكتبة العربية، ص ٢٢٦.

ومن ثمَّ فلا يجوز الاستشهاد بها على ذلك.

٥- عدم استيفاء النسخ الخطية المختلفة للرسالة؛ الأمر الذي من شأنه إخراج النصِّ سليماً من الأخطاء والتصحيقات، وفي أقرب صورة أرادها المؤلف له، دون الاحتياج إلى تأويلٍ لبعض الجمل والمبارات، أو إثبات ما لم يُرده المؤلف، كما وقع في هذا العمل.

فقد اعتمدت المحققتان في إخراج هذه الرسالة على نسختين خطيتين فقط بدار الكتب المصرية، هما:

١- نسخة رقم ٤٧١ الزكية.

٢- نسخة رقم ٩ جغرافيا حليم.

وقد جاءت عبارتهما لتوحي بالجزم والتأكيد على أنه لا توجد غير هاتين النسختين فقط: «توجد نسختان هما»^(١). هذا ما قيل، لكن الواقع يخالف ذلك أيضاً؛ ففي مصر وحدها^(٢) توجد ستُّ نسخ خطية للرسالة، فضلاً عن النسختين الخطيتين اللتين اعتمد عليهما في التحقيق. وهذه النسخ هي^(٣):

١- نسخة بمكتبة بلدية الإسكندرية، تحت رقم ١٦٥٧ ب: جاء عنوانها: «نيل مصر وأهرامها»، وهي أقدم النسخ على الإطلاق، تقع ضمن مجموع في ١٥ ورقة، وبها نظام التعقيب. قال ناسخها في نهاية المخطوط: «ووافق الفراغ من تعليقه في العشر الأول من شهر رمضان المعظم من سنة أحد وثمانين وسبعمائة».

٢- نسخة بمكتبة بلدية الإسكندرية (نسخة ثانية)، تحت رقم ٧٥٦ د: جاء عنوانها: «كتاب يُذكر فيه خبر النيل من أين يخرج من الأرض وفي أي مكان يذهب وسبب تكدره وخضرته في أيام زيادته وفي أي مكان تذهب زيادته إذا نقص»، وقد فُرج من كتابتها «يوم الأربعاء ثالث عشر رجب الفرد من شهور سنة ثمان وثلاثين بعد الألف من الهجرة النبوية»، وهي ضمن مجموع في ١٦ ورقة، وبها نظام التعقيب.

٣- نسخة بمكتبة بلدية الإسكندرية (نسخة ثالثة)، تحت رقم ٤٩٣٩ د: جاء عنوانها: «القول المفيد في النيل السعيد»، وهي أحدث النسخ، فُرج من كتابتها سنة ١٢٦٦ هـ، وتقع في ٢٨ ورقة.

(١) «أخبار نيل مصر» (مقدمة التحقيق)، ص ١٧.

(٢) وفي خارج مصر توجد: نسخة بمكتبة الدولة ببرلين، ذكرها بروكلمان في «تاريخ الأدب العربي»، القسم السادس، ص ٢٧٥؛ وثانية بمكتبة الحرم المكي أشار إليها الزركلي في «الأعلام»، ج ١/١٨٤؛ وثالثة بمكتبة سليم أفندي شلحوب، ذكره يوسف إليان سركيس، في «معجم المطبوعات العربية والمعربة»، ج ١/٤٦٢.

(٣) أرفقت في نهاية المقال نماذج مصورة من هذه المخطوطات.

٤- نسخة بمكتبة الأزهر، تحت رقم ٤٨١٥ جغرافيا: جاء عنوانها: «كتاب في ذكر بحر النيل وما يتعلق به»، وهي نسخة مدققة، كتبت برسم مصطفى جودجي القاطن بثر دمياط سنة ١١٠٩هـ، وتقع في ٢٠ ورقة.

٥- نسخة بمكتبة الأزهر (نسخة ثانية)، تحت رقم ٩٧٩٠٢ معارف عامة: جاء عنوانها: «كتاب في فضائل النيل ومن أين منبعه»، وهي نسخة غير مؤرخة، تنتهي بالفصل قبل الأخير «فصل: وأما الماء الذي ينبع من الأرض، فهو شبيه ماء الآبار»، وتقع في ٢٤ ورقة.

٦- نسخة بدار الكتب المصرية، تحت رقم ٥ جغرافيا حلیم: وهي النسخة الثالثة للرسالة بدار الكتب المصرية، جاء عنوانها: «هذا كتاب النيل السعيد المبارك»، وهي غير مؤرخة إلا أنها كاملة وليس بها أية خروم، كما أن بها نظام التعقيبة، وتقع في ٢٠ ورقة.

٦- جاء وصف النسختين الخطيتين المعتمد عليهما في التحقيق ناقصاً، بل وغير صحيح في موضع واحد:

أ- فقد ذكر أن عدد أوراق النسخة رقم ٤٧١ الزكية هو سبعون ورقة، وهو خطأ محض؛ لأن عدد الأوراق خمس وثلاثون ورقة، أي: سبعون صفحة. وشتان ما بين السبعين ورقة والسبعين صفحة.

ب - لم يُشر إلى ما أصاب النسخة رقم ٤٧١ الزكية من خرم، مقداره صفحتان كاملتان.

ج - لم يُشر - كذلك - في وصف النسخة رقم ٩ جغرافيا حلیم إلى ما أصابها من خرم، مقداره ورقتان كاملتان.

وللأمانة فقد أشارت المحققتان إلى هذا الخرم في موضعه من المتن، إلا أنه كان من الأولى بهما أن تشيرا إلى ذلك عند وصف النسختين في مقدمة التحقيق؛ حتى لا يظن بهما ظناً سيئاً.

٧- جاء في معرض الحديث عن مصادر المخطوطة، ص ١٨، ما نصه:

«كما رجع [أي: ابن العماد] إلى المعاجم اللغوية، مثل: «الخصائص» لابن جني، «الصحاح» للجوهري، «شرح مشكلات الوسيط والوجيز للغزالي» لأبي الفتوح العجلي»

وإني لأتساءل: هل يُعدُّ كتاب «الخصائص» الذي صنعه أبو الفتح عثمان بن جني معجماً لغوياً مثله مثل «الصحاح» للجوهري^{١٩}، وهل يُعدُّ كتابي «الوسيط» و «الوجيز» في الفقه الشافعي لمؤلفهما حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، وشرحهما لأبي الفتح أسعد ابن محمود العجلي - معجماً لغوياً^{٢٠}. لا جرم أن هذا هو الخطأ الكبير.

٨- جاء - أيضاً - في معرض الحديث عن مصادر المخطوطة، ص ١٨: ما نصه:

«ويبدو أنه [أي: ابن العماد] رجع إلى كتبٍ أخرى للكندي غير موجودة بين أيدينا الآن».

قد يكون هذا محتملاً، لكنَّ الأمرَ المؤكَّد هو أن ابن العماد حينما يذكر الكندي في هذه الرسالة فإنما يعني ابنه: عمر بن محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي، وكتابه «فضائل مصر المحروسة».

وقد تتبعْتُ ما ذكره ابن العماد في هذه الرسالة منسوبةً للكندي، فوجدتهُ مذكوراً بالنص في «فضائل مصر المحروسة» لابن الكندي.

فقط كان هذا يتطلب من المحققين نظرةً سريعةً على ما ذكره ابن العماد، ومقارنته بما ذُكر في «فضائل مصر المحروسة» لابن الكندي، لتأكداً من هذا.

٩- أغفلت المحققان توثيق كثير من النصوص المصدريّة التي ذكرها المؤلف صراحةً ونصّاً عليها، بل وذَكَرَ - أيضاً - الموضع الذي نقل منه، لاسيما وهي مطبوعة، وبين أيدينا الآن، مثال ذلك:

أ- جاء في ص ٣٧ (وهي بداية الفصل الأول)، س ٦:

«قال البغوي في تفسير هذه الأنهار الأربعة: تخرج من نهر الكوثر

لم ترجع المحققتان إلى تفسير البغوي، المسمى «معالم التنزيل»؛ لتوثيق هذا القول، وهو مطبوع غير مرة.

ب- جاء في ص ٥٥، س ٥:

«ونقل النووي تحريمها عن الأصحاب في «شرح المذهب» في كتاب

الحج.....»

لم ترجع المحققتان إلى كتاب النووي، المسمى «المجموع شرح المذهب» لتوثيق هذا الكلام، وهو مطبوع غير مرة.

ج- جاء في ص ٥٥، س ٨ - ٩:

«كما لا يجوز أكل بيض التمساح وبيض الغراب والحدأة كذا جزم به والنووي في «شرح المذهب» في باب البيع ...»

لم ترجع المحققتان - كذلك - إلى كتاب «المجموع شرح المذهب» لتوثيق هذا الكلام.

د- جاء في ص ٥٧، س ٦:

«وذكره أيضاً المسعودي، وصاحب الأقاليم السبعة، قال: وإنه يخرج أصله من جبل القمر.....».

لم ترجع المحققتان إلى كتاب «عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة»^(١)، لمؤلفه يحيى بن سيرايبون، المعروف بسهراب. والمعلومات المنقولة منه موجودة تحت عنوان «معرفة نيل مصر وما يتفرع منه» بالكتاب.

هـ - جاء في ص ٧٠، س ٨:

«وهذا قد أشار إليه الزمخشري في قوله تعالى: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ) ...»
لم ترجع المحققتان إلى تفسير الزمخشري المسمى «الكشاف عن حقائق التنزيل» وكلامه موجود في تفسير سورة الطارق.

و- جاء في ص ٧١، س ٣:

«قال ابن الجني [الصواب: ابن جني]: قياس «وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ»: ولاقح: لأن الريح تلقح السحاب»

لم ترجع المحققتان إلى كتاب «الخصائص» لابن جني، وقد ورد النصُّ به في «باب في نقض العادة».

ز- جاء في ص ٨٩، س ١:

«ونقل البغوي في سورة التكوين عن عبد الله بن عمرو»

لم ترجع المحققتان - كذلك - إلى «معالم التنزيل» للبغوي.

١٠- رجعت المحققتان في توثيق كثير من النصوص إلى مصادر فرعية، وليست المصادر الرئيسية التي اعتمدها ابن العماد وذكرها صراحة في رسالته تلك، مثال ذلك:

(١) قام بنشره المستشرق الألماني هانس فون مزيك في مدينة فينا سنة ١٩٢٩م.

أ- جاء في ص ٢٨، س ٥:

«قال النووي في شرح صحيح مسلم: قال مقاتل: الباطنان هما السلسبيل والكوثر....».

تمّ توثيق الخبر من مسند الإمام أحمد بن حنبل، وكان الأولى بالمحققين توثيقه من شرح النووي على صحيح مسلم.

ب- جاء في ص ٢٩، س ١:

«فقد ذكر البغوي في سورة «والنجم»: أن سدرة المنتهى هي شجرة طوبى»
تمّ التوثيق من «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير، ولم يتم الرجوع إلى تفسير «معالم التنزيل» للبغوي.

ج- جاء في ص ٢٩، س ٢:

«وذكر [أي: البغوي] في سورة الرعد في قوله تعالى ﴿طوبى لهم وحسن مآب﴾ أن شجرة طوبى ..».

لم يتم . كذلك . الرجوع إلى «معالم التنزيل» للبغوي، بل تم التوثيق من «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير.

د- جاء في ص ٥٢، س ١٥:

«وكذا ذكره ابن الجوزي، قال: فإذا أكل وبقي الطعام بين أسنانه تری فی فمه»

لم يتم الرجوع إلى كتاب «المدھش» لأبي الفرج ابن الجوزي، وقد ورد هذا الكلام في الفصل الثمانين منه، بل تمّ التوثيق من كتابي «نهاية الأرب» للنويري، و «مروج الذهب» للمسعودي.

هـ - جاء في ص ٨١، س ٣:

«قال الأزهری فی «التهذيب»: سُمِّي البحر بحرًا لاستبحاره، وهو انبساطه....».

تمّ توثيق قول الأزهری من «لسان العرب» لابن منظور، ولم يتم الرجوع إلى كتاب الأزهری نفسه، المسمى «تهذيب اللغة»، وهو مطبوعٌ.

و- جاء في ص ٨٢، س ٥:

« ... ثم لا يعودون إليه أبداً. ذكره الواحدي في تفسيره»

لم يُرجع فيها إلى تفسير الواحدي، المسمى «الوسيط في تفسير القرآن المجيد». وقد اعتمدت المحققتان عليه بالفعل في مواضع شتى، بل تمّ التوثيق من «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير.

١١- أهملت المحققتان التعريف ببعض الأعلام والمؤلفين والكتب الواردة في المتن، الأمر الذي قد يؤدي إلى حدوث بعض اللبس عند القارئ، مثال ذلك:

أ- في ص ٥٤، س ١٠: لم يتم التعريف بالحموي، ولا بكتابه «التمويه فيما يرد على التبيه»، مما يؤدي إلى الظن بأن الحموي المذكور هو ياقوت بن عبد الله الرومي، المعروف بالحموي، صاحب كتاب «معجم البلدان» وغيره. وليس الأمر كذلك، بل هو أبو القاسم حمزة بن يوسف بن سعيد التتوخي الحموي الشافعي (ت ٦٧٠هـ)، وكتابه هذا هو «إزالة التمويه في مشكل التبيه عن كل فاضل نبيه».

ب- في ص ٥٥، س ٥: لم يتم التعريف بالرافعي وكتابه.

ج- في ص ٥٥، س ٥: لم يتم التعريف بكتاب «الروضة»، ولا بمؤلفه.

د- في ص ٥٥، س ٨: لم يتم التعريف بالقمولي، ولا بكتابه «الجواهر».

هـ- في ص ٥٧، س ٦: لم يتم التعريف بكتاب «الأقاليم السبعة»، ولا بمؤلفه.

و- في ص ٨٧، س ١٥: لم يتم التعريف بكتاب «الكفاية»، ولا بمؤلفه.

ز- في ص ٨٨، س ١٢: لم يتم التعريف بكتاب «الملقطات من الحنفية»، ولا بمؤلفه.

ح- في ص ٨٩، س ٢: لم يتم التعريف بالدارمي، ولا بكتابه «الاستذكار»؛ مما يؤدي إلى الظن بأن الدارمي المذكور هو عبد الله بن عبد الرحمن بن بهرام، صاحب «سنن الدارمي»، وليس الأمر كذلك، فهو أبو الفرج محمد بن عبد الواحد بن عمر بن الميمون البغدادي (ت ٤٤٨هـ)، وكتابه هذا في الفقه الشافعي.

ط- في ص ٨٠، س ٣: لم يتم التعريف بالحازمي، هل هو زين الدين محمد بن موسى بن عثمان الحازمي (ت ٥٨٤هـ)، صاحب كتاب «المؤتلف والمختلف في أسماء الأماكن والبلدان» أم غيره؟.

١٢- وقع ابن العماد الأفهسي - رحمه الله - في أخطاء لم تقف منها المحققتان

موقف المعلق والناقد، بل مرّت دون أن تعلقا عليها ولو بينت شفة، ونضرب على ذلك بمثالين:

المثال الأول: جاء في ص ٥١، س ١ - ٢:

«وبمصر مواضع شريفة منها: ... وبها النخلة التي أمرت مريم عليها السلام بأن تضع تحتها عيسى عليه السلام. فلم يثمر غيرها، وهي بالجيزة».

معلوم أنّ هذه النخلة كانت بالقرب من بيت المقدس، وعليها بُنيت كنيسة بيت لحم الموجودة حالياً، ولم يقل أحدٌ من جمهور العلماء والمفسرين والمؤرخين بأن النخلة التي وضعت تحتها السيدة مريم - عليها السلام - ابنها عيسى - عليه السلام - بمصر.

المثال الثاني: جاء في ص ٨٦، س ٦ - ٨ في المواضع التي يكره استعمال مياهها في الطهارة:

«رابعها: ماء ديار ثمود لكثرة [الصواب: يكره] استعمالها، إلا بئر الناقة؛ لأن النبي - ﷺ - نهى عنه قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٢٧) وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾».

أخطأ المصنف - رحمه الله - في استشاده وهو يتحدث عن ماء ديار ثمود بهاتين الآيتين؛ لأنهما إنما كانتا في شأن قوم لوط وما حدث لهما، قال تعالى: ﴿وَإِنْ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٢) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٢٤) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ (١٢٥) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ (١٢٦) وَأَنْتُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٢٧) وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ (١٢٨)﴾^(١).

١٢- أقحمت المحققان على النص ما لم يُورده ابن العماد نفسه، مثال ذلك:

أ- جاء في ص ٣٩، س ٢:

«وذكر في سورة الرعد ... أن ﷻ شجرة رزق طوبى شجرة أصلها في بيت النبي ﷺ».

ذكرت المحققان في الهامش أنّ «ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، ومثبت من نسخة ح»، إلا أنّ المعنى بدونها يستقيم أكثر.

ب- جاء في ص ٨٦، س ٧-٨:

«قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٢٧) وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾».

(١) سورة الصافات، الآيات ١٢٢، ١٢٨.

ذكرت المحققتان في الهامش أن «ما بين الحاصرتين ساقط من نسختي المخطوطة. والمثبت من السورة الكريمة». لكن ابن العماد كان يقصد جيداً أن يستشهد ببعض الآية، وليس كلها. ولا غرو أن يستشهد المؤلف ببعض الآية لمعنى أراد وقصده. يؤكد ما قلت أن بقية الآية التي أضافتها المحققتان ليست موجودة في جميع نسخ المخطوطة.

ج- جاء في ص ٨٧، س ٧-٨:

«ولكن قال أبو الفتوح العجلي في شرح مشكلات الوسيط والوجيز للغزالي...».

ذكرت المحققتان في الهامش أن الموجود في نسختي المخطوطة «نكت (كذا بالتاء) الوسيط والوجيز»، وأن المثبت بين الحاصرتين من طبقات الشافعية.

والحقيقة أن الموجود في نسختي المخطوطة وبقية النسخ هو «نكت (بالتاء) الوسيط والوجيز»، وهذا ما أراد ابن العماد؛ فلم يكن في خله وهو يكتب أن يذكر العنوان الموثق للكتاب. وإني لأتساءل: هل ذكر ابن العماد قبل ذلك العنوان الموثق لكتاب الحموي، المسمى «إزالة التمويه في مشكل التنبيه عن كل فاضل نبيه»^(١)، وهل ذكر العنوان الموثق لكتاب النووي، المسمى «المجموع شرح المهدب»^(٢)، وهل ذكر العنوان الموثق لكتاب سهراب، المسمى «عجائب الأقاليم السبعة حتى نهاية العمارة»^(٣)، وهل ذكر العنوان الموثق لكتاب ابن الأثير، المسمى «النهاية في غريب الحديث والأثر»^(٤)، وهل ذكر العنوان الموثق لكتاب ابن الرفعة، المسمى «كفاية النبيه في شرح التنبيه»^(٥) ١٩

تلك عادة المؤلف في هذه الرسالة، وكان ينبغي بالمحقيتين أن تلتزما بالعنوان الذي ذكره ابن العماد في المتن، مع التنويه في الهامش على العنوان الموثق.

١٤- قامت المحققتان في ص ٤١، س ١٥ بتخريج بيت أبي العذافر ورد بن سعد

التيمي، القائل:

بصريّة تزوّجت بصريّاً يُطعمها المالح والطريّاً

(١) ذكره ابن العماد، ص ٥٤ باسم: التمويه فيما يرد على التنبيه.

(٢) ذكره ابن العماد، ص ٥٥ باسم: شرح المهدب.

(٣) ذكره ابن العماد، ص ٥٧ و ٥٨ باسم: الأقاليم السبعة.

(٤) ذكره ابن العماد، ص ٨٠ باسم: نهاية الغريب.

(٥) ذكره ابن العماد، ص ٨٧ باسم: الكفاية.

لكنهما لم تقوما بتخريج البيت، ص ٤٢، س ٢:

ولو ثقلت في البحر والبحر مالحٌ
لأصبح ماء البحر من ريقها عذبا
ولا التعريف بقائله، وهو لمجنون ليلى.

كذلك لم تقوما بتخريج البيت، ص ٤٢، س ١٧:

وبأمره البحران يلتقيان لا ينبغي عذبٌ مرور أجاج

ولا التعريف بقائله، وهو لجمال الدين يحيى بن يوسف، المعروف بالصرصري الحنبلي، من قصيدة يسبح الله فيها ويمدح رسوله صلى الله عليه وسلم.

١٥- جاءت الرسالة مليئة بالتصحيفات والتحريفات، وهي راجعة إلى أسباب يمكن حصرها في:

أ- القراءة الخاطئة للمخطوط.

ب. اتفاق النسختين الخطيتين اللتين اعتمد عليهما في التحقيق في نفس الخطأ.

ج- عدم الإلمام بقواعد العربية.

د- أخطاء مطبعية لم يتم استدراكها من قبل المحققين.

وهذه الأخطاء هي:

١- ص ٣٥، س ١٤: «وفي أي مكان يذهب ومادته إذ نقص». الصواب: تذهب زيادته.

٢- ص ٣٨، س ٥: «قال مقابل». الصواب: مقاتل.

٣- ص ٣٨، س ٦: «القاضي عياض». الصواب: عياض.

٤- ص ٤٢، س ٦: «حاجز قدره». الصواب: حاجز قُدْرَة.

٥- ص ٤٤، س ١١: «عن عقبة بن مسلم برفعه أن الله». الصواب: يرفعه.

٦- ص ٤٦، س ١: «جبل القمر». الصواب: القمر.

٧- ص ٤٨، س ١ (هامش): «بداية سقط صفحة كاملة من نسخة ز». الصواب: صفتين كاملتين.

٨- ص ٤٩، س ١ (هامش): «في نسختي المخطوطة». الصواب: في نسخة ح؛ فالورقة كاملة ساقطة من نسخة ز.

٩- ص ٥٨، س ٧: «إلى بحرتين». الصواب: بحيرتين.

- ١٠- ص ٦٠، س ٥ (هامش): «بمقدار ورقتان». الصواب: ورقتين.
- ١١- ص ٦١، س ٦: «وبسائر من جوانبه، الغربي جبل أبيض». الصواب: ويسايره من جانبه الغربي .
- ١٢- ص ٦٥، س ٢: «إلى إلى بلاد النوبة». الصواب: إلى بلاد النوبة.
- ١٣- ص ٦٨، س ٦: «اثني عشر دراعاً». الصواب: ذراعاً.
- ١٤- ص ٧١، س ٣: «قال ابن الجنى». الصواب: ابن جنى.
- ١٥- ص ٧١، س ٣: «فأرسلنا الرياح لواقع». الصواب: «وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ».
- ١٦- ص ٧٧، س ٧: «قال: أى والله». الصواب: إي والله. أي: نعم، والله.
- ١٧- ص ٧٧، س ١٢: «كم أنت لك؟». الصواب: كم أنت لك؟ أي: كم أنت لك من السنين.
- ١٨- ص ٨١، س ١٠: «فلا يكون مأؤه إلا ملحاً زجاجاً». الصواب: أجاجاً.
- ١٩- ص ٨٤، س ٧: «فإن فيه خلاف»^(١). الصواب: فإن فيه خلافاً.
- ٢٠- ص ٨٦، س ٢: «لا كراهة في استعمال شيء من الماء عند تنافي الطهارة وغيرها». الصواب: عندنا في الطهارة وغيرها. أي: عند الشافعية؛ فالمؤلف كان شافعي المذهب.
- ٢١- ص ٨٦، س ٥: «رابعها: ماء ديار ثمود لكثرة استعمالها، إلا بئر الناقة». الصواب: يكره استعمالها.
- ٢٢- ص ١٢٩، س ٩: «دعا نوح عليه السلام لمصر بين بيصر بن حام». الصواب: بن.
- ١٦- قامت المحققتان بعمل كشافات تحليلية للرسالة، والتي من شأنها إتاحة العثور على أدق المعلومات الموجودة بالرسالة في سهولة ويسر، إلا أنه قد اعتورها بعض القصور، وهو يتمثل في:
- أ- جعلت المحققتان كشافي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في المرتبة الأخيرة، وكان الأولى بالمحققين أن تجعلاهما في البداية؛ لما لهما من تنزيه وقداسة وتوقير،

(١) قالت المحققتان في الهامش: «خلافاً» في نسخة ز، والمثبت بين العاصرتين من نسخة ح. فقد أثبتنا في المتن ما هو خطأ، ظناً منهما أنه الصواب.

لا سيما وقد اعتمد المؤلف عليهما، واتخذهما مادته الأساسية في الفصل الأول من الرسالة.

ب- نسبت المحققان في كشف الكتب الواردة في المتن كتاب «الكفاية» للماوردي، اعتماداً على ما فهم - خطأً - من قول ابن العماد، ص ٨٧، س ١٥: «نقل في الكفاية عن الماوردي»، والحقيقة أن هذه العبارة لا تعني على الإطلاق أن كتاب «الكفاية» للماوردي؛ فالكتاب هو «كفاية النبيه في شرح التبيه في الفروع، لأبي إسحاق الشيرازي»، لمؤلفه نجم الدين أبي العباس أحمد بن محمد بن علي، المعروف بابن الرفعة الشافعي (ت ٧١٠هـ)، وقد نقل كثيراً في كتابه هذا عن أبي الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي (ت ٤٥٠هـ)، وكتابه: «الحاوي الكبير في الفروع»، و«الإقناع في الفروع».

ج- أغفلت المحققان آيتين كريمتين لم تذكر في كشف الآيات القرآنية، وهما:
الأولى: قوله تعالى، ص ٣٧، س ٤: ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمَرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾^(١).

الثانية: قوله تعالى، ص ٨١، س ١٢: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾^(٢).

وأعتقد أن المحققين لم تنتبها إلى وجود هذه الآية الكريمة في المتن، فلم تضعها بين قوسين عزيزين، ولم تقوما بتخريجها كعادتهما في سائر الآيات القرآنية.

د- قامت المحققان بتكثيف ما أثير عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - من دعاء نوح - عليه السلام - لمصر بن بيصر بن حام بن نوح - والوارد بالمتن ص ٤٩، س ١٢-١٣ - في موضعين مختلفين بكشاف الأحاديث الشريفة، ص ١٢٩. مرة بأوله: «دعا نوح عليه السلام لمصر...»، ومرة ثانية بأول الجملة الدعائية: «اللهم بارك فيه وفي ذريته»، وهذه مما لا شك فيه تكرار وتضليل للقاري.

١٧- ذكرت المحققان في نهاية التحقيق المصادر التي اعتمدتا عليها في التحقيق، وقد قُسمت إلى: مصادر مخطوطة، ومصادر عربية مطبوعة، ومراجع عربية.

أ- أما في المصادر المخطوطة فقد ذكرتا:

● كتاب «كوكب الروضة» للسيوطي، والكتاب مطبوع بدار الآفاق العربية بالقاهرة، سنة ٢٠٠٢ م، بتحقيق محمد الششتاوي، وعنوانه كاملاً هو «كوكب الروضة في تاريخ

(١) سورة محمد، من الآية ١٥.

(٢) سورة الروم، من الآية ٤١.

النيل وجزيرة الروضة».

● رسالة «مبدأ النيل على التحرير» للمحلي، والرسالة مطبوعة قديماً بالمطبعة الوهبية بالقاهرة، بعنوان «مقدمة النيل السعيد، وشرح أحواله وذكر عجائبه وغرائب»، بتصحيح مصطفى وهبي.

● رسالة «الفيض المديد في أخبار النيل السعيد» للمنوفي، والرسالة مطبوعة بمعهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بفرانكفورت، سنة ١٩٩٢م، بتحقيق Jean Joseph Léandre.

ب- وفي مصادر التحقيق المطبوعة يُلاحظ بوضوح قلة المصادر الحديثة المعتمد عليها في التحقيق؛ الأمر الذي ألجأ المحققين في الوقوف على بعض الأحاديث الواردة بالرسالة دون تخريج لها من كتب الحديث أو الحكم عليها، مثال ذلك:

● السكوت على تخريج حديث «عليكم بالحيزوم، فإنه يرعى من حشيش الجنة»، ص ٣٩.

● السكوت على تخريج ما رواه عقبة بن مسلم «أن الله تبارك وتعالى يقول يوم القيامة لساكني مصر: ألم أسكنكم مصر وكنتم تشبعون من مائها»، ص ٤٤.

● السكوت على تخريج حديث «اللهم بارك في لبنها وفي عسلها»، ص ٤٩.

ج- وفي المراجع العربية، أغفلت المحققان «المعجم الوسيط» ضمن المراجع، على الرغم من استشهادهما به في موضعين من الرسالة، في ص ٤٤، وص ٥٨.

كما أغفلتا «أطلس تاريخ الإسلام»، و«أطلس الشيخ محمد فخر الدين» الذين نقلتا عنهما في ملحق الخرائط.

وختاماً فإن هذه القراءة النقدية لا تجحد الجهد الذي قام ببذله المحققان في ظهور هذه الرسالة إلى الوجود، ولا تنكر نيتهما الصادقة في محاولة إخراجها في أقرب صورة أرادها المؤلف لها.

[illegible][illegible]

طبعها إلا عفاص وسيد له أيضا أن هذا ليس بالحق وإنما هو والله
أعلم بذلك صاحب المخطوطات وسهم من حوز الطهارة بالله ما ولاه لم يحق
بحمد من قبل ملك الدابة واسطخر الملقب بغيره الطهارة بالآراء له قوله
على الله عليه السلام هو الطهور بآراء الخلق منه هذا سمى لونه العوي
في دور العلو عن عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر ابنا قالا لا يجوز الطهارة
ما لا يجوز عطا حرم وعلى ذلك أيضا الدارمي في الاستدكار عنهما وعن
سعد بن المسيب أنه لا يجوز الوضوء بالهجر والوعظ يوم أنهم قد دعوا أنفسهم إلى
وجهر وأما في غير يوم أنه موصاه عند عدم غيره وبأنه على أن الحجر
عفا حرم ولا يقال ما عرفت وأما ما رأنا أن الفاضل على الهجر ما نصح في
من ذلك النار كحطب العرق وقوله صلى الله عليه وسلم إن خير
الهجر النار والجار الحرام الحديث — هذا هو النص —
حدثنا الله وسبحه وله وراوى الرابع وتعلقه في العروة دار
مبين عن بعض النسخة وهو قوله صلى الله عليه وسلم —

[illegible]

ظهر انهم باعوا باحسان وعملت باجر بل ساجده لا يشار
 فان انهم لم ياتوا في النهي في اخذ والسا الهول في النهي
 فالسبل والغايات فان الاحكام النور في شرح سراج فانها
 المباحات السلسلية والكور فان في القاصي عيانا وحدها الله
 هذه النعمت يد على ان سدره لشيء في الارض يخرج من على
 من احسانها - وهذا الذي قاله عند انهم بل معناه ان لا يشار
 يخرج من احسانها، تسبح حصفه - انهم تعالى حتى يخرج من الارض
 حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه
 المعبر اليه وانهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه
 المعبر في سورة البقرة في حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه
 في قوله تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه
 التي حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه
 وفي قوله تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه
 والله تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه
 الى، انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه
 لصحة سادته - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه
 فانهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه
 يخرج احسانها - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه
 طوبى وانهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه
 حصفه لقلوبهم - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه
 في حصفه الله - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه
 طوبى فقال - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه
 فقالوا - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه - انهم تعالى حصفه

[illegible]

فأخذ إليه الانتحار وقبل الشروع فوجد الماء قد جف
لما بدا لي في فضيله هذا النهار على مريكم وانهار
الانتحار وساقى الكف فقلبت لفصل الألف بيسال
فقله وقد ورد فيه آيات واحاديث اما الألف
فمنها قوله تعالى وانها من خصاله الشارعية
فها من غسل مصلح وعلى مريكم رضي الله عنه
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعان و
حصان والغرات والنسابة من انهار الجنة والالبقر
من قيسية هذه الألف انهار الأربعة مخرج من نهر النهر
قال قال بعض الحكماء نهر دجلة نهر ما هال الجنة
ونهر الفرات نهر لبهم ونهر مصر نهر مري
ونهر سيح ونهر عسلهم وقال ابن دجلة لا ف
ما في مصر على هذا الحار ان نهر مصر نهر العمل
في الجنة ونهر الفرات نهر الجنة وسبحان نهر الما
ونهر نهر النهر في حديث الألف ان النهر على الله
عليه وسلم قال فرأيت في الجنة الجنة والمنحصر في
أربعة انهار بحر حرم من أصلها نهر طار نهر و
نهر ان بالطنان فقلت يا خسر بل ما هذا الألف
قال ما النهر بالطنان فنهر ارج الجنة واما

الحمد لله الذي جعل القرآن الكريم
موسمًا من موسمي القرآن الكريم

[illegible]

فاقداً فيه الاختصار وقبل الشروع في الأداة تعرفوا
 لها يد ليكن فضلك هذا التمهيد على غيرك من أقطار
 الدنيا ومجانز الدخ في فصلين الفصل الأول في بيان
 فضله وقد ورد فيه آيات واحاديث أما الآيات
 فمنها قوله تعالى وإنها من خير لذة للشاربين و
 أنها من عسل مطبوخ في مهر مركب في اللبنة
 قال الرسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان و
 سبحان والفرات والبلخ فالله أعلم بالجنة والآخرة
 في تفسير هذه الآية تمهيد الأربعة مخرج من هذا القسم
 قال قال لعبد الاختصار تمهيد حله وهو ما أهال الجنة
 وهو الفرقان تمهيد لتفهم وتمهيد من هو خير من
 ونهر سبعا ونهر سبعا ونهر في البرد لا في
 ما في مصر غير طيب الاختصار أن تمهيد نهر العسل
 في الجنة ونهر الفرقان تمهيد البحر وسبحان نهر الهما
 وسبحان نهر النهر في حد يشق الأسير أن التمهيد في الله
 عليه وسلم قال في التمهيد السبعة المتخصصين في
 أربعه أنهار بحر من أصلها نهار طاهر و
 نهار بالهنا وقلت ما أحسن ما هذا الأتقان
 قال أما النهر بالهنا فنهرا في الجنة وأما

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي يوفى نعمه ويكافئ عظمته واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة توجب العاقبة الحمد واشهد ان محمدا عبده ورسوله ارسله الى الامم بشارة النجاة والهدى والفرق القريب والبعيد فبلغ اليه ما وادى الامانة ودخل الى الله عبداً وشال الله من فضله ان يجعلنا من الامة السعيدة ولا يجعلنا من الفرق البعيدة ويعقد فقد روي عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اربعة لا تشيع من اربع وعين من نظر وانى من ذكر وارض من مطر وعالم من خبر وياكيات ما اقليم مصر مستحلاً على قوايد وامور عجيبة استخرت الله في ان اجمع فيه من تفسير الغرائب ما لا ينبغي لذي العلم اهملها ولا يسكن مصر اعقابها ويفيد حكمهم اكثرهم كونه سيئل عن نهر النيل من اين يخرج من الارض وفي اي مكان يذهب ولو سيئل عن طوله وعن سبب تكدره وخصرته في وقت الزيادة ومن اين تده الزيادة وفي اي مكان تذهب زيادته اذا نقص ما اجاب عن ذلك وانما ان يشاء الله تعالى من جميع ذلك فاصداً فيه الاخصار وقبل الشروع في ذلك الغرض من كذا على نصيحة هذا المصنف على غيره من ارباب الدنيا وبيان ذلك في فصلين الفصل الاول في بيان قصته وقد ورد فيه آيات واحاديث اما الآيات فمنها قوله تعالى وانهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير

نصوص تراثية

تائية أبي الحسن الأنباري
(ن بعد ٣٨٠هـ / ١٠٠٠م)
فج رثاء الوزير محمد بن محمد بن بقية
تفريغ وتعليق

أ. ط. محمد يونس عبد المال (*)

هي مرثية يعرفها دارسو الأدب العربي، تناقلتها مصادر أدبية وتاريخية كثيرة، وتألّفت من واحد وعشرين بيتاً، رثى بها ناظمها وزيراً من وزراء بني بويه في القرن الرابع الهجري عاقبه أحد حكامهم بأن سمل عينيه، ثم قضى عليه آخر بالموت تحت أرجل الفيلة، ثم مثل به فصلبه، وقيل إنه ظل مصلوباً إلى أن توفي ذلك الحاكم.

لذا يتجه الحديث عن هذه القصيدة إلى النقاط التالية:

- ١- الشاعر الرائي.
- ٢- الوزير المرثى.
- ٣- مصادر روت القصيدة أو أبياتاً منها.
- ٤- القصيدة وتخريجها.
- ٥- تعليق.

* * *

١- الشاعر الرائي:

أبو الحسن محمد بن عمر بن يعقوب الأنباري، شاعر مقل^(١)، وصوفي واعظ، وأحد العدول ببغداد^(٢).

وأورد الزركلي - نقلاً عن بعض مؤلفات ابن قاضي شهاب المخطوطة - أنه توفي سنة نيف وثلاثمائة وتسعين^(٣).

شهرة قصيدته التائية في رثاء ابن بقية، وله أشعار أخرى قليلة، منها قوله في وصف الشموع^(٤):

(*) أستاذ بكلية الآداب، جامعة عين شمس.

(١) ترجمته في: «تاريخ بغداد» ٣٥ / ٢٥، «خلاصة الذهب المسبوك» ص ١٥١.

(٢) «خلاصة الذهب» ص ١٥١، وانظر: «وفيات الأعيان» ٥ / ١١٨، و«الوافي بالوفيات» ١ / ١٠١، و«نكت الهميان» ص ٢٧٢ و«النجوم الزاهرة» ٤ / ١٢٠.

(٣) «الأعلام»، حاشية ٦ / ٣١٢ وفي «خلاصة الذهب» أنه توفي سنة ٣٨٠هـ.

(٤) أنشدهما لعضد الدولة، وكان عنده شموع تزهو، فقال له: هل يحضرك شيء في الشموع؟ - وفيات ٥ / ١٢٢، و«الوافي» ١ / ١٠٢، و«نكت الهميان» ص ٢٧٢ و«شذرات الذهب» ٣ / ٦٤.

كأن الشموع وقد أظهرت من النار في كل رأس سنانا
أصابع أعدائك الخائفين تضرع تطلب منك الأمانا
وقوله في وصف الباقلاء الأخضر^(١):

فصوص زمرد في غلف درّ بأقماغ حكّت تقليم ظفر
وقد خلع الربيع لها ثياباً لها لونان من بيض وخضر

* * *

٢- الوزير المرثي:

محمد بن محمد بن بقية بن علي، وكنيته أبو الطاهر^(٢)، كان أحد أربعة إخوة من أهل أوانا^(٣)، كلهم يسمى محمداً، وأبوهما أحد المزارعين.

تولى أمر المطبخ لمعز الدولة أحمد بن بُوَيّه، وكان في ابن بقية توصّل وسعة صدر فتقل إلى أعمال مختلفة، ولما توفي معز الدولة سنة ٣٥٦هـ وأفضى الأمر إلى ابنه عز الدولة بختيار حسنت حاله عنده ورعى خدمته لأبيه، إلى أن استوزره في ذي الحجة سنة ٣٦٢هـ^(٤) بعد أبي الفضل الشيرازي، وكناه الخليفة المطيع ولقبه بـ «الناصر» وخلع عليه، ثم لقبه الخليفة الطائع بـ «نصير الدولة» سنة ٣٦٤هـ مضافاً إلى لقبه الأول، فكان أول وزير لقب بلقبين.

(١) رواء الخطيب البغدادي، وسنده: «أنشدنا القاضي أبو القاسم التتوخي، قال: أنشدنا أبو الحسن محمد بن عمر الأنباري لنفسه... البيت - «تاريخ بغداد» ٢/ ٢٥ وانظر: «وفيات» ٥/ ١٢٤ والزمر، وبالدال المعجمة أيضاً: حجر كريم شفاف أخضر اللون شديد الخضرة - «لسان العرب» (زمرد) ٤/ ١٧٧ و(زمرد) ٥/ ٢٧.

(٢) ترجمته في: وفيات ٥/ ١١٨-١٢٤، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٢٠-٢٢١، والوافي ١/ ١٠٠-١٠٤، ونكت الهميان ص ٢٧١-٢٧٢.

وأخباره بدءاً من ٣٦٠هـ إلى ٣٦٧هـ في «تجارب الأمم» لمسكويه (نشر: هـ. ف. أمدرود، ط التمدن الصناعية، ١٢٢٢هـ / ١٩١٥م) ٢/ ٢٨٤-٢٨٦، ٣١٠، ٣٤٤-٣٤٧، ٣٥٤-٣٥٩، ٣٧٢-٣٧٥، ٣٧٧.

وانظر أخبار ٣٦٧هـ في المصادر التاريخية، مثل: «الكامل في التاريخ»، و«المختصر في أخبار البشر»، و«تاريخ ابن الوردي»، و«مرآة الجنان»، و«البداية والنهاية»، و«النجوم الزاهرة»، و«شذرات الذهب»...

ولأبي إسحاق الصابي رسائل ديوانية كتبها عنه، وأخرى ديوانية عن نفسه إليه في التهاني والتعازي والاستعطاف والشكوى... - انظر مصادر هذه الرسائل في: «المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي، تحقيق ودراسة»، وهي رسالة دكتوراه مخطوطة، أعدها: محمد يونس عبد العال، ونوقشت في كلية الآداب، جامعة القاهرة، سنة ١٩٧٨م، ص ٢٠٩، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٥٦، ٢٦٦.

(٣) أوانا: بليدة نزهة كثيرة البساتين والشجر، من نواحي دجيل بغداد - «معجم البلدان»: لياقوت الحموي.

(٤) ومن الطرائف التي رواها ابن خلكان (نقلا من كتاب «عيون السيرة»: لابن الهمداني) أنه لما استوزر عز الدولة ابن بقية بعد أن كان يتولى أمر المطبخ، قال الناس: «من الفضارة إلى الوزارة» - وفيات ٥/ ١١٩، والوافي ١/ ١٠٠. والفضارة: الصعفة المتخذة من الفضارة، وهو الطين - «لسان العرب» (غضر) ٦/ ٣٢٧.

وكان عضد الدولة أبو شجاع فتناخسره بن ركن الدولة (وهو أقوى البويهيين بأساً وجسارة وطمعاً في الملك) يناوئ ابن عمه عز الدولة، ويتوق إلى حكم بغداد، فدخلها في جمادى الأولى سنة ٣٦٤هـ وقتل ابن بقية أعمال واسط وتكرت وعكبرا وأوانا تقديرًا لما أظهره من مساعدة وخدمة، فذهب إلى واسط، على دحل وغلّ قد أضمرهما، وسرعان ما خلع الطاعة، وجاهر بالخلاف، وأظهر أنه امتعض لأميره عز الدولة، ثم جرت الأحداث على غير ما يشتهي عضد الدولة، فانصرف عن العراق، وعاد ابن بقية من واسط إلى خدمة عز الدولة، وجعل همه أن يتقرب إليه وأن يمكن الوحشة ويؤكد العداوة بينه وبين عضد الدولة.

ويروى أنه: «كان في مدة وزارته يبلغ عضد الدولة ابن بويه عنه أمور يسوء سماعها، منه أنه كان كان يسميه أبا بكر الغددي تشبيهاً له برجل أشقر أزرق أنمش يسمى أبا بكر، كان يبيع الغدد للسنانير ببغداد، وكان عضد الدولة بهذه الحلية»^(١).

وانهزم عز الدولة فقَبِضَ على ابن بقية وسمل - أي: فقأ - عينيه بواسطة سنة ٣٦٦هـ لأسباب يطول شرحها، حاصلها - كما يقول ابن خلكان - أنه نسب هزيمته إلى رأيه ومشورته.

ولما ملك عضد الدولة بغداد وقتل عز الدولة أمر بإلقاء ابن بقية تحت أرجل الفيلة، وصلبه عند باب داره بباب الطاق في شوال سنة ٣٦٧هـ، وعمره نيف وخمسون سنة^(٢).

وكان أبو الحسن محمد بن عمر الأنباري صديقه^(٣)، فرثاه بالقصيدة التائية، ومما رواه ابن عساكر أنه «كتبها ورمى بها في شوارع بغداد، فتداولها الأدباء، إلى أن اتصل الخبر بعضد الدولة، فلما أنشدت بين يديه تمنى أن يكون هو المصلوب دونه، وقال: عليّ بهذا الرجل. فطلب سنة كاملة، واتصل الخبر بالصاحب إسماعيل بن عباد بالريّ، فكتب له بالأمان، فلما سمع بذكر الأمان قصد حضرته، فقال له: أنت القائل هذه الأبيات؟ قال: نعم. قال: أنشدنيها: فلما أنشده:

ولم أر قبل جذعك قطّ جذعا تمكن من عناق المكرمات

(١) «وفيات» ٥ / ١١٩، وانظر: «الوافي» ١ / ١٠٠ و«نكت الهميان» ص ٢٧٢.

(٢) «وفيات» ٥ / ١١٩-١٢٠ وانظر: «نهاية الأرب» ٢٦ / ٢١٦، وشذرات ٢ / ٦٤.

باب الطاق: محلة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقي، يعرف بطاق أسماء بين الرصافة ونهر الملعى، وكان طاقا عظيما، وعنده كان مجلس الشعراء في أيام هارون الرشيد - «معجم البلدان» لياقوت الحموي (ط صادر، بيروت، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) ١ / ٣٠٨، وأيضا ٤ / ٥.

(٣) «تاريخ مدينة دمشق» ٧٢ / ١٧٢، والنجوم ٤ / ١٢٠.

قام الصاحب فعانقه وقبل فاه، وأنفذه إلى حضرة عضد الدولة. فلما مثل بين يديه قال له: ما الذى حملك على مرثية عدوى؟ فقال: «حقوق سلفت وأيادٍ مضت، فجاش الحزن فى قلبى فرثيت»^(١).

وقيل إن ابن بقية ظل مصلوباً إلى أن توفي عضد الدولة^(٢)، فأُنزل ودفن فى موضعه. فقال فيه أبو الحسن الأنباري أيضاً^(٣):

لم يلحقوا بك عاراً إذ صُلِّبت بلى	باءوا بإثمك ثم استرجعوا ندما
وأيقنوا أنهم فى فعلهم غلطوا	وأنهم نصبوا من سؤدد علما
فاسترجعوك وواروا منك طود علا	بدفته دفنوا الإفضال والكرما
لئن بليتَ فما يبلى نداك ولا	يُنسى، وكم هالك ينسى إذا عُدما
تقاسم الناس حسن الذكر فيك كما	ما زال مالك بين الناس منقسما

وعلى الرغم من هذه الصورة الباهتة التى أظهرتها الأخبار المتناثرة عن شخصيته فى المصادر التاريخية والأدبية، فقد وصفه بعض من تحدثوا عنه بأنه «من جلة الرؤساء، وأكابر الوزراء، وأعيان الكرماء»^(٤)، وبأنه «الوزير الكبير... له أخبار فى الإفضال والتعم»^(٥)، ويبدو أن خصومه هم الذين شوَّهوا صورته وحاكوا حوله الدسائس، وأوقعوا به ما يؤذيه. قال الصفدي: «والظاهر أن أعداءه كانوا يفعلون ذلك به ويفتعلونه»^(٦)، ورأى آخرون أن كرمه ستر عيوبه، قال أبو إسحاق الصابي: «رأيته وهو يشرب فى بعض الليالي، وكلما لبس خلعة خلعها على أحد الحاضرين، فزادت على مائتى خلعة»^(٧)، وثمة إشارات إلى ثرائه الفاحش، منها ما روى من أن راتبه فى الشمع

(١) «تاريخ مدينة دمشق» ٧٢ / ١٧٣-١٧٤، ومنه نقل ابن خلكان فى «وفيات الأعيان» ٥ / ١٢١-١٢٢ وانظر «نكت الهميان»، ص ٢٧٢، ونقله الزركلى من رحلة خالد بن عيسى البلوي (ت بعد ٧٦٧هـ) فى كتابه «تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق» - الأعلام، هامش ٦ / ٣١٢.

(٢) كانت وفاته سنة ٣٧٢هـ، ومن طرائف ما رواه أبو حيان التوحيدي عظةً واعتباراً أن بعضهم رأى الجذع عليه ابن بقية، فقال: «لا إله إلا الله! ما أعجب أمور الدنيا! وما أقلّ المفكر فى عيبرها وغيرها! عضد الدولة تحت الأرض وعدوه فوقها!» - «الإمتاع والمؤاسة» (تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٣م) ١ / ٤١، ٤٢.

(٣) «وفيات» ٥ / ١٢١، الوافى ١ / ١٠٣، «مرآة الجنان» (أخبار ٣٦٧هـ) ص ٣٧٢.

(٤) «وفيات» ٥ / ١١٨، الوافى ١ / ١٠٠، «نكت الهميان» ص ٢٧١، «مرآة الجنان» (أخبار ٣٦٧هـ) ص ٣٧٢.

(٥) «سير أعلام» ١٦ / ٢٢٠.

(٦) «نكت الهميان» ص ٢٧٢.

(٧) «وتتمة الخبر»: «فقال له مغنيته: يا سيدى الوزير، فى هذه الثياب زنابير، ما تدعها تثبت على جسمك. فضحك، وأمر لها بحقة حلّي» - «وفيات» ٥ / ١١٩، «الوافى» ١ / ١٠١، «نكت الهميان» ص ٢٧١، وانظر: «سير أعلام» ١٦ / ٢٢٠.

كان ألف من^(١) في كل شهر، وعلق بعضهم على هذا بقوله: «إذا كان هذا راتب الشمع، خاصة مع قلة الحاجة إليه فكم يكون غيره مما تشتد الحاجة إليه»^(٢).

* * *

٣- مصادر روت القصيدة أو أبياتاً منها:

● رواها الثعالبي في الباب السادس من اليتيمة (وعنوانه: في نفر من شعراء العراق سوى بغداد) من القسم الثاني (وعنوانه: في ملوك آل بويه وشعرائهم) وقال: «وقد أثبتتها كما هي».

ولكنها منسوبة خطأ إلى «أبي بكر محمد بن أبي محمد القاسم المعروف بالأنباري»^(٣) - يتيمة الدهر ٢ / ٣٧٣-٣٧٥.

والصواب - كما في المصادر الأخرى جميعها - أنه: «أبو الحسن محمد بن عمر ابن يعقوب الأنباري».

● ورويت القصيدة في «وفيات الأعيان» ٥ / ١٢٠-١٢١ و«حياة الحيوان الكبرى» ١ / ٨١-٨٢ بالترتيب نفسه الذي وردت به في «يتيمة الدهر».

● الأبيات ١-١٠، ١٢، ١٣، ١٧-٢١ في أحسن ما سمعت، ص ١٥٣-١٥٤.

● ١-٦، ١١ في «ديوان المعاني» ٢ / ١٧٩-١٨٠.

● ١-٣ في «حماسة الظرفاء» ١ / ١١٤.

● الأول رواه الخطيب البغدادي بعد إشارته إلى أن أبا الحسن الأنباري له قصيدة في رثاء ابن بقية، ثم ذكر سندها، قال: «أنشدناها القاضي أبو عبد الله الحسين ابن علي الصميري، وأبو الحسن أحمد بن عمر بن علي القاضي بأذربيجان عن أبي الحسن الأنباري، وقال لي الصميري: أنشدناها بمحضر من أبي القاسم الطبري» - «تاريخ بغداد» ٢ / ٣٥.

(١) المن والمنا: الذي يوزن به، وهو رطلان - لسان العرب (من) ١٧ / ٣٠٦، و (منا) ٢٠ / ١٦٧.

(٢) وفيات ٥ / ١١٨، الواقي ١ / ١٠٠، نكت الهميان ص ٢٧١.

(٣) هو نحوي كوفي، توفي سنة ٢٢٨ هـ قبل وفاة الوزير ابن بقية، من مصنفاته: «الأضداد»، و «الزاهر»، و «شرح المفضليات»، و «شرح المعلقات» - انظر ترجمته في: «تاريخ العلماء النحويين» للمفضل محمد بن مسعر، (تحقيق: د. عبد الفتاح الحلو، ط ٢، هجر، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م) ص ١٧٨، ١٧٩ - «تاريخ الأدب العربي» لكارل بروكلمان (أشرف على ترجمته: د. محمود فهمي حجازي، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣ م) القسم الأول، ص ٥٤٢-٥٤٤.

- وورد الأول أيضاً في «نهاية الأرب» ٢٦ / ٢١٦ وبدون نسبة في «سير أعلام النبلاء» ١٦ / ٢٢١.
- ١-١٠، ١٢، ١٧-٢١ في «أسرار البلاغة»، ص ٣١٥-٣١٦.
- ١-٧ في «محاضرات الأدباء»، ٢ / ٢٣٨.
- ١-٨، ١١-١٤، ٩، ١٠، ١٥-٢١ في «تاريخ مدينة دمشق» (ترجمة: «جعفر بن ميسر بن يغم، أبو محمد»، أنشدها بصيدا) ٧٢ / ١٧٢-١٧٣.
- ١، ٢، ٥، ٦، في «المرقصات والمطريات» ص ١٦٠.
- ١-٨، ١٢، ١٣، ١١، ١٥، ١٧-٢١ في «الدر الفريد» ٤ / ٨٦.
- ١، ٢، ٤، ٨، ٧، ٥، ٦، ١١، ١٢، ١٧-١٩، ٢١ في «خلاصة الذهب المسبوك»، ص ١٥١.
- ١، ٢، ٤-٨ في «المختصر في أخبار البشر» ٢ / ١١٩، وفي «تاريخ ابن الوردي» ١ / ٢٩٢.
- ١-٨، ١١، ٩ في «الكامل لابن الأثير» ٧ / ٣٧٧-٣٧٨، وفي «نهاية الأرب» ٥ / ٢٢١.
- ١-٣، ٥، ٦ بدون نسبة في «جواهر الكنز»، ص ٥٥٥.
- ١-٩، ١١-١٨، ٢٠-٢١ في «الوافي بالوفيات» ١ / ١٠١، و«نكت الهميان في نكت العميان»، ص ٢٧٢-٢٧٣.
- ١-٤، ٨ في «الغيث المسجم في شرح لامية العجم» ٢ / ١٨١.
- ١-٤ في «البداية والنهاية» ٦ / ٣٧١.
- ١-٤، ٨، ٩، ١١، ١٠، ١٢-٢٠، ٥، ٦، ٢١ في «النجوم الزاهرة» ٤ / ١٣٠-١٣١.
- ٢، ٣ في «معاهد التنصيص» ١ / ١٥٠.
- ١-١٢ في «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» ٣ / ٦٣.

٤- القصيدة وتخریجها:

- ١- علُوُّ في الحياة وفي المماتِ لَحَقَّ أَنْتَ إِحْدَى الْمَعْجَزَاتِ^(١)
 ٢- كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا وَفُودُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصَّلَاتِ^(٢)
 ٣- كَأَنَّكَ قَائِمٌ فِيهِمْ خَطِيبًا وَكُلُّهُمْ قِيَامٌ لِلصَّلَاةِ^(٣)
 ٤- مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمْ احْتِفَاءً كَمَدَّهُمَا إِلَيْهِمْ بِالْهَبَاتِ^(٤)
 ٥- وَلَمَّا ضَاقَ بَطْنُ الْأَرْضِ عَنْ أَنْ يَضُمَّ عِلَاكَ مِنْ بَعْدِ الْمَمَاتِ^(٥)
 ٦- أَصَارُوا الْجَوَّ قَبْرَكَ وَاسْتَنَابُوا عَنْ الْأَكْفَانِ ثَوْبَ السَّافِيَاتِ^(٦)
 ٧- لِعُظْمِكَ فِي النَّفُوسِ تَبَيَّتْ تُرَعَى بِحُرَّاسٍ وَخُفَاطٍ ثِقَاتِ^(٧)
 ٨- وَتَشْعَلُ عِنْدَكَ النَّيْرَانُ لَيْلًا كَذَلِكَ كُنْتَ أَيَّامَ الْحَيَاةِ^(٨)

(١) «الدر الفريد»: علوا... - «حماسة الظرفاء»: لعمري أنت... - «ديوان المعاني»: «أسرار البلاغة»، «تاريخ دمشق»، و«الدر الفريد»، «خلاصة الذهب المسبوك»، و«تاريخ ابن الوردي»، و«الوافي بالوفيات»، و«نكت الهميان»، و«البداية والنهاية»: بحق... - محاضرات الأدباء: فحق... - «المرقصات والمطريات»: لحقا... - «تاريخ بغداد»: لحق تلك....

(٢) «حماسة الظرفاء»: كأن القوم حولك حين جاءوا... - «ديوان المعاني»: الناس بعدك... - «حياة الحيوان»: حولك إذ أقاموا... - «المرقصات والمطريات»، و«معاهد التنصيص»: وفود يديك... - «المرقصات والمطريات»: أمام الصلاة - جوهر الكنز: أيام للصلات.

وفي «يتيمة الدهر»، و«ديوان المعاني»، و«معاهد التنصيص» أن هذا البيت مأخوذ من قول عبد الله بن المعتز في عبد الله بن سليمان حين توفي:

وصلوا عليه خاشعين كأنهم وفود وقوف للسلام عليه

والبيت في ديوان ابن المعتز (تحقيق: محمد بديع شريف، ط دار المعارف بمصر، دت ٢ / ٣٧٥).

(٣) «حماسة الظرفاء»: كأنك قائماً فيهم خطيب وقد حضروا جميعاً للصلاة - «البداية»: كأنك واقف... وكلهم وقوف... - «ديوان المعاني»، و«الدر الفريد»: للصلات.

(٤) «يتيمة الدهر»، و«وفيات الأعيان»، و«نكت الهميان»، و«الغيث المسجم»: نحوهم احتفالاً... - «ديوان المعاني»، و«نهاية الأرب»: نحوهم جميعاً... - «محاضرات الأدباء»: نحوهم اتقاء... - «تاريخ دمشق»، و«الكامل»، و«الدر الفريد»، و«المختصر في أخبار البشر»، و«تاريخ ابن الوردي»: نحوهم اقتفاء... - «ديوان المعاني»، و«محاضرات الأدباء»، و«خلاصة الذهب»، و«نهاية الأرب»، و«الوافي»، و«نكت الهميان»، و«شذرات الذهب»: كمدكها... - «تاريخ ابن الوردي»: لمدهما... وفيه وفي «الكامل» و«المختصر في أخبار البشر»: في الهيات.

(٥) «شذرات الذهب»: فلما... - «جوهرة الكنز»: ظهر الأرض... علاك أيام الممات.

(٦) «أحسن ما سمعت»: وصاروا... - «خلاصة الذهب»، و«حياة الحيوان»: واستعاضوا... - «محاضرات الأدباء»، و«الدر الفريد»: واستعاضوا من...

السافيات: الريح التي تحمل التراب..

(٧) «نهاية الأرب»: بقيت ترعى... - «تاريخ دمشق»، و«وفيات»، و«الدر الفريد»، و«خلاصة الذهب»، و«الوافي»، و«شذرات»: بحفاظ وحراس... - «نكت الهميان»: بحفاظ وحراث... .

(٨) «أحسن ما سمعت»: أتشعل... - «حياة الحيوان»: وتوقد حولك... - «تاريخ دمشق»، و«خلاصة الذهب»، و«الغيث المسجم»: وتشعل حولك... - «حياة الحيوان»: النيران قدما...

والمراد بالنيران نيران الضيافة التي كان الكرماء يوقدون لها ليتهدي بها الضيفان.

- ٩- رَكِبْتَ مَطِيَّةً مِنْ قَبْلُ زَيْدٌ
١٠- وتلك قضية فيها تأسٌ
١١- ولم أرَ قَبْلَ جِذْعِكَ قَطُّ جِذْعًا
١٢- أسأت إلى النوائب فاستثارت
١٣- وكنت تُجير من صَرْفِ الليالي
١٤- وصيّر دَهْرَكَ الإحسانَ فيه
١٥- وكنت لمعشر سعدًا فلما
١٦- غليلٌ باطنٌ لك في فُؤادي
١٧- ولو أني قَدَرْتُ على قيامي
١٨- ملأت الأرض من نظم القوافي
١٩- ولكني أَصْبَرُ عنك نفسي
٢٠- وما لك تُرْبَةً فأقول تُسْقَى
٢١- عليك تحية الرحمن تُتْرَى
- عَلاهَا فِي السنينِ الماضياتِ^(١)
تُبَاعِدُ عَنْكَ تَعْيِيرَ العُدَاةِ^(٢)
تَمَكَّنَ مِنْ عِنَاقِ المَكْرُمَاتِ^(٣)
فَأَنْتَ قَتِيلٌ ثَارَ النَّائِبَاتِ^(٤)
فَعَادَ مُطَالِبًا لَكَ بِالتُّرَاتِ^(٥)
إِلَيْنَا مِنْ عَظِيمِ السَّيِّئَاتِ
مَضِيَتْ تَفَرَّقُوا بِالْمَنْحَسَاتِ^(٦)
حَقِيقٌ بِالدِّمُوعِ الجَارِيَاتِ^(٧)
بِفِرْضِكَ وَالْحَقُوقِ الْوَاجِبَاتِ^(٨)
وَنُحْتُ بِهَا خِلَافَ النَّائِحَاتِ^(٩)
مَخَافَةً أَنْ أَعَدَّ مِنَ الْجُنَاةِ
لَأَنَّكَ نَصَبُ هَظْلِ الْهَاطِلَاتِ^(١٠)
بِرَحْمَاتِ غَوَادٍ رَائِحَاتِ^(١١)

* * *

- (١) «تاريخ دمشق»، و«الكامل»، و«نهاية الأرب»، و«نكت الهميان»: السنين الذاهبات.
وفي البيت إشارة إلى ريد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان قتل وصلب في أثناء خلافة هشام بن عبد الملك
(٢) «أسرار البلاغة»، و«تاريخ دمشق»، و«وفيات»، و«شذرات»: وتلك فضيلة... - «تاريخ دمشق»: عنك أسباب الدنات وليس بشيء.
(٣) «خلاصة الذهب»، شذرات: فلم... - الدر الفريد: مثل جذعك...
(٤) «أسرار البلاغة»: إلى الحوادث...
(٥) «حياة الحيوان»: وكنت تجيرها من صرف دهر... - «النجوم»: جور الليالي... - الترات: جمع ترة وهي الثار.
(٦) «نكت الهميان»: وكنت لمعسر... - «تاريخ دمشق»: تمزقوا بالمنحسات - «الدر الفريد»: في المنحسات.
(٧) «تاريخ دمشق»: غليلي... وفيه وفي وفيات والوافي ونكت الهميان والنجوم: يخفف بالدموع...
وفي «يتيمة الدهر» أن هذا البيت أخذه من قول ابن الرومي:

لَمْ يَظْلِمِ الدَّهْرُ أَنْ تَوَالَتْ فَيَكُم مَصْصِيْبَاتِهِ دِرَاكِمَا
كَفْتُمْ تَعْيِيرُونَ مِنْ يَمَادِي مِنْهُ فَمِمَّا دَاكُم لَذَاكِمَا

- والبيتان في ديوانه (تحقيق: د. حسين نصار، ط ٢، ط دار الكتب بمصر، ٢٠٠٢م) ٥ / ١٨٤١.
(٨) «أحسن ما سمعت»، «وفيات»، و«الوافي»، و«نكت الهميان»، و«حياة الحيوان»، و«النجوم»: على قيام... - «خلاصة الذهب»: على قضائي لفضلك... - وفيات، والنجوم: لفرضك...
(٩) «خلاصة الذهب»: غرر القوافي... - «تاريخ دمشق»: نظم المراثي... - «الدر الفريد»: خلال النائحات.
(١٠) «الدر الفريد»: عين الهاطلات.
(١١) «تاريخ دمشق»: برحمت روائح غاديات.

هـ- تعليق:

من الملحوظ أن بعض الشعراء قديماً أشاروا إلى المصلوبين ووصفوهـم، مثل ذي الرُّمة (ت نحو ١١٧هـ) الذي أراد أن يصور الحرياء، فقال^(١):

كأن حرياءها في كل هاجرة ذو شيبة من رجال الهند مصلوب

وقال مسلم بن الوليد (ت ٢٠٨هـ) من قصيدة في مدح داود بن يزيد^(٢):

وضمته حيث ترتاب الرياح به وتحسد الطير فيه أضبُع البید

تغدو الضواری فترميه بأعينها تستشق الجوّ أنفاساً بتصعيد

ومن هؤلاء الوصافين: أبو تمام (ت ٢٣١هـ)^(٣)، وابن الرومي (ت ٢٨٣هـ)^(٤) والبحتري (ت ٢٨٤هـ)^(٥) والسري الرفاء (ت نحو ٣٦٢هـ)^(٦).

وقد وجد هذا الغرض الشعري قبولا لدى كثير من الناس في الأزمنة السابقة وموافقة لأذواقهم، واهتمت بعض المصنفات برواية ما شبهت به الشعراء المصلوبين، فأوردت نماذج لهؤلاء الذين سبق ذكرهم، ونماذج أخرى لغيرهم، مثل أبي بكر الأخطل، وإبراهيم بن المهدي، وابن المعتز، ودعبل، والعقيلي، وابن حمديس، وعمارة اليمني. من هذه المصنفات: «التشبيهات»: لابن أبي عون (ت ٣٢٢هـ)^(٧)، و«كتاب الصناعتين»: لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)^(٨)، و«زهر الآداب وثمر الألباب»: للحصري القيرواني (ت ٤٥٣هـ)^(٩) و«أسرار البلاغة»: لعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)^(١٠)، و«محاضرات الأدباء»: للراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)^(١١)، و«المثل السائر»: لضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ)^(١٢)، و«وفيات الأعيان»: لابن خلكان

(١) ديوانه (نشر: كارليل هنري هيس مكارتي، ط كمبريج، ١٣٢٧ هـ / ١٩١٩ م) ص ٣٧.

(٢) ديوانه (تحقيق: سامي الدهان، ط ٢، دار المعارف بمصر) ص ١٦٥.

(٣) له أشعار مشهورة مدح بها المعتصم لمّا صلب الأفشين خيذر بن كاوس وبابك ومازيار - ديوانه (تحقيق: محمد عبده عزام، ط ٢، دار المعارف بمصر) ٢ / ٢٠٧-٢٠٨ وأيضاً ٣ / ١٤٤.

(٤) ديوانه (تحقيق: د. حسين نصار، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤-٢٠٠٢ م) ٢ / ٦٠٩، وأيضاً ٥ / ١٨٩٤.

(٥) ديوانه (تحقيق: حسن كامل الصيرفي، ط ٢، دار المعارف بمصر) ١ / ١٠.

(٦) ديوانه (تحقيق: د. حبيب حسين الحسيني، ط الطليعة، العراق، ١٩٨١ م) ص ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٧، ٦٠٠، ٦٩٥-٦٩٦.

(٧) تصحيح: محمد عبد المعيد خان، ط كمبريدج، ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م، ص ٢٢-٢٥.

(٨) تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، ط ١، الحلبي، ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م، ص ٢٥٤.

(٩) ط ٥، دار الجيل، لبنان، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م، ص ١٠٩٢-١٠٩٣.

(١٠) ص ١٧٥-١٧٦.

(١١) ٢ / ٨٦.

(١٢) تحقيق: د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة، ط ١، نهضة مصر، ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م، ٢ / ٧-٩.

(ت ٦٨١هـ)^(١) ، و«الوافي بالوفيات»: للصفدي (ت ٧٦٤هـ)^(٢) ، و«معاهد التصيص»: للعباسي (ت ٩٦٢هـ)^(٣) .

ولكن لم تتل مرثية في مصلوب من الشاء مثلما نالت مرثية أبي الحسن الأنباري، فوصفها الثعالبي بأنها فريدة تدل على أن صاحبها من أفراد الشعراء^(٤) وقال الخطيب: «وهي مستحسنة معروفة»^(٥) ، وقال ابن خلكان: «اتفق العلماء على أنه لم يعمل في بابها مثلها»^(٦) ، وقال الصفدي: «لم أر في مصلوب أحسن منها»^(٧) ، وقال أيضاً: «ما لأحد مثلها، ولو لو يكن إلا أولها لكفى بها حسناً... وهي مشهورة فلا فائدة من إثباتها»^(٨) ، وقال ابن تغري بردي: «لم أذكر هذه المرثية بتمامها هنا إلا لغرابتها وحسن نظمها»^(٩) .

وكان عبد القاهر الجرجاني قد أقرّ بما يثيره منظر المصلوب من البشاعة والشناعة، قال: «... وقد علّم أنه ليس في الدنيا مثلة أخزى وأشنع، ونكّال أبلغ وأفظع، ومنظر أحق بأن يملأ النفوس إنكاراً، وتزعج القلوب استفظاعاً له واستتكاراً، ويُغري الألسنة بالاستعاذة من سوء القضاء ودرك الشقاء من أن يُصلب المقتول ويُشبح (أي: يُمدّ) في الجذع»، ولكن عبد القاهر حاول أن يعلل لما وجده من إعجاب الناس وافتتانهم بقصيدة أبي الحسن الأنباري، فقال: «ثم قد ترى مرثية أبي الحسن لابن بقية حين صُلب، وما صنع فيها من السحر حتى قلب جملة ما يُستكر من أحوال المصلوب إلى خلافها، وتأوّل فيها تأويلات أراك فيها وبها ما يقضى (أي يفنى وينفذ) منه العجب»^(١٠) .

(١) ١٢٣ / ٥ - ١٢٤ .

(٢) ١٠٣ - ١٠٤ / ١ .

(٣) ١٥٠ / ١ .

(٤) «يتيمة الدهر» ٢ / ٣٧٣ وانظر: «سير أعلام» ٢٦ / ٢٢١ .

(٥) «تاريخ بغداد» ٣ / ٣٥ .

(٦) «وفيات» ٥ / ١٢٣ .

(٧) «الوافي» ١ / ١٠١ وانظر: «نكت الهميان»، ص ٢٧٢ و«حياة الحيوان» ١ / ١٣٢ .

(٨) «الفيت المسجّم» ٢ / ١٨١ .

(٩) «النجوم» ٤ / ١٣١ .

ومن المختارات الأدبية الحديثة التي روت القصيدة، كتاب «نفع الأزهار في منتخبات الأشعار» وفيه أنها «من القصائد الطنانة، بلغت من الشهرة والاستحسان أعظم مبلغ»، جمع الكتاب: شاكر البتانوني، وضبطه وصححه: الشيخ إبراهيم اليازجي (ط١)، العمومية، بيروت، ١٨٩٩م) ص ٩٧، ٩٨ وكتاب: «جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء اللغة» للسيد أحمد الهاشمي (ط٢٧)، التجارية، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م) ٢ / ٢٩٠ - ٢٩١ .

(١٠) «أسرار البلاغة»، ص ٣١٥، ٣١٦ .

وبعد،

فيبقى القول بأنه على الرغم مما لاقتته هذه القصيدة قديماً من ذبوع وشهرة واستحسان، وما ذهب إليه عبد القاهر من أنها حافلة بالتأويلات الساحرة العجيبة المتناهية في إثارة الدهشة - فالذي لاشك فيه أن مثل هذه الأشعار في وصف المصلوبين لا تستطيع أن تجد لدينا في العصر الحديث قبولاً مهما قيل عن حسن نظمها واشتمالها على كل جميل من التشبيهات والاستعارات والمجازات والمعاني المبتدعة المخترعة التي لم يكن للسابقين عهد بها من قبل.

والذي يبقى من القصيدة أن لها دلالاتها وأبعادها التاريخية والسياسية والثقافية والاجتماعية، بل واللغوية الفنية أيضاً.

وربما تدفع إلى شيء من التأمل، فثمة تناقض واضح بين صورة المرثى وقد جعل منه المؤرخون دسّاساً يحيك المكائد، ويصل بدهائه إلى أن يصير وزيراً بعد أن كان في بداية أمره يتولى شئون المطابخ لرؤسائه، وصورته في القصيدة، وقد حلق بها الشاعر في فضاء الخيالات وتجاوز الواقع الأرضي ونسي أو تناسى أن ممدوحه قد مات، فوصفه بأنه معجزة من المعجزات، عال على خشبته مثلما كان عالياً في حياته، يمد يديه محتفياً مثلما كان يمدهما بالعطايا، والناس يتحلّقون حوله، وكأنه واقف يخطب فيهم وهم أمامه قائمون للصلاة، الفضاء الواسع قبره لا الأرض الضيقة، والنيران حوله إنما هي النيران المشعلة للمعتقين المجتدين... إلخ، ولكن هل يمكن أن نلمس في هذه القصيدة نبرة الاعتراض وصرخة الاحتجاج؟ قالوا بأن الشاعر كتبها ورمى بها في شوارع بغداد، فتداولها الأدباء، ثم اتصل الخبر بالحاكم، فاستتر الشاعر سنة كاملة؛ لأن في مدحه لذلك البائس المصلوب وإعلاء شأنه إهانة للحاكم الصالب ورفضاً لمشيئته، يقول الشاعر قبيل اختتامه للقصيدة:

ولو أني قَدَرْتُ على قيامي	بفرضك والحقوق الواجبات
ملأتُ الأرض من نظم القوافي	ونُحْتُ بها خلافَ النائحَاتِ
ولكني أَصْبِرُ عنك نفسي	مخافةً أنْ أُعَدَّ من الجُنَاةِ

المصادر

١. «أحسن ما سمعت»، الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد - ٤٢٩هـ)،
نشر: محمد صادق عنبر، ط ٢، المحمودية، القاهرة، د. ت.
٢. «أسرار البلاغة في علم البيان»، عبد القاهر الجرجاني بن عبد الرحمن (٤٧١هـ)،
نشر: محمد عبد العزيز النجار، ط صبيح، القاهرة ١٩٧٧م.
٣. «الأعلام»، الزركلي، (خير الدين بن محمود بن محمد - ١٩٧٦م)،
ط ١٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٨م.
٤. «البداية والنهاية»، ابن كثير (إسماعيل بن عمر - ٧٧٤هـ)،
ط دار الفد المري، القاهرة، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.
٥. «تاريخ بغداد»، الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي - ٤٦٣هـ)،
ط السعادة، مصر، ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م.
٦. «تاريخ مدينة دمشق»، ابن عساكر (علي بن الحسن بن هبة الله - ٥٧١هـ)،
تحقيق: محب الدين أبي سعد عمر بن غرامة العمروي، ط دار الفكر، بيروت،
١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.
٧. «تاريخ ابن الوردي (زين الدين عمر بن المظفر - ٧٤٩هـ)،
ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.
٨. «جواهر الكنز»، أو: «تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوى البراعة»، ابن الأثير الحلبي
(نجم الدين أحمد بن إسماعيل - ٧٣٧هـ)
٩. تحقيق: د. محمد زغلول سلام، ط منشأة المعارف، الإسكندرية، د. ت.
١٠. «حماسة الظرفاء»، العبدلكاني الزوزني (عبد الله بن محمد - ٤٣١هـ)،
تحقيق: محمد جبار المعبيد، منشورات وزارة الإعلام، العراق، ١٩٧٣م.
١١. «حياة الحيوان الكبرى»، الدميري (محمد بن موسى - ٨٠٨هـ)،
ط الشرفية، القاهرة، ١٣١٢هـ.
١٢. «خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك»، عبد الرحمن سنبط قنيتو
الأربلي - ٧١٧هـ)،
١٣. نشر: مكى السيد جاسم، ط المثنى، بغداد، ١٩٤٤م.
١٤. «الدر الفريد وبيت القصيد»، محمد بن أيدير - ٧١٠هـ،
منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، إصدار: فؤاد سزكين، ١٤٠٨ -
١٤١٠هـ / ١٩٨٨ - ١٩٨٩م.

- ـ «ديوان المعاني»، أبو هلال العسكري (الحسن بن عبد الله - نحو ٣٩٥هـ)،
ط القدسي، القاهرة، ١٣٥٢هـ.
- ـ «سير أعلام النبلاء»، الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان - ٧٤٨هـ)،
ط ٧، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
- ـ «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، ابن العماد الحنبلي (عبد الحي بن أحمد بن
محمد - ١٠٨٩هـ)،
ط القدسي، القاهرة، ١٣٥٠هـ.
- ـ «الفيث المسجى في شرح لامية العجم»، الصفدي (خليل بن أيوب بن عبد الله -
٧٦٤هـ)،
ط الأزهرية المصرية، ١٣٠٥هـ.
- ـ «الكامل»، ابن الأثير عز الدين (علي بن محمد - ٦٣٠هـ)،
ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- ـ «لسان العرب»، ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم - ٧١١هـ)،
ط بولاق، القاهرة، ١٣٠٠هـ.
- ـ «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء»، الراغب الأصفهاني (أبو القاسم
حسين بن محمد - ٥٠٢هـ)، ط الشرفية، مصر، ١٣٢٦هـ.
- ـ «المختصر في أخبار البشر»، أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل - ٧٣٢هـ)،
ط ١، الحسينية، القاهرة، د.ت.
- ـ «مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان»، اليافعي (عبد الله بن أسعد بن
علي - ٧٦٨هـ)، ط حيدر آباد، ١٣٣٧هـ.
- ـ «المرقصات والمطريات»، ابن سعيد (علي بن موسى - ٦٧٣هـ)، ط دار محب، بيروت،
١٩٧٣م.
- ـ «معاهد التنصيص»، العباسي (عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد - ٩٦٣هـ)، ط
البهية، مصر، ١٣١٦هـ.
- ـ «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»، ابن تغري بردي (أبو المحاسن يوسف
الأتاكي - ٨٧٤هـ)، ط ١، دار الكتب المصرية، ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م.
- ـ «نكت الهميان في نكت العميان»، الصفدي، ط الجمالية، مصر، ١٣٢٩هـ / ١٩١١م.
- ـ «نهاية الأرب في فنون الأدب»، النويري (أحمد بن عبد الوهاب - ٧٣٣هـ)، الجزء
الخامس، ط دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م.

- الجزء السادس والعشرون، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- «الوافي بالوفيات»، الصفدي، اعتناء: هلموت ريتز، ط جمعية المستشرقين الألمانية، فيسبادن، ١٢٨١هـ / ١٩٦٢م.
- «وفيات الأعيان وأنبياء أبناء الزمان»، ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر - ٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، ط دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.
- «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر»، الثعالبي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط حجازي، مصر، ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م.

مخطوط التلخيص الباهر شرح الأشباه والنظائر للعلماء: محمد هبة الله محمد بن يحيى التاجي الحنفي المتوفى سنة ١٢٢٤هـ

د. إبراهيم رشاد محمد(*)

هذا المخطوط هو شرح لأهم كتب القواعد الفقهية^(١) في المذهب الحنفي، وهو كتاب «الأشباه والنظائر»^(٢) للعلامة ابن نجيم المصري المتوفى سنة ٩٧٠هـ. وهو يشتمل على نقول كثيرة من الكتب، وهذه الكتب منها المطبوع، ومنها

(*) أستاذ الدراسات الإسلامية ورئيس قسم الدراسات الإسلامية - كلية الآداب - جامعة جنوب الوادي.

(١) القاعدة الفقهية : «هي حكم كلي ينطبق على جزئياته ليتعرف أحكامها منه».

انظر : «التلويح على التوضيح»: للتفتازاني - ٢٠/١ .

وقيل : «حكم أكثرى لا كلي ينطبق على أكثر جزئياته لتعرف أحكامها» .

«غمز عيون البصائر شرح الأشباه والنظائر»: للحموي - ٢٢/١ .

والقواعد الفقهية تنقسم باعتبار أهميتها في الفقه وشمولها لمسائله إلى :

(١) القواعد الفقهية التي تقوم بمثابة أركان الفقه الإسلامي. وهي القواعد الخمس المشهورة .

١- الأمور بمقاصدها ٢- المشقة تجلب التيسير ٣- الضرر يزال

٤- العادة محكمة ٥- اليقين لا يزول بالشك .

(٢) القواعد الفقهية المسلم بها في المذاهب الفقهية، لكنها أقل اتساعاً للفروع من القواعد السابقة مثل :

١- تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة .

٢- من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه .

(٣) قواعد مذهبية : تتفق مع مذهب دون الآخر .

مثل قاعدة: الأجر والضمان لا يجتمعان. فإنها في مصادر الفقه الحنفي، وهي لا تتماشى مع مذهب جمهور الفقهاء.

(٤) القواعد المختلف فيها: وهي التي لم يتفق أصحاب مذهب ما على الاعتداد بها.

(٥) كلمة شبه أو شبه تجمع على الأشباه، وهي المثل في اللغة . انظر : لسان العرب - لابن منظور - ط بيروت - دار

صادر - ١٣ / ٥٠٢ . ولقد تعارف أهل اللغة على استعمال هذه الكلمة في صفات ذاتية معنوية، فالذاتية: نحو هذا

الدرهم كهذا الدرهم .. والمعنوية : زيد كالأسد . المصباح المنير - للفيومي - ٢٥٨/١ .

وكذا النظير: المثل المساوي وهذا نظير هذا، أي مساويه. فكانك إذا نظرت إلى أحدهما فقد نظرت إلى الآخر.

المصدر السابق نفسه ٢ / ٢٧٩.

وانطلاقاً من ذلك المفهوم اللفوي، درج العلماء على استعمال تلك الكلمات على معناها اللفوي، فجعلوا الشبيه والنظير بمعنى واحد .

أما المعنى الاصطلاحي للأشباه والنظائر : فقد عرفه تاج الدين السبكي بقوله: «إن قياس الأشباه: هو أن يجتذب الفرع أصلاً، ويتنازع مأخذاً، فينظر إلى أولاهما وأكثرهما شبهاً فيلحق به» . الأشباه والنظائر - ١ / ١١٧ .

وعرفه الحموي بقوله: «المراد بها: المسائل التي يشبه بعضها بعضاً مع اختلاف في الحكم، لأمر خفية أدركها الفقهاء بدقة أنظارهم. وقد صنعوا لبيانها كتباً كقروق المحيوسي والكرابيسي». انظر : «غمز عيون البصائر شرح

العيون والنظائر» ١٨/١

المخطوط، ومنها المفقود، وبذلك يعد سجلاً مهماً لكثير من الكتب، كما أنه يكشف النقاب عن عالم جليل من علماء الفقه الحنفي .

وكتاب ابن نجيم السابق من أشهر المؤلفات في القواعد الفقهية تحت عنوان «الأشباه والنظائر»، وهو قرين لكتاب العلامة السيوطي «الأشباه والنظائر»^(١) في اسمه وصيته وخصائصه، ويحتل مكاناً رفيعاً بين مؤلفات هذا الفن، وقد جاء خطوة جديدة بعد أن توقف سير التأليف في هذا الموضوع على مدى الأيام في الفقه الحنفي .

وضع المؤلف على غرار الأشباه والنظائر ، للعلامة تاج الدين السبكي^(٢)، كما صرح بذلك في مقدمة الكتاب المذكور^(٣). وهذا ما نجده عند الموازنة بين الكتابين . فابن نجيم التزم السير على منهج الإمام السبكي ، مع اختلاف يسير في ترتيب المباحث وتنسيق القواعد ، إلا أن للقواعد الأصولية نصيباً وافراً عند السبكي ، خلاف ما نشاهده عند ابن نجيم ، فإنه لم يتعرض للقواعد الأصولية^(٤) إلا نادراً ، فقد خص الفن الأول للقواعد الكلية الفقهية^(٥)، وبسط فيها القول ، ووضع الفنون الأخرى للكتاب

(١) الكتاب المذكور من أروع المؤلفات في القواعد الفقهية . تداولته أيدي العلماء في كل مكان ، وحظي بحسن القبول والرواج ، أتى فيه السيوطي بخلاصة مركزة مستخلصة من كتب السابقين في هذا المجال ، فجمع فيه معظم ما تفرق وتناثر من القواعد في كتب هذا الفن لتاج الدين السبكي ، والملائي ، والزركشي؛ وأضحى بذلك مصدراً لدراسة القواعد الفقهية خاصة في المذهب الشافعي . وقد طبعت دار الكتب العلمية - بيروت بدون تحقيق ، ثم طبعت دار السلام - مصر بتحقيق : محمد محمد تامر ، وحافظ عاشور حافظ .

(٢) الأشباه والنظائر لتاج الدين السبكي - طبع دار الكتب العلمية بيروت ، بتحقيق : عادل أحمد الموجود ، وعلي محمد عوض .

(٣) ذكر ابن نجيم في مقدمته سبب تأليفه، وهو أنه لم ير لعلماء الأحناف كتاباً يحاكي كتاب «الأشباه والنظائر» لتاج الدين بن السبكي الشافعي المشتمل على فنون الفقه، فأراد أن يضع كتاباً على النمط السابق مشتملاً على سبعة فنون، فكان «الأشباه والنظائر». ويعود سبب تسميته إلى اسم بعض فنونه، وهو الفن السادس .

(٤) يرى الإمام ابن تيمية الفرق بين القاعدة الأصولية والقاعدة الفقهية باعتبار أن أصول الفقه هي الأدلة العامة ، خلافاً لقواعد الفقه فإنها عبارة عن الأحكام العامة . انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦٧/٢٩

كما أن أصول الفقه بالنسبة للفقه ميزان وضابط للاستباط الصحيح ، فهي التي يستبطل بها الحكم من الدليل التفصيلي وموضوعها دائماً الدليل والحكم ، كقولك : الأمر للوجوب ، والنهي للتحريم . أما القاعدة الفقهية فهي قضية كلية أو أكثرية ، جزئياتها بعض مسائل الفقه، وموضوعها دائماً هو فعل المكلف .

(٥) قواعد فقهية كلية تدور معظم مسائل الفقه حولها ، وهي ست قواعد :

١ - لا ثواب إلا بالنية .

٢ - الأمور بمقاصدها .

٣ - اليقين لا يزول بالشك .

٤ - المشقة تجلب التيسير .

٥ - الضرر يزال .

٦ - العادة محكمة .

في مباحث أخرى ذات مساس بالفقه لكنها أقل اتساعاً وشمولاً للفروع مما سبق^(١).

وبما أن الكتاب احتوى ذخيرة ثمينة ، ومادة دسمة من فروع المذهب، فقد أكب عليه علماء المذهب درساً وتدريساً. وتتابع في فترات مختلفة تعليقات وشرح تخدم هذا الكتاب أربى عددها على خمس وعشرين، ما بين شرح للكتاب واستدراك عليه ، منها على سبيل المثال لا الحصر :

١ - «توير البصائر على الأشباه والنظائر»^(٢) : لشرف الدين الفزي^(٣) (ت ١٠٠٥ هـ).

٢ - «غمز عيون البصائر شرح الأشباه والنظائر» : للحموي^(٤) (ت ١٠٩٨ هـ) . وهذا الشرح متداول ، لما فيه من الدقة والتحقيق ، وقد ذكر الحموي في المقدمة أن الأشباه والنظائر لما اشتمل عليه من الإيجاز ، التحقت مسائله بالألفاظ ، فلذا لم يبرز إلى الآن بعض مقاصده فطالما حداني أن أقيد مطلقاته ، وأضبط مرسلاته ، وأفصل مجملاته ، وأصحح معتلاته^(٥).

٣ - نزهة النواظر على الأشباه والنظائر^(٦) لابن عابدين (ت ١٢٥٢ هـ)

(١) وهي قواعد فقهية أقل شمولاً واتساعاً من القواعد السابقة ، وقد ذكر منها تسع عشرة قاعدة منها :

- ١ - الاجتهاد لا ينقض الاجتهاد .
- ٢ - إذا اجتمع الحلال والحرام غلب الحرام .
- ٣ - هل يكره الإيثار بالقرب .
- ٤ - تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة .
- ٥ - الحدود تدرأ بالشبهات .
- ٦ - لا ينسب إلى ساكت قول .
- ٧ - من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه .
- ٨ - لا عبرة بالظن البين خطؤه .

انظر : «الأشباه والنظائر» : لابن نجيم - تحقيق محمد مطيع حافظ - دار الفكر بيروت .

(٢) مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٧٠ فقه حنفي ، رقم الميكروفيلم ٣٦٨٨٦ .

(٣) شرف الدين بن عبد القادر بن بركات بن إبراهيم ، المعروف بابن حبيب الفزي الحنفي ، فقيه حنفي عارف بالتفسير والمريية ، من أهل غزة بفلسطين ، من تصانيفه : محاسن الفضائل بجمع الرسائل .

انظر : خلاصة الأثر ٢/٢٢٢ ، الأعلام ٣/١٦١ .

(٤) هو أحمد بن محمد الحموي ، الحنفي ، الفقيه الأصولي ، درس بالقاهرة ودرس بها ، علا شأنه واشتهر ذكره لمشاركته في علوم كثيرة ، وتخرج به العلماء الكثيرون . له مؤلفات في الأصول والفقه وعلوم اللغة، منها : «حاشية الدر» ، «الغرر» في الفقه ، و«درر العبارات و«غرر الإشارات» في البلاغة . انظر : الأعلام ٣/٢٢٩ ، معجم المؤلفين ٩٣/٢ .

(٥) «غمز عيون البصائر» : ٦/١ .

(٦) مطبوع بحاشية الأشباه والنظائر : لابن نجيم - دار الفكر بيروت .

وهي حاشية كتبها ابن عابدين على نسخة الأشباه، فجمعها الشيخ البيطار^(١) من نسخة المؤلف وخطه .

٤ - «التحقيق الباهر شرح الأشباه والنظائر» لمحمد هبة الله التاجي^(٢) (ت ١٢٢٤هـ) وهذا المخطوط هو مدار حديثنا في السطور التالية .

توثيق نسبة المخطوط إلى مؤلفه :

من الأمور التي تدل على نسبة المخطوط إلى مؤلفه ما يلي :

١- معظم المصادر التي ترجمت لهبة الله التاجي ذكرت هذا المخطوط^(٣).

٢- ورد في مقدمة المخطوط نسبته إلى هبة الله التاجي، حيث يقول : «وبعد فيقول .. محمد هبة الله بن محمد بن يحيى التاجي ... وقد اشتهر في الآفاق تأليف العلامة ... زين بن نجيم ... وقد كنت ... كتبت حين أقرأني، فجاء - بحمد الله - شرحاً لم يسبق بمثاله، ولم ينسج على منواله، فبعد أن فضضت عنه مسك الختام، وأزلت عنه لثام التمام، سميت به «التحقيق الباهر شرح الأشباه والنظائر» .

التحقق من اسم المخطوط :

ذكر إسماعيل البغدادي في كتابيه: «إيضاح المكنون»، و«هدية العارفين» أن اسم المخطوط هو «التحقيق الباهر في شرح الأشباه والنظائر»^(٤)، وكذلك عمر رضا كحالة في كتابه «معجم المؤلفين»^(٥).

(١) البيطار: هو محمد بن حسن بن إبراهيم، الشهير بالبيطار الحنفي [ت ١٢١٢هـ]، تولى أمانة الفتوى بدمشق، وانفرد في الفقه وأصوله. انظر: «حلية البشر» ١٤٢/٣.

(٢) ولد هبة الله بدمشق في تاسع عشر ذي القعدة سنة ١١٥١هـ، ونشأ في أسرة محبة للعلم، وقد رحل إلى مصر رغبة في تلقي العلم من شيوخها، وتولى قضاء بغداد، وصار مفتياً ببيعليك. وتوفي يوم عشرين من ذي القعدة سنة ١٢٢٤هـ، ودفن بترية أسكدار بالأستانة . انظر: حلية البشر ١٥٧٧/٢، أعيان دمشق ص ٢٩١، والأعلام ٧٥/٨ .

(٣) فقد ذكر ذلك إسماعيل البغدادي في كتابيه : إيضاح المكنون ٢٦٤/١، و«هدية العارفين» ٢٥٦/٢، وكذلك عمر رضا كحالة في : معجم المؤلفين ٣١٠/١١، وقال الشطي في : «أعيان دمشق» ص ٢٩٠: «لهبة الله التاجي مؤلفات كثيرة منها: حاشية على الأشباه والنظائر، لابن نجيم .

(٤) انظر : «إيضاح المكنون» ٢٦٤/١، و«هدية العارفين» ٢٥٦/٢ .

(٥) انظر : «معجم المؤلفين» ٣١٠/١١ .

تاريخ تأليفه :

ذكر هبة الله التاجي في آخر القواعد أنه فرغ من الكتاب سنة ١١٩٥هـ، حيث يقول: «قال شارحه: نجز هذا الكتاب على يد مؤلفه الفقير محمد هبة الله بن محمد بن يحيى بن عبد الرحمن التاجي في غرة محرم سنة ١١٩٥هـ»^(١).

مصادره :

لم يُشرِ هبة الله التاجي في مقدمة المخطوط إلى المصادر التي اعتمد عليها في شرح «الأشباه والنظائر» - كما فعل ابن نجيم - ولكنه كان يذكر مصادره في آخر كل قول ينقله، وهذه المصادر هي :

١- المصادر التي ذكرها ابن نجيم في مقدمة «الأشباه والنظائر»، كشروح الهداية، وشروح الكنز، وشروح القدوري، وشروح المجمع، والفتاوى البزازیة، والخانية، والخلاصة .

٢- بعض شروح «الأشباه والنظائر» وحواشيه، كالحاشية الحموية، وحاشية ابن بيري .

٣- ما نقله هبة الله التاجي عن شيخه صالح الجيني، وذلك بقوله : «شيخنا» .

٤- مصادر أخرى: فقد اعتمد هبة الله التاجي على مصادر غير التي ذكرناها ، وهي تنقسم إلى مصادر أصولية، ومصادر فقهية :

● المصادر الأصولية : منها «فتح الغفار بشرح المنار»: لابن نجيم، و«التلويح في كشف حقائق التتقيح»: للتفتازاني، و«التحرير»: لابن الهمام، و«التقرير والتحبير»: لابن أمير الحاج الحلبي، و«البرهان»: للجويني، و«كشف الأسرار»: لعلاء الدين عبد العزيز البخاري، و«المنثور في القواعد»: للزركشي .

● المصادر الفقهية : كثيرة منها: «البحر الرائق» لابن نجيم، و«النهر الفائق» لعمر ابن نجيم، و«الإسعاف» لبرهان الدين الطرابلسي، و«روضة الفقهاء» للناطفي، و«أنفع الوسائل» لبرهان الدين الطرسوسي، و«المجموع شرح المذهب» للنووي، وفتاوى السبكي، وفتاوى التمرتاشي، والفتاوى التاجية، وفتاوى السيوطي .

وبالجملة فقد اعتمد هبة الله التاجي في كتابه على معظم كتب المذهب الحنفي

(١) انظر : «مخطوط التحقيق الباهر شرح الأشباه والنظائر» بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٨٩ فقه حنفي طلعت، رقم الميكروفيلم ٨٥٢٤، و ٢١٠ .

مع بعض الكتب التي صُنفت في المذاهب الأخرى، فكان - بحق - موسوعة لكتب الأحناف .

مزايا المخطوط :

تميز مخطوط «التحقيق الباهر» بمزايا عديدة منها :

أولاً . غزارة مادته العلمية، وتنوع مصادره وتعددتها بحيث لا تكاد تخلو صفحة واحدة منه في كثير من الأقوال .

ثانياً . التزام هبة الله التاجي في كتابه - غالباً - بعزو الأقوال إلى أصحابها .

ثالثاً . استفاد من الشروح والحواشي التي ألقت لتخدم كتاب «الأشباه والنظائر» لابن نجيم، فتجده كثيراً ما ينقل عن حاشية الحموي، وحاشية ابن بيري .

رابعاً . كان هبة الله التاجي يستعمل عبارات مثل (تأمل، فتدبر، فيه نظر، هذا سبق قلم) وهذا من أدبه مع العلماء في عدم قبوله لبعض أحكامهم ونقولهم.

خامساً . وقف على القواعد التي مر عليها ابن نجيم مروراً عابراً، فأعطاهما حقهما من الشرح والتحليل .

سادساً . كان هبة الله التاجي يحيل إلى ما سيأتي في الكتاب، أو ما مضى، وهذا أسهم في ترابط موضوعات الكتاب .

وفي الجملة كان كتاب «التحقيق الباهر في شرح الأشباه والنظائر» من أفضل الشروح ، حيث شرح هبة الله التاجي كتاب «الأشباه والنظائر» لابن نجيم شرحاً كاملاً، واستفاد من نقاط القوة التي في الشروح السابقة، وعالج كثيراً من النقاط التي أغفلتها أيضاً^(١).

النسخ الموجودة من المخطوط :

تم العثور على ست نسخ من مخطوط «التحقيق الباهر» وتم تصفحها والاطلاع على خصائص كل نسخة، لبيان درجتها وأهميتها، وهي كالتالي:

النسخة الأولى :

نسخة مصورة من النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٦٤) فقه

(١) لذلك كان خروج هذا الكتاب من دائرة المخطوطات إلى دائرة الكتب المطبوعة عملاً جيداً، للاستفادة القيمة منه، سواء في شرحه أو الاضطلاع على مصادره العديدة أو غير ذلك من فوائده الأخرى .

حنفي ق، ورقم الميكروفيلم (٥٨٩٨٧) وقد كتب بأولها : «يا من تتزهت عن الأشباه ذاته، وتقديست عن النظائر صفاته». وجاء في آخرها : «نقلت هذه النسخة من خط شارحه محمد هبة الله بن يحيى بن عبد الرحمن التاجي» .

. المسطرة : ٣١ سطرًا، ما عدا الصفحة الأولى ٢٧ سطرًا .

. المقاس : ١٦,٥ x ٨ سم .

. عدد الأوراق : ٨٢٢ ورقة .

. الخط : نسخ جيد .

. اسم الناسخ : إسحق بن محمد من قضاة الديار المصرية .

. تاريخ النسخ : لا يوجد بها تاريخ النسخ .

النسخة الثانية :

نسخة مصورة من النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٤٨٩) فقه حنفي طلعت، ورقم الميكروفيلم (٨٥٢٤) وقد كتب بأولها : «يا من تتزهت عن الأشباه ذاته، وتقديست عن النظائر صفاته». وجاء في آخرها : «ويتلوه: أي: النوع الأول، الفن الثاني من الفنون السبعة، وهو فن الفوائد والله سبحانه الميسر، وهو حسبي ونعم الوكيل، قال شارحه: نجز هذا الكتاب على يد مؤلفه الفقير محمد هبة الله بن محمد بن يحيى بن عبد الرحمن التاجي في غرة محرم الحرام سنة ١١٩٥هـ، رحمه الله تعالى» .

. المسطرة : ٢٣ سطرًا .

. المقاس : ١٧,٥ x ١٠ سم .

. عدد الأوراق : ٢٠٩ ورقة .

. الخط : نسخ .

وهذه النسخة تحتوي الفن الأول، هو فن القواعد، وهي ناقصة من الآخر، وخطها واضح، وعليها حواشٍ وتعليقات، وهي لا تحمل تاريخاً للنسخ، ولا اسمًا للناسخ.

النسخة الثالثة :

وهي نسخة مصورة عن النسخة المخطوطة المحفوظة بمكتبة الأزهر الشريف تحت رقم (٢٢٦) فقه حنفي أباطة، والرقم العام (٦٤٢٠)، وقد كتب بأولها : «يا من تتزهت الأشباه عن ذاته، وتقديست النظائر عن صفاته»، وجاء في آخرها : «إن هذه الحكاية متعلقة بالموت، وهو آخر الحياة، فيتناسب ما تقدم ذكره هنا» .

- . المسطرة : ٣٣ سطرًا .
- . المقاس : ٢٢ × ٢١ سم .
- . عدد الأوراق : ٩٦٣ ورقة .
- . الخط : نسخ .
- . التملكات : لخليل بن إبراهيم بن مصطفى الرشيدى الحنفى ١٢٦٦هـ .
- . التوفيقات : من ورثة سليمان أباطة على الجامع الأزهر سنة ١٢١٦هـ .
- . وهذه النسخة كاملة، وخطها نسخ واضح .

النسخة الرابعة :

وهي نسخة مصورة عن النسخة المخطوطة المحفوظة بمكتبة الأزهر الشريف تحت رقم (٢٨٠٦) فقه حنفى بخيت، والرقم العام (٤٤١٥١)، وأول المخطوط وآخره كالسابقة .

- . المسطرة : ٢٥ سطرًا .
- . المقاس : ١٧ × ٢٤ سم .
- . عدد الأوراق : ١٦٣٩ ورقة .
- . الخط : نسخ وكتبت بالمداد الأحمر والأسود .
- . اسم الناسخ : معوض سلامة المالكي .
- . تاريخ النسخ : ١٢٩٠ هـ .
- . التملكات : لمحمود العلاف السكندري سنة ١٢٩٠هـ .

النسخة الخامسة :

وهذه النسخة كاملة، وتحتوي حواشي .

وهي نسخة مصورة عن النسخة المخطوطة المحفوظة بمكتبة الأزهر الشريف تحت رقم (١٩١٤) فقه حنفى رافعى، والرقم العام (٢٦٧٥٣)، وقد كتب بأولها كالسابقة ، وجاء في آخرها : «ويناسب ما تقدم ذكره هنا، ولذا قال: إن ما ذكر من الحكاية أو الوصاية، أو الفن السابع آخر ما أوردناه من كتاب «الأشباه والنظائر» في الفقه على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان .

- . المسطرة : ٢١ سطرًا .
- . المقاس : ١٧ × ٢٣ سم .

- عدد الأوراق : ٢١٢٥ ورقة .
- الخط : نسخ ، وكتبت بالمداد الأحمر والأسود .
- اسم الناسخ: محمد بن محمد بن حسين الكردي الحنفي .
- تاريخ النسخ: ١٢٨٦ هـ .
- وهذه النسخة كاملة، وخطها نسخ واضح .

النسخة السادسة :

وهي نسخة مصورة عن النسخة المحفوظة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالسعودية، والمخطوطة بمكتبة روضة خيرى رقم (٦٣) فقه حنفي، وكتب بأولها : «القاعدة الرابعة من القواعد الكلية المشقة، أي: الصعوبة»، وجاء في آخرها كالسابقة .

- المسطرة : ٢٣ سطرًا .
- المقاس : ٢٤ × ١٧ سم .
- عدد الأوراق : ١٣٣٨ ورقة .
- الخط : نسخ .
- اسم الناسخ: محمود العلاف السكندري الحنفي .
- تاريخ النسخ: لا تحمل هذه النسخة تاريخاً للنسخ .
- وهذه النسخة ناقصة من أولها، وعليها حواشٍ وتعليقات كثيرة، وهي نسخة مقابلة على نسخة كتبها أحمد محمد سنة ١٢٢٧ هـ .
- وقد تم تقسيم هذه المخطوطة على مجموعة من الباحثين، طلبة الماجستير بكلية الآداب - جامعة جنوب الوادي، تم مناقشة ثلاثة منهم، وحصلوا على درجة الماجستير في الدراسات الإسلامية - بتقدير «ممتاز» وهم :
- ١- الباحث/ أبو القاسم محمد أبو شامة - آداب سوهاج .
- إشراف : أ.د عفت محمد أحمد الشرقاوي، أستاذ الدراسات الإسلامية بآداب عين شمس .

د. محمد أحمد حسن الخولي، أستاذ الدراسات الإسلامية المساعد بآداب قنا .

٢- الباحث/ هاشم رضوان .

إشراف : د. غريب محمد علي، أستاذ اللغة العربية المساعد بآداب قنا .

د. إبراهيم محمد رشاد ، أستاذ الدراسات الإسلامية المساعد بآداب قنا .

٣- الباحثة/ أمل رمضان حسين .

إشراف : د. عطية أبو زيد، أستاذ الدراسات الإسلامية المساعد بآداب سوهاج .

د. إبراهيم محمد رشاد، أستاذ الدراسات الإسلامية المساعد بآداب قنا .

ونأمل أن يتم الانتهاء من هذه المخطوطة لتخرج إلى النور ويتم طبعها، حتى يستفيد منها القراء والباحثون، وخاصة المهتمين بالقواعد الفقهية عامة، والفقه الحنفي خاصة .

نصوص تراثية في أعمال المستشرقين الدين والدولة عند أبي الحسن العامري

بقلم فريتز روزنتال^(١)

الترجمة والتعليق د. عفت الشرقاوي^(*)

تحظى مشكلة العلاقة بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية في الإسلام بأهمية خاصة ، بحيث لا نكاد نعثر على مناقشة للموضوع بقلم مؤلف من مؤلفي المسلمين في العصر الوسيط من غير أن نتوقع أن نجد فيها شيئاً ذا بال^(٢) ولعل أملنا في العثور على فائدة محققة فيما نقرأ يزداد أكثر ما يزداد إذا كان المؤلف الذي نحن بصددده حرياً - نظراً لظروف عصره وملابسات بيئته الثقافية - أن يكون ذا نزعة فكرية مستقلة فيما يعرض له من موضوعات.

(١) نشر هذا المقال في العدد الثالث من المجلة الدورية التي يصدرها المركز الإسلامي في لندن باسم Islamic Quarterly ، سنة ١٩٥٦ في الصفحات من ٤٢ إلى ٥٢ بعنوان State and Religion According to Abu Al-Hassen Al-Amiri ، والمؤلف مستشرق ألماني له مؤلفات واسعة في اللغة العربية والدراسات الإسلامية ، وقد عاش : (١٩١٤-٢٠٠٣) (المترجم).

(*) أستاذ الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس.

(٢) في عبارة المؤلف مايوحى بوجود صراع بين السلطة الزمنية والقيادة الروحية في الإسلام ، وهذا غير صحيح ، سواء على الصعيد التاريخي والواقعي لتطور الدولة الإسلامية ، أو على الصعيد النظري والفلسفي ، أعني فيما يتعلق بأصل النظرية الإسلامية في السياسة ، وما ألف حولها من كتب تتناول نظام الدولة الإسلامية بالدراسة . ذلك أنه لا يوجد في الإسلام سلطة كهنوتية تعطي نفسها مكانة مقدسة باسم الله ؛ لأن أصحابها يشغلون مركزاً خاصاً بوصفهم وزراء لله تعالى . ومثل هذه النظرية غريبة على الدولة الإسلامية من حيث الفلسفة السياسية والواقع التاريخي ، وليس لها من أصداء في الثقافة الإسلامية إلا فيما نثر عليه عند بعض فلاسفة الشيعة حول نظرية الإمامة في الحكم . ويبدو أن المؤلف قد وقع في هذا التعميم الجارف تحت تأثير تصوره الخاص للطابع المميز لعلاقة رجال الدين بسلطة الدولة في تاريخ أوروبا ، انظر في ذاك مثلاً كتاب سعيد عبد الفتاح عاشور ، «تاريخ أوروبا في العصور الوسطى» ، الفصل الخاص بالإمبراطورية والبابوية ص ٣٠٧ ، وانظر أيضاً كتاب Henry S. Lucas وعنوانه : النهضة والإصلاح The Renaissance and the Reformation الصادر في نيويورك سنة ١٩٦٠.

ويميل المؤلفون المسلمون ، على عكس ما يتصور روزنتال ، إلى تفسير العلاقة بين الإمام أو الحاكم من ناحية ، والرعية من ناحية أخرى على ضوء نظرية شبيهة بنظرية العقد الاجتماعي من حيث التزام كل من الطرفين بحقوق الآخر ، فالأمر لا يعمد أن يكون عقداً عرفياً ينظم العلاقة بين الحاكم ورعاياه في ظل مجموعة من الحقوق والواجبات ، فالإمامة كما يقول الماوردي : «عقد لا يتم إلا بمقاد ، كالتقضاء إذا لم يكن من يصلح له إلا واحد لم يصير قاضياً حتى يولاه» ، «الأحكام السلطانية» ص ٨ ، المكتبة التوفيقية ، وانظر كتاب «الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة» ، مقال أ.ح. قريشي بعنوان : أسس الثقافة الباكستانية ص ٤٤٠ ، النهضة ، ١٩٥٥ ، وانظر أيضاً كتاب «روح الدين الإسلامي» ، عبد الفتاح طيارة ص ٢٥٧ ، كذلك راجع كتاب سعيد عبد الفتاح عاشور بعنوان «بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى» ، ص ٢٨٥ (المترجم).

وليس هناك من شك في أن أبا الحسن محمد بن يوسف العامري كان باحثاً من هذا الطراز .

نشأ العامري في خراسان وإذا صح ما روى من أنه كان تلميذاً لأبي زيد البلخي، فإن من المرجح أنه ولد في أوائل القرن الرابع الهجري (أي ما يقابل العقد الثاني من القرن العاشر الميلادي). ولقد عاش العامري وتعلم في المدينة التي ولد فيها (نيسابور) ليصبح بعد ذلك باحثاً متمكناً في الفلسفة القديمة (اليونانية) ، وليغادر مدينته بعد ذلك رجلاً مثقفاً نضيج الرأي. وكانت بغداد في ذلك الوقت لاتزال تحظى بكل ما كانت جديرة به من الشهرة الذائعة بوصفها أهم مراكز الثقافة والعلم في العالم الإسلامي، وهي المكانة التي اكتسبتها منذ حكم العباسيين الأوائل. على أن هذه المدينة العظيمة كانت قد وصلت آنذاك إلى حال لم تعد فيه قادرة على أن تمد يديها بالتشجيع والعون المطلق لكل من كان يستحق ذلك من العلماء والفنانين الذين كانوا يتوافدون عليها لهذا الغرض . ولذلك سرعان ما وجد العامري أن ظروف الحياة في هذه المدينة لم تعد تلائمه وسط علمائها الذين لم يفسحوا له مجالاً بينهم^(١) ، فلم يلبث أن عاد أدراجه، ولكنه أثر في طريق العودة أن يبقى مدة من الزمان في بلاط ابن العميد . وقد تمت هذه الزيارة التي قام بها العامري لبغداد قرب منتصف القرن الرابع الهجري (أي ما يقابل سنة ٩٦٥ ميلادية تقريباً) . فأما ما ذكر في بعض المصادر من أنها كانت سنة ٣٦٤ هجرية (أي سنة ٩٧٤ ميلادية تقريباً) فإنه أقرب إلى أن يكون نتيجة لوهم بعض المؤلفين من أن يكون إشارة إلى زيارة أخرى له^(٢) . وحوالي سنة ٢٧٠ هجرية (٩٨٠ - ٩٨١ ميلادية) نصادف العامري بالقرب من نيسابور يوضح لبعض الصوفية المتسائلين

(١) هذا ما تصرح به عبارة المؤلف في إيجاز . ولكن بعض النصوص المربية تعطى تفصيلاً دقيقاً عن سبب خروج العامري من بغداد . بعد أن ضاق بها وبأخلاق علمائها أشد الضيق ، فقد جاء في «صوان الحكمة» (بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي - طهران ١٩٧٤ ، ص ٢١٠) أن أبا الحسن العامري كان «قريح القلب من أخلاق المراقبين فإنهم سلخوه وفسخوه (كشفوا ما في علمه من ضعف وفساد) وهجروا معه الإنصاف ، فضلاً عن الإسماعف . وقد قيل له لما عاد من بغداد كيف رأيت الناس بها؟ فقال: «رأيت عندهم طرقاً ظاهرة ، وشارة معجبة (الشارة والشوار: اللباس والهيئة) ومراة معشوقة، لكى رأيت من وراء ذلك سخفاً بالفاً ، ووداً فاسداً ، واستحقاراً لأهل خراسان وجميع البلدان . وأصلح ما يتفق للإنسان أن تكون طينته مشرقية ، وصورته عراقية ، فإنه بهذا يصير جامعاً بين متانة خراسان وطرف العراق ، مفارقاً لبلادة خراسان ورعونة العراق» . ومثل هذه الصيغ في ذم بعض المدن ومدحها ليس نادراً في أدب العصر العباسي. (المترجم)

(٢) هذا من استنتاج المؤلف . وهو قول مرجوح في أغلب الظن ، وقد أثبتت دراسة الدكتور أحمد عبد الحميد غراب عن حياة العامري زيارتين لبغداد: الأولى سنة ٢٦٠ هـ تقريباً ، والثانية سنة ٣٦٤ هـ ، انظر مقدمة تحقيق كتاب «الإعلام بمناقب الإسلام»: لأبي الحسن محمد بن يوسف العامري - تحقيق ودراسة ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ . ص ٨ . وقد ذهب أ.ك. روسن E.K. Rowson إلى ما يشبه ذلك في مقدمة تحقيقه لكتاب العامري : «الأمد على الأبد» ، دار الكندي بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١١

عن حقيقة قد تبدو غريبة في ظاهر الأمر ، وهي أن الزهاد وأهل التقوى يحق لهم أن يكشفوا عن اهتمامهم بما يجري من أحداث السياسة في عصرهم^(١). وقد مات العامري بعد ذلك بأعوام قليلة في نيسابور على ما يبدو في ٢٧ شوال سنة ٢٨١ هجرية المقابل للسادس من يناير سنة ٩٩٢م.

وقد تنقل العامري بين مجالس التوحيدي وابن مسكويه^(٢)، وكان ابن هندو من

= ومهما يكن من أمر فإن الإشارة إلى الزيارة الأولى تعتمد على نص ورد في «تجارب الأمم»: لابن مسكويه الذي يروى أن العامري قد قصد ابن العميد بعد أن «ورد من خراسان ، وقصد بغداد ، وعاذ وعنده أنه فيلسوف تام ، وقد شرح كتب أرسطو طاليس، وشاخ فيها ، فلما اطلع على علوم الأستاذ الرئيس (ابن العميد) برز بين يديه ، واستأنف القراءة عليه . وكان يعد نفسه في منزلة من يصلح أن يتعلم منه فقرأ عليه عدة كتب مستقلة ، ففتحها عليه ، ودرسه إياها» تجارب الأمم ، ج ٢ ، ص ٢٢٧.

وأما الزيارة الثانية فهي تعتمد على ما جاء في «المقابسات»، وفيها يذكر أبو حيان التوحيدي العام الذي ورد فيه العامري بغداد وهو عام ٢٦٤ هجرية في صحبة أبي الفتح ذي الكفایتين الذي تولى الوزارة بعد وفاة والده ابن العميد سنة ٢٦٠ هجرية : «فلقي من أصحابنا البغداديين عتاً شديداً» مناكدة؛ وذلك لأن طباع أصحابنا معروفة بالحدة والتوقد على فاضل يرى من غير بلدهم، وذلك كله جالب للتافس ، مانع من التناصف ، وهو خلق تابع لهوهم ، وتراهم قد احتاجوا من أجل ذلك إلى علاج شديد، ومقاومة طويلة ، وقل من يتخلص إلى غاية هذا الباب لفلبة الطباع ، وسوء العادة ، وشرارة النفس» ، المقابسات ص ٢٠٧ بتحقيق السندوبى . ويشكك روزنتال - كما رأينا - فيما أثبتته هذه الرواية من تاريخ للزيارة التي حملت بعض الباحثين على الظن بأنهما زيارتان ، ولكن باحثين آخرين يأخذون بظاهر النصوص لإثبات الزيارتين كما فعل غراب وروسن .

(١) هذه ترجمة لمبارة المؤلف ، وهي تحتاج إلى إيضاح لما توهم من لبس اشتغال الصوفية بأمور السياسة في ذلك الوقت . والأرجح أنه يعتمد على نص ورد في كتاب «الإمتاع والمؤانسة»: لأبي حيان التوحيدي ، وفيه يروى قصة جماعة من المتصوفة في عصره ، وجدوا أنفسهم فجأة بخوضون في أمور السياسة ، بعد أن اشتغلت خراسان بالفتنة : «وغلا السمر ، وأخيفت السبل، وكثر الإرجاف ، وساءت الظنون ، وضجت العامة ، والتبس الرأي ، وانقطع الأمل وكان البلد يتقد ناراً بالسؤال والتعرف، والإرجاف بالصدق والكذب ، وما يقال بالهوى والمصيبة». غير أن هؤلاء المتصوفة ما لبثوا أن لاموا أنفسهم على ما كان من انشغالهم بأمور السياسة ، فلما قصدوا أصحاباً لهم من الزهاد والمتصوفة واحداً بعد واحد ، وجدوهم جميعاً يتساءلون - كما كانوا يتساءلون - عن شئون السياسة ، فمجبوا لأمرهم ، حتى إذا صادفوا في طريقهم أبا الحسن العامري برر لهم انشغالهم بما يبدو لهم أنه من أمور الدنيا ، مع أنهم من المتصوفة الزاهدين فيها ، قائلاً : «في طي هذه الحال الطارئة غيب لا تغفون عليه ، وسر لا تهتدون إليه . وإنما غركم ظنكم بالزهاد . وقلتم لا ينبغي أن يكون الخبر عنهم كالخبر عن العامة ، لأنهم الخاصة، ومن الخاصة خاصة الخاصة ... أما العامة فإنها تلج بحديث كبرائها وساستها ، لما ترجو من رخاء العيش ، وطيب الحياة ، وسعة المال ، ودرور المنافع ، واتصال الجلب ، ونفاق السوق ، وتضاعف الريح ، فأما هذه الطائفة العارفة بالله ، العاملة لله ، فإنها مولعة أيضاً بحديث الأمراء ، والجبايرة العظماء ، لتقف على قدرة الله فيهم ، وجريان أحكامه عليهم ، ونفوذ مشيئته في محابهم ومكارهم في حالي النعمة عليهم، والانتقام منهم وبين الخاصة والعامة في هذه الحال وفي غيرها فرق يتضح لمن رفع الله طرفه إليه وفتح باب السر فيه عليه» . الإمتاع والمؤانسة ، ج ٣ ، ص ٩٢ - ٩٦. وهذا النص يؤكد أن اهتمام متصوفة العصر بأحداث السياسة ، على لسان العامري، لم يكن اهتماماً سياسياً أو تاريخياً ، كما توهم عبارة روزنتال ، وإنما كان اهتماماً صوفياً في جوهره ينبع من مقام التقوى ويدور حول معاني العظة والاعتبار بالمعنى الصوفي المحض (المترجم).

(٢) ومع ذلك فقد عاب أبو حيان التوحيدي- على ابن مسكويه أنه لم يفتهم الفرصة فيفيد من اتصاله بالعامري كما ينبغي، وفي ذلك يقول: «ولقد قطن العامري الري خمس سنين جمعة (مجموعة) ، ودرس وأملى ، وصنف وروى، فما أخذ عنه ابن مسكويه كلمة واحدة، ولا وعى مسألة ، حتى كأنه بينه وبينه سد. ولقد تجرع على هذا التواني الصواب والمقّم، ومضغ بنفسه حنظل الندامة في نفسه، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه، حين لم ينفع ذلك كله» الإمتاع والمؤانسة . ج ١ ، ص ٢٦. (المترجم).

تلامذته على ما يبدو^(١). كذلك يقال إنه كان على اتصال علمي بابن سينا، وهو أمر بعيد الاحتمال^(٢)، فقد كان عمر ابن سينا أحد عشر عاماً فحسب وقت وفاة العامري. ويشيد العلماء الذين عرفوه بمواهبه العقلية - وإن كانوا أقل إعجاباً بصفاته الشخصية - كما يكثرون من الاستشهاد بنصوص من مؤلفاته وملاحظاته العلمية. وقد ألف العامري كثيراً من الكتب، وهو يذكر منها ما لا يقل عن تسعة عشر مؤلفاً في كتابه: «الأمد على الأبد»^(٣).

غير أن ذوي النزعة المحافظة من علماء أهل السنة لم يرتضوا منهج العامري في البحث. وقد ردوا في ابتهاج صريح - بمناسبة وفاته - قصة عالم من العلماء مات في نفس اليوم الذي مات فيه العامري، فرآه أحدهم فيما يرى النائم، وهو يؤكد له أنه قد فاز بدخول الجنة، بعد أن سيق العامري إلى النار. كذلك اتهمه التوحيدي في لحظة من لحظات إنابته بأنه صنف كتباً في الدفاع عن الإسلام، ليكتسب بذلك رضا العامة^(٤).

(١) هو أبو الفرج علي بن الحسين الكاتب، وكان أديباً شاعراً وطبيباً، ولد في الري، وتلقى ثقافته في الفلسفة اليونانية في نيسابور، له عدد من الكتب طبع منها: «الكلم الروحانية من الحكم اليونانية»، وقد طبع في دمشق سنة ١٩٠٠. وقد عمل ابن هندو في بلاط البويهيين حتى وفاته سنة ٤٢٠هـ.

(٢) ولد ابن سينا عام ٣٧١ هـ أو عام ٣٧٤ هـ في رواية أخرى. وقد مات العامري سنة ٢٨١ هـ، ولذلك يصح لروزنتال أن يستبعد ما تردد على السنة كثير من الباحثين من الاتصال العلمي بينهما. وقد يكون السبب في ذلك أن ابن سينا عني بالإجابة عن مسائل معينة كان قد أثارها العامري من قبل. ولا يعني ذلك في تاريخ العلوم اتصالاً علمياً مباشراً بين الرجلين، كما فهم الأستاذان أحمد أمين وأحمد الزين في تحقيقهما لكتاب «الإمتاع والمؤانسة»، هامش ج ١ ص ٣٦، وكما فهم من بعدهما إبراهيم الكيلاني في تحقيقه لكتاب: «البصائر والذخائر»، ج ١، ص ٥١٥، الهامش، بناء على أن من جملة كتب ابن سينا كتاباً عن الأجوبة لسؤالات العامري (المترجم).

(٣) وهذه الكتب كما جاءت في ذلك الكتاب هي: «الإبانة عن علل الديانة»، «الإعلام بمناقب الإسلام»، «الإرشاد لتصحيح الاعتقاد»، «النسك العقلي والتصوف الملي»، «الإتمام لفضائل الأنام»، «التقرير لأوجه التقدير»، «إنقاذ البشر من الجبر والقدر»، «الفصول البرهانية للمباحث النفسانية»، «فضول التأديب وأصول التحبيب»، «الإبشار والإشجار»، «الإفصاح والإيضاح»، «العناية والدراية»، «الأبحاث عن الأحداث»، «استفتاح النظر»، «الإبصار والمبصر»، «تحصيل السلامة عن الحصر»، «الأسر»، «التبصير لأوجه التعبير»، انظر كتاب «الأمد على الأبد»، ص ٥٦. (المترجم).

(٤) لا يعني ذلك ضرورة شيئاً يثير الشك في عقيدة العامري من جهة التوحيدي، وإنما كان ذلك أثراً من آثار الصراع الفكري بين علماء السنة وفلاسفة الإسلام، ابتداء من الكندي حتى ابن سينا وابن رشد فيما بعد، فقد اتهم كثيرون ممن حاولوا التوفيق بين الدين والفلسفة والتقريب بينهما بصورة ما، باتخاذ هذه الدعوة ستاراً للكيد للإسلام كما روى التوحيدي عن بعض خصوم الفلاسفة في هذا المقام. كذلك رمى الغزالي بعد ذلك ابن سينا وغيره من الفلاسفة بالكفر في عدد من المسائل، كما نرى في كتابه: «تهافت الفلاسفة». ويبدو أن العامري قد عانى ما عاناه غيره من الفلاسفة من قبل ومن بعد: «فما زال مطروداً من صقع إلى صقع، ينذر دمه، ويرتصد قتله، فمرة يتحصن بفناء ابن العميد، ومرة يلجأ إلى صاحب الجيش بنيسابور، ومرة يتقرب إلى العامة بكتب يصنفها في نصرة الإسلام، وهو على ذلك يتهم ويقذف بالإلحاد، ويقدم العالم، والكلام في الهيولى والصورة، والزمان والمكان، وما أشبه ذلك من ضروب الهذيان التي ما أنزل الله بها كتابه، ولا دعا إليها رسوله، ولا أفاضت فيها أمته. ومع ذلك يناغي صاحب كل ذي بدعة، ويجلس إليه كل منهم، ويلقي كلامه إلى كل من ادعى باطلاً للظاهر وظاهراً للباطن. وما عندي أن الأئمة الذين يأخذ عنهم ويقتبس منهم كأرسطو طاليس وسقراط، وأفلاطون - رهط الكفر - ذكروا في كتبهم حديث الظاهر والباطن، وإنما هذا من نسج القداحين في الإسلام، المساترين على أنفسهم ما هم فيه من التهم». «الإمتاع والمؤانسة»، ج ٢، ص ١٦. (المترجم)

بينما كان يضمّر في حقيقة الأمر أفكارا فلسفية إحادية^(١).

من أجل ذلك سرعان ما غطى النسيان على شهرة العامري بعد وفاته، فلا نكاد نجد من آثاره إلا إشارات عابرة لدى علماء العصور المتأخرة. فأما في الدراسات الحديثة فإن العامري لا يظفر بنصيب أفضل من اهتمام الدارسين، فحيث تسوق المناسبة ذكر اسمه، لا يكاد يحقق الباحثون - عادة - فكرة واضحة عن صاحبه، وفي ملحق كتاب «تاريخ الأدب العربي» الذي وضعه كارل بروكلمان يرد ذكر العامري في ثلاثة مواضع^(٢). ولقد كان بول كراوس أول من التفت إلى مكانة العامري، كما كان أول باحث يهتم بأحد أعماله اهتماما خاصا^(٣). وعندما كتبت إلى كراوس أسأله أن يمدني مما يعلم بتفصيل أوسع عن هذا العمل، كتب إلى من سوريا بتاريخ ٢٩ يوليو (تموز) سنة ١٩٣٩ ما نصه - مترجما عن الألمانية: «في نيتي أن أتمكن من دراسة كتاب «الإبصار» للعامري، وعدد من كتبه الأخرى في وقت ما في المستقبل». وكتاب «الإبصار» دراسة هامة في نقض علم الكلام، تتعرض في الوقت نفسه لمشكلات الإبصار من وجهة النظر الفلسفية^(٤).

ومن حسن الحظ أن الزمان قد حفظ لنا قدرا كبيرا من آثار العامري العلمية، فلدينا كثير من أقواله وتعليقاته الفلسفية، إذ أن جانباً من النصوص المقتبسة من كتبه يستطيع القارئ أن يلتبسها في كتاب: «صوان الحكمة»^(٥) لأبي سليمان السجستاني^(٦)،

(١) لم أجد في نصوص التوحيدى ما يؤيد ما ذكره المؤلف من اتهام التوحيدى للعامري بإضمار الأفكار الفلسفية ذات الطابع الإلحادى مع التظاهر بالتأليف في الدفاع عن الإسلام اكتساباً لرضا العامة. وربما كان روزنتال يعتمد فيما ذهب إليه على النص الذي أشرنا إليه في الحاشية السابقة. غير أن هذا النص يأتي في الحقيقة على لسان الحريري في مناظرة الليلة السابعة عشرة من ليالي «الامتاع والمؤانسة» ج ٢، ص ١٥، وهو لا يبرر بالضرورة عن رأى أبي حيان الذي يقول في وصف كتاب العامري: «إنقاذ البشر من الجبر والقدر»: «وهو كتاب نفيس، وطريقة الرجل قوية» نفسه ج ١ ص ٢٢٢، ويقول عنه في موضع آخر: «كان الرجل لكزازته، وغلظ طباعه، وجفاء خلقه، ينفر من نفسه، ويفرى الناس بعرضه، فإذا طلب منه الفن الذى قد خص به، وطولب بتحقيقه وجد على غاية الفضل» ج ٢، ص ٨٤. (المترجم).

(٢) الجزء الأول ص ٧٤٤، ص ٩٥٨، وص ٩٦١، قارن ذلك أيضاً بما ورد في الطبعة الثانية لكتاب «تاريخ الأدب العربي»، الجزء الأول ص ٢٣٦.

(٣) انظر عرض كراوس لكتاب «تاريخ الأدب العربي» في مجلة «أورينتاليا» Orientalia، السلسلة الجديدة (سنة ١٩٣٧ ص ٢٨٨).

(٤) اسم الكتاب كاملاً هو «الإبصار والمبصر». والإبصار مسألة كلامية أيضاً من حيث تعلقه بما أثير حول رؤية الله يوم القيامة، فقد قال بها بعض أهل السنة، ونفاها المعتزلة لما يقتضيه ذلك من التحيز والمكانية، وغير ذلك من أعراض الممكنات مما يستحيل على الواجب المنزه عن الأعراض. (المترجم)

(٥) حققه مع ثلاث رسائل من تأليف أبي سليمان السجستاني الدكتور عبد الرحمن بدوى، طهران، ١٩٧٤. (المترجم)

(٦) بالإضافة إلى الفصل الخاص بالعامري في هذا الكتاب انظر أيضاً تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى لكتاب «مسكويه جاويدان خرد»، ص ٢٤٧ فما يلي طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢. ويشير صوان الحكمة إلى العامري في مواضع أخرى غير الفصل السابق، وانظر أيضاً ما كتبه «ر. والزر» R. Walzer في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية في مقاله عن أفلاطون.

كما يجدها في كتابي أبي حيان التوحيدى : «الإمتاع والمؤانسة»، و «المقابسات». ولدينا بالإضافة إلى ذلك دراسات أربع من تأليف العامري ، أولها تلك المخطوطة التي عثر عليها كراوس في دار الكتب المصرية، ومخطوطتان أخريان في مكتبة جامعة برنستون تحملان رقم ٢١٦٣ (٣٩٣ ب)^(١) وأخيراً كتاب : «الإعلام بمناقب الإسلام» الذي توجد منه نسخة خطية ضمن مخطوطة إستانبول المعروفة بمكتبة راغب رقم ١٤٦٣ في الورقات ، ١ - ١٢٨. على أن هذا الكتاب لم يجد من يهتم بتحقيقه والتعريف به تعريفاً علمياً موثقاً^(٢)، وأغلب ظني أن بول كراوس كان على علم بوجود هذا الكتاب فقد رجع إلى أجزاء أخرى من نفس المخطوطة عند تحقيقه لبعض أعمال الرازي الفلسفية^(٣).

ولقد تسنى لي دراسة كتاب «الإعلام بمناقب الإسلام» على عجل أثناء إقامتي بإستانبول سنة ١٩٥٢ ميلادية ، ثم تفضل المسؤولون في تلك المكتبة التركية - بما عهد فيهم من استعداد ورغبة صادقة في العون - بتصوير هذا الكتاب بالإضافة إلى بقية أجزاء المخطوطة (راغب ١٤٦٣) .

ويقدم كتاب «الإعلام» - كما يدل على ذلك عنوانه نفسه - دفاعاً عن الإسلام ضد الفلاسفة وفرق الباطنية. وفي هذه الدراسة يبدو موقف المؤلف من تعاليم الإسلام السنية موقف التأييد التام ، ذلك أن غايته التي يطمح إلى بيانها في هذه الدراسة هي أن يقيم البرهان على أن الإسلام يفوق جميع الأديان الأخرى في موقفه من المشكلات الجوهرية التي تواجه البشرية ، وذلك مثل مشكلة التنظيم السياسي ، ومسألة التفرقة العنصرية ، وقضايا العلم والمعرفة . ولعل من الجوانب التي تستحق التقدير بصفة خاصة ما يتصل بآراء العامري في السياسة ، كما تبدو واضحة في هذا الكتاب؛ ولذلك كان اختيارنا لترجمتها في هذا المقال.

يبدأ الفصل الخاص بفضل الإسلام فيما يتصل بسلطة المُلْك - شأنه في ذلك شأن بقية فصول الكتاب - باقتباس عدد من الأقوال المنشورة التي لا تربط بينها رابطة واضحة في ظاهر الأمر ، ولكنها تتضمن في الحقيقة خلاصة ما يدور في عقل المؤلف حول الموضوع الذي يعرض له في هذا الفصل . ووفقاً لهذه النصوص فإن سلطة المُلْك

(١) يشير إليهما بروكلمان في كتابه «تاريخ الأدب العربي» على أنهما عمل واحد.

(٢) كان ذلك صحيحاً حين كتب روزنتال هذا المقال، ولكن باحثاً مصرياً حديثاً هو الدكتور أحمد عبد الحميد غراب قد قام بعد ذلك بنشر هذا الكتاب نشرًا علمياً محققاً ، كما قام بالتقديم له، والتعريف بمؤلفه تعريفاً كافياً ، والكتاب من منشورات دار الكاتب العربي سنة ١٢٨٧ هـ / ١٩٦٧ ، كما سبقت الإشارة . (المترجم)

(٣) مثل: «رسائل فلسفية» لمحمد بن زكريا الرازي (ج ١ ، ١٩٢٩) منشورات الجامعة المصرية - كلية الآداب ، انظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين ص ٢٢٧ ، بيروت، دار العلم للملايين. (المترجم)

- التي يمكن أن نستخدم هنا مصطلحاً حديثاً للتعبير عنها هو «الدولة» - يتوقف قيامها على موقف الفرد نفسه؛ ذلك أن أخلاق الحاكم هي التي تقيم الدولة أو تهدمها، فهو باستمساكه المطلق بأسس العدل فيما يفعل ، وركونه إلى حياة حافلة بالعمل ، شأن جميع الأحرار - أى بكونه قادراً على حمل أمانة المسؤولية - يهيئ لأفراد رعيته مجال القدرة على الازدهار الفكري والخلقي ، والإفادة من ملكاتهم الكامنة .

تلك هي الفكرة الأساسية التي تتخلل سطور العامري كلها في هذا الفصل .

وأما الوسيلتان اللتان يتمكن بهما الحاكم ذو المحامد الرفيعة من التصرف في أمور الدولة فهما : المال، والإخوان؛ ذلك أن قدراً كافياً من المال ، بالإضافة إلى نفوذ الحاكم في الإخوان الذين يعتمد عليهم يمثلان الطريق إلى سلطة الدولة وقوتها .

على أن القوة في ذاتها ليست شراً خالصاً أو خيراً خالصاً ، شأنها في ذلك شأن جميع الوسائل المادية والفكرية التي تخضع لإرادة الإنسان، وإنما تتعين قيمتها الأخلاقية ، وأثرها العام بتعين الغاية التي تستخدم من أجلها . فالقوة إذا أسيء استخدامها تؤدي إلى الطغيان (أو الاستبداد ، أي الدكتاتورية بالمصطلح الحديث). وعلى عكس ذلك ، فإن القوة إذا أحسن استعمالها صارت إلى الحكومة الرشيدة التي يُسميها المؤلف الإمامة (الخلافة) . ومن سوء استخدام القوة أن يسعى إليها من يطلبها لذاتها ، ذلك أن الاستخدام الصالح للقوة في رأيه هو ذلك الاستخدام الذي يحرص على تحقيق الفضيلة وتحصيل السعادة الأبدية للحاكم من جهة ، والرعية من جهة أخرى ، على الرغم من أن نص العامري لا يشير إليها في وضوح تام .

ومثل هذه النظرية السياسية في الدولة التي تقوم على تحقق الحاكم بمكارم الأخلاق تكل إلى الدين ذلك الدور الهام فيما يحتاج إليه من الإرشاد والتوجيه الخلقي .

وقبل أن يعرض العامري لرسالة الدين الخاصة في هذا الصدد يبدأ بتقرير ثلاث حقائق يراها بديهية لا يرقى إليها الشك ، أولها : أن هذا العالم لا يستغني عن كل من قوة الدين الروحية ، وقوة الدولة السياسية ، وثانيها : أن وجود هاتين القوتين من لطف الله بالإنسان ، وأما ثالثها : فهو أن قوة الدين هي الأصل. وتتحقق رسالة الدين الخاصة التي تتصل بذلك الإرشاد الروحي اللازم خير ما تتحقق في دين واحد، هو الإسلام الذي تتفق تعاليمه تماماً مع فكرة المؤلف عن الدولة الفاضلة . فالإسلام - بخلاف كثير من الأديان الأخرى - يبيدي اهتماماً خاصاً بالقوة المادية في المجتمع الإنساني الذي لا يكف عن الحركة. وعلى نقيض ما تذهب إليه اليهودية والمسيحية (اللذان

يستشهد العامري كثيراً بنصوصهما المقدسة في الفصول التالية من كتابه) يحصر الإسلام على أن يشق طريقاً وسطاً بين كل من الفرور (المادي) والزهد (الروحي) كأساس أخلاقي لبناء الشخصية الإنسانية . وأكثر ما يعنى الإسلام بتأكيد كرامة الفرد وحاجته الدائمة إلى السعي إلى التحقق بمعاني الفضل ، وهو بهذا يتميز عن الزرادشتية تميزاً واضحاً^(١)، فالزرادشتيون (أي الفرس قبل الإسلام) ، كانوا يقيسون مكانة الفرد الاجتماعية، بحسب ما ثبتت عليه بصفة نهائية ، وفقاً لمكانة الأسرة التي ينتمي إليها. أما الإسلام فإنه يعترف بحق الفرد في التقدم والترقي بحالته الاجتماعية من مرتبة إلى مرتبة. وفي كل هذا ما يجعل الإسلام الدين الأمل للدولة الفاضلة .

وهناك بالإضافة إلى ذلك ما يقدمه الإسلام في شخصية محمد - ﷺ - من خصوصية الجمع المتفرد بين القوة الروحية والزمانية كمثل أعلى يقتدى المسلمون بسنته. وتحظى مسألة لجوء النبي إلى استخدام القوة في غزواته ، باهتمام خاص من جانب العامري الذي قد تمزى حساسيته الشديدة في هذه المسألة إلى نقد أعداء الإسلام لحياة مؤسسه الأول .

وفي هذا الصدد يتساءل العامري حول ما يبدو لنا من أعماله - ﷺ - كأنه لون من النشاط الحربي : هل وسم مثل هذا النشاط الدولة التي أقامها الرسول بصيغة الاستبداد السياسي؟ هنا يدل العامري في إسهاب مفصل على أن لجوء النبي إلى القوة

(١) يشير العامري في ص ١٨١ من النسخة المطبوعة لكتاب الإعلام إلى الأفتا والزند واليازند قائلا: «وللمجوس كتاب يعرف بأبستا ، وقد فسر بكتابين آخرين يعرفان بزند ويازند ، وهي متضمنة ذكر مصالح عيشهم ، إلا أن العادة بتفريع السائل الحادثة معدومة فيهم ، فإن أديانهم محمولة على التقليد المحض، وأبواب النظر محظورة عليهم ، وليس لهم أن يتجاوزوا المنصوص في الاستبطاء». غير أن من المحتمل أن العامري لم يتسن له اطلاع مباشر على هذه الكتب ، كما يقول روزنتال. وفي صفحة ١٨٢ يحاول العامري أن يقيم البرهان على أن الإسلام هو أكثر الأديان سماحة في تقبل الثقافات الجديدة... ثم وجدنا الألباء من أهل الإسلام قد سمعوا مع ذلك (أي بالإضافة إلى العلوم الإسلامية، مثل: التفسير، والحديث، وعلم الكلام، والفقه) بحسن توفيق الله تعالى لنقل الكتب المنسوبة إلى ذوي الشهرة من حكماء الروم ، وحكماء الفرس ، وحكماء الهند ، وحكماء يونان ، واستقصوا تأمل معانيها ، وحلوا مواقع الشبهة منها ، وتولوا شرحها وإذاعتها ، وتأدبوا في أبوابها بكمال تأديب الله تعالى جده بقوله جل اسمه: ﴿فبشر عباد ، الذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب﴾ (١٨ - الزمر) ، واستعملوا في معانيها قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - : «العلم كثير فخذوا من كل شئ أحسنه».

وفي هذا السياق يتناول العامري الإسلام كمفهوم حضاري بحيث يجوز عنده أن ينتسب إليه غير المسلمين من العلماء : «وليس لقائل أن يقول : إن الأكثرين من المترجمين كانوا يتدينون بالنصرانية وبالصبأوة- فإنهم ما فعلوا ذلك إلا لما شاهدوا من قوة الإسلام وشرقه، وما كان قصدهم إلا التقرب إلى الخلفاء الضابطيين لمرى الإسلام وقواعده، «الإعلام» ص ١٨٢ ، وبهذه الصفة فإن أعمال هؤلاء العلماء عندنا تنتسب إلى الإسلام والثقافة الإسلامية باعتبار حق المواطنة في الدولة الإسلامية (المترجم).

لم يكن في الحقيقة إلا لخير هؤلاء الذين أخذوا بها ، ومن ثم كان ذلك صوابا من وجهة النظر الأخلاقية ، بل هو في حقيقة الأمر يستوجب التقدير والثناء.

ومناك بعد ذلك قضية يطرحها العامري ، على غير توقع في هذه المناسبة، تتمثل في الفكرة الشائعة التي تقول بأن الانتماء إلى العنصر العربي دليل الفضل الديني. وتحشد ملاحظات العامري في هذا الصدد تفاصيل دقيقة ليس لها مكان على الحقيقة في مثل هذا العرض العام الذي يقرر الأصول الأولية للموضوع. وفي هذه الملاحظات لا يبدو العامري مؤيدا لدعوى العلويين في إمامة المسلمين ، وإنما يهدف إلى إعلاء شأن العرب على حساب غيرهم . ولا يجد الباحث حتى الآن ما يمكن أن يوضح المغزى الحقيقي لاهتمام العامري في هذا المقام ببيان فضل العرب على غيرهم ، وهذا نفسه ما ينطبق على ملاحظاته الختامية في نهاية الفصل الذي نقدم له هنا حيث يلمح العامري إلى قو يظنون أنفسهم - لاختلافات مذهبية - ذوي مكانة تفوق مكانة قوم آخرين من أصل عربي. ومثل هذه الفكرة تبدو خارجة على سياق الكلام في الفصل كله ، وخصوصا إذا تذكرنا أنها ترد على لسان رجل فارسي المولد^(١) على الرغم من أنه قد يكون من أصل عربي^(٢).

هذه الملاحظات العامة ليست إلا محاولة لتتبع سطور العامري وأفكاره القيمة حول موضوع الدين والدولة. ويبدو أثر الفلسفة اليونانية ونظرياتها الخاصة واضحا فيما كتبه العامري^(٣). بذلك توحى مناقشته للموضوع إحياء خفيا باهتمامه بعلم

(١) في عبارة روزنتال ما يوحى بتعجبه لتحيز العامري للعرب على الرغم من أصله الفارسي. والحق أن الإسلام يسوي بين المسلمين ، ويفض مجالا للقوميات على اختلافها للتعايش والتعاون كي يفيد بعضها من بعض. ولا يستطيع منصف أن يفض من شأن روح المساواة والإخاء التي شاعت بين المسلمين على اختلاف ألوانهم وألسنتهم خلال عصور التاريخ الإسلامي. غير أن نزعة الشموعية التي جرى على التمسك بها بعض الفرس لأسباب سياسية ، اقتضت أن يبرر عليها بعض العرب دفاعا عن مكانتهم في الإسلام، ويمكن أن نفهم عبارة العامري على ضوء هذا السياق الدفني على الرغم من فارسيته. (المترجم) .

(٢) تتسبب بعض العبارات التي تشيد بفضل العرب إلى بعض المشهورين من أنصار الفرس أحيانا، ولكن الحال هنا يختلف عن ذلك.

(٣) فيما يتفق بالفكر السياسي اليوناني في الثقافة الإسلامية انظر بصفة خاصة ما كتبه روزنتال وأشار إليه في مقاله : «مكانة السياسة في فلسفة ابن رشد» في مجلة : «معهد الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن» ، ج ١٥ ، ١٩٥٣ م ، ص ٢٢٧ ، وما يليها، وانظر أيضا مجموعة النصوص التي نشرها الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه: «الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الإسلام - القاهرة - ١٩٥٤». وكثيرا ما يتحدث الباحثون عن إسهام الفرس في علوم السياسة عند المسلمين، ولكن هذا الموضوع يحتاج إلى بحث واسع وجهود دراسية عميقة ، حتى يتسنى لنا فهم هذا الإسهام الفارسي وتقدير مدهاء. وفيما يتصل بالعامري فإن هناك دراسة في علوم السياسة من القرن العاشر قد تكشف إلى حد كبير عن جوانب جديدة في الموضوع ، وقد تناول أ.ج. أربري هذه الدراسة بالعرض وكشف عن مغزاها الحقيقي في براءة تامة في مقاله المنشور بالمجلة الفصلية : (Islamic Quarter-ly)، الجزء الثاني سنة ١٩٥٥ ، في الصفحات ٩ - ٢٢.

السياسة الفارسي (الذي قد لا يكون على كل حال سوى معبر لنقل النظرية السياسية اليونانية للمسلمين من حيث جانبها النظري الخالص على أقل تقدير). ودولة العامري التي تقوم على هذا الأساس العلماني تؤيدها تعاليم الإسلام - كما يفهمها هو نفسه - خير تأييد ، وهي التعاليم التي تعلي من شأن الفرد ، وتكشف عن فهم أكثر عمقاً لواقع الحياة السياسية من تعاليم أي دين آخر .

ويبدو أن ذلك المركب الثقافي الذكي للأفكار السياسية المختلفة الذي نجده في كتاب «الإعلام» هو من إضافة العامري الشخصية في الموضوع. وإذا تيسر لنا أن نتبع كثيراً مما يقوله العامري هنا وهناك في بعض المصادر الأخرى فإننا لا نستطيع في بعض الأحيان أن نعثر فيها على نظير لبعض ما يردده في كتابه. على أن إماماً أوسع بتفكير معاصريه سوف يكشف عن موافقة كثير منهم له في موقفه من قضية العلاقة بين السلطة الروحية وسلطة الدولة في الإسلام. ومهما يكن من أمر فإننا لا نملك - في حدود ما وصلت إليه معرفتنا بالعصر - إلا أن نعد بحث العامري في الموضوع عميقاً وأصيلاً ، فهو - على الرغم مما قد يبدو فيه من بعض الثغرات أحياناً - بحث على قدر كبير من الجودة . ومع ذلك فهو يمثل إحدى الحالات النادرة التي يبدو فيها الإيجاز الشديد في العرض، كأنه العيب الوحيد في الموضوع ، بل إن هذا المفكر الذي عاش في القرن العاشر قد يجد قبولا لدى المهتمين بالعلوم السياسية في العصر الحديث، بتأكيد على تداخل العلاقة بين الدين والدولة وتخراجها في الوقت نفسه ، وبوقوفه ثابتاً على أرض الواقع من غير تضحية بما يليق بكل تأمل فلسفي من سمو ورفعة .

النص^(١)

«القول في فضيلة الإسلام بحسب الإضافة إلى الملك»

من رضي لنفسه أن يكون في بعض شيمه حراً ، وفي بعضها عبداً فليس هو بذى نفس أبيه.

ومن حاد عن الأفعال الجيدة لفرط الشغل تعجلاً إلى الراحة ، فليس هو بذى همة عليّة.

ورغبة الملوك في الأدب تحيي الأدب ، وعند استقامة طرائقهم يقوي الذّب، وعند اجتباؤهم أهل الفضل تظهر الفضيلة. ولن يفرح العاقل بالنعمة التي لا يستحقها ، والمنزلة التي ينالها باسم غيره، والفالج (النصر والغلبة) الذي يكون من جور الحكم ، والظفر الذي يتفق مع ارتكاب الخطار .

ولن يبلغ ألف رجل من إصلاح رجل واحد بحسن القول دون حسن العمل ما يبلغ رجل واحد في إصلاح ألف رجل في تصديق القول بالفعل .

وكما أن الأعمى لا يمكنه أن يهدي ، والفقير لا يمكنه أن يغني^(٢) كذلك أيضاً لا يستصلح أحد غيره إلا بعد إصلاح منه نفسه .

وإذ تقرر هذا فمن الواجب أن نصرف السمع إلى ما هو غرضنا من القول ، فنقول: إن أعم المعاني الضرورية التي (تتم بها الرياسة) شيئان :

أحدهما : النبوة الصادقة .

والآخر : الملك الحقيقي.

(١) أورد المؤلف هنا ترجمة للنص نقلاً عن المخطوطة التي أشار إليها (راغب ١٤٦٢) ، وقد رجعت هنا إلى الأصل نقلاً عن الكتاب الذي حققه الدكتور أحمد عبد الحميد غراب، الفصل السابع من الكتاب ، ص ١٥١ ، مع إثبات تعليقات المؤلف.

(٢) قارن هذا بما ينسب إلى أرسطو في كتاب : «مختار الحكم» للمبشر من أنه قال : «اعلم أنك غير مستصلح رعيّتك وأنت فاسد ، ولا مرشدهم وأنت غاو ، ولا هاديتهم وأنت ضال ، فكيف يقدر الأعمى أن يهدي، والفقير أن يغني ، والدليل أن يميز، والضعيف أن يقوي؟ واعلم أنه ما استصلح المستصلح غيره إلا بصلاح نفسه ، ولا أفسد المفسد سواه إلا بفساد نفسه ، فإن رغبت في صلاح من وليت أمره ، فابدأ بصلاح نفسك، وإن أردت دفع العيوب من غيرك ، فطهر منها قلبك ، فإنك لا تقدر على تطهير غيرك وقد دنست نفسك ، كيمد المتطبيب من إبراء غيره من داء به مثله، إلخ.

ولا رياسة في العلم والحكمة فوق رياسة النبوة ، ولا رياسة في الاقتدار والهيبة فوق رياسة الملك. ولن يتفق للإنسان ، ولا واحد منهما إلا بموهبة سماوية. وقد قال الله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (٥٤ - النساء) وحكى عن موسى في مخاطبته قومه : ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾. (٢٠ - المائدة).

فإذ كان هذا غير مشكوك فيه ، فمن الواجب أن نعلم يقيناً أنه ليس أحد أحوج إلى تشريف جوهر مكارم الأخلاق من طبقات الملوك ، فإنهم على الحقيقة أسوة لمن دونهم، وكالمرأة لغيرهم . ومتى لم تكن المرأة أصفى من وجه الناظر إليها لم ترد شارته على التمام. وأيما ملك لم يبالغ في قهر الدني من أخلاقه لم يستمتع بحسن الثناء عليه، ولم يمكنه دفع العيوب عن رعيته.

وإذ عرف هذا ثم تحققنا أيضاً أن محل الدين من الملك محل الأس من البنيان ، ومحل الملك من الدين محل المتعهد للأركان^(١) - فمن الواجب أن نعلم أنه لن يحكم لدين من الأديان بتحصيل الكمال إلا إذا وجد ضامناً في نفسه مكارم الأخلاق ، ليتصرف به المتدين بين عائدتي الحمد والأجر .

ولن يشك أن حيازة المحامد الرفيعة لن تتأتى للإنسان إلا بالمعاون الخارجية : أعني المال والإخوان . أما المال فلما تعلق به من إظهار الجراءة ومواساة الأقارب ، والأفضال على الأصحاب ، والتفقد للجيران . وأما الإخوان فلما تعلق بهم من الاقتدار على الأعداء ، والدفع عن الحريم ، والأنفة عن الذلة^(٢) والمعاونة بالجاء.

ومعلوم أن الديانات المحرمة على أهلها اقتناء المال ، والباعثة على اعتزال الناس معدمة لأهلها هذا الصنف من المحامد. ثم لا يشك أيضاً أن السياسة في نفسها مفتة إلى صنفين ، وأغراضها متنوعة إلى نوعين ، ولوازمها منقسمة قسمين : أما أحد

(١) قارن هذا بالملاحظة التي يكثر المؤلفون المسلمون من اقتباسها والتي يظن أنها من أصل ساساني وهي : «أن الدين والملك أخوان توأمان ، فالدين أس والملك حارس» . وهذه العبارة نفسها يقتبسها ابن مسكويه الذي عاصر العامري في كتابه : «تهذيب الأخلاق» ، ص ٤٦ ، (طبعة القاهرة - ١٣٢٢) . وانظر أيضاً أسامة بن منقذ في كتابه : «لباب الآداب» ، ص ١٨ (طبعة القاهرة ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م) راجع أيضاً ج.أ. فون جرونباوم في بحثه :

Isalm, Essays in the Nature and Growth of a Cultural Tradition P. 174 (الإسلام : دراسات في

خصائص تراث حضارى وتطور ، ص ١٧٤) وذلك بمجلة : The American Anthropologist, Vol (vii, no. 2, :

-part 2, Memoir no. 81, 1955).

(٢) في أصل النص : «الزلة»، وهو تصحيف. (المترجم)

صنفي السياسة فالإمامة ، وغرضها تحصيل الفضيلة ، ولازمها نيل السعادة الأبدية .
والصنف الآخر من السياسة التقب^(١) ، وغرضها استعباد الخليفة ، ولازمها الشقاء
والخدمة .

وقد علمنا أن كل قنية أمكن أن يستعملها الإنسان^(٢) استعمالاً حسناً ، وأن يستعملها
استعمالاً رديئاً - فإنها لا محالة تصلح بصلاح الغرض ، وتفسد بفساده . ومثاله : أن
الفقهاء لما جعلوا غرضهم من صناعتهم الشريفة العائدة بمصالح الدارين التروؤس على
العامة ، والحظوة عند السلاطنة ، والتسلط على أملاك الضعفاء ، واستعمال الرخص
في إبطال الحقوق - انقلبت الصناعة عن استحقاق الحمد إلى استجلاب المذمة ، وقد
قال الله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ
* وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ (سورة الماعون ٤-٧) .

فمن الواجب إذاً أن نعلم يقيناً أن صناعة الملك والسياسة مهما استعملت استعمالاً
حسناً ، فإن المعتقد لها ، والمستقل بأعبائها يصير لا محالة مجتلباً لشرف الإمامة ،
ويصير خليفة اله - تعالى جده - في استصلاح الخليفة . ومهما استعملت استعمالاً
رديئاً فإن صاحبها والمفتخر بحيازتها يبتلى من الضرورة بصفة المتغلبين ، ويعد بقاؤه
فضيحة لزمانه . وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : «الأعمال بالنيات ، ولكل
امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله وإلى رسوله فهجرته إلى الله وإلى رسوله ،
ومن كانت هجرته إلى مال يصيبه أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» . (متفق
عليه) .

وإذ تقرر هذا فمن الواجب علينا أن نجيل الفكرة فيما خص الله تعالى به محمداً -
عليه الصلاة والسلام - من سعة الذكر بما جمع له من النبوة والملك وصيرهما من
كمال القوة بحيث طبقاً واسطة العالم ، واستخلصا لباب العمران ، وحازا أسرة
الممالك ، فاجتمع لملوك دعوته محاسن الرسوم الشريفة المأخوذة من أحكام الدين
الحق ومحاسن المثل السلطانية المأخوذة من أشوس ملوك الأرض : أهو بالإمامة أشبه
أم بالتغلب؟ وخصوصاً إذا وجدناه مستعملاً للسيف في موضعه ، كاستعماله الإرشاد في
وقته ، فنقول : لسنا نشك أن الوقائع الحربية بين أصناف الخليفة لن تقع إلا على

(١) يترجم روزنتال هذه الكلمة : tyranny ، ويعلق على ذلك بقوله إن الترجمات العربية عن اليونانية كانت تعبر عن
الكلمة اليونانية : Tyrannos بكلمة «غلب» (المترجم)

(٢) في ترجمة العبارة ما يوحى بأن روزنتال قد فهم أن جملة : أمكن أن يستعملها الإنسان «تقع خبراً» والصحيح أنها
صفة ، والتقديران يخطئان في توجيه المعنى عند التأمل . (المترجم)

جهات ثلاثة وهي: الجهاد والفتنة والتصعلك. فأما الجهاد : فهو الذي يتولاه عمار البلاد ، وساسة العباد ، من الدفاع عن الدين ، والصيانة للمراتب . وأما الفتنة ، فهو ما يقع بين طبقات الأمم من الهيج والقتال ، لتعصب بلدي ، أو تعصب نسبي^(١). وأما التصعلك : فهو ما يقصد به انتهاب المال ، واستلاب الأملاك. فالنوع الأول نتيجة القوة التمييزية، وهو محمود عند ذوى الألباب. وأما النوعان الآخران فأحدهما نتيجة القوة الفضائية ، والآخر نتيجة القوة الشهوية ، وكلاهما مذموم عند ذوى الألباب.

ونحن متى تتبعنا حال محمد - صلى الله عليه وسلم - فى حروبه ووقائعه وجدناه جاعلاً لقصارى غرضه من الثبات القوى فى مصاف القتال كلمة يبذلها خصمه قريبة من الإقرار بوحدانية من له الخلق والأمر، والتصديق بما أرسل إليه من عنده - جل جلاله - ، حتى إذا وجدها منه أغمده عنه سيفه ، وأوجب على نفسه حمايته. ومتى ألفاه مصراً على منابذة الحق صرف ما حواه ذلك الخليع من مال الله تعالى فى أبواب البر ، ومكاسب الأجر ، ومعمونة من جرد العبودية لخالق البرية ، من غير أن يرتاح للتلذذ به أو يبتهج بالتمتع من زهراته ، فخرج من الدنيا بعد استخلاص ممالك جزيرته لأهل دعوته، على تلك السوية، والوتيرة الصادقة ، صابراً على بؤسه وضيق حاله ، صارفاً همته إلى عبادة خالقه ، لا يجنح إلى شيء من زخارف الدنيا ، ولا يفتتر بأطاييبها.

وإذ كان هذا دأبه، وعليه ديدنه فى عامة أنحائه وصنوف وقائعه لم يشك أنه - ﷺ - كان متمسكاً فى سيره بصورة عبد قد أخلص الولاية لمولاه ، وعلم أن عباده كلهم قد انتهكوا حرمة، وخلعوا طاعته، واستعانوا بأموالهم على أبواب عصيانه، فحملته سجية الوفاء لمولاه ، وخلق الحفاظ لأياديه على نهيمهم وزجرهم، فبالغ فيه القول اللطيف أزمنة طويلة، حتى إذا آيس من ارعوائهم، وأيقن أن الوعظ لا ينجع فيهم ذهب فى علاجهم مذهب الطبيب المتحدب الذي خاف إتيان الداء العضال على نفس العليل، وعلم أن السبيل إلى استبقائه غير موجود إلا بقطع عضو من أعضائه، فأوقع فى مغازيه بعدد من القتلى تدرجاً إلى استنقاذ الجمهور من الهلاك والردى، وذلك لتيقنه بأن المحمولين على شرف الدين فى مبدأ أمرهم كرهاً متى وقفوا على فضائل دعوة الحق أخيراً فإنهم - بعد الاستيضاء برونقها - سيعتدون له بجسيم المنة وجزيل النعمة، ويقبلون على خدمة مولاهم، ليتلافوا به فارطهم (مامضى منهم وقصروا فيه) فتصير أحوالهم فيه شبيهة بحال المأخوذ فى صفرة بالتأديب - وهو يفيض مؤدبه - حتى إذا عقل وانتبه أيقن موقع النعمة العظيمة ، فالتزم شكره ، واعتقد إحماده .

(١) المرادف الحديث لكلمة بلدي ونسبي هو : قومي وعنصري ، ويستخدم العامري كلمة «جيل» للدلالة على «الجنس» بصفة خاصة. (المترجم)

وإذا كانت الشريعة الإسلامية مؤسسة منه - ﷺ - على هذه السنة الحميدة، فقد علم أن من خلفه في اعتناق المهم من أمر السياسة والملك، متى حسن غرضه منه، واقتدى في جميع ما يتعاطاه بسنته، فهو لا محالة يصير إمام أهل زمانه، ومفخرًا لكل أعقاب، بل يصير رحمة للعالم، ووجه للبشر، وأسوة حسنة، وقدوة حميدة .

وإذ كان الوضع الحقيقي^(١) للملك الإسلامي بهذا المحل والجلالة - فمن الواجب أن نعلم أن الآفة متى لحقته في زمن من الأزمنة فإن الملة الحقيقية لن تصير معيبة به، والخلفاء الراشدين لن يصيروا معيرين به، كما ليس يعير أنوشروان بسيرة يزدجرد الأثيم^(٢).

ثم من الواجب أن نعلم أيضًا أن الناس لما لم يكن لهم بد من الوزعة، وكان ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن^(٣)، فإننا متى تتبعنا أحوال ملوك الأديان الستة^(٤) حكم العقل الصريح بأنه لا يجوز أن يوجد منها شيء بالغًا مبلغ الإسلام في وفور القسط من

(١) يعلق روزنتال هنا بقوله: «يعنى بالحقيقي ما سمي إليه الإسلام ليكون وضعًا واقعيًا، وأما نحن فنقول: بحسب النظرية الأصلية». يريد روزنتال بذلك أن ينفي عن عبارة المؤلف ما يمكن أن توحى به من دلالة واقعية على بعض فترات تاريخ سياسي بصفة عامة. على أن الفرق بين «الحقيقي» و«الواقعي» معروف، واستخدام العامري لكلمة حقيقي هنا استخدام دقيق لا يخلو من اللبس الذي شغل روزنتال حين كان يترجم النص واضطره إلى هذا التعليل. (المترجم).

(٢) في أيام العامري تمرض ببعض حكام المسلمين بعد عصر الخلفاء الراشدين، ولعله يقصد تشبيه معاوية وبعض النقاء الأمويين من بعده بيزدجرد في طفيلانه وظلمه، فهو يقول عن معاوية في مكان آخر من كتابه: «لأندري أي الرجلين معاوية: أرجل زين له سوء عمله فرآه حسنًا، أم رجل أيس من الآخرة فأراد أن يتمتع بالدنيا» (الإعلام، ص ١٠٦). (المترجم).

(٣) يقرر المؤلف هنا أن هذه العبارة تنسب إلى عثمان - رضي الله عنه - في مؤلف من مؤلفات القرن التاسع الهجري هو: «كتاب الكتاب» لمحمد الله البغدادي الذي حققه سوردل في مجلة الدراسات الشرقية العدد ١٤، ص ١٤٢ (دمشق ١٩٢٤). وهو يذكر أن النص قد عرف في بعض المصادر التاريخية بعد ذلك كحديث يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم، ويشير إلى لسان العرب، مادة وزع: «من يزع السلطان أكثر ممن يزع القرآن».

(٤) يشير روزنتال هنا إلى أنه لم يفهم تمامًا المقصود بالأديان الستة التي تحدث عنها العامري في هذا الموضوع وفي مناسبات أخرى من كتابه، وخصوصًا فيما يتعلق بالدين السادس، بعد كل من: الإسلام واليهودية، والنصرانية، والزرادشتية، والشرك. وفي ظنه أن الدين السادس قد يكون المانوية أو الهندوكية. وقد فات روزنتال أن العامري قد عين هذه الأديان الستة تمييزًا واضحًا حين قال في صفحة ١٢٢ من كتاب «الإعلام»: «وقد كان سبق القول منا بأن مدار الدارين يكون متعلقًا بالاعتقادات والعبادات والمعاملات والمزاج، فغير بعيد أن يعلم العاقل بأدنى الروية أنه ليس ولا واحد من الأديان الستة التي لها خطط وممالك، وهي المذكورة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا، وَالصَّابِئِينَ، وَالنَّصَارَى، وَالْمَجُوسَ، وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا، إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (١٧ - الحج) إلا وله اعتقاد بشئ يجري سعيه إليه ومنهج في العبودية يتحرى بالتزامه إقامة الطاعة، وتحديد عدد الأديان بستة يشير في ذهن روزنتال ما سبق أن أشار إليه «أوجرابر» O.Grabar عند حديثه عن نقش فني يمثل حكام العالم الستة عشر عليه بين نقوش قصير عمره، انظر مجلة: Ars Orientalis، الجزء الأول، ١٩٥٤، ص ١٨٥ - ١٨٧. وقصير عمره هو القصر الذي شيده الوليد بن عبد الملك بين عامي ٧٠٥ و ٧١٥ ميلادية بالقرب من عمان. وهو يشتمل على عدة غرف، وقد زينت جدرانه وسقفه بالصور الأدمية والحيوانية والزخارف والرموز المختلفة بأيدي فنانين أغلبهم من السوريين.

شروط الإيالة^(١) وجزالة الحظ منها :

فإن دين اليهود مؤسس على الانتصار (المادى) المحض، ودين النصارى مؤسس على التذلل (الروحي) المحض. وفضائل الناس لن تتم إلا بامتزاج أحوال الدين والدنيا، واشتباك أسباب الآخرة بالأولى. ودين الإسلام هو المنتظم لها كلها، والوافي بعامة أبوابها. وذلك ظاهر لمن تأمل مواقعها من كتاب الله، فإنه ما من مكرمة إلا وقد جرد ذكرها، وتحرز فى غير موضع من الآيات. ولعمري إن للمجوس كتاباً يعرف بـ «أبستا»، وهو يأمر بمكارم الأخلاق، ويوصي بها، وقد أتى بمجامعها عبد الله بن المقفع فى كتابه المعروف بالأدب الكبير، وعلي بن عبيدة فى كتابه الملقب بـ «المصون»^(٢)، إلا أنه - مع تقدمه فى ذلك - غير لائق شيء منه بالقرآن. وكيف يظن به ذلك، وقد علم أن الشرف الإنسى عند ملوك العجم كان معلقاً بالأنساب، وكانوا يحرمون على رعاياهم الترقى من مرتبة إلى مرتبة، وفى ذلك مايعوق التراكم السوية عن كثير من الشيم الرضية، ويقعد الأنفس الأبية عن حيازة الدرجات العلية^(٣). فلو أن دين المجوس كان مؤكداً للأمر باقتناء مكارم الأخلاق حسب تأكيد الإسلام، لما تجاسرت ملوكها - مع شغفهم بحمايته - على مخالفة وصيته، ولوجد الشرف الإنسى عندهم معلقاً بالنفس الناطقة، دون النسب الطبيعى .

وإذ كان هذا الدين من بركة تعميمه للأدنين والأقصين بالدرجة التي ذكرناها، ثم كانت قاعدته كرامة من الله تعالى جده لمحمد - ﷺ - فبالحرى أن نعلم أن من كانت وصلته له أكد ، وصحبته له أكثر كان قسطه من الافتخار به أوفر وأغزر. وأعنى بهذا أن لهاشم فيه ما ليس لكثانة، ولكثانة فيه ما ليس لمضر، ولمضر فيه ما ليس لريبعة، وللعرب فيه ما ليس للعجم ، على اعتبار الأقرب فالأقرب نسباً، والأوكد فالأوكد سبباً، إلا ما قطعه الدين ، فإن الذى يقطعه هو فلا واصل له^(٤) ، والذى وصله هو فلا قاطع له ، وبقوته يدخل على الأرحام المتماسمة فيقطع التوارث عنها.

وإذ قد أتينا على ما وعدنا به من القول فى فضيلة الإسلام بحسب الإضافة إلى الملك فمن الواجب أن نصرف السعى إلى تبين فضيلته بحسب الإضافة إلى طبقات الرعايا .

(١) الإيالة : السياسة ، وفى لسان العرب : آل عليهم أولاً وإيالا وإيالة : ولى وساس ، مادة أول .

(٢) هو علي بن عبيدة الريحاني ، وقد عاش فى عهد المأمون ، انظر مثلاً «الفهرست» ص ١١٩ (طبعة فلوجل) ، ص ١٧٣. (طبعة القاهرة سنة ١٣٤٨هـ) ، وانظر أيضاً الخطيب البغدادي : «تاريخ بغداد» ، ج ١٢ ص ١٨ (القاهرة ١٩٣١/١٣٤٩ ، و«إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» (معجم الأدباء) ج ٥ لياقوت ص ٢٦٨ فما يليها (طبعة مارجليوث) ج ١٤ ، ص ٥١ فما يليها ، (طبعة القاهرة ١٣٥٥ - ١٣٥٧هـ). وقد مات الريحاني سنة ٢١٩ هـ (٨٢٤م)

(٣) قارن هذا بما ينسب إلى أفلاطون فى «مختار الحكم» للمبشر : «أخرجت كثيراً من الملوك الفيرة على المراتب إلى أن حبسوا المنازل على أهلها ، ومنعوا كل إنسان من الخروج عن طبقته. وهذا خطأ منهم يعود ضرره فى ذلك الموضع من العالم بعد مدة وذلك أن القوم إذا تناسلوا فى مرتبة أو صناعة أسروا فيها إلى أن تتلاشى فضائلهم. ويشبهون بأرض ألح عليها صاحبها بزرع شيء واحد من أنواع النبات، فإنه إذا تهادى بها فسب ذلك النوع فيها، وإنما تقوى الصناعات والرئاسات فى استدارة الأحوال، وتقل المنازل».

(٤) القطع والوصل هنا مما يتصل بالتعبير عن علاقات النسب.

ديوان (ابن الشبل البغدادي)

نظرات ، ونشر ما لم ينشر

ط. عبد الرزاق حويزي

ابن الشبل البغدادي، أبو علي، محمد بن الحسين شاعر مشهور من شعراء العصر العباسي، ولد ببغداد عام (٤٠١هـ)، وتوفي بها عام (٤٧٣هـ)، تمتع بموهبة شعرية سامية، وطاقاة فنية متأججة حدت بقريحته إلى السح بكثير من القصائد الرائعة الذائعة التي لفتت أنظار النقاد إليه، ومكنت له في شتى الأوساط الأدبية، وحفظت له مكانته في مختلف الأندية والمحافل الشعرية، وسجلت اسمه في سجل الشعراء الأفاضل، وخلدت ذكره على مدى عشرة قرون من الزمان بداية من القرن الخامس الهجري حتى قرننا هذا، وليس ذلك فحسب، بل لقد دفعت موهبته الألاقة الأدباء والنقاد دفعاً إلى جمع أشعاره في ديوان قائم برأسه يكون في متناول أيديهم، يتدارسونه ويقتبسون منه ما يحلو لهم من قصائد ومقطعات.

وقد أتى على ذكر هذا الديوان رهط من المؤرخين والأدباء، أقدمهم «جمال الدين القفطي» (ت ٦٤٦هـ) في كتابه «المحمدون من الشعراء وأشعارهم» ص ٣٧٦.

ومما يؤسف له أن يد الإهمال تطرقت إلى هذا الديوان، فعبثت به، وعلى أثر ذلك سقط من يد الدهر، فلم نعثر له على أثر حتى الآن، ومن المؤكد أنه لو وصل إلينا لأرصدنا بحصيلة شعرية شائقة، بما يضم من قيم فنية متباينة، وألوان عاطفية مختلفة، وآراء فلسفية، ونصائح حانية، وحكم شعرية.

وإذا كان الضياع قد وقف عدواً لدوداً له فإن جودة شعر صاحبه كانت أحد الأسلحة التي فتت في عضد الضياع، إذ جذبت بعضاً من الأدباء والمؤرخين إلى توشية مؤلفاتهم القيمة بكثير من مقطعاته وقصائده.

وأتى «القفطي» في مقدمة هؤلاء الأدباء الذين وشحوا مؤلفاتهم بأشعار «ابن الشبل البغدادي»، فمن يطالع كتابه المشار إليه آنفاً ص ٢٧٥-٤٠٢ يدرك في سهولة ويسر أنه منح شاعرنا عناية عظيمة لم يمنحها لأي شاعر آخر في كتابه هذا، وتكمن هذه العناية في أنه انتقى من ديوان «ابن الشبل» الذي كان بين يديه كثيراً من المقطعات، ثم قام - كما نقوم به الآن في صناعة الدواوين ذات الأصول الخطية المفقودة - بترتيب قوافي ما اختاره على حروف المعجم، مما يصح لي أن أقول: إن «القفطي» أدرج ديواناً مصغراً

له ابن الشبل البغدادي» ضمن كتابه هذا.

والحقيقة التي لا تتكرر أن لكتاب «القفطي» هذا فضل كبير في لفت نظري إلى شعر هذا الشاعر، إذ تناولت الكتاب بالقراءة منذ دخوله خزانة كتبي عام ١٩٩٢م؛ لأفيد منه في إعداد أطروحتي للدكتوراه في موضوع «شعر الشكوى في القرنين الثالث والرابع الهجريين: دراسة تحليلية في المضمون والشكل»، ولفت نظري ما وقفت عليه من اهتمام «القفطي» بشعر «ابن الشبل» خاصة، ومنذ ذلك الحين فكرت جيداً في ضم ما احتجته المصادر الأخرى من شعره إلى ما أورده «القفطي» في كتابه، وإخراج كل ما روته المصادر لهذا الشاعر في ديوان يكون في متناول الباحثين والدارسين بعد ضياع ديوانه، وأرجأت ذلك لحين الانتهاء من إعداد الأطروحة التي فرغت منها عام ١٩٩٨م.

وقد بادر الدكتور «حلمي عبد الفتاح الكيلاني» الأستاذ بجامعة مؤته - الأردن - إلى الاهتمام بشعر «ابن الشبل البغدادي» فحاز بذلك فضل سبق، ونال أحقية الريادة، إذ تجرد لجمع هذا الشعر من بطون المظان المختلفة، ثم عكف على تحقيقه، ودفع به للنشر، وتم نشره على صفحات مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ص ٥٧-١٥٨ في العدد رقم (٥٤) من العام المشار إليه آنفاً، وهو عام ١٩٩٨م، وجاء هذا المجموع الشعري تحت عنوان: «ما وصل إلينا من شعر ابن الشبل البغدادي»، ولم يضمن د. «الكيلاني» هذا المجموع دراسة عن شعر «ابن الشبل»؛ لأنه أفردها ببحث مستقل سنأتي على ذكره بعد.

والحقيقة أن د. «الكيلاني» أحد الأساتذة الذين أثق بنشاطهم، وأعتز بجهودهم العلمية في خدمة التراث العربي، وقد تمخض جهده المشكور عن تدبيج طائفة من البحوث الأدبية القيمة، كما تمثل في جمع وتحقيق طائفة من الدواوين الشعرية التي ضاعت أصولها المخطوطة، وأذكر مما أخرج د. «الكيلاني» للمكتبة الأدبية خلا شعر «ابن الشبل» ما يلي:

١- شعر «أبي الفضل البغدادي، محمد بن عبد الواحد ت ٤٥٥ هـ»، نشره في مجلة مؤته للبحوث والدراسات - جامعة مؤته - المجلد ٧ / ١٤ / ١٩٩٢.

٢- شعر «أبي القاسم الإلبيري، خلف بن فرج، المعروف بالسُّميسر ت ٤٨٥ هـ»، نشره أيضاً في مجلة مؤته للبحوث والدراسات - جامعة مؤته م ٧ / ١٤ / ١٩٩٢ ص ١٠١-١٥٩^(١).

٣- «ابن الشبل البغدادي»: حياته وشعره، نشره في مجلة الدراسات - عمادة البحث العلمي الأردني - عمان - ديسمبر - ١٩٩٥ ص ٢٣١٥ - ٢١٤٨، وهو غير مجموع شعر «ابن الشبل» الذي سأحدث عنه بعد قليل، وقد نظرت في هذا البحث لعلني أعر فيه على مادة شعرية جديدة لم يتضمنها المجموع الشعري فلم أجد شيئاً.

٤- شعر «ابن جكين البغدادي، أبو محمد الحسن بن أحمد ت ٥٢٨ هـ»، نشره في مجلة مؤته للبحوث والدراسات - جامعة مؤته - ع ٢ / ١٩٩٧ ص ٥٤٢ - ٦٠٧.

٥- «ابن شرف القيرواني»: حياته وأدبه، نشر في مؤسسة البسم للنشر والتوزيع - الأردن - عمان - ط ١ - ١٩٩٨ م - في ٢٦١ صفحة.

ويبدو من طبيعة هذه البحوث أن د. «الكيلاي»، يصرف جل جهده إلى دراسة أدب القرن الخامس الهجري، وأدب هذا القرن يفتقر حقاً - من منظوري الخاص - إلى دراسات مكثفة بسبب ضياع كثير من دواوين شعرائه، وأما ذلك الدواوين التي تجشم د. «الكيلاي» جمعها وتحققها، وهي في معظمها لشعراء من هذا القرن.

ويبدو كذلك من طبيعة البحوث السالفة أنها ذات أهمية كبيرة؛ إذ نفخت الروح في طائفة من الدواوين أتت عليها الأيام، فضاعت فيما ضاع من تراث النفيس الذي نستمد منه عظمة ماضي أجدادنا، وعدة حاضر أمتنا، وأمل مستقبلها المشرق الزاهر الزاهي.

وتتمثل أهمية هذه الدواوين بالإضافة إلى ذلك فيما يلي:

١- أنها زوّدت مكتبة الشعر العربي بحصيلة من القصائد والمقطعات التي لم تكن في متناول الباحثين والدارسين من قبل.

٢- أنها أعطت هؤلاء الشعراء حقهم، ووفرت عليهم حظهم، وبوّأتهم المكانة التي تليق بهم في موكب الأدب العربي.

٣- أنها أحيّت ذكر هؤلاء الشعراء، وأعطتنا تصوراً عاماً عن طبيعة شعر كل شاعر.

٤- أنها توفر جهد الباحثين ووقتهم في تعقب أشعار هؤلاء الشعراء في المصادر النادرة، والمظان التي يصعب عليهم العثور عليها.

وأعود إلى ما كنت بصدد الحديث عنه، وهو شعر «ابن الشبل البغدادي» فأقول: إن «ابن الشبل» لم يخرج في دائرة اهتمام د. «الكيلاي» عن إطار الشعراء المذكورين آنفاً، فقد عاش في القرن نفسه الذي عاش فيه معظم هؤلاء الشعراء، وهذا ما حدا بي إلى التصريح بأن شعر «ابن الشبل» المائل بين أيدينا الآن لم يصدر عن باحث اختار

موضوعه دون مسوغات أو حيثيات، ولم يكن موضوعاً خارجاً عن نطاق تخصص د. «الكيلاني»، وهو أدب القرن الخامس الهجري.

ولم يكن د. «الكيلاني» المحقق الوحيد الذي اهتم بشعر «ابن الشبل»، فقد زودني أخي د. «إبراهيم راشد» - حفظه الله ورعاه - عندما لمس اهتمامي بشعر «ابن الشبل» بمعلومة نفيسة، تكمن في أنه وقف على اهتمام بشعر «ابن الشبل البغدادي» من قبل د. «حسن عباس» الذي لم أتوان في الاتصال به هاتفياً، فأخبرني أنه لم ينشر ديوان «ابن الشبل» كاملاً، وإنما نشر مختارات منه في كتابه الجامعي الموسوم بـ: أدب القرن الرابع: دراسات ونصوص، الذي درسه على طلاب كلية الآداب - جامعة طنطا - مصر - عام ٢٠٠٠م، فعدت إلى الكتاب فألفت أن د. «عباس» نشر ثلاث قصائد، وثمانى مقاطعات شعرية تحت عنوان: «من ديوان ابن الشبل البغدادي»، ولم أجد ضمن هذه المختارات ما أخلّ به عمل د. «الكيلاني»، الذي يظل حتى هذه اللحظة العمل العلمي الوحيد الذي ضمّ أكبر قدر من شعر «ابن الشبل»، ومن ثم يقع عليه جلّ اهتمام الباحثين والدارسين في الأدب العربي في استتباط الأحكام النقدية، ورصد النتائج والظواهر الأدبية.

وقد نظرت في هذا العمل بمقابلة ما تجمع في جمعتي مما يخص شعر «ابن الشبل» من مادة علمية، بدأت في تحصيلها منذ أن فكرت في جمع هذا الشعر كما سبق أن ألمحت، وبعد الانتهاء من المقابلة خرجت بمجموعة من الملحوظات تكمن في إخلال عمل د. «الكيلاني» بكثير من الأشعار، واقتضاه إلى استقصاء الروايات والتخرجات، والترتيب المحكم لبعض المقطعات، واشتماله على بعض أوهام نسبة بعض المقطعات لـ «ابن الشبل»، وغير ذلك، وقد حدث بي طبيعة المادة العلمية المتوفرة لديّ إلى أن أوزعها على العناصر التالية، ثم آخذ في معالجة كل عنصر على حدة، وهذه العناصر هي:

أولاً - ما أخل به ديوان «ابن الشبل البغدادي».

ثانياً - إخراج ما يلزم إخراجه من ديوان «ابن الشبل».

ثالثاً - رصد ما لم يرصد من الروايات.

رابعاً - استقصاء مصادر التخريج.

خامساً - تصحيح الأوهام العروضية.

سادساً - تصحيح أوهام النقل من المصادر.

سابعاً - تقويم المنهج والتنسيق.

ثامناً - تصحيح ديباجة المقطعة رقم (٥٥) ص ١١٠.

تاسعاً - الأخطاء الطباعية.

وأبدأ أولاً بالعنصر الأول، وهو:

أولاً - ما أخل به ديوان «ابن الشبل البغدادي»:

جمع د. «الكيلائي» لـ «ابن الشبل» (١١٦) ست عشرة ومائة قصيدة ومقطعة شعرية، ضمت (٤٦٠) ستين وأربعمئة بيت من الشعر، وقد رجع في جمع هذه الحصيلة إلى طائفة من المصادر الأدبية والتاريخية أتى في مقدمة هذه المصادر كتاب «المحمدون من الشعراء وأشعارهم» الذي احتوى (٩٦) ستاً وتسعين مقطعة شعرية مرتبة من حيث النظر إلى قوافيها على حروف المعجم

وهناك مصادر أخرى رجع إليها د. «الكيلائي» إلا أنه أهمل الرجوع إلى طائفة من المصادر، ما كان له أن يهمل الرجوع إليها، حيث إنها كانت مطبوعة ومتداولة قبل أن يتجرد لجمع شعر «ابن الشبل» وتحقيقه، من هذه المصادر: «الأمالي الخميسية لابن الشجري ت ٤٧٩ هـ»، و«المدحش، ومثير الفرام الساكن، وذم الهوى»، وهذه المصادر «لابن الجوزي ت ٥٩٧ هـ» ومنها: «الدر الفريد لابن أيدمر ت ٧١٠ هـ»، و«الازدهار للسيوطي ت ٩١١ هـ»، و«معاهد التنصيص لعبد الرحيم العباسي ت ٩٦٣ هـ».

ولو رجع د. «الكيلائي» إلى هذه المصادر لأثرى محاولته إثراء عظيمًا، ولما فاته هذا الشعر الكثير الذي ورد في هذا البحث الذي ضم مستدركًا يقرب في عدد أبياته من نصف ما جمعه د. «الكيلائي» لـ «ابن الشبل»، ففيه (٥٨) مقطعة خالصة النسبة لـ «ابن الشبل» ضمت (٢١٦) ستة عشر بيتًا، ومائتي بيت خالصة النسبة إليه، ورتبت ما استدركته حسب رويه الترتيب الألف بائي، فبدأت بروي الألف المقصورة، فالهمزة، وانتهيت بروي الياء، وفي حالة تجمع مقاطعات متعددة على روى واحد كنت أحتكم في ترتيبها إلى حركة حرف الروي، فبدأت بالروى الساكن، فالمفتوح، فالمكسور، فالمضموم، فالموصول بحرف وصل، وها هي ذي الأبيات المستدركة التي يلزم ضمها إلى مجموع شعر «ابن الشبل البغدادي»، والاعتماد عليها في دراسة وتحليل هذا الشعر.

[قافية الهمزة]

(١)

قال «ابن الشبل البغدادي»: [من الرمل]

- ١- مَنْ رَأَى الْبَرْقَ بَنَجْدٍ إِذْ تَرَأَى
- ٢- فَاضَ فَيْضًا كَجُفُونِي مَأْوَهُ
- ٣- نَامَ سُمَارُ الدُّجَى عَنْ سَاهِرٍ
- ٤- اسْمَدَتْهُ أذْمَعٌ تَفْضَحُهُ
- ٥- يَا خَلِيلِي وَلَمْ أَشْعِرْكُمْ
- ٦- عَلَّاءَ قَلْبِي بِذِكْرِي قَاتِلِي
- أَسْلَبَ النَّوْمَ وَأَهْدَى الْبُرحَاءَ
- وَالْتَطَى وَهْنًا كَأَنْفَاسِي التِّظَاءَ
- تَخِذَ الهمَّ سَمِيرًا وَالبُكَاءَ
- وَإِذَا مَا أَحْسَنَ الدَّمْعُ أَسَاءَ
- بِالْهَوَى حَتَّى تَبَيَّنَتْ الْإِخَاءَ
- رُبَّ دَاءٍ قَادَ لِلنَّفْسِ دَوَاءَ

الرواية: (٢) ورد البيت الثالث في شعر ابن الشبل برواية: «يجد الهم».

التخريج: مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن ٢٥٧، والبيتان ٣، ٤ في تشنيف السمع بانسكاب الدمع ٧٢، وهما فقط في شعر «ابن الشبل» برقم ٦ ص ٧١.

(٢)

وقال في رثاء أخيه «أحمد»: [من الوافر]

- ١- يُعَلِّلُ بِالدَّوَاءِ وَلَيْسَ يَدْرِي
- ٢- وَمَنَانِي الطَّبِيبُ مَنِي، فَلَمَّا
- ٣- سَادَرُغُ الهمُومَ عَلَيْكَ دَهْرِي
- ٤- أَسْوَدُ بِالكَاثِبَةِ وَجَهَ صُبْحِي
- ٥- وَيَسْتَلْبِنِي حَيَاتِي فِيكَ وَدَّ
- ٦- وَتَعَجَّبُ مِنْ بَلَى جِسْمِي عُيُونٌ
- ٧- وَقَالُوا: رَاحَةُ الْمَحْزُونِ يَأْسٌ
- بِأَنَّ الدَّاءَ فِي شُرْبِ الدَّوَاءِ !
- بَدَا يَأْسُ أَحَالَ عَلَيَّ الْقَضَاءِ !
- وَأَقْضِي بِالْأَسَى حَقَّ الْإِخَاءِ
- وَأَغْسِلُ لَوْنَ لَيْلِي بِالبُكَاءِ !
- يَرَى تَرَكَ الْحَيَاءِ مِنَ الْحَيَاءِ
- وَأَمْرُ اللَّهِ يَعْجَبُ مِنْ بَقَائِي !
- وَيَأْسِي مِنْكَ أَعْظَمُ لِلْبَلَاءِ !

التخريج: الدر الفريد ٥/٥٠٦، والبيت الثالث له فيه أيضاً ٣/٢٢٧، والبيت الرابع له

فيه كذلك ٢/١٣٤

(٣)

وقال في رثائه أيضاً :

[من الخفيف]

- ١- جَسَدٌ طَيِّبٌ الصَّعِيدِ رُوحٌ
 - ٢- أَيُّهَا الْفَرَقْدَانُ كَمْ فَرَقْدٍ فِي النَّارِ
 - ٣- كَمْ مُلُوكٍ لَمَّا دَهَاها رَدَاها
 - ٤- عَلِقَتْهُمْ عُلُوقٌ صَادِعَةٌ الشَّعْرِ
 - ٥- جَاوَزَتْ قَبْرَكَ الْمَلَائِكَةُ الْفَرَّ
 - ٦- وَجَلَا الْقَطْرُ فِي مَبَاسِمِهِ الزَّهْرِ
 - ٧- وَتَلَقَّى رُوحِي وَرُوحَكَ إِنْ لَمْ
- لِسْنَا نُورُهُ أَضَاءَ الْفَضَاءِ
رَبِّ عَفَّتْ آثَارُهُ الْبَوَغَاءِ
خَفَّتْ مِنْ جُنُودِهَا الضُّوْضَاءِ
بِ ، فَطَاحُوا كَمَا يَطِيحُ الْهَبَاءِ
رُ ، وَأَخْصَيْتُ عِظَامَكَ الْآلَاءِ
رَ ، وَأَبْكَيْ السَّحَابُ الْآنُوءِ
يَكُ بَيْنَ الْأَحْيَاءِ مِنَّا التَّقَاءِ

التخريج: الأبيات في الدر الفريد ١٠٨/٤، متفرقة في ثيابه قصيدة طويلة لابن الشبل، وردت في ديوانه، هي برقم ١ ص ٦٥-٦٦، ولم ترد هذه الأبيات فيها، ومن ثم تضاف إليها، فيوضع البيت الأول بعد البيت ٣١، ويوضع الثاني بعد البيت ٣٦، ويوضع البيتان ٣، ٤ بعد البيت ٢٨، وتوضع بقية الأبيات في نهاية القصيدة، وورد البيت الأول لابن الشبل أيضاً في الدر الفريد ٢/٣٠٠، كما ورد الرابع فيه أيضاً ٤/٨٢.

[قافية الباء]

(٤)

وقال :

[من الطويل]

- ١ - إِذَا يَسَّرَ اللَّهُ الْأُمُورَ تَيْسَّرَتْ
 - ٢ - فَلَا تَلَمَّ الْأَسْبَابَ، وَالْحَزْمُ كُلَّهُ
- وَمَا لَمْ يَقْرَبْ وَقْتَهُ لَمْ يَقْرَبِ
- إِذَا عَاقَتْ الْأَسْبَابُ. شُكْرُ الْمُسَبِّبِ

التخريج: الدر الفريد ٩٦/٢، وصدر البيت الأول ورد في ديوان الحسين بن مطير الأسدي ص ٥٨، وعجزه : ولانت قواها واستقاد عسيرها

(٥)

وقال :

[من الوافر]

- ١- وَضَعْتُ لِأَهْلِ هَذَا الدَّهْرِ خَدِّي
 - ٢- فَكَانَ تَقَرُّبِي أَذْكَى لِبُعْدِي
- لَأَسْلَمَ مِنْهُمْ ، وَأَلَنْتُ جَنْبِي !
وَإِحْسَانِي إِلَى ذِي الذَّنْبِ ذَنْبِي !

التخريج: الدر الفريد ٢٨٦/٥، والثاني فيه ٤/٢٠٦.

(٦)

وقال:

[من البسيط]

- ١- إني أبثك يا قلبي ضنى جسدي
 ٢- وقد قنعت بقعر البيت منزلة
 ٣- تعم رضاك، فإن ألفيته أشبا
- طلابك المجد أدناه من العطب
 فلم تحاول جهلاً أرفع الرتب ؟
 صعب القياد فليس الحيف بالأشب

التخريج: الأمالي الخميسية ٢٠٠/٢.

(٧)

وقال:

[من البسيط]

- ١- صمم، وجرد، واحو، واعل علأ
 واعزم، وجد، وتل، وانهض لها، وثب

التخريج: الدر الفريد ٣٣/٤.

(٨)

وقال :

[من البسيط]

- ١- مشمرين إلى الهيجاء قد جعلوا
 إلى المعالي العوالي أوكد السبب

التخريج: الدر الفريد ١١٠/٥.

(٩)

وقال :

[من البسيط]

- ١- من كل أزوع لا يرتاع في ملأ
 بل يملأ الروع من روع ومن رعب

التخريج: الدر الفريد ١٤٣/٥.

(١٠)

وقال :

[من البسيط]

- ١- يا للكفاح، ولشتر الصراح، وللصد
 م الرماح ، وللصمصامة الذرب

التخريج: الدر الفريد ٥٠/١، ومطبوع مقدمته ١/ ١٨٣، والبيت تابع للنتفة رقم ١٥

ص ٧٦.

(١١)

وقال : [من البسيط]

١- سُكَّرُ الشُّبَابِ وَسُكَّرِ الحُبِّ غَاذَرَنِي فِي الحَيِّ مِنْ طُنْبٍ آوِي إِلَى طُنْبٍ

التخريج: الدر الفريد ٣/٣٦١، ولعل المقطعة الواقعة تحت رقم (٦)، والنتف الواقعة تحت الأرقام (٧)، (٨)، (٩)، (١٠)، (١١) في هذا الاستدراك من قصيدة واحدة ؛ إذ تتحد في الوزن والقافية ، وحركة حرف الروي ، ولعلها بعد ذلك تابعة للمقطعة رقم (١٥) ص ٧٦ .

(١٢)

وقال : [من الطويل]

١- وَلِلْقَلْبِ مِنِّي زَاجِرٌ مِنْ مَرْوَةٍ يُجَنَّبُهُ طَرَقَ الهَوَى فَيُجَابُ

التخريج: ندم الهوى ٦٤٥، ويوضع بعد البيت الثالث من القصيدة رقم (٧) ص ٧١-٧٢.

[قافية الجيم]

(١٣)

وقال: [من البسيط]

١- جَوَاهِرُ العِلْمِ فِي بَحْرِ الفُؤَادِ فَفُصِّ فِيهِ عَلَيْهَا وَخُلُصَتْهَا مِنَ اللُّجَجِ

٢- جُسُومُنَا كَالْمَشَاكِي، وَالنُّفُوسُ لَهَا مِثْلُ الزُّجَاجِ، وَتُورُ اللّهِ كَالسُّرُجِ

٣- فَتَشْ (تَرَى) كُلَّ شَيْءٍ فِيكَ مُجْتَمِعًا إِنَّ ابْنَ آدَمَ أُعْطِيَ أَرْفَعَ الدَّرَجِ !

التخريج: الدر الفريد ٤/١٦٩، والأول له فيه أيضاً ٣/٢٠٧، وتقتضي القاعدة النحوية جزم الفعل (ترى) بحذف ألفه، لأنه واقع في جواب الأمر، ولكنها لم تحذف لاستقامة الوزن، وبإمكان القارئ أن يقرأها - بعداً عن ذلك - هكذا : «فتش تجد».

[قافية الحاء]

(١٤)

وقال : [من مجزوء الكامل]

١- فَلَرُبَّمَا آلَ المَضِي قُ إِلَى انْفِرَاجٍ وانْفِرَتَاجِ

التخريج: الدر الفريد ٢١٣/٤.

[قافية الدال]

(١٥)

وقال في أخيه «أحمد»:

[من الرمل]

١- بَيْنَمَا الْمَرْءُ شِهَابٌ يَلْتَطِي
عَصَفَتْ رِيحٌ عَلَيْهِ فَهَمَدَ

التخريج: الدر الفريد ٩٧/٣.

(١٦)

وقال يمدح ديوان الحكم :

[من الطويل]

١- خَلِيلُكَ مَنْ حَامَى حِمَاكَ وَأَسْقَدَا
٢- فَلَا تُطْلِقَنَّ حَمْدًا وَذَمًّا لِصَاحِبِ
٣- عِدِ الْعَيْنَ بِالتَّهْوِيمِ يَا عَمْرُو سَاعَةً
٤- فَإِنِّي رَأَيْتُ الْعُمَرَ فِي الذُّلِّ مَيَّةً
٥- بِقَدَرِ حَيَاءِ الْمَرْءِ حِفْظُ إِخَانِهِ
٦- فَلَا تُخَفِ حَقْدًا بِالتَّوَدُّدِ إِنَّهُ
٧- فَإِنَّ لَهَيْبِ النَّارِ يَخْبُو إِذَا بَدَتْ
٨- كَذَلِكَ جَرَيْتُ اللَّيَالِي وَجَرَيْتُ
٩- فَأَفْسَدَنِي مَا كَانَ لِلدَّهْرِ مُصْلِحًا
١٠- وَرَغَبَنِي زُهْدُ الْوَرَى فِي خَلِيقَتِي
١١- إِذَا عُدَّ أَكْفَاءُ الرُّنَاسَةِ فِي الْوَرَى
١٢- وَمَا مِنْ دَعَاةٍ الْحِظُّ سَيِّدُ قَوْمِهِ
١٣- وَمِثْلُكَ مَنْ بِالْحِلْمِ وَقَرَّ مَجْدُهُ
١٤- وَلَمْ يَرْتَكِبْ أَمْرًا وَإِنْ كَانَ مُمَكِّنًا
١٥- فَمِنْ نَارِكُمْ يَسْتَشْقِ الطَّارِقُ الْقَرَى

وَعَانَدَ مَنْ عَانَدَتْ بَرًّا أَوْ اعْتَدَى
فَمَا يُعْرِفُ الصَّمَمَ حَتَّى يُجَرِّدَا
فَلَمْ أُسْهِرِ الْأَجْفَانَ إِلَّا لَتَرْقُدَا
وَمَوْتَ الْفَتَى فِي الْعِزِّ عُمَرَا مُجَدَّدَا
وَلَنْ يَتْرَكَ الْإِنْسَانُ مَا قَدْ تَعَوَّدَا
إِذَا خَيَّبَ اللَّهُ الْعَدُوَّ تَوَدَّدَا
وَيَزْدَادُ فِي سِتْرِ الرَّمَادِ تَوَقَّدَا
خَلَاتِقُ مِنِّي بَقَاتِ إِحْصَاوُهَا الْمَدَى
وَأَصْلَحَنِي مَا كَانَ لِلدَّهْرِ مُفْسِدَا
فَأَظْهَرْتُ فِي مَا يَرِغْبُونَ التَّزَهُدَا
فَأَرَأَسُهُمْ مَنْ كَانَ أَكْرَمَ مَحْتَدَا
كَمَنْ كَانَ قَبْلَ الْحِظِّ بِالْفَضْلِ سَيِّدَا
وَصَوَّبَ فِي حِفْظِ الْأُمُورِ وَصَعَّدَا
سِوَى مَا أَرَاهُ الْحَزْمُ رَأْيَا مُسَدَّدَا
وَمِنْ نُورِكُمْ يَسْتَبْصِرُ الْمُهْتَدَى الْهُدَى

الرواية: (٤) ورد البيت الرابع في الدر الفريد ١٦١/٤ برواية: «فإني رأيت العيش».

التخريج: الدر الفريد ٧٤/٣، والثاني له فيه ٨/٢، والثالث له فيه ٦٨/٤، والرابع له

فيه ١٦١/٤، وورد البيتان ٦، ٧ في نهاية مقطعة مكونة من ٤ أبيات في الديوان برقم

(٤٠) ص ٩٤.

(١٧)

وقال:

[من البسيط]

- ١- قَالُوا : تَكَامَلَ فِيكَ الْفَضْلُ قُلْتُ لَهُمْ :
 ٢- مَنْ رَامَ بِالْأَدَبِ الْأَرْزَاقَ نَفَرَهَا
 ٣- كَمْ (يَقْلُقُ) السَّيْفُ فِي غِمْدِي وَأَكْثَمُهُ
 ٤- حَتَّى غَرَضْتُ فَنَادَتْنِي مَضَارِيهُ
 ٥- مَنْ لَمْ يَصِلْ بِطَبْنِي الْهِنْدِي حَاجَتُهُ
 الْفَضْلُ قَيْدَ حَظِّي أَيَّ تَقْيِيدٍ !
 وَعَاشَ أَشْبَهَ مَرْحُومٍ بِمَحْسُودٍ
 بَنِي فَيَفْهَمُ أَشْجَانِي بِتَسْهِيدِي
 يَا طَالِبَ الْمَجْدِ بِي مَا أَنْ تَجْرِيدِي ؟
 أَضْحَى عَلَى النَّاسِ مَوْجُودًا كَمَفْقُودٍ

الرواية: (٣) ورد البيت الثالث في الدر الفريد هكذا: «كم مقلق».

التخريج: الدر الفريد ١٤٧/٥، والأول له فيه ٢٩٣/٤، والثاني له فيه أيضاً ١٣٢/٥، ولعل هذه المقطعة تابعة للمقطعة (٤٤) ص ٩٦ من شعر «ابن الشبل».

(١٨)

وقال :

[من الطويل]

- ١- ذَرِينِي أَيْتَ الدِّمِّ إِنِّي أَرَى الْغِنَى
 ٢- وَإِنْ عِنَادِي فِي الرِّقَابِ صَنَائِعُ
 ٣- إِلَى أَنْ رَأَيْتُ الْمُعْتَبِينَ تَخَوَّفُوا
 غِنَى النَّفْسِ لَا مَالَ الْأَكْفُ الْجَوَامِدِ
 وَأَطَوَاقَ نَعْمِي فِي مَنَاطِ الْقَلَائِدِ
 بَأَنْ يَحْتَوِيَ عُمَرِي عَدُوِّي وَحَاسِدِي

التخريج: الأماشي الخميسية ١٧١/٢، ولعل هذه المقطعة تابعة للمقطعة (٤٢) ص ٩٥، أو المقطعة رقم (٤٦) ص ٩٧ من شعر «ابن الشبل».

(١٩)

وقال في هجاء «ابن نايقا البغدادي ت ٤٨٥هـ»:

[من البسيط]

- وَسِتَّةٌ فِيكَ لَمْ يُجْمَعَنَّ فِي بَشَرٍ :
 كَذِبٌ، وَكِبَرٌ، وَيُخْلُ أَنْتَ جَامِعُهُ
 مَعَ اللَّجَاجِ، وَشَرُّ الْحَقْدِ، وَالْحَسَدِ !
 وَسِتَّةٌ فِي لَمْ يُخْلَقَنَّ فِي مَلِكٍ :
 حِلْمِي، وَعِلْمِي، وَافْضَالِي، وَتَجَرِبَتِي
 وَحُسْنُ خَلْقِي، وَبَسْطِي بِالنَّوَالِ يَدِي !

التخريج: الدر الفريد ١٩/١٨، والوافي بالوفيات ١٩/١٨، والأشطار الثلاثة الأخيرة في الديوان ص ٨٥.

(٢٠)

وقال:

[من الطويل]

- ١ - فَلَا تَفْتَرِزْ بِالْبَشْرِ مِنْ وَجْهِ حَاسِدٍ
 ٢ - فَإِنْ مَشُوبَ الشَّهْدِ بِالسُّمِّ قَاتِلٌ

فَبَرْدُ ابْتِسَامِ الثَّغْرِ غَطَّى لَظَى الْحَقْدِ
 وَإِنْ هُوَ أَخَفَّتْ طَعْمُهُ لَذَّةَ الشَّهْدِ

التخريج: معاني المعاني ٦٦.

(٢١)

وقال:

[من البسيط]

- ١ - جَرَى نَوَالُكَ فَاعْتَدْنَا تَدْفُقُهُ
 ٢ - مَا دَامَ بِشْرُكَ بِي يَزْدَادُ رَوْنَقُهُ
 ٣ - مَا قَادَنِي الرُّفْدُ، بَلْ وَدَّ سَمَحَتْ بِهِ
 ٤ - لِأَشْكُرَنَّكَ مَا نَاحَتْ مُطَوَّقُهُ

وَأَنْتَ مِنَّا لِحُسْنِ الْمَدْحِ مُعْتَادُ
 فَالْحَمْدُ مِنِّي عَلَى الْعِلَاتِ يَزْدَادُ
 إِنَّ الْكَرِيمَ بِحُسْنِ الْوُدِّ يَنْقَادُ
 وَمَا حَدَا الْغَيْثُ إِبْرَاقَ وَارِعَادُ

التخريج: الدر الفريد ١٩٧/٣، والبيت الثاني له فيه ٥/٥٥، والثالث له فيه كذلك

.٦٨/٥

(٢٢)

وقال:

[من الطويل]

- ١ - لَعَمْرِي لَوْ أَنَّ الْعَقْلَ مِثْلَ صُورَةٍ
 ٢ - وَلَكِنْ إِذَا عَقَلَ وَحَظَّ تَقَابِلًا
 ٣ - تَزَايِدُ حَظَّ الْمَرءِ لِلْجَهْلِ مُصْلِحٌ

لَكَانَ إِلاهَا لِلْبَرِيَّةِ يُعْبَدُ
 بِأَفْقٍ رَأَيْنَا الْعَقْلَ لِلْحَظِّ يَسْجُدُ
 وَنُقْصَانُ حَظِّ الْمَرءِ لِلْعَقْلِ مُفْسِدُ

التخريج: الدر الفريد ١٣٢/٣.

[قافية الراء]

(٢٣)

وقال:

[من الطويل]

- ١ - عَلَى مِثْلِ أَطْرَافِ الرِّمَاحِ تَقَلَّبَتْ
 ٢ - وَمَا عِبَاتُ نَفْسِ الْكَرِيمِ بِمُعْضَلٍ

بِنَا هِمَمٍ أَعْبَاؤُهَا تَبْهَظُ الدَّهْرَا
 إِذَا ادَّعَتْ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ صَبْرَا

- ٢- نَكَلْتُ حَيَاةً فِي سِوَى الْعِزِّ عِشْتُهَا
 ٤- وَتَقَنَّا بِأَنَّ الْعِزَّ مَا فِي عَمُودِنَا
 ٥- وَأَنَّ ثَنَاءَ الْمَرْءِ عُمَرٌ مُخَلَّدٌ
 ٦- وَمَنْ عَزَّ أَعْطَتْهُ الْعِتَاقُ قِيَادَهَا
 ٧- وَمَا السَّيْفُ ذُو الْأَرْهَافِ إِلَّا بِفِعْدِهِ
 ٨- وَمَا النَّدْبُ كُلُّ النَّدْبِ إِلَّا ابْنُ هِمَّةٍ
 ٩- جَزَى اللَّهُ عَنِّي أُمَّ ذَفَرٍ مَلَامَةٍ
 ١٠- وَقَدْ يُدْرِكُ الْحَتَفُ الْجَبَانَ مُوَلِّيًا
 ١١- وَمَنْ يَحُلْ تَطْلَابَ الْمَعَالِي بِصَدْرِهِ
 وَعُمَرًا جَعَلَنَاهُ لِغَيْرِ الْعُلَا مَهْرًا
 وَأَنَّ بَقَاءَ الدَّهْرِ أَنْ تَحْمِلَ الذُّكْرَا
 وَعَيْشُ امْرِئٍ بِالذُّلِّ مَيْتَتُهُ الْكُبْرَى
 وَذَلَّتْ مَغَاوِيرُ الْأَسْوَدِ لَهُ صُغْرَى
 إِذَا لَمْ يَكُنْ ذُو السَّيْفِ مِنْ حَدِّهِ أَجْرَى
 رَأَى الْخَيْرَ لَا يُنْجِيهِ فَافْتَحَمَ الشَّرَّاءُ
 فَكَمْ خَدَعَتْ عُمَرًا بِأَطْمَاعِهَا (غِرًّا)
 وَيُخْطِئُ فِي إِقْدَامِهِ الْبَطْلَ الذَّمْرَا
 يَجِدُ حُلُوَّ مَا يُعْطَاهُ مِنْ غَيْرِهَا مُرًّا

الرواية: (٧) ورد البيت السابع في الدر الفريد ٣١٦ برواية: «من حده أمضى».

التخريج: الدر الفريد ١٨٤/٣ ما عدا البيت الرابع، والأول له فيه ٩٦/٤، والخامس له فيه أيضًا ٢٣٢/٥، والعاشر له فيه كذلك ٢٩٦/٥، والسابع له فيه أيضًا ٣١٦/٥، والبيتان الرابع والخامس له في الأمالي الخميسية ١٩١/٢.

(٢٤)

وقال:

[من الوافر]

- ١- فَقُلْ مَا شِئْتَ إِنَّ الْحِلْمَ دَأْبِي
 ٢- فَأَنْتَ أَقْلُ أَنْ تُلْقَى بِذِمِّ
 وَشَأْنِي الْخَيْرُ إِنْ حَاوَلْتَ شَرًّا
 مُجَاهَرَةً وَأَنْ تُفْتَابَ سِرًّا
 التخريج: الوافي بالوفيات ١٩/١٨.

(٢٥)

وقال:

[من الكامل]

- ١- مَا دَارُ دُنْيَا لِلْمُقِيمِ بِدَارِ
 ٢- مَا بَيْنَ لَيْلٍ عَاكِفٍ وَنَهَارِهِ
 ٣- طُولُ الْحَيَاةِ إِذَا مَضَى كَقَصِيرِهِ
 ٤- وَالْعَيْشُ يُعْقِبُ بِالْمَرَارَةِ حُلُوهُ
 ٥- وَكَأَنَّمَا تَقْضِي بُنْيَاتُ الرَّدَى
 وَبِهَا النُّفُوسُ فَرِيسَةَ الْأَقْدَارِ
 نَفْسَانِ مُرْتَشِفَانِ لِلْأَعْمَارِ
 وَالْيُسْرُ لِلْإِنْسَانِ كَالِإِعْسَارِ
 وَالصَّفْوُ فِيهِ مُحَالِفُ الْأَكْدَارِ
 لِفَنَائِنَا وَطَرًا مِنَ الْأَوْطَارِ

- ٦- نَبَغِي الشَّقَاءَ مِنَ الرَّدَى فَكَأَنَّمَا
 ٧- وَيَرُوقُنَا زَهْرُ الْأَمَانِي ضَلَّةً
 ٨- وَالْمَرْءُ كَالطِّيفِ الْمُطِيفِ، وَعُمُرُهُ
 ٩- وَأَذَلُّ أَبْنَاءِ اللَّيَالِي صَرَعَةً
 ١٠- خُطْبُ تَضَاءَلَتِ الْخُطُوبُ لَهُوْلَهُ
 ١١- نَلْقَى الصُّوَارِمَ وَالرَّمَاخَ لَهُوْلَهُ
 ١٢- إِنَّ الَّذِينَ بَنَوْا مَشِيدًا وَانْتَشَوْا
 ١٣- سَلَبُوا النَّضَارَةَ وَالنَّعِيمَ فَأَصْبَحُوا
 ١٤- تَرَكَوْا دِيَارَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ
 ١٥- خَلَطَ الْحِمَامَ قَوِيَّهِمْ بِضَعِيفِهِمْ
 ١٦- وَالْدَّهْرُ يُعْجِلُنَا عَلَى آثَارِهِمْ
 ١٧- وَتَعَاقَبُ الْمَلَوِينِ فِينَا نَائِرٌ
 ١٨- أَمْسَاهِمِي خِطَطَ الْفَضَائِلِ وَالنُّهَى
 ١٩- إِلَّا يَكُنْ نَسَبُ الْجُدُودِ مُؤَلَّفَا
 ٢٠- فَسَمَاءُ مَجْدِكَ أَطْلَعَتْ أَنْوَارَنَا
 ٢١- وَتَوَافَقُ الْأَشْرَارُ يَعْقِدُ بَيْنَهُمْ
 مِنْ نَابِهِ نَلْجَا إِلَى الْأَظْفَارِ
 هَدَمُ الْأَمَانِي عَادَةُ الْمِقْدَارِ
 كَالنُّوْمِ بَيْنَ الْفَجْرِ وَالْأَسْحَارِ
 مَنْ طَالِبَ الْأَقْدَارِ بِالْأَوْتَارِ
 أَخْطَارُهُ تَعْلُو عَلَى الْأَخْطَارِ
 وَتَلُودُ مِنْ حَرْبٍ إِلَى اسْتِشْقَارِ
 يَسْتَعُونَ سَقَى الْفَاتِكِ الْجَبَّارِ
 مُتَوَسِّدِينَ وَسَائِدَ الْأَحْجَارِ
 وَتَوَسَّدُوا مَدْرًا بِغَيْرِ دِثَارِ
 وَغَنِيَّتِهِمْ سَاوَى بِذِي الْإِقْتَارِ
 لَا بُدَّ مِنْ صُبْحِ الْمُجْدِّ السَّارِي
 بِالْكَرِّ مَا نَظَمَا مِنَ الْأَعْمَارِ
 لَمَّا جَرَى وَجَرَيْتُ فِي مِضْمَارِ
 بَيْنِي وَبَيْنَكَ، أَوْ قَدِيمُ جِوَارِ
 سَبَكْتَ نُضَارَكَ فِي صَفَاءِ نُضَارِي
 رَحِمًا، فَكَيْفَ تَوَافَقُ الْأَخْيَارُ

الرواية: (٣) ورد البيت الثالث في المدهش برواية: «كقصيرها».

(٤) ورد البيت الرابع في المدهش برواية: «والصنقو فيه مخلف الأكدار».

(٧) وورد البيت السابع في المصدر نفسه برواية: «الأمانى نضرة».

(١١) وورد البيت الحادي عشر في المصدر نفسه برواية: «تلقي».

التخريج: وردت الأبيات ٣، ٤، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٨-٢١ لابن الشبل البغدادي في الدر
 الفريد ٥٢/٤، والبيت السادس له في الدر الفريد ١٦٢/٥، والتاسع فيه كذلك ٢٢٣/٥،
 والبيت ٢١ له فيه ٢٦٩/٥، ووردت القصيدة بلا نسبة في المدهش ٣٢٨ ما عدا الأبيات
 ٦، ٧، ٩، ١٨-٢١.

(٢٦)

وقال :

[من الكامل]

- ١- فالعينُ تقرأُ من لحاظِ جليسيها
- ٢- ولكم قطوبٍ عن ودادٍ خالصٍ
- ٣- طوقٌ (بأنعمك) الجسيمة في الوري
- ٤- وابسط بأسباب المعيشة راحتي
- ٥- نعم إذا أوليتها محفوظة
- ٦- ما إن أريد لصدق قولي شاهدا
- ٧- وإذا تعارفت القلوب تألفت
- ٨- فتوق من ياباه قلبك، إنه
- ما خط منه في ضمير الخاطر
- وتبسّم عن غل صدرٍ وأغبر
- نحري، فإن نذاك أكرم فاجر
- لترى صروف الدهر أنك ناصري
- هل تحفظ النعمى بغير الشاكر
- حسبي بسرك عالمًا بسرّائري
- ويصد منها نافر عن نافر
- سببين باطنه بأمر ظاهر

الرواية: (٣) رسمت الكلمة الثانية في البيت الثالث في الدر الفريد هكذا: «يمينك»، ولم
أتمكن من قراءتها، فاقترحت ما بين القوسين .

(٦) ورد البيت السادس في معاهد التنصيص برواية: «بصدق قولي».

(٨) وورد البيت الثامن في الدر الفريد برواية: «بأمر صائر».

التخريج: الدر الفريد ١٣٧/٤، والسادس لابن الشبل فيه ٤٦/٥، والخامس له فيه
أيضاً ١٧٧/٥، والسابع له فيه كذلك ٢٠٩/٥، والبيتان ١، ٢، ٦-٨ له في معاهد
التنصيص ١٣١/١، ١٣٢.

(٢٧)

وقال في الشكوى:

[من البسيط]

- ١- ما لي أسالم أيامي وقد جدحت
- ٢- أأحمل الضيم من دنيا وأصحبها
- ٣- والحرُّ يأمل رفد العبد بينهما
- ٤- صن ماء وجهك عن ذل السؤال لهم
- ٥- ولا يعقك عن الآمال بعد مدى
- لي المشارب من صفو بتكدير
- وأقبل العذر من دهرٍ بتغدير
- وتشرب الأسد فضلات الخنازير
- وصل ببرد الدجى حرّ التهاجير
- ما كل ملتمس عذراً بمغذور

التخريج: الدر الفريد ٢٥٠/٥.

(٢٨)

وقال: [من الطويل]

١- وَأَظَرَفُ جُلَاسِ الْمُدَامِ خَلَاتِقًا ضَحُوكًا إِلَى جُلَاسِهِ بِوَقَارٍ

التخريج: الدر الفريد ٢٣٠/٥، والبيت تابع للمقطعة رقم (٥٤) ص ١١٠.

(٢٩)

وقال: [من الطويل]

١- أَيَا رَبِّ إِنْ كُنْتُ الْجَدِيرُ بِجَفْوَةٍ فَأَنْتَ بِإِحْسَانٍ إِلَيَّ جَدِيرٌ

٢- وَإِنْ تَكُ عَنْ شُكْرِي غَنِيًّا فَإِنِّي إِلَى الْغُفْرَانِ مِنْكَ فَقِيرٌ

التخريج: الدر الفريد ٤٣/٢، ٣٢/٥.

[قافية السين]

(٣٠)

وقال: [من البسيط]

١- قَالُوا: تَغَرَّيْتَ بَعْدَ الشَّيْبِ أَقَلَّتْ لَهُمْ: لَوْ دَامَ فِي الْغَابِ لَيْتَ الْغَابِ مَا اقْتَرَسَا

٢- كَيْفَ الْمَقَامُ بِأَرْضِ الْمُلُوكِ بِهَا؟ لَوْ اسْتَطَاعُوا لَبَاعُوا أَهْلَهَا النَّفْسَا

التخريج: الدر الفريد ٢٩٣/٤

[قافية العين]

(٣١)

وقال: [من الكامل]

١ إِنْ الْكَرِيمَ إِذَا تَمَكَّنَ مِنْ أَدَى أَنْسَتُهُ قُدْرَتُهُ الْحُقُودَ فَأَقْلَعَا

٢- وَتَرَى اللَّئِيمَ إِذَا تَمَكَّنَ مِنْ أَدَى يَطْفَى فَلَا يُبْقَى لِصُلْحٍ مَوْضِعَا

التخريج: الدر الفريد ٢٤٠/٢.

(٣٢)

وقال يرثي «علي بن عيسى النحوي»:

[من الطويل]

- ١- نَعْلُلُ بِالْأَمَالِ وَالْمَوْتَ أَسْرَعُ
 - ٢- أَرَى الْمَرْءَ مَهْمَا لَمْ يَمُتْ فَهُوَ ذَائِقُ
 - ٣- فَيَشْفِي غَلِيلَ النَّفْسِ قَبْلَ فِرَاقِهِ
 - ٤- وَمَا الْعُمُرُ إِلَّا هِجْرَةٌ وَتَوَاصُلُ
 - ٥- وَمَا تَهَبُ الدُّنْيَا لَنَا تَسْتَرِدُّهُ
 - ٦- وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا لِلْخَلَائِقِ وَالِدٌ
 - ٧- يَحْيِفُ عَلَى الْأَبْنَاءِ وَهُوَ أَبُوهُمْ
- وَنَفْتَرُ بِالْأَيَّامِ وَالْوَعْدُ أَنْفَعُ
فِرَاقَ الْأَخِلَاءِ الَّذِي هُوَ أَوْجَعُ
وَمَا النَّفْسُ إِلَّا ظَاعِنٌ (وَمُشْبِعُ)
(ولا إياس) فِي الْحَيَاةِ وَمَطْمَعُ
وَتَسْتَرْجِعُ الْأَحْدَاثُ مَا الْمَرْءُ مُودِعُ
فَمَا بَالُهُ مِنْ لَحْمِهِمْ لَيْسَ يَشْبَعُ؟
وَيَفْجَعُ بِالْأَبْنَاءِ وَهُوَ الْمُفْجَعُ!

الرواية: (٣) ورد البيت الثالث في الأمالي الخميسية برواية: «ومشبع»، والصواب ما

أثبت .

(٤) وورد البيت الرابع في المصدر السابق هكذا: «ولا استأس»، والبيت مضطرب

على هذه الرواية، ولعل الصواب ما تم إثباته .

التخريج: الأمالي الخميسية ١٧٣/٢، والوزن مضطرب في البيت الرابع، والقصيدة

تابعة لرقم (٦١) ص ١١٤ .

(٣٣)

وقال من قصيدة:

[من الطويل]

- ١- يَرَى النَّاسُ إِقْدَامَ الْغَيْبِ شَجَاعَةً
 - ٢- فَأَلْقَى عَلَى أَطْمَاعِكَ الْيَأْسَ، إِنَّهُ
 - ٣- وَمَا النَّصْحُ إِلَّا لِلْعِدَاوَةِ جَالِبٌ
 - ٤- وَخَادِعٌ يَزِدُّكَ النَّاسُ حُبًّا لَفَمَا صَفَّتْ
 - ٥- وَلَا تُعْطِهِمْ صَفْوُ الْوُدَادِ، فَكُلُّهُمْ
 - ٦- خَلِيلُكَ مَنْ أَهْدَى لَكَ الْغَيْبَ خَالِيًا
 - ٧- وَمَا صَدَّ عَنِّي مَنْ هَوَيْتُ فَرْمَتَهُ
- وَمَنْ قَهَرَ الْأَهْوَاءَ بِالْحَزَمِ أَشْجَعُ
أَمَرٌ مُصَابٍ قَوْتُ مَا فِيهِ مَطْمَعُ
فَلَا تُولِينَ النَّصْحَ مَنْ لَيْسَ يَسْمَعُ
حَيَاةً لِمَنْ لَا يَسْتَفِزُّ وَيَخْدَعُ
لِمَحْضِ التَّصَافِي وَالْوُدَادِ مُضِيعُ
حِفَاطًا، وَفِي الْأَشْهَادِ قَدْرُكَ يَرْفَعُ
وَلَوْ أَنَّ نَفْسِي حَسْرَةً تَتَقَطَّعُ

التخريج: الدر الفريد ٤٨٨/٥، والبيتان ٣، ٤، لابن الشبل فيه ٢٢٠/٥، والسادس له فيه كذلك ٢٥٧/٣ .

[قافية الغين]

(٣٤)

وقال: [من الوافر]

- ١- يَسُوغُ تَطْلُبُ الْحَاجَاتِ مَا لَمْ تَقْتَكِ بَوَيْعَدَ فَوْتٍ لَا يَسُوغُ
٢- وَمَاذَا يَنْفَعُ التُّرْيَاقُ يَوْمًا إِذَا وَافَى وَقَدْ مَاتَ اللَّدِيغُ ؟

التخريج: الدر الفريد ٤٩٦/٥، والثاني لابن الشبل فيه أيضاً ٢٣٦/٥ .

[قافية القاف]

(٣٥)

وقال في النهي عن صحبة الأشرار: [من البسيط]

- ١ تَوَقَّ صُحْبَةَ مَنْ تُعَدِّيكَ صُحْبَتُهُ بِالْخَيْرِ شَرًّا وَبِالْأَخْلَاقِ أَخْلَاقًا
٢- فَالْمَاءُ وَالنَّارُ نَاشٍ مِنْ طَبِيعَتِهَا بِصُحْبَةِ النَّارِ تُعْطِي الْكَفَّ إِحْرَاقًا

التخريج: مفاني المعاني ٦٧، وكذا ورد البيت التالي

(٣٦)

وقال: [من البسيط]

- ١- إِيهَا أبا الْفَضْلِ كَمْ أَوْلَيْتَ مَكْرُمَةً وَرَمْتُ شُكْرَكَ عَنْهَا ثُمَّ لَمْ أَطِقْ
٢- لَا تُؤْنِي مِنَّنَا بَعْدَ الَّتِي سَلَفَتْ إِلَيَّ مِنْكَ فَيُوهِي حَمْلُهَا عَنْقِي

التخريج: الأمالي الخميسية ٢٣٢/١، ولعل هذه النتفة والنتفة المذكورة تحت رقم (٧٥) ص ١٢٤ في شعر «ابن الشبل» من قصيدة واحدة .

(٣٧)

وقال: [من الطويل]

- ١- وَمَا الْحَسَبُ الْمَوْرُوثُ إِلَّا تَعَلَّةٌ إِذَا لَمْ تُقَارِنُهُ كِرَامُ الْخَلَائِقِ

التخريج: الدر الفريد ٢١٣/٥ .

(٣٨)

وقال في الشمعة:

[من البسيط]

- ١- وَسَاعَدْتَنِي عَلَى الظُّلَمَاءِ مُشَبِّهَتِي
هَيَفَاءُ خَافَ عَلَيْهَا السُّقْمُ وَالْأَرْقُ
- ٢- الْفَضْلُ فِيَّ، وَفِيهَا النَّارُ، نَفَعُهُمَا
لِفَيْرِنَا، وَكِلَانَا فِيهِ يَحْتَرِقُ!

التخريج: الدر الفريد ٢٩/٤، ومعاهد التنصيص ٤٤/٣، ولعلهما تابعين للتنفتين (٧١) ص ١٢٠، و (٧٥) ص ١٢٤

[قافية اللام]

(٣٩)

وقال:

[من الرمل]

- ١- لَا يَفُوقَنَّكَ التَّمَادِي رُبَّمَا
أَنْجَحَ السَّعْيُ عَلَى بُعْدِ الْأَمَلِ
- ٢- عَلَّ أَنْ تَظْفَرَ يَوْمًا بِالْمُنَى
قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ الْمَنَايَا بِالْفِيلِ

التخريج: الدر الفريد ٤٥٤/٥.

(٤٠)

وقال:

[من الوافر]

- ١- وَإِنِّي مُفَرَّدٌ جَلَسْتُ لِبَيْتِي
سِوَى شَغْلِي بِهِ مَا عِشْتُ شُغْلًا
- ٢- وَيَهْنِي الْمَجْدُ أَنِّي لَسْتُ أَبْغِي
وَلَا لِسِوَى النَّوَالِ أُرِيدُ مَالًا
- ٣- وَتَأْتِي نَخْوَتِي وَعَقَافُ نَفْسِي
وَمِنْ أَرَى الْجَنَى بِالصَّوْنِ أَحْلَى
- ٤- فَطَعَمُ الصَّابِ أَعَذَّبُ مِنْ لَهَاتِي
وَأَلْقَى الدَّهْرَ بِالْخِيَلِ تَيْهًا
- ٥- وَأَنْفُ مِنْ قَبُولِ الرُّفْدِ مِنْهُ
فِي رَجْعِ كَفِّهِ عَنِّي أَشْلًا
- ٦- وَلَا أَسْتَعْطِفُ الْأَيَّامَ مِنْهُ
لِيَجْمَعَ لِي مِنَ الْأَمَالِ شَمْلًا
- ٧- وَلَكِنْ كُلَّمَا بَخِلْتُ رَأْتَنِي
بِعِرْضِي فِي الْأَنَامِ أَشَدَّ بُخْلًا
- ٨- إِذَا نَزَّهْتَ قَدْرَكَ عَنْ لَثِيمِ
يَضِنُّ بِمَالِهِ كُنْتَ الْأَجْلًا
- ٩- وَمَنْ لَبَسَ الْقَنَاعَةَ الْبَسْتَهُ
عَلَى كُلِّ الْوَرَى شَرْفًا وَتَبْلًا

الرواية: (١) ورد البيت الأول في الأمالي الخميسية برواية: «كيلا»، وورد في شعر ابن الشبل برواية: «حلس».

(٢) ورد البيت الثاني في الدر الفريد برواية: «ليهن»، وورد في الأمالي الخميسية برواية: «ويهنا».

(٦) ورد البيت السادس في الأمالي الخميسية برواية: «أذلا».

(٨) ورد البيت الثامن في الدر الفريد برواية: «لتجمع لي من الأيام شملا».

(٩) ورد البيت التاسع في الأمالي الخميسية برواية: «رأيتي»، وهي رواية غير دقيقة .

التخريج: القصيدة في الأمالي الخميسية ٢/٢٠٠، ٢٠١، ما عدا البيتين ٣، ١٠، والأبيات ٢، ٣، ٤، ٦-١١ لابن الشبل في الدر الفريد ٥/٢٣، والبيت الثالث له فيه أيضاً ٥/٢٤٩، والعاشر له فيه كذلك ٢/٨٩، ووردت الأبيات ١، ٢، ٤، في شعر ابن الشبل برقم ٨٢ ص ١٢٨ .

(٤١)

وقال:

[من البسيط]

١- أَحَقُّ دَهْرٍ وَأَوْلَاهُ بِلَائِمَةٍ
 ٢- مَا لِي أَرَى طُرُقَاتِ الْمَجْدِ عَارِيَةً
 ٣- الْمُكْتَرُونَ بِفَرْطِ اللَّوْمِ فِي شُغْلٍ
 ٤- عَسَى تَهْبُ صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنْ سِنَةٍ
 دَهْرٌ أَضَاعَ أَدِيًّا بَيْنَ جُهَالٍ
 لَا تُسْتَطَاعُ وَفِي الْأَقْوَامِ أَمْثَالِي
 وَيَشْفَلُ الْقَلُّ أَقْوَامًا بِأَشْفَالٍ
 يَوْمًا، فَتَنْتَقِلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ

التخريج: الدر الفريد ١/٢٤٦.

(٤٢)

وقال :

[من المنسرح]

١- حَتَّمْ عَلَى الْأَعْيُنِ الطَّوَامِحِ أَنْ
 ٢- مَا كَانَ أَجْدَى لَوَمِ اللَّوَائِمِ لَوْ
 تَقَادَ قَسْرًا لِلْأَعْيُنِ النُّجَلِ
 كَانَ فَوَادِي فِي الْجُبِّ مِنْ قَبْلِي

التخريج: ذم الهوى ١٠١.

(٤٣)

وقال:

[من الطويل]

١- وَلَكِنْ أَنْسَى اللَّهَ عَنْهُ تَكُونِي إِلَى أَنْ زَهَتْ أَنْوَارُ فَضْلِي عَلَى النَّسْلِ

التخريج: الوافي بالوفيات ١٨/١٨، ويوضع هذا البيت بعد البيت الثاني في المقطعة رقم (٨٦) ص ١٢٠.

(٤٤)

وقال :

[من الطويل]

١- وَصَالَ الْفَتَى هَجْرٌ لِمَنْ لَا يُوَدُّه وَأَنْسُ الْفَتَى دُعْرٌ لِمَنْ لَا يُشَاكِلُهُ

التخريج: الدر الفريد ٢٨٤/٥، ولعل هذا البيت تابع للنتفة رقم (٩١) ص ١٢٣ من الديوان.

[قافية الميم]

(٤٥)

وقال:

[من الطويل]

١- جَزَيْتُكُمْ بِالْعِلْمِ صَبْرًا عَلَى الْأَذَى إِذَا رُمْتَ عِزًّا فِي الْعَشِيرَةِ فَاحْلُمِ
٢- وَمَا كُلُّ غَرْبٍ مِنْ لِسَانِي، وَإِنَّمَا أَبَى الْفِعْلُ لِي أَنْ أَشْتَفِي بِالتَّكَلُّمِ
٣- وَمَا الشَّيْبُ إِلَّا كَالشُّبَابِ، وَإِنَّمَا يَسْوَدُّ الْفَتَى فِي فَضْلِهِ وَالتَّكْرُمِ

التخريج: الدر الفريد ١٩٩/٣، والثاني لابن الشبل فيه ٣٢١/٥، والثالث له فيه ٣١٦/٥.

(٤٦)

وقال:

[من الطويل]

١- وَصَمَّ عَلَى الْأَحْدَاثِ بِي غَيْرَ هَائِبٍ تَجِدُنِي عَلَيْهَا مُقَدِّمًا غَيْرَ مُحْجَمٍ
٢- فَمَا تَحْسُنُ النُّعْمَى عَلَى غَيْرِ شَاكِرٍ كَمَا لَا يَلِيْقُ الشُّكْرُ إِلَّا بِمُنْعَمٍ

التخريج: الدر الفريد ٢٣٤/٤، ولعل هذه النتفة وسابقتها من قصيدة واحدة .

(٤٧)

- وقال في مطلع قصيدة: [من الوافر]
- ١- نَعِيمُ (الْحُرِّ فِي الدُّنْيَا) غَرَامُ وَصِيحَتُهُ وَإِنْ دَامَتْ سَقَامُ
 ٢- وَأَيُّ الْعُمَرِ يَحْمَدُهُ لَبِيبٌ وَجُلُّ خَلَائِقِ الْأَيَّامِ ذَامُ
 ٣- وَمَنْ بَذَلَ الْحَيَاةَ لَهُ بِذُلٍّ فَفِي فَقْدِ الْحِمَامِ لَهُ حِمَامُ

التخريج: الأماشي الخميسية ٢/٢٧٤، وورد صدر البيت الأول في هذا المصدر هكذا «نعيم الدنيا في الحر غرام» والبيت مضطرب على هذا النسق، والصواب ما أثبت.

(٤٨)

- وقال في قصيدة: [من الوافر]
- ١- ضَرَعْنَا بَعْدَ نَحْوَتِنَا إِلَيْكُمْ وَذُلُّ الْحُبِّ يَأْلُفُهُ الْكَرَامُ
 ٢- فَتَى بِالْبِشْرِ يَصْطَلِمُ الْأَعَادِي وَلَوْلَا الْمَاءُ مَا قَطَعَ الْحُسَامُ
 ٣- إِذَا صَغُرَتْ عُقُولٌ مِنْ أَنْاسٍ فَلَا تَفْتَرِكِ الْجُثُثُ الضُّخَامُ
 ٤- وَأَيُّ الْأَرْضِ الْأَمُّ مِنْ بِلَادٍ يَضِيقُ بِهَا عَلَى الْحُرِّ الْمَقَامُ؟

التخريج: الدر الفريد ٥/٢٦٤، والأول لابن الشبل فيه ٤/٤٠، والثاني له فيه كذلك ٤/١٧١، والثالث له فيه كذلك ٢/٣، ولعل هذه المقطعة وسابقتها من قصيدة واحدة .

(٤٩)

- وقال: [من الطويل]
- ١- إِذَا كَثُرَتْ مِنْكَ الذُّنُوبُ فِدَاوَهَا بِرَفْعِ يَدٍ فِي اللَّيْلِ، وَاللَّيْلُ مُظْلِمٌ
 ٢- وَلَا تَقْنَطَنَّ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، إِنَّمَا قَنُوطُكَ مِنْهَا مِنْ خَطَايَاكَ أَعْظَمُ
 ٣- فَارْحَمْتَهُ لِلْمُحْسِنِينَ كَرَامَةً وَارْحَمْتَهُ لِلْمُسْرِفِينَ تَكْرُمًا

التخريج: الدر الفريد ٢/٣٣.

(٥٠)

- وقال : [من الكامل]
- ١- وَإِذَا اسْتَخَرْتَ اللَّهَ فَاسْتَسْلِمْ لَهُ إِنَّ الْمُسْلِمَ عِنْدَهُ الْمُسْتَسْلِمُ
 ٢- وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا ابْتُلِيتَ بِحَادِثٍ إِلَّا بِهِ دَفْعُ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ

التخريج: الازدهار فيما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار ص ٤٩، ولعل هذه
النتفة والنتفتين المدرجتين تحت رقم (٩٥)، (٩٦) ص ١٣٦ في شعر «ابن الشبل» من
قصيدة واحدة .

(٥١)

وقال : [من مخرج البسيط]

- ١- مَا أَطْيَبَ الْعَيْشَ فِي التَّصَابِي لَوْ أَنَّ عَهْدَ الصُّبَا يَدُومُ
 - ٢- لَوْ كَانَ طَيْبُ الشَّبَابِ يَبْقَى لَمْ يَتْلِهِ الشَّيْبُ وَالْهُمُومُ
- الرواية: (٢) ورد البيت الثاني في الدر الفريد: «أو كان صبغ الشباب يبقى... لم
يبله».

التخريج: الدر الفريد ٤٠/٥، وهما له في تاريخ الإسلام ٣٥٨/١٠.

(٥٢)

وقال: [من البسيط]

- ١ عَرَائِسُ الْأَرْضِ تُجَلَى فِي غَلَائِلِهَا وَفِي حَلِيٍّ عَلَيْهَا صَاغَهَا الدَّيْمُ
- ٢- تَسْتَنُّ فِي حُلَلِ الْأَنْوَاءِ مُذْهَبَةً فِي كُلِّ حَاشِيَةٍ مِنْ نَسْجِهَا عِلْمُ
- ٣- دُرٌّ مِنَ الْأَقْحَوَانِ الْفَضْ زِينَةٌ حُمْرُ الْيَوَاقِيتِ فِي الْمَنْثُورِ يَنْتَظِمُ
- ٤ - كَأَنَّمَا السَّمَاءُ بِالْأَرْضِ شَامِتَةٌ تَبْكِي السَّمَاءُ وَتَفْرُ الْأَرْضُ يَبْتَسِمُ

التخريج : محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ٢/٢٤٠

[قافية النون]

(٥٣)

وقال : [من الكامل]

- ١- قُلْتُ لَزِيدٍ حِينَ أَبْدَى سُخْطَهُ نَبْضًا مِنَ الشَّرِّ الَّذِي فِيهِ كَمَنْ:
- ٢- لَسْتُ كَمَنْ يَرْعَى سَوَامَ وَدِهِ فِي عُشْبَةِ الدَّارِ وَخَضِرَاءِ الدَّمَنِ
- ٣- إِلَيْكَ مَا اسْتَرْسَلْتُ إِلَّا كَرَمًا أَحْسَنْتُ فِيهِ الظَّنَّ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ
- ٤- أَبْكِي جَنَى مِنْكَ حُرْمَتُ حُلُوهُ وَحُسْنُ رَأْيٍ فِيكَ أَجَلَى عَنْ غَيْبِ

٥- تَرَكْتَنِي أَشْجَى بِكُلِّ صَاحِبٍ مَنْ تَلَسَّعَ الْحَيَّةُ يُفْرِعُهُ الرَّسَنُ

٦- إِنَّ جِنَايَاتِ الْوَرَى أَشَدُّهَا مَا كَانَ مِنْ فِعْلٍ الصَّدِيقِ الْمُؤْتَمَنُ

التخريج: الدر الفريد ١٢٦/٢، وورد الثالث فيه هكذا: «أحسننت فيه الطن»، والصواب ما أثبت، والبيت السادس لابن الشبل فيه ٢٥٤/٢، وأخذ معنى البيت الخامس من قول «البحثري» في ديوانه ٢١٥٧/٤ :

يَحْسَبُ الْأَرْضَى زُهَا الْجَيْشِ؛ وَمَنْ تَهَشَّ الْحَيَّةُ يُفْرِعُهُ الرَّسَنُ

(٥٤)

وقال من قصيدة في رثاء أبيه: [من الطويل]

١- حَذَرْنَا فَلَمَّا جَلَّ فِيكَ مُصَابِنَا أَمِنَّا، وَشَرُّ الْخَوْفِ مَا أَوْرَثَ الْأَمِنَا

(٥٥)

وقال: [من الطويل]

١- فَوَاعَجَبْنَا إِنَّ الْعَجَائِبَ جَمَّةٌ وَأَعْجَبُهَا مَا يَصْنَعُ الْمَلَوَانُ!

٢- نَهَارٌ وَلَيْلٌ يَرْكُضَانِ عَلَى الْفَتَى كَأَنَّهُمَا فِي عُمَرِهِ جَلَمَانُ!

٣- وَتَا عَجَبًا مِنْ حِرْصِنَا، وَتُقُوسُنَا أَعِنَّتْهَا فِي قَبْضَةِ الْخَدَّائِنِ!

٤- نُسَرُّ بِتَجْدِيدِ الشُّهُورِ، وَإِنَّا لِيُخْلِقُنَا تَجْدِيدُ كُلِّ أَوَانٍ!

٥- وَنَدْفِنُ مَوْتَانَا وَنَسْلُو كَأَنَّنَا أَخَذْنَا مِنَ الْأَيَّامِ عَقْدَ أَمَانٍ!

٦- فَأَيُّ انْتِفَاعٍ بِالْمَقُولِ وَمَوْتِنَا كَمَوْتِ الَّذِي يَرَعَى مِنَ الْحَيَوَانِ؟

التخريج: الدر الفريد ١٧١/٥، والثاني لابن الشبل فيه أيضاً ١٨٥/٥، والسادس له فيه كذلك ١٦٧/٤.

(٥٦)

وقال: [من البسيط]

١- لو كَانَ يُوجَدُ بُرَّةٌ مِنْ مَحَبَّتِكُمْ لَكَانَ فِي الْيَأْسِ لِي طِبٌّ يَدَاوِينِي

٢- فَإِنْ يَكُنْ أَجَلِي أَقْصَى مُرَادِكُمْ فَمِنْ صُدُودِكَ لِي يَا عَلُو زَيْدِينِي

٣- كَفَى أَذَى الْجِسْمِ أَوْ زَيْدِي الْفُؤَادَ ضَنْئُ فَالْكُلُّ مِنْكَ إِذَا أَرْضَاكَ يُرْضِينِي

٤- اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مَا مَلَكَتُكُمْ فَعَاهِدُونِي عَلَى أَلَّا تَمْلُونِي

- ٥- يا عَلُو لا تَجْعِدِي فَضْلِي وَلَا أَدْبِي
 ٦- لا تَأْمَلِي بَعْدَ إِعْرَاضِي مُوَاصِلَتِي
 لا يَجْعَدُ الْفَضْلَ إِلَّا كُلُّ مَغْبُونٍ
 فَإِنَّ قَوْمِي مِنَ الشُّمِّ الْعَرَانِينَ!
- التخريج: الدر الفريد ١/١٩٣.

(٥٧)

وقال :

[من البسيط]

- ١- إِمَّا أَتَيْتُ عَلَى الْبَاغِي يُجَاذِبُنِي
 ٢- أَسْعَى وَيُدْرِكُ قَوْمٌ مَا سَعَيْتُ لَهُ
 ٣- وَرُبَّ يَوْمٍ يَجُرُّ الْمَجْدُ صَعْدَتَهُ
 ٤- إِذَا اسْتَهْلَتْ عَلَى أَبْطَالِكُمْ دِيَمِي
 ٥- أَهْوَى الْمَعَالِي وَالْأَسْمَالُ مِنْهَجَةً
 ٦- وَلَا أَقِيمُ عَلَى حَالٍ أَدْلُ بِهَا
- فَمَارِنُ الْفَحْلِ أَبَاءٌ عَلَى الرَّسَنِ
 هُبَلَتْ يَا دَهْرُ تَرْعَاهُمْ وَتُهْمِلُنِي
 بِأَنْمَلِي وَعُيُونُ الْقَوْمِ تَرْمُقُنِي
 هُنَاكَ يَعْرِفُنِي مَنْ كَانَ يُنْكِرُنِي
 وَأَنْشَقُ الْعِزُّ مِنْ حَتْفِي فَيُنْعِشُنِي
 إِنَّ الدَّلِيلَ غَرِيبٌ وَهُوَ فِي الْوَطَنِ
- الرواية: (٤) ورد البيت الرابع في الدر الفريد ١/١٣٢ برواية: «على أبطاله».

التخريج: الدر الفريد ٢/٢٦٧، والأبيات ١، ٢، ٥، ٦ لابن الشبل فيه ٢/١٣٢، والبيت الرابع له فيه ١/٢٧٢.

(٥٨)

وقال :

[من الخفيف]

- ١- بَكَرَتْ وَالْمَلَامُ مِنْهَا جُنُونُ
 ٢- تَرْتَجِي أَنْ أَمُدَّ كَفًّا لَنَيْلِ
 ٣- أَقْصِرِي لَنْ أَرِيقَ مَاءَ الْمُحَيَّا
 ٤- لَسْتُ أَهْوَى طُولَ الْحَيَاةِ بِذُلِّ
- وَاحْتِمَالُ الْهَوَانِ مَا لَا يَهُونُ
 لَا سَعَتْ بِي بِفَيْرٍ نَصْلٍ يَمِينُ
 إِنَّ قَدْرِي بِمَاءٍ وَجْهِي ضَنِينُ
 إِنَّمَا يَصْنَحُبُ الْهُوَيْنَا الْمُهِينُ
- التخريج: الأمالي الخميسية ١/٢٢.

ثانيًا. إخراج ما يلزم إخراجه من ديوان «ابن الشبل»:

تبين لي بعد عرض كل ما احتوى عليه ديوان «ابن الشبل» من قصائد ومقطعات على مصادر التراث العربي أن ما جمعه د «الكيلاني» ليس كله خالص النسبة إليه، ففي الديوان بعض المقطعات ليست خالصة النسبة «لابن الشبل»، تم إدراجها في الديوان دون إشارة إلى الاختلاف الوارد في نسبتها، وجملة هذه المقطعات المدرجة وهما في الديوان تبلغ خمس مقطعات، هي:

(١)

النتفة رقم (١٧) ص ٧٧، وتقع في بيتين، هما: [من الكامل]

١- أَحْفَظْ لِسَانَكَ لَا تَبُحْ بِثَلَاثَةٍ سِنٍ وَمَالٍ مَا اسْتَطَعْتَ وَمَذْهَبٍ

٢- فَعَلَى الثَّلَاثَةِ تُبْتَلَى بِثَلَاثَةٍ بِمُكْفَرٍ وَبِحَاسِدٍ وَمُكَذَّبٍ

الرواية: (١) ورد البيت الأول في نفح الطيب، وخلاصة الأثر برواية: «سِنٌ وَمَالٌ».

(٢) وورد البيت الثاني في خلاصة الأثر برواية: «وبفاضح ومكذب».

التعقيب: أدرجت هذه النتفة في شعر ابن الشبل، وخرُجَتْ على مصدرين، هما: معجم

الأدباء ١٠٨٣/٢، وعيون الأنباء ص ٣٣٩.

قلت: النتفة غير خالصة النسبة لابن الشبل البغدادي، فيلزم إخراجها من الصحيح من

شعره، ووضعها في قسم خاص بما نسب إليه وإلى غيره من الشعراء، فهي بلا

نسبة في نفح الطيب ٢٠٧/٥، وقدم لها ابن الجوزي في كتابه صيد الخاطر ٢٤٦

بقوله: «وأنشدنا محمد بن عبد الباقي البزاز». وهي لأبي العلاء البغدادي في

خلاصة الأثر ٤٩١/١.

(٢)

النتفة رقم (٤٥) ص ٩٧، وتقع في بيتين أيضاً، هما: [من الطويل]

١- وَلَوْ أَنَّنِي أُعْطِيتُ مِنْ دَهْرِي الْمَنَى وَمَا كُلُّ مَنْ يُعْطِي الْمَنَى بِمُسَدَّدٍ

٢- لَقُلْتُ لَأَيَّامٍ مَضَيْنَ: أَلَا أَرْجِعِي! وَقُلْتُ لَأَيَّامٍ أَتَيْنَ: أَلَا أْبْعِدِي

الرواية: (٢) ورد البيت الثاني في نور القبس برواية: «ارجعي إلينا وأيام».

التعقيب: تم إدراج هذه النتفة في شعر ابن الشبل اعتماداً على مصدر واحد فقط، على

أنها صحيحة النسبة إليه، وليس الأمر كذلك، فهي بلا نسبة في العمدة

٦١٩/١، ومحاضرات الأدباء ١٠٩/٢، وكفاية الطالب ٢٠٨، والتذكرة الحمدونية

٨٢/٥، ومعاهد التصحيح ٢٣٨/٢-٢٣٩، وأرجح نسبتها لأبي العالية الشامي (ت بعد ٢٤٠هـ) فهي له في نور القبس ٢١٠، وفوات الوفيات ١/٣٥٠-٣٥١، والوافي بالوفيات ١٢/٢٠٩.

(٣)

النتفة رقم (٦٠) ص ١١٣، وتقع في بيتين كذلك، هما: [من البسيط]

١- تَسَلَّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ بِالْحَيَاةِ فَقَدْ يَهُونُ بَعْدَ بَقَاءِ الْجَوْهَرِ الْعَرَضُ

٢- يُعَوِّضُ اللَّهُ مَالاً أَنْتَ مُتْلِفُهُ وَمَا عَنِ النَّفْسِ إِنْ أَتْلَفَتْهَا عَوِضُ

الرواية: (١) ورد البيت الأول في الوافي بالوفيات برواية: «تعز.... عند بقاء...».

(٢) وورد البيت الثاني في المصدر نفسه برواية: «س سيخلف الله ز.

التعقيب: أدرجت ت هذه النتفة في ديوان ابن الشبل على أنها خالصة النسبة إليه، وليس الأمر كذلك، فهي للنسابة الحلبي الأشرف بن الأغبر بن هاشم في الوافي بالوفيات ٩/٢٦٨.

(٤)

النتفة رقم (٨٧) ص ١٢١، وتقع في ثلاثة أبيات، هي: [من الطويل]

١- إِذَا كَانَ دُونِي مَنْ بُلِيْتُ بِجَهْلِهِ أَيْتُ لِنَفْسِي أَنْ أَقَابِلَ بِالْجَهْلِ

٢- وَإِنْ كُنْتُ أَدْنَى مِنْهُ فِي الْحِلْمِ وَالْحَجَى عَرَفْتُ لَهُ حَقَّ التَّقَدُّمِ وَالْفَضْلِ

٣- وَإِنْ كَانَ مِثْلِي فِي الْفَطَانَةِ وَالْحَجَى أَرَدْتُ لِنَفْسِي أَنْ أَجَلَّ عَنِ الْمِثْلِ

الرواية: (٢) ورد البيت الثاني في الجليس والأنيس برواية: «في الفضل والحجى... فإن له حق التقدم»، وورد في الفرر والعرر برواية: «أدنى منه في العلم.....».

(٣) وورد البيت الثالث في ديوان الناشيء الأكبر، والفرر والعرر برواية: «مثلي في محل من النهي».

التعقيب: أدرجت هذه المقطعة في ديوان ابن الشبل، وخرجت على مصدر واحد فقط على أنها صحيحة النسبة إليه، وهذا أمر مجانب للصواب، فهي للناشيء الأكبر في ديوانه برقم ١٠٦ ص ٥٤، ويضاف إلى تخريجها: الفرر والعرر فهي له فيه ٢٧٢، وأنشدها النضر بن شميل (ت ٢٠٤هـ) في ثلاثة أبيات، منها بيت ورد بعد الأول ولم يرد هنا، هذا البيت هو:

وَإِنْ كَانَ مِثْلِي فِي مَحَلِّي مِنَ الْعُلَا هَوَيْتُ إِذَا حِلْمًا وَصَفَحًا عَنِ الْمِثْلِ

وانظر في ذلك الجليس والأنيس ٤١٣/٢، وأظن أن إنشاد النضر بن شميل هذه المقطعة كفيلا بأن يدحض صحة نسبة هذه المقطعة لابن الشبل، وسر ذلك راجع إلى الفاصل الزمني البعيد بينهما.

(٥)

النتفة رقم ٩٧ ص ١٣٧، وتقع في ثلاثة أبيات، هي: [من الطويل]

- ١- أيا جَبَلِي نعمان بالله خَلِيَا نَسِيمَ الصَّبَا يَخْلَصَ إِلَيَّ نَسِيمُهَا
- ٢- أَجِدْ بَرْدَهَا أو تَشْفِ مِنِّي حَرَارَةً عَلَى كَبِدٍ لَمْ يَبْقَ إِلَّا صَمِيمُهَا
- ٣- فَإِن الصَّبَا رِيحٌ إِذَا مَا تَنَفَّسَتْ عَلَى كَبِدٍ حَرَاءَ قَلَّتْ هُمُومُهَا

الرواية: (١) ورد البيت الأول في ديوان المرار الفقعسي برواية: «طريق الصبا».

(٢) وورد البيت الثاني في ديوان المرار الفقعسي برواية: «مني صبا».

(٣) وورد البيت الثالث في ديوان المرار الفقعسي برواية: «فإن ربح الصبا إذا ما تَسَمَّتْ... على نفس مهموم تجلَّتْ هُمومها».

التعقيب: أدرجت هذه المقطعة في ديوان ابن الشبل دون إشارة إلى الاختلاف الوارد في نسبتها إليه، وأرى أنها ليست صحيحة النسبة إليه، فهي بزيادة بيتين قبل الأول وبعد الأخير للمرار الفقعسي في ديوانه ص ٢٧٧، وانظر ما بهامشه من مصادر.

ثالثاً. رصد ما لم يرصد من الروايات:

لم تستوعب محاولة د. «الكيلاي» لجمع شعر «ابن الشبل» كل الروايات التي أتت على ذكرها مصادر التراث العربي التي روت هذا الشعر، وأورد فيما يلي ثبوتاً، رصدت فيه الروايات التي لم تذكر في الديوان إتماماً للتحقيق، وتطلعاً إلى تزويد الباحث والقارئ بروايات أخرى للأبيات، لعل فيها فائدة له ولشعر «ابن الشبل»

● القصيدة رقم (١) ص ٦٥-٦٦: ورد البيت الأول منها في الدر الفريد ١٠٨/٤ برواية: «ما لحي بعد ميت وفاء». وورد البيت الثاني فيه أيضاً ١٠٨/٤ برواية: «وسلت عن شقيقها الخنساء». وورد البيت الرابع في أنوار الربيع ٢٢٦/٢-٢٢٧ برواية: «غير أن الأموات مروا فأبقوا»، وورد في الدر الفريد ١٠٨/٤ برواية: «وبغوا ... تسيفها الأحشاء». وورد في عيون الأنبياء ٢٣٥-٢٣٧ برواية: «لا يسيفه»، وورد في فوات الوفيات برواية: «عن أن الأموات مروا وأبقوا». وورد البيت السادس في أنوار الربيع ٢٢٦/٢-٢٢٧ برواية: «يذهب العمر ... فيغدوا بما يسر». وورد البيت السابع في الدر الفريد ٢٦/٤ برواية: «صحة الجسم» بدلاً من: «صحة المرء»، وورد في زهر الأكم ٤٢/٣ برواية: «هو البقاء». وورد البيت الثاني عشر منها في زهر الأكم ٤٢/٣، والجواهر الثمينة في محاسن المدينة ٢٠٠ برواية: «حلم تمر به»، وورد البيت الثالث عشر في زهر الأكم ٤٢/٣، وأنوار الربيع في أنواع البديع ٢٢٦/٢، ٢٢٧ برواية:

من فساد يكون في عالم الكو ن فما للنفوس منها اتقاء

وورد في الجواهر الثمينة في محاسن المدينة برواية: «من فساد يكون في عالم الكسوف». وورد البيت الرابع عشر في الدر الفريد ١٠٨/٤، ٢٩٦ برواية: «قبح الله لذة لأذانا». وورد البيت الخامس عشر في الجواهر الثمينة في تاريخ المدينة ٢٠٠ برواية: «فإيادنا علينا». وورد البيت السادس عشر في فوات الوفيات ٣/٤٠، ٣٤١، والوافي بالوفيات ١٢/٣، ١٣ برواية: «وقليلاً ما يصحب»، وورد في الجواهر الثمينة في تاريخ المدينة ٢٠٠، ونصرة الثائر ١١٧، ١١٨، وأنوار الربيع في أنواع البديع ٢٢٦/٢-٢٢٧ برواية: «فقيم الشقاء وقيم العناء». وورد البيت الثامن عشر في الوافي بالوفيات ١٢/٣، ١٣ برواية: «على الميت شيء». وورد البيت التاسع عشر في عيون الأنبياء ٢٣٦ برواية: «كيف الغيب». وورد البيت العشرون فيه أيضاً ٢٣٦ برواية: «ولا استبان». وورد البيت الرابع والعشرون فيه ٢٣٦ برواية: «أين تلك الخلال والخرم». وورد البيت السابع والعشرون في الدر الفريد ١٠٨/٤ برواية: «وما ليس» بدلاً من: «وما بي»، وورد البيت

الثاني والثلاثون في الدر الفريد ٨/٣ برواية: «إن يكن قَدَمَتُهُ»، وورد البيت الثالث والثلاثون في الدر الفريد ١٠٨/٤، ٤٨٣/٥ برواية: «في حضنتها» وورد البيت الرابع والثلاثون فيه أيضاً ١٠٨/٤، ١٤/٥ برواية: «وللبلى كل ذا الخلق»، وورد البيت الخامس والثلاثون فيه أيضاً ١٠٨/٤ برواية: «موت ذي العالم المميز بالنطق ... وذا السارح البهيم سواء»، وورد في أنوار الربيع في أنواع البديع ٢/٢٢٦-٢٢٧ برواية: «موت ذا العالم المؤيد بالنطق وذا السارح». وورد البيت السادس والثلاثون في أنوار الربيع في أنواع البديع ٢/٢٢٦-٢٢٧ برواية: «لا شقي بفقده»، بدلاً من: «لا غوي لفقده». وورد البيت السابع والثلاثون في الدر الفريد ١٠٨/٤ برواية: «رمسها البیداء». وورد البيت الثامن والثلاثون فيه أيضاً ١٠٨/٤ برواية: «كم شمس وكم بدور وكم أطواد حلم». وورد البيت التاسع والثلاثون في عيون الأنباء ٢٢٥-٢٢٧ برواية: «صبح ثم حطت». وورد البيت الأربعون في أنوار الربيع ٢/٢٢٦-٢٢٧ برواية: «بدء قوم الآخرين انتهاء».

● النتفة رقم (٢) ص ٦٩: ورد البيت الأول منها في مرآة الجنان ٥٥/٤ برواية: «لعادل ولغادر... الضراء والسراء»، وورد في نتائج المذاكرة ٢٨، والأفضليات ٢٦٨، والدر الفريد ٥/٤٢١ برواية: «لا تعلمن مؤالفاً ومخالفاً»، وورد في زهر الأكم برواية: «الضراء والسراء»، وورد البيت الثاني منها في نتائج المذاكرة ٢٨، والأفضليات ٢٦٨، والدر الفريد ٥/٤٢١ برواية: «المتوجعين مضاضة»، وورد في الديوان هكذا «المتوجعين»، وهو خطأ مطبعي؛ حيث وردت هذه الكلمة في كل مصادر البيت هكذا «المتوجعين»، وورد البيت في أنوار الربيع ٢/١٨١، والكنى والألقاب ١/٢٢٥، وبحار الأنوار ١٠٤/٢٤ برواية: «حزاة».

● النتفة رقم (٦) ص ٧١: ورد البيت الأول منها في مثير الفرام الساكن ٣٥٧، وتشنيف السمع ٧٢ برواية: «تخذ لهم».

● القصيدة رقم (٧) ص ٧١، ٧٢: ورد البيت الثالث منها في ذم الهوى برواية: «أن تعتاق قلبي خريدة»، وورد في عيون الأنباء ٢٣٩ برواية: «فلا تتكروا»، وورد البيت الخامس في المحمدون من الشعراء ٣٨٠، ٣٨١ برواية: «وللبيض من ماء الرقاب»، وهي رواية أفضل من رواية الديوان.

● المقطعة رقم (١١) ص ٧٤: ورد البيت الثاني منها في دمية القصر (طبعة د. الحلو) ١/٢٥٤ برواية: «من وحشة النوى»، هي رواية أفضل من رواية الديوان، وورد البيت الرابع منها في الدمية أيضاً برواية: «عن أثاء حضرتك».

● النتفة رقم (١٤) ص ٧٦: ورد البيت الأول منها في محاسبة النفس ١٠١ برواية: «إذ كان أدنى «وورد الثاني منها فيه أيضاً برواية: «بأسني العيشالجهل في تقريطه».

● القصيدة رقم (٢٢) ص ٨١: ورد البيت الأول منها في مطبوع مسالك الأبصار ١٩٣/٩ برواية: «ملا مات»، وورد البيت الرابع في عيون الأنباء ٣٣٩-٣٤٠ برواية: «الزمان به « وورد في فوات الوفيات برواية: «عهدناها»، وورد في الوافي بالوفيات برواية: «لا يبعدن ... به «، وورد البيت الخامس في مسالك الأبصار مطبوعه ومخطوطه برواية: «به ... عندي بقيات»، وورد البيت السادس في فوات الوفيات ٣/٣٤٣-٣٤٤ والوافي بالوفيات ٣/١٥-١٦، ومسالك الأبصار مطبوعه ومخطوطه، والدر الفريد برواية: «دولة الأفراح «، وورد البيت السابع في عيون الأنباء ، والوافي بالوفيات ، والدر الفريد برواية «وهي عارية... وإنما لذة الدنيا إعارات». وورد البيت الثامن منها في فوات الوفيات ٣/٣٤٣-٣٤٤، ومسالك الأبصار مطبوعاً ١٩٣/٩ ، ومخطوطاً ١٠١/٩ برواية: «في فلك الظلماء». وورد البيت العاشر في فوات الوفيات ٣/٣٤٣-٣٤٤ برواية: «من زمن الحمى أحيائه باعتياد». وورد البيت الثالث عشر في فوات الوفيات ٣/٣٤٣-٣٤٤ برواية: «منها ملأات» بدلاً من «منها شعاعات». وورد البيت الخامس عشر في مسالك الأبصار مخطوطاً ١٠١/٩، ومطبوعاً ١٩٣/٩ برواية: «قد وقع الدهر سطرًا في صحيفته «، وورد في مطبوع مسالك الأبصار برواية: «شارب الخمر مسرات»، وورد البيت السادس عشر في مخطوط مسالك الأبصار ١٠١/٩ برواية: «فعل اللبيب فلتأخير آفات «.

● النتفة رقم ٢٣ ص ٨٤: ورد البيت الأول منها في مطالع البدور ١٢٠/١ برواية: «ورد غلا».

● المقطوعة رقم (٢٧) ص ٨٦: ورد البيت الأول منها في مخطوط مسالك الأبصار ١٠١/٩ برواية: «تلق بالصبر ضيف الهم ترحله»، وروايته في مطبوعه ١٩٢/٩، ١٩٣ كروايته في الديوان. وورد البيت الثاني في مطبوع مسالك الأبصار ومخطوطه برواية:

فَالْخَطْبُ مَا زَادَ إِلَّا وَهُوَ مُنْقَصٌ وَالْأَمْرُ مَا ضَاقَ يَوْمًا وَهُوَ مُنْفَرَجٌ

وورد عجزه في عيون الأنباء برواية: « والأمر ما ضاق إلا وهو منفرج»

● المقطوعة رقم (٢٥) ص ٩٢: ورد البيت الثالث منها في الدر الفريد ٤٠٣/٥ برواية: «لا تأمنن منافسًا»، وورد البيت الرابع فيه أيضاً برواية: «سطا عليه «.

● المقطوعة رقم (٤٢) ص ٩٥: ورد البيت الخامس منها في تمام المتون ١١٥ برواية: «صور الله خلقه»

● القصيدة رقم (٥٠) ص ١٠٧: ورد البيت الأول منها في مخطوط مسالك الأبصار ١٩٢/٩، ومطبوعه هكذا:

وَكأنما الإنسانُ فيه عِبْرَةٌ ... متلوناً والحُسْنُ فيه مُعَارُ

وورد في معجم الأدباء ٢٥/١٠ برواية: «متكون والحس منه»، وورد البيت الثاني منها أيضاً في فوات الوفيات ١٤٢/٣، والوافي بالوفيات برواية: «متصرف ... ومكلف»، وورد في معجم الأدباء ٢٥/١٠ برواية: «متصرف ... ومسير»، وورد البيت الرابع منها في عيون الأنباء ٣٣٧، ومعجم الأدباء ٢٥/١٠ برواية: «ويصر بعدما». وورد البيت السادس منها كذلك في عيون الأنباء ٣٣٧، والوافي بالوفيات ١٤/٣ برواية: «العبث به الأفكار». وورد البيت السابع منها كذلك في عيون الأنباء ٣٣٧ برواية: «لا يعرف الإفراط»

● النتفة رقم (٥١) ص ١٠٨: ورد البيت الثاني منها في دمية القصر ٢٥٣/١ (طبعة عبدالفتاح الحلو) برواية «تلوح»، وهي الرواية الصحيحة.

● المقطعة رقم (٥٥) ص ١٠١، ١١١: ورد البيت الثالث منها في شذرات الذهب ١٣٨/٢ برواية: «فطووا رياح»

● النتفة رقم (٥٦) ص ١١١: ورد البيت الثاني منها في الدر الفريد ٣٥٧/٥ برواية: «السن أنزعها».

● النتفة رقم (٦٢) ص ١١٥: ورد البيت الأول منها في الوافي بالوفيات ١١/٣ برواية: «ما تبنيه يهدمها»، وورد في المستطرف ٤٨٢/٢، وحياة الحيوان ٦٠١/٤ برواية: «وللحوادث ما يبقى وما يدع»، وورد في حياة الحيوان ٦٠١/٤ برواية: «يفنى الحريص»، وورد في نهاية الأرب ٢٩٨/١٠ برواية: «يفنى الحريص لجمع».

● النتفة رقم (٦٤) ص ١١٦: ورد البيت الأول منها في عيون الأنباء ٣٣٩، ومخطوط مسالك الأبصار ١٠١/٩ برواية: «والذل والعار حرص النفس والطمع». وورد البيت الثاني منها أيضاً في معجم الأدباء ٢٨/١٠ برواية: «فماذا منه» بدلاً من: «بماذا عنه».

● القصيدة رقم (٧٢) ص ١٢١: (٢) ورد البيت الثاني منها في عيون الأنباء ٣٢٨ برواية: «وحرمة ودي». وورد البيت السادس منها فيه أيضاً برواية: «مد سدوله» بدلاً

من: «أرخی سدوله». وورد البيت السابع في معجم الأدباء ٣٤/١٠ برواية: «أيجمل» بدلاً من: «أيجمل»، وهي رواية أدق من الرواية التي أثبتت في الديوان.

● المقطعة رقم (٧٤) ص ١٢٢-١٢٣: ورد البيت الثاني منها في المحمدون من الشعراء ٣٩٣ برواية: «تسبي العقول». وورد البيت الثالث منها فيه كذلك وفي الحماسة الشجرية ٦٤٣/٢-٦٤٤ برواية: «والنار أذهلها عن الإحراق»، وهي رواية أفضل من رواية الديوان التي وردت هكذا: «والنار أذلها عن الإحراق».

● المقطعة رقم (٧٧) ص ١٢٥: ورد البيت الثاني منها في الدر الفريد ١٤٣/٢، ١٣٧/٤ برواية: «من مهجة» بدلاً من: «من جثة». وورد البيت الثاني منها في المحمدون من الشعراء ٣٩٤ برواية: «ذو جدة»، وهي الرواية الصحيحة، والجدير بالذكر أن كتاب المحمدون من الشعراء هو المصدر الوحيد لتخريج هذه المقطعة في الديوان. وورد البيت الرابع في الدر الفريد ١٤٣/٢ برواية: «فالبهر يرزق قوم منه». وورد البيت الرابع في الدر الفريد ١٤٣/٢ برواية: «بين الفلك والحنك».

● المقطعة رقم (٨٢): ورد البيت الأول منها في الخميسية بروية: «جلس لبيتي».

● النتفة رقم (٨٣): ورد البيت الثاني منها في المحمدون من الشعراء ٣٩٧ برواية: «وبلى بما لا أشتهي»، وهي الرواية الدقيقة التي بها يتفق معنى البيت مع معنى سابقه.

● المقطعة رقم (٨٦): ورد البيت الثالث منها في الوافي بالوفيات ١٦/١٨-٢٠ برواية: «على الرسل» بدلاً من: «مع الرسل»، ورواية الوافي بالوفيات أدق من رواية الديوان. وورد البيت الرابع منها في الوافي بالوفيات أيضاً ١٦/١٨-٢٠ برواية: سولي ألف نمرود وألف أبوجهل»، ورواية الديوان هي الرواية الصحيحة.

● النتفة رقم (٨٩): ورد البيت الثاني منها في تمام المتون ٣٠٠ برواية: «لولا جوهر منه».

● القصيدة رقم (١٠٥): ورد البيت السادس منها في المحمدون من الشعراء ٤٠٠ برواية: «بمثالث»، ورواية الديوان غير دقيقة، والجدير بالذكر أن كتاب المحمدون هو المصدر الوحيد لتخريجها.

● المقطعة رقم (١٠٦) ص ١٤٣: ورد البيت الرابع منها في المحمدون من الشعراء ٤٠٠، - المصدر الوحيد لتخريجها - برواية: «فما أثيك» وقد رُصِدَت الرواية في الديوان هكذا: «فما أنيثك».

- النتفة رقم (١٠٧) ص ١٤٣: ورد البيت الثاني منها في فوات الوفيات برواية: «سواء في الحسن» بدلاً من: «ثانيه في الحسن».
- المقطعة ١١٢ ص ١٤٦: (٢) ورد البيت الثاني منها في تاريخ الحكماء ٣٣٣ برواية «ذو عزم». وورد البيت الثالث منها فيه أيضاً برواية: «طرق الهدى منها».

رابعاً - استقصاء مصادر التخرّيج:

المحت أنفأ إلى أن هناك طائفة من المصادر لم يتم الرجوع إليها في مرحلة جمع الشعر، وقد أدى ذلك إلى إخلال المجموع الشعري بكثير من الأبيات، ومن المسلم به أن يؤدي عدم الرجوع إلى تلك المصادر إلى إيجاد نقص في الروايات والتخرّيجات، ومن المسلم به أيضاً أن استقصاء مصادر التخرّيج يعد أحد الأمور الأساسية اللازمة في جمع وتحقيق الدواوين التي فقدت أصولها المخطوطة، ولهذا الاستقصاء أهمية عظمى في الدراسات الأدبية والنقدية، فهو يشير إشارة بيّنة إلى مكانة الشاعر، ومنزلته الفنية من خلال سيرورة الشعر، وتهافت الرواة على روايته، كما يفصح عن طبيعة هذا الشعر واتجاه الشاعر الشعري، وذلك من خلال إدراك طبيعة المصادر التي أتت على رواية هذا الشعر، كما يساعد الباحث، ويعبد السبيل أمامه لدراسة هذا الشعر، لأن فيه ذكراً للمصادر، وتحديدًا لأماكن الشعر فيها، ومن ثم يسهل على الباحث الرجوع إليه في تلك المصادر لإدراك ما فيها من تعليق نقدي، هذا فضلاً عن كون الاستقصاء يزيد في توثيق الشعر، وتعزيز نسبته للشاعر؛ لذا كانت أهميته في العملية التحقيقية عظيمة، خاصة في جمع الدواوين ذات الأصول المفقودة، وانطلاقاً من هذه الأهمية بادرت إلى استقصاء تخرّيج قصائد ومقطعات «ابن الشبل البغدادي»، وهذا ثبت ضمنته من التخرّيجات ما لم يتضمنه الديوان .

● القصيدة رقم (١) ص ٦٥-٦٦: وردت القصيدة في ٢٨ بيتاً في الدر الفريد ١٠٨/٤ بزيادة بعض الأبيات لم ترد في الديوان، وتم استدراكها في هذا البحث، وينقص الأبيات ذوات الأرقام ٢٢ ، ٢٤-٢٦، ووردت الأبيات ١، ٣، ٦، ٤٠، ٣٥، ٣٦، ٧، ٩، ١١-١٢، ١٣، ١٤، ١٥ منسوبة لابن الشبل في أنوار الربيع في أنواع البديع ٢٢٦/٢ - ٢٢٧، والأبيات ٥-١١، ١٦، ١٤، ١٥ له على هذا الترتيب في نصرة الشاعر على المثل الشاعر ١١٧، ١١٨، والأبيات ٧، ٨-١٣، ١٦، ١٤، ١٥ على هذا النحو في زهر الأكم ٤٢/٣، والجواهر الثمينة في محاسن المدينة ٢٠٠، والأبيات ١، ٥، ٦، ٩-١١ له في الكنى والألقاب ٢٢٥/١، والبيت الثالث له في الدر الفريد ١٠١/٥، والسابع له فيه ٢٦/٤، والثامن كذلك في ٦١/٣، والتاسع أيضاً ٧٧/٥، والحادي عشر مثله ٢٩٦/٣، والرابع عشر في الدر الفريد أيضاً ٢٩٦/٤، والخامس عشر فيه ١٦٥/٥، والتاسع عشر فيه ٢١٧/٥، والثاني والثلاثون فيه ٨/٣، والثالث والثلاثون فيه ٤٨٣/٥، والرابع والثلاثون فيه ١٤/٥، والسادس والثلاثون فيه ٤٤٤/٥، والأربعون فيه ٢٦٣/٢.

● النتفة رقم (٦) ص ٧١: له في مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن ٣٥٧.

وتشنيف السمع ٧٢.

● القصيدة رقم (٧) ص ٧١: ورد البيت الثالث منها منسوباً إليه في ذم الهوى ٦٤٥، ومعه بيت آخر لم يرد فيها، وتم استدراكه في هذا البحث.

● النتفة رقم (١٤) ص ٧٦: بلا نسبة في محاسبة النفس للكفعمي ص ١٠١.

● النتفة رقم (١٨) ص ٧٨: لابن الشبل في الدر الفريد ٤٦٠/٥.

● القصيدة رقم (٢٢) ص ٨٠، ٨١: وردت الأبيات ١٦، ١٧، ٦، ٧ منها على هذا الترتيب لابن الشبل في الدر الفريد ٢٤٤/٣، ٤٥/٥، ووردت الأبيات ١، ٥، ٦، ٨، ١٥، ١٦ له في مخطوط مسالك الأبصار ١٠١/٩، ومطبوعه ١٩٣/٩، وورد البيتان ١٦، ١٧ له في تاريخ الإسلام ٢٥٨/١٠.

● النتفة رقم (٢٣) ص ٨٤: نسبت لابن الشبل البغدادي في مطالع البدور ١٢٠/١.

● النتفة رقم (٢٦) ص ٨٥ لابن الشبل في الوافي بالوفيات ١٩/١٨، وبقيتها مستدركة منه في هذا البحث.

● المقطعة رقم (٢٧) ص ٨٦: له في مخطوط مسالك الأبصار ١٠١/٩، ومطبوعه ١٩٢-١٩٣/٩.

● النتفة رقم (٣٣) ص ٩٠: نسبت لأربعة شعراء، وليس لشاعرين فقط، ويزاد على تخريجها: هي لابن الشبل في مخطوط مسالك الأبصار ١٠١/٩، ومطبوعه ١٩٢/٩، ونسبت لعلي بن إدريس اليماني في جذوة المقتبس ١٧٠، والمطرب ١٢٠، وفوات الوفيات ١٦٢/١، والوافي بالوفيات ٢٢٨/٨، وخزانة الأدب لابن حجة الحموي ٤٩٢/١، ونفح الطيب ٧٥/٤، وزهر الأكم ١٦٢/٢، وحماسة القرشي ٤٧٦، وهي لبعض المغاربة في المثل السائر ٣٢/٢، ونصرة الشاعر على المثل السائر ٢٢٤، والكشكول ٤٢/٢، ولابن هانئ الأندلسي في بديع ابن منقذ ٢٢٧، وجوهر الكنز ١٩٤، ولم ترد في ديوانه، ولابن دريد في التذكرة الفخرية ١٩٥، ولم ترد في ديوانه بطبعته، وبلا نسبة في نهاية الأرب ١٤١/٤، والكشكول ٣٢٤/١.

● النتفة رقم (٣٥) ص ٩١: ورد البيت الأخير منها منسوباً لابن الشبل في الدر الفريد ٣٥١/٤.

● المقطعة رقم (٤٢) ص ٩٥: لابن الشبل في تمام المتن ١١٥.

● القصيدة رقم (٤٩) ص ٩٩-١٠١: وردت الأبيات ١-٢١، ٢٢-٢٣، ٢٢-٣١، ٣٤-٥٠.

على هذا النحو لابن الشبل في مخطوط مسالك الأبصار ٩/٩٨-١٠٠، ومطبوعه ٩/١٨٧-١٩١ .

● القصيدة رقم (٥٠) ص ١٠٧: ورد البيتان ١، ٢ منها لابن الشبل في مخطوط مسالك الأبصار ٩/١٠٠، ومطبوعه ٩/١٩٢ .

● المقطعة رقم (٥٥) ص ١١٠-١١١: لابن الشبل في شذرات الذهب ٢/١٢٨، والكنى والألقاب ٢/١٨٠ .

● النتفة رقم (٥٦) ص ١١١ له في الدر الفريد ٥/٣٥٧ .

● النتفة رقم (٦٢) ص ١١٥ له في الكنى والألقاب ١/٣٢٥، وبلا نسبة في نهاية الأرب ١٠/٢٩٨، وحياة الحيوان الكبرى ٤/٦٠١، والمستطرف ٢/٤٨٢ .

● النتفة رقم (٦٤) ص ١١٦ له في مخطوط مسالك الأبصار ٩/١٠١، ومطبوعه ٩/١٩٢ .

● القصيدة رقم (٧٢) ص ١٢١: ورد البيتان ١، ٢ منها بلا نسبة في المدهش ٣٢١ .

● المقطعة رقم (٧٧) ص ١٢٥: لابن الشبل في الدر الفريد ٢/١٤٣، والثاني منها له فيه أيضاً ٤/١٣٧ .

● المقطعة رقم (٨٢) ص ١٢٨: له في الأمالي الخميسية ٢/٢٠١-٢٠٢ من قصيدة تم استدراكها في هذا البحث

● المقطعة رقم (٨٣) ص ١٢٩: له في المحمدون من الشعراء ٣٩٧ .

● النتفة رقم (٨٩) ص ١٣٢: له في تمام المتن ٣٠٠ .

● النتفة رقم (١٠٧) ص ١٤٣: ورد عجز البيت الثاني منها بلانسبة في الحان السواجع ٢/٢٠٩ .

● المقطعة رقم (١١٢) ص ١٤٦: له في تاريخ الحكماء للشهرزوري ٣٢٢ .

● رقم (٣) ص ٦٩ له في مرآة الجنان ٤/٥٥، والدر الفريد ٥/٤٢١، وبحار الأنوار ١٠٤/٢٤، والكنى والألقاب ١/٢٢٥، وهي بلا نسبة في نتائج المذاكرة ٢٨، والأفضليات ٢٦٣، وأنوار الربيع في أنواع البديع ٢/١٨١، والجواهر الثمينة في محاسن المدينة ٢٢٨، ونسبت لابن نقطة خطأ في زهر الأكم ١/١٧٢ .

خامساً. تصحيح الأوهام العروضية:

بذل د. «الكيلاني» جهداً كبيراً في ضبط شعر «ابن الشبل البغدادي»، وإقامة وزنه، والنص على أوزان المقطعات والقصائد، بإثبات أسماء البحور أعلى يسار كل قصيدة ومقطعة، ولا أنكر أنه صحح الأوهام التي وقعت في تحديد الأوزان في كتاب «المحمدون من الشعراء وأشعارهم»، وهذا بيان بما صححه من أوهام في هذا الكتاب:

١- المقطعة رقم (٢٠) ص ٧٩: ذكر محقق كتاب «المحمدون من الشعراء وأشعارهم» ص ٢٧٨ أنها من الكامل، وأثبت د. «الكيلاني» وزنها الصحيح، وهو: مجزوء الكامل.

٢- المقطعة رقم (٣٧) ص ٩٢: ذكر محقق الكتاب السابق ص ٢٨٥ أنها من الرجز، وأثبت د. «الكيلاني» وزنها الصحيح، وهو: السريع.

٣- المقطعة رقم (٥٧) ص ١١٢ ذكر محقق الكتاب السابق ص ٢٨٩ أنها من الكامل وأثبت د. «الكيلاني» وزنها الصحيح، وهو: مجزوء الكامل.

وهذا التصحيح لا يمنع من الإشارة إلى الهنات الهيئات في الجانب العروضي المتمثلة في شعر «ابن الشبل البغدادي»، وهذا بيان بما وقفت عليه منها:

١- النتفة رقم (٩١) ص ١٢٣، ومطلعا:

يَلُومُ عَلَى لَوْنٍ كَسَانِيهِ حُبُّهُ وَقَدْ شَرَكْتُ فِي أَصْفَرَارِي خَلَاخُلُهُ

حدد د. «الكيلاني» وزن هذه النتفة بأنها من الكامل منساقاً في ذلك وراء وهم د. «رياض مراد» محقق كتاب «المحمدون من الشعراء» ص ٢٩٧ الذي ذهب إلى أنها من الكامل، وهذا غير صحيح، فهي من الطويل، وليس من الكامل.

٢- البيت الثالث من المقطعة رقم (٢١) ص ٧٩-٨٠، وهو:

صَفَفْنَا عَلَى السَّمْطِ أَتْرَجْنَا فَعَنْ بَعْضِنَا قَدْ حُجِبَ

هذا البيت من المتقارب، وتم إثباته على الصورة السابقة، وهو مضطرب الوزن في عجزه، بسبب سقوط المبتدأ المؤخر، (بعضنا)، وصواب البيت أن يأتي هكذا:

صَفَفْنَا عَلَى السَّمْطِ أَتْرَجْنَا فَعَنْ بَعْضِنَا بَعْضُنَا قَدْ حُجِبَ

٣- البيت الأول من المقطعة رقم (١٠٢) ص ١٤٠، وهو:

إِنْ تَكُنْ تَجْزَعُ مِنْ دَمٍ عِي إِذَا فَاَضَ فَاَصُنُهُ

هذا البيت من مجزوء الرمل، وقد كتب على الصورة السابقة، وهو من الأبيات المدورة ، وتفعيلة عروضه كما كتب ليست متفقة مع تفعيلة العروض في باقي أبيات المقطعة، ولكي يكون كذلك يكتب على الصورة التالية :

إِنْ تَكُنْ تَجْزَعُ مِنْ دَمٍ عِي إِذَا فَاضَ فَاصُّنُهُ

٤- البيت السابق من المقطعة رقم (٢٤) ص ٩١، وهو:

كَانَ لِي غَشُّهُ فَبَالَ حَرْدٍ وَالْفِشُّ افْتَضِحَ

هذا البيت من مجزوء الخفيف، وقد ورد الفعل (افتضح) في البيت هكذا، وليستقيم وزن البيت لابد من إثبات همزة الوصل ضرورة .

٥- البيت الثالث من المقطعة رقم (٢٥) ص ٩٢، وهو :

فَتَوَقَّ كَيْدَ مُنَافِسٍ لَكَ رُتَبَةً وَلَوْ أَنَّهُ الْوَلَدُ الَّذِي لَكَ يُوَلَدُ

هذا البيت من الكامل التام، ووزنه مكسور بإثبات همزة (أن)، ولاستقامته يلزم حذف هذه الهمزة هكذا: «ولو انه».

٦- البيت الأول من النتفة رقم (٢٨) ص ٩٣، وهو :

فَلَوْ أَنَّ قَلْبَكَ مِثْلُ جِسْمِكَ رِقَّةً لَمْ يَرْهَقِ الْمُشْتَاقُ مِنْكَ صُدُودُ

وهذا البيت من الكامل التام أيضاً، وهو مكسور في صدره بسبب إثبات همزة (أن) ولاستقامته يلزم حذف هذه الهمزة هكذا: «فلو ان».

والجدير بالذكر أن هذه الأبيات الثلاثة قد وردت في كتاب «المحمدون من الشعراء وأشعارهم» مكتوبة على الوجه الصحيح الذي أشرت.

سادساً . تصحيح أوهام النقل من المصادر

وقعت في ديوان «ابن الشبل البغدادي» بعض الكلمات تم نقلها من بعض المصادر بطريقة غير دقيقة؛ فأدت إلى غموض معاني الأبيات التي ضمتها، وأسوق الآن أبيات هذه الكلمات مشيراً إلى الرواية الصحيحة.

١- ورد البيت التالي في ديوان ابن الشبل ص ٧٠ هكذا:

كَالْخَمْرِ تَغْلُو الْمَاءَ حُمْرَةً لَوْنِهِ وَشُعَاعُهَا يَغْلُو بَيَاضَ الْمَاءِ

وقد تم نقل هذا البيت من مصدره الوحيد وهو كتاب المحمدون من الشعراء ص ٧٠، والرواية الدقيقة التي وردت في هذا المصدر ٢٧٨ هي: «حمره لونها»، وبهذه الرواية يتضح معنى البيت.

٢- كما تم رصد البيت التالي في ص ٨٤ هكذا:

لَا تُتَكَبَّرُ سِرِّكَ الْمَكْنُونُ خَاطِبَةً وَاجْعَلْ لَمِيَّتِهِ بَيْنَ الْحَشَا جَدًّا

وروايته الصحيحة التي وردت في مصدره الوحيد، وهو كتاب المحمدون من الشعراء ٢٨٢ هي: «خاطبه».

٣- وقد تم إثبات البيت التالي في ص ١٢٥ هكذا:

وَاحْفَظْ قَلِيلَكَ لَا يَغْفُرُكَ ذَا جِدَّةٍ لِمِثْلِهِ الْحِظُّ غَلَطَاتٌ مِنَ الْفَلَكَ

والرواية الصحيحة التي وردت في المصدر الذي اعتمده المحقق ٣٩٤ هي: «ذو جدة»، وعلى هذه الرواية ورد أيضاً في الدر الفريد ١٤٣/٢.

٤- وتم كتابة البيت التالي في ص ١٤٢ هكذا:

وَخَدَا الظَّلَامُ مَعَ الْكَوَاكِبِ سُحْرَةً بِمِثَالِ بْنِ صَوْتِهِ وَمِثْلَانِي

والرواية الصحيحة التي وردت في مصدره الوحيد، وهو كتاب المحمدون من الشعراء ص ٤٠٠ هي: «بمثالث»، وهي أدق من الرواية المعتمدة نظراً لمراعاة معنى البيت.

٥ - وتم رصد البيت التالي في ص ١٤٣ هكذا:

فَمَا أَنْبَأَكَ عَنْ غِيٍّ بِرُشْدٍ لِأَنَّ طِلَابَ مَا أَعْيَا تَجَنَّى

والرواية الدقيقة التي وردت في مصدره، وهو كتاب المحمدون من الشعراء ٤٠٠ هي: «فما أثنيك».

٦ - كما تم إدراج البيت الثاني من النتفة رقم ٨٣ ص ١٢٨ هكذا:

وَيْلِي بِمَا لَا يَشْتَهِي فَإِذَا انْقَضَى وَأَتَى سِوَاهُ رَجَعْتُ أَبْغِي الْأَوَّلَا

وقد اعتمد د. «الكيلاني» في إثبات هذا البيت على كتاب الأنساب المتفقة ص ٨٢ فقط .

قلت: النتفة التي بها هذا البيت في «المحمدون من الشعراء وأشعارهم»، وهو من مصادره، والرواية فيه أدق من رواية الأنساب المتفقة؛ لذا ينبغي الاعتماد عليها، وهي: «وبلى بما لا أشتهي»، وبهذه الرواية يتناسب معنى البيت مع معنى البيت السابق عليه .

سابعاً . تقويم المنهج والتنسيق:

سلك د . «حلمي الكيلاني» منهجاً في جمع شعر «ابن الشبل البغدادي»، ذكره بالتفصيل في سبع نقاط ص ٦٤ تحت عنوان: «منهج العمل»، ويعني من هذه النقاط النقطتان الثانية والثالثة؛ لذا أورد هنا ما قاله د . «الكيلاني» تحت النقطة رقم (٢) من النص التالي: «رتبت بعض الشعر الذي كان مجزئاً أو أبياتاً متناثرة ليألف منه نص متلاحم يربطه رابط فني واحد مع مراعاة المعاني، وتدرج الأفكار» .

وأقول: هذا الكلام طيب وحميد لا غبار عليه، طبقه د . «الكيلاني» في المقطعة رقم ٢١ ص ٧٩ - ٨٠، ولم يطبقه في طائفة من مقطعات الديوان ومنتفه، وربما يكون ذلك عن قصد ودراية من د . «الكيلاني»، والدليل على ذلك أنه قال: «رتبت بعض الشعر» .

غير أنني أرى أنه كان من الأفضل - ما دام قد تحقق شرطه هذا - ضم النتفة رقم (٤٦) وهي في الحكمة إلى المقطعة رقم (٤٢) وهي في الحكمة أيضاً، وهما متحدتان في الوزن وحرف الروي، وحركته، وأول النتفة رقم (٤٦) البيت التالي : (من الطويل)

وَرُبَّ أُمُورٍ بِالْأَقَارِبِ تَلْتَوِي وَرُبَّ أُمُورٍ تَسْتَوِي بِالْأَبَاعِدِ

ومطلع المقطعة رقم (٤٢) هو: (من الطويل)

وَلَا تَحْتَقِرْ ضَعْفَ الْعَدُوِّ وَلَا تَقُلْ عَلَى كَيْدِهِ اسْتَطَوْ بِخِلٍ مُسَاعِدِ

وكذلك أرى من الأفضل ضم المقطعة رقم (٩٦) إلى المقطعة رقم (٩٥)، فهما متحدتان في الغرض ، وهو الحكمة، وكذلك في الوزن، وهو الكامل ، وحرف الروي ، وحركته ، وهو الميم المضمومة ، ومطلع الأولى هو :

أَبَدًا تَفْهَمُنَا الْخُطُوبُ كُرُورَهَا وَنَعُودُ فِي غِيٍّ كَمَنْ لَا يَفْهَمُ

ومطلع الثانية هو :

مَا تَنْفِذُ الْأَقْدَارُ إِلَّا أَنَّهَا بَيْنَ الْخَلَائِقِ وَقَتُّهَا لَا يُعْلَمُ

وكذلك أرى أفضلية ضم النتفة رقم ٦٤ إلى النتفة رقم ٦٢، لأن المعنى فيهما متقارب ، والوزن واحد، وهو البسيط ، وكذلك الروي، وهو الراء المضمومة، والبيت الأول من النتفة الأولى رقم (٦٤) هو :

قَالُوا الْقَنَاعَةُ عِزٌّ، وَالْكَفَافُ غِنَى وَالذُّلُّ وَالْعَارُ حِرْصُ الْمَرْءِ وَالطَّمَعُ

والبيت الأول من النتفة الثانية رقم (٦٢) هو:

يَفْنَى الْبَخِيلُ بِجَمْعِ الْمَالِ مُدَّتَهُ وَلِلْحَوَادِثِ وَالْوَرَاثِ مَا يَدْعُ

أما بخصوص النقطة رقم (٢) في المنهج فإن في المجموع الشعري ما يتعارض مع مضمونها الذي ذهب إليه د. «الكيلاي» في قوله: «رتبت النصوص حسب القوافي على حروف الهجاء.....».

قلت: وقفت على النتفة رقم (٢٦) التالية:

وَسِئَةٌ فِيكَ لَمْ يُجْمَعَنَّ فِي بَشَرٍ: كِذْبٍ، وَكِبَرٍ، وَيُخْلِ أَنْتَ جَامِعُهُ

مَعَ اللُّجَاجِ، وَشَرُّ الْحَقْدِ، وَالْحَسَدِ !

مدرجة بعد نتفة على قافية الثاء، وقبل نتفة على قافية الجيم، والصواب أن تدرج هذه النتفة في حرف الدال، كما وردت في هذا المستدرك .

ثامناً . تصحيح ديياجة المقطعة رقم (٥٥) ص ١١٠:

رصد المحقق ديياجة لهذه المقطعة، هذا نصها: «وقال يمدح دبيس بن صدقة».

قلت: الصواب أن تأتي الديياجة على هذا النحو: «وقال يمدح أبا المنيع قرواش بن المقلد ت ٤٤٣هـ»، وأسوق ثلاثة أدلة على صحة ما أذهب إليه، هي:

١- أن المقطعة وردت في سياق ترجمة «أبي المنيع قرواش» في كتاب وفيات الأعيان ٢٦٤/٥، ولم ترد في نص ترجمة «دبيس بن صدقة» في الكتاب نفسه ص ٢٦٣/٢.

٢- أن الضمير راجع إلي «قرواش» صاحب الترجمة، وليس راجعاً إلى «دبيس بن صدقة»، فصاحب الوفيات لم يقصد «بن صدقة» في قوله: «ومدحه أبو علي بن الشبل الشاعر المشهور بقصيدة»، وإنما قصد «أبا المنيع قرواش».

٣- أن «ابن صدقة» ولد عام (٤٦٣هـ)، وتوفي عام (٤٢٩هـ)، فإذا عرفنا ذلك وعرفنا أن «ابن الشبل» توفي عام (٤٧٣هـ) أدركنا أن «ابن صدقة» كان عمره (١٠) سنوات فقط، وذلك في السنة التي توفي فيها «ابن الشبل»، ومن ثم فلا يعقل أن يمدح «ابن الشبل» طفلاً عمره عشر سنوات؛ ومن هنا أرجح أنه مدح بهذه المقطعة «أبا المنيع»، وليس «ابن صدقة».

٤- فيلزم إذاً تصحيح هذه الديياجة في مجموع شعر «ابن الشبل» ص ١١٠-١١١، وكذا في ص ٢١٣٢ من بحث الدكتور «الكيلاي»: «ابن الشبل: أبو علي محمد بن الحسين: حياته وشعره»، ويلزم كذلك تصحيح وفاة «دبيس بن صدقة» في ص ٣١٤٦ من البحث نفسه، فقد حدده د. «الكيلاي» بأنه عام (٤٧٤هـ)، على حين حدده في مجموع شعر «ابن الشبل» على الوجه الدقيق، وهو عام (٤٢٩هـ). أما عام (٤٧٤هـ) هذا فهو العام الذي توفي فيه «منصور بن صدقة»، والد «صدقة بن منصور» المتوفى عام (٥٠١هـ)، وصدقة هذا والد «دبيس».

تاسعاً . الأخطاء الطباعية:

أما الأخطاء الطباعية في ديوان ابن الشبل فهي قليلة، وأثبت هنا ما وقفت عليه منها ، خدمة للديوان ، وتطلعاً إلى الارتقاء به درجة نحو الكمال .

الخطأ	الصواب	محلّه
أيحمل	أيجمل	البيت السابع من القصيدة رقم ٧٢
البيتان	الأبيات	تخريج المقطعة رقم ٧٧ ص ١٢٥
البيتان كلها	الأبيات كلها	تخريج المقطعة رقم ٧٨ ص ١٢٦
٣٧	٣٣٧	السطر الثاني من أعلى من الصفحة ٦٧
٩ - ١	١٩ - ١	السطر الثاني من أعلى من الصفحة ٦٧
والوافي	وفوات الوفيات	في تخريج البيت ١٢ في الصفحة ٦٧
٢٧	٢٨	السطر الثاني من أسفل في الصفحة ٦٧

فهرس القوافي، والأوزان وعدداً لأبيات في كل مقطوعة وقصيدة

م	القافية	الوزن	عدد الأبيات
٣١	فأقلما	الكامل	٢
٣٢	أشجعُ	الطويل	٧
٣٣	أنفعُ	الطويل	٧
٣٤	لايسوغُ	الوافر	٢
٣٥	أخلاقا	البسيط	٢
٣٦	لم أطقُ	البسيط	٢
٣٧	الخلائقُ	الطويل	١
٣٨	الأرقُ	البسيط	٢
٣٩	الأمَلُ	الرملي	٢
٤٠	كيلا	الوفر	١١
٤١	جهالُ	البسيط	٤
٤٢	النحلُ	المنسرح	٢
٤٣	النسلُ	الطويل	١
٤٤	يشاكله	الطويل	١
٤٥	واحلمُ	الطويل	٣
٤٦	محجمُ	الطويل	٢
٤٧	سقامُ	الوافر	٣
٤٨	مظلمُ	الطويل	٣
٤٩	المستسلمُ	الكامل	٢
٥٠	الكرارمُ	الوافر	٤
٥١	يدومُ	مخلع البسيط	١
٥٢	فيه كمنُ	الكامل	٦
٥٣	الأمناءُ	الطويل	١
٥٤	الملونُ	الطويل	٦
٥٥	يداوينيُ	البسيط	٦
٥٦	الرسنُ	البسيط	٦
٥٧	يهونُ	الخفيف	٤

م	القافية	الوزن	عدد الأبيات
١	البرحاءُ	الرملي	٦
٢	الدواءُ	الوافر	٧
٣	القضاءُ	الخفيف	٧
٤	العطبُ	البسيط	٣
٥	لم يقربُ	الطويل	٢
٦	جنبي	الوافر	٢
٧	لها وثبُ	البسيط	١
٨	السببُ	البسيط	١
٩	ومن رعبُ	البسيط	١
١٠	الذربُ	البسيط	١
١١	طنبُ	البسيط	١
١٢	فيجابُ	الطويل	١
١٣	اللججُ	البسيط	٣
١٤	وانفتاحُ	مجزوء الكامل	١
١٥	فهمدُ	الرملي	١
١٦	أو اعتدى	الطويل	١٥
١٧	تقييدُ	البسيط	٥
١٨	الجوامدُ	الطويل	٣
١٩	الحسدُ	البسيط	٤
٢٠	الحقدُ	الطويل	٢
٢١	معتادُ	البسيط	٤
٢٢	يعبدُ	الطويل	٣
٢٣	الدهرأُ	الطويل	١١
٢٤	شرا	الوافر	٢
٢٥	الأقدارُ	الكامل	٢١
٢٦	الخاطرُ	الكامل	٨
٢٧	بتكديرُ	البسيط	٥
٢٨	بوقارُ	الطويل	١
٢٩	جديرُ	الطويل	٢
٣٠	افترسأُ	البسيط	٢

فهرس المصادر والمراجع

- ١- «أخبار النساء»: لعبد الرحمن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) بعناية بركات هبود - المكتبة
العصرية - بيروت ٢٠٠١م
- ٢- «أدب القرن الرابع (نصوص ودراسات)» : د. حسن عباس - مطبعة الشاعر بطنطا
- ٢٠٠٠م.
- ٣- «الازدهار في ما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار»: لجلال الدين السيوطي -
تحقيق: د. علي حسين البواب - المكتب الإسلامي، بيروت - دار الخاقاني،
الرياض ١٩٩١م.
- ٤- «ألحان السواجع بين البادئ والمراجع: للصفدي» (ت ٧٦٤هـ) تحقيق: إبراهيم صالح
- دار البشائر - دمشق - ٢٠٠٤م
- ٥- «الأمالي الخميسية»: للإمام المرشد بالله يحيى بن الحسين الشجري (ت ٤٧٩هـ)
- عالم الكتب - بيروت - د ت
- ٦- «أنوار الربيع في أنواع البديع»: للسيد علي صدر الدين بن معصوم (ت ١١٢٠ هـ) -
تحقيق: شاكر هادي شكر - مكتبة العرفان - النجف الأشرف - ط ١ - ١٩٦٨م.
- ٧- «بحار الأنوار»: لمحمد باقر المجلسي (ت ١١١١ هـ) مؤسسة الفواء - بيروت -
لبنان - ط ٢ - ١٩٨٣م.
- ٨- «البداية والنهاية»: لابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٧هـ) - دار الفكر العربي - بيروت -
ط ٢ - ١٩٧٧م.
- ٩- «البديع في نقد الشعر»: لأسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ) - تحقيق د: أحمد بدوي و آخر -
مصطفى الحلبي - ١٩٦٠م
- ١٠- «تاج المروس من جواهر القاموس»: لمحب الدين الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) -
المطبعة الخيرية - مصر ١٣٠٦هـ)
- ١١- «تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير و الأعلام»: لشمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨)
تحقيق: بشار عواد معروف - الجزء ١٠ - دار الغرب الإسلامي - ط ١ - ٢٠٠٢م.
- ١٢- «تاريخ الحكماء» (نزهة الأرواح وروضة الأفراح) : لشمس الدين الشهرزوري -
تحقيق: عبد الكريم أبوشويرب - جمعية الدعوة الإسلامية العالمية - ط ١ -
١٩٨٨م.
- ١٣- «تاريخ دمشق»: لأبي القاسم علي بن الحسن هبة الله المعروف بابن عساكر (٤٩٩
- ٥٧١ هـ) : دراسة وتحقيق : محب الدين العمري - دار الفكر - بيروت -
١٩٩٦م

- ١٤- «التذكرة الحمدونية»: لابن حمدون (ت ٥٦٢ هـ) تحقيق د. إحسان عباس، وآخر. دار صادر. ط ١. ١٩٩٦ م.
- ١٥- «التذكرة الفخرية»: للصاحب بهاء الدين الإربلي (ت ٦٩٢ هـ) تحقيق: د نوري حمودي القيسي، ود. حاتم صلاح الضامن - مكتبة عالم الكتب، ومكتبة النهضة العربية - بيروت - لبنان - ط ١ - ١٩٨٧ م.
- ١٦- «تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق»: داود الأنطاكي (ت ١٠٠٨ هـ) - تحقيق د محمد التونجي - عالم الكتب - بيروت - ط ١ - ١٩٩٢ م
- ١٧- «تشنيف السمع بانسكاب الدمع»: للصفدي (ت ٧٦٤ هـ) تحقيق د محمد علي داود - دارالوفاء، الإسكندرية ١٩٩٧
- ١٨- «تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون»: للصفدي (ت ٧٤٦ هـ) تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم - دار الفكر العربي - مطبعة المدني - ١٩٦٩ م.
- ١٩- «جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس»: للحميدي (ت ٤٨٨ هـ) -الدار المصرية للتأليف والترجمة - ١٩٦٦ م.
- ٢٠- «الجلس الصالح الكافي»، والأنيس الناصح الشافي: لابن زكريا النهرواني (ت ٢٩٠ هـ) - دراسة وتحقيق: د. محمد مرسي الخولي، د. إحسان عباس - عالم الكتب - بيروت - ط ١ - ١٩٩٢ م.
- ٢١- «الجواهر الثمينة في محاسن المدينة»: لمحمد كبريت الحسيني المدني - تحقيق: محمد الشافعي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٩٧ م.
- ٢٢- «جواهر الكنز»: لنجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبي (٧٢٧ هـ) - تحقيق د. محمد زغلول سلام - منشأة المعارف - الإسكندرية - د. ت.
- ٢٣- «الحماسة الشجرية»: لهبة الله ابن الشجري (ت ٥٤٢ هـ) - تحقيق: عبدالمعين الملوحي، وأسماء الحمصي - وزارة الثقافة - دمشق - ١٩٧٠ م.
- ٢٤- «حماسة القرشي»: لعباس بن محمد القرشي (ت ١٢٩٩ هـ) تحقيق: خير الدين قبلاوي -وزارة الثقافة-دمشق-١٩٩٥ م.
- ٢٥- «الحماسة المفريية»: لأبي العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي - تحقيق - د: محمد رضوان الداية - دار الفكر المعاصر - بيروت - دار الفكر - سوريا - ط ١ - ١٩٩١ م.
- ٢٦- «حياة الحيوان الكبرى»: للدميري (ت ٨٠٨ هـ) - سلسلة كتاب الجمهورية - القاهرة - ١٩٩١ م.
- ٢٧- «خزانة الأدب»: لابن حجة الحموي (ت ٨٢٧ هـ) - تحقيق: عصام شعيتو -دار ومكتبة

الهلال - بيروت ١٩٨٧م

٢٨- «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»: للمحبي (ت ١١١١هـ) - دار الكتاب

الإسلامي - القاهرة- د.ت

٢٩- «الدر الفريد وبيت القصيد»: لمحمد بن أيدير (ت بعد ٧١٠هـ) - مخطوط أشرف

على طباعته مصوراً د. فؤاد سزكين - فرانكفورت ١٩٨٩ .

٣٠- «دريد ابن دريد»، محمد بن الحسن (ت ٢٢١هـ) تحقيق: محمد بدر الدين العلوي -

القاهرة ١٩٤٦م.

٣١- «دمية القصر وعصرة أهل العصر»: للباخرزي (ت ٤٦٧هـ) تحقيق: عبد الفتاح

الحلو - دار الفكر - القاهرة ١٩٧١م.

٣٢- «ديوان البحتري»: (ت ٢٨٤هـ) : تحقيق وشرح وتعليق: حسن الصيرفي - دار

المعارف - مصر - ط ٣ - ١٩٧٧ م.

٣٣- «ديوان الحسين بن مطير الأسدي»: جمع وتحقيق: د. حسين عطوان - دار الجيل

- بيروت- د.ت.

(٢) تحقيق: عمر بن سالم - الدار التونسية للنشر - تونس - ١٩٧٣م.

٣٤- «ديوان (شعر) ابن الشبل البغدادي» (ت ٤٧٣هـ) : جمع وتحقيق: د. حلمي

عبد الفتاح الكيلاني - مجلة مجمع اللغة العربية الأردني - ع ٥٤ - السنة ٢٢ -

١٩٩٨م.

٣٥- «ديوان مجنون ليلى»: (ت ٦٨هـ) . جمع وتحقيق: عبد الستار أحمد فراج . مكتبة

مصر - القاهرة - د.ت.

٣٦- «ديوان (شعر) المرار بن سعيد الفقعسي»: جمع وتحقيق: عبد المعين الملوحى -

ضمن أشعار اللصوص وأخبارهم - دار الحضارة الجديدة - بيروت - ط ١ -

١٩٩٣م.

٣٧- «ديوان محمد بن هانئ الأندلسي»: تحقيق: محمد اليعلاوي - دار الغرب الإسلامي

- ط ١ - ١٩٩٤م.

٣٨- «ديوان النابغة الذبياني»: تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم - دار المعارف -

مصر- ط ٢ - ١٩٨٥م.

٣٩- «ديوان (شعر) الناشئ الأكبر» (ت ٢٩٣هـ) : جمعه وحققه: هلال ناجي - مجلة

المورد العراقية - مج ١١ - ع ١، ٢، ٣، ٤ - لسنة ١٩٨٢، مج ١٢ - ع ١٤ - ١٩٨٣.

٤٠- «ذم الهوى»: لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) تحقيق: مصطفى عبد الواحد - دار الكتب

الحديثة- القاهرة ١٩٦٢م.

- ٤١- «ذيل تاريخ بغداد»: لابن التجار البغدادي (ت ٦٤٢ هـ) - تصحيح د. قيصر فرح - دار الكتب العلمية - بيروت
- ٤٢- «زهر الأكم في الأمثال والحكم»: للحسن اليوسي (ت ق ١١) - تحقيق د: محمد حجي، د: محمد الأخضر - دار الثقافة - الدار البيضاء - ط ١ - ١٩٨١ م.
- ٤٣- «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»: لابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ) - طبعة دار المسيرة - بيروت ١٩٧٩ م.
- ٤٤- «صيد الخاطر»: لابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) - تحقيق: عبدالقادر عطا - مكتبة الكليات الأزهرية - ١٩٧٩ م.
- ٤٥- «العقد الفريد»: لابن عبدربه الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ) - تحقيق: أحمد أمين، وآخرين - مصر - ١٩٦٩ م
- ٤٦- «العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده»: لابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦ هـ) تحقيق: د. النبوي شعلان - مكتبة الخانجي - ط ١ - ١٩٩٩ م
- ٤٧- «عيون الأخبار»: لابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) - بعناية د. م. مفيد قميحة - دار الكتب العلمية ١٩٨٦ م.
- ٤٨- «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»: لابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨) - تحقيق: د. نزار رضا - دار مكتبة الحياة - بيروت - د. ت.
- ٤٩- «غرر الخصاص الواضحة ودرر النقائص الفاضحة»: لبرهان الدين الكتبي (ت ٧١٨ هـ) - دار صعب - بيروت
- ٥٠- «غريب الحديث»: لابن قتيبة الدينوري (ت ٢٨٦ هـ) - تحقيق: عبدالله الجبوري - مطبعة العاني - بغداد ١٣٩٧ هـ
- ٥١- «الفيث المسجم في شرح لامية العجم»: للصفي (ت ٧٩٤ هـ) دار الكتب العلمية - بيروت - ط ٢ - ١٩٩٠ م .
- ٥٢- «فوات الوفيات والذيل عليها»: لابن شاکر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ) تحقيق: إحسان عباس - دار صادر - بيروت د ت
- ٥٣- «الكشكول»: لبهاء الدين العاملي (ت ١٠٢١ هـ) تحقيق: الطاهر الزاوي - طبعة عيسى الحلبي ١٩٦١ م .
- ٥٤- «كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر الكاتب»: لضياء الدين بن الأثير الجزري (ت ٦٣٧ هـ) - دراسة وشرح وتحقيق : د. النبوي شعلان - الزهراء للإعلام العربي - مصر - ط ١ - ١٩٩٤ م.
- ٥٥- «الكنى والألقاب»: للشيخ عباس القمي (ت ١٢٥٩ هـ) - تقديم: محمد هادي

الأميني - مكتبة الصدر - طهران

٥٦- «لسان العرب»: لابن منظور (ت ٧١١هـ) - تحقيق: عبد الله علي وآخرين - دار المعارف - مصر - د.ت.

٥٧- «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»: لابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) - تحقيق: أحمد الحوفي وآخر - نهضة مصر - ١٩٦٠م .

٥٨- «مثير الفرام الساكن إلى أشرف الأماكن»: لابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) تحقيق د. مصطفى الذهبي - دار الحديث - القاهرة - ط ١ - ١٩٩٥م.

٥٩- «مجلة دراسات»: عمادة البحث العلمي - عمان - الأردن - مج ٢٢ - ٦٤ - ١٩٩٥م.

٦٠- «مجلة مجمع اللغة العربية الأردني» - العدد ٥٤ - السنة ٢٢ - ١٩٩٨م.

٦١- «محاسبة النفس»: للشيخ تقي الدين إبراهيم بن علي الكفعمي (ت ٩٠٥ هـ) - تحقيق: فارس الحسنون - مؤسسة قائم آل محمد - مطبعة نمونة - قم - إيران - ط ١ - ١٤١٣ هـ .

٦٢- «محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار»: لمحيي الدين بن عربي - بيروت - د.ت

٦٣- «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء»: للراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ) - تحقيق: د. رياض عبد الحميد مراد - دار صادر - بيروت - ط ١ - ٢٠٠٤م.

٦٤- «المحمدون من الشعراء وأشعارهم»: لجمال الدين القفطي (ت ٦٤٦ هـ) - تحقيق: رياض عبد الحميد مراد - دار ابن كثير - دمشق - ط ٢ - ١٩٨٨م.

٦٥- «المدحش»: لعبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) تحقيق: خيري سعيد - المكتبة التوفيقية - مصر - د.ت

٦٦- «مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان»: لليافعي اليميني (ت ٧٦٨هـ) - وضع حواشيه: خليل المنصور - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٩٧م.

٦٧- «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»: لابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ) مخطوط أشرف على طباعته مصوراً: د. فؤاد سزكين وآخرون - معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية - فرانكفورت - ١٩٨٨م.

٦٨- «المستطرف في كل فن مستظرف»: للأبشيhi (ت ٨٥٤ هـ) - تحقيق: إبراهيم صالح - دار صادر - بيروت - ط ١ - ١٩٩٩م.

٦٩- «مصارع العشاق»: لأبي محمد جعفر بن أحمد السراج (ت ٥٠٠ هـ) - دار صادر - بيروت - ١٩٥٨م.

٧٠- «مطالع البدور في منازل السرور»: لعلاء الدين الغزولي (ت ٨١٥ هـ) - مكتبة

الثقافة الدينية - مصر - ٢٠٠٠م.

٧١- «المطرب من أشعار أهل المغرب»، لابن دحية (ت ٦٤٠ هـ) - تحقيق: إبراهيم الإبياري وآخرين - القاهرة - ط ٢ - ١٩٩٢م.

٧٢- «معاهد التنصيص على شواهد التلخيص». تأليف: الشيخ عبد الرحيم العباسي (ت ٩٦٣ هـ) - حققه وعلق حواشيه وصنع فهرسه: محمد محيي الدين عبد الحميد - المكتبة التجارية - القاهرة - عالم الكتب - بيروت - ١٩٤٧ م.

٧٣- «معجم الأدباء»: لياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) تحقيق: محمد نجاتي وآخر - دار الفكر - ط ٢ - ١٩٨٠م.

٧٤- «مفاتيح المعاني»: لزين الدين الرازي (ت ٦٩٦ هـ) - تحقيق د: محمد سلام - منشأة المعارف - الإسكندرية - ١٩٨٧م.

٧٥- «نتائج المذاكرة»: لابن الصيرفي (ت ٥٤٢ هـ) تحقيق: إبراهيم صالح - دار البشائر - دمشق - ط ١ - ١٩٩٩ م.

٧٦- «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»: لابن تغري بردي الأتابكي (ت ٨٧٤ هـ) - مصورة طبعة دار الكتب المصرية - د. ت.

٧٧- «نصرة الثائر على المثل السائر»: لصالح الدين الصفدي (ت ٧٦٤ هـ) - تحقيق د: محمد علي سلطاني - طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق - ١٩٧١م.

٧٨- «نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب»: للمقري التلمساني (ت ١٠٤١ هـ) تحقيق د: إحسان عباس - دار صادر - ١٩٨٦م.

٧٩- «نهاية الأرب في فنون الأدب»: لشهاب الدين النويري (ت ٧٣٣ هـ) - مطبعة دار الكتب المصرية - ط ١ - ١٩٢٩م.

٨٠- «نور القبس المختصر من المقتبس»: لمحمد بن عمران المرزباني اختصره: الحافظ اليعقوبي - تحقيق: رودلف زلهام - دار نشر - فرانكس شتاينر - فيسبادن - ١٩٦٤م.

٨١- «الوافي بالوفيات»: للصفدي (ت ٧٦٤ هـ) - ج ١٨ باعتناء د. أيمن سيد - دار نشر فرانز شتاينر - فيسبادن ١٩٩١م.

(١) ونشره أيضاً محمد شهاب العاني في مجلة آداب المستنصرية - بغداد - ع ٢٦ - ١٩٩٥م، انظر نشر الشعر وتحقيقه في العراق حتى نهاية القرن السابع الهجري ٨٤

تفصیلات تراثیہ

عبد الرحمن بدوي تتبع الملققين لتراث الفلسفة العربية(*)

د. مصطفى لييب عبد الفني(**)

تتوَّعت جهود عبد الرحمن بدوي، الفيلسوف المصري المعاصر، فشملت الفكر الفلسفي بأسره في قضاياها الرئيسية وعند أعلامه البارزين. والمتتبع لمؤلفاته المتلاحقة لأكثر من خمسين عاماً يلحظ شغفه المبكّر بالفكر الإسلامي المنفتح على حضارات الدنيا التي سبقته أو عاصرتة. والتي نهل من ينابيعها الفياضة وبخاصة النبع اليوناني. ولقد تأكّدت ثقته بدوي- منذ مطلع حياته العلمية- بأن روح الحضارة العربية والمعبّر عن وجودها الخلاق هو في طابعها الإنساني الرَّحْب، فتجده وهو يسلك دروبها الوعرة ينكب على الكثير من مفردات هذه الحضارة بغية الكشف عن إنجازها المتميز في التاريخ.

وتشعّبت به هذه الدروب ما بين عرض وتحليل لتراث الأعلام، ورصد لإبداعات المتكلمين (في "مذاهب الإسلاميين") وتجارب المتصوفة (في "رابعة العدوية"، "شطحات الصوفية"، و"تاريخ التصوف الإسلامي")، وترجمة لطائفة من نفائس بحوث المستشرقين ("التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية"، و"شخصيات قلقة في الإسلام"، و"ابن عربي لآسين بلا ثيوس"، و"الخوارج والشيعة" لفلّهوزن)، وثبت بيلوجرافي لبعض جوانب هذه الحضارة عند علم من أعلامها الشوامخ ("مؤلفات الفزالي"، و"مؤلفات ابن خلدون"). وكان اهتمام بدوي بإبراز جهود المستشرقين في دراسة التراث الإسلامي كبيراً إلى حد دفعه إلى إصدار موسوعة هامة عن المستشرقين. ومثلت علاقة بدوي بالمستشرقين- قديماً وحديثاً- مناسبة يحلو للبعض أن يخوضوا في الحديث عنها متناسين جسارته في رفض الانصياع لوهم المركزية الأوروبية في التاريخ، متفاقلين عن بيانه- منذ ما يقرب من أربعين عاماً- لريادة الفكر العربي ودوره في تكوين الفكر الأوربي وتجاوز تأثير هذا الدور لميدان النظر العقلي إلى ميدان التطبيق العملي في الصناعة والزراعة، وعدم اقتصره على الفلسفة والعلوم الطبيعية والفزيائية والرياضيات، بل وامتداده كذلك إلى الأدب: الشعر منه والقصص،

(*) أستاذ الفلسفة الإسلامية وتاريخ العلوم، كلية الآداب جامعة القاهرة.

(**) عبد الرحمن بدوي، «أرسطو عند العرب - دراسة ونصوص غير منشورة»، ج١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة سنة ١٩٤٧، ص ٦٤ (من التصدير العام للنشرة).

والى الفن: المعمار والموسيقى منه بخاصة. وحرص بدوي على تحديد البيئات التي تمّت فيها عملية الإخصاب بين الفكر العربي البالغ كمال تطوره وبين العقل الأوربي وهو بسبيل يقظته وتلمس طريقه في البداية. والذين يتحفّظون على علاقة بدوي بالمستشرقين يتغافلون عن نبل مقاصده حين يعترف بالفضل لذويه بغية شحذ الهمم العربية الخائرة التي تراجع عزمها، وغاب وعيها بماضيها، واضطربت رؤيتها لحاضرها بين أمم العالم المتمدين؛ وهو في ذلك كله يؤكّد على الدوام حضور «الأنا» العربي في علاقته الإنسانية بـ«الآخر» الغربي. وهى علاقة بناء وتأسيس لا هدم وإلغاء، وعلاقة تعارف وتعاون لا توجّس وصراع، وهو حضور لا يُصادر على حق المفكر العربي في دحض كل صور الافتراءات والشبه الجهولة والمفرضة التي تستهدف أعزّ ما لديه. ولعلّ في آخر ما كتبه بدوي -في دفاعه المجيد عن الإسلام باللغة الفرنسية- آية صدق على ذلك.

ويتفوّق على ما سبق كله - مع عظيم قيمته وجليل أثره في التعليم الفلسفي - جهده غير المسبوق في تحقيق النصّ الفلسفي العربي ونشره نشرًا علميًا دقيقًا؛ ومعلوم بالطبع أن ذلك هو أول مراحل الصراط المستقيم إلى فهم التراث وحسن تقويمه. ويزداد تقديرنا لهذه المهمة إذا ما عرفنا أن تراثنا الإسلامي الهائل جُلّه مفقود، وقليله الباقي موزّع على أرجاء الدنيا في المكتبات العامة والخاصة، وفي أروقة المساجد، وضمن مقتنيات بعض المتاحف، وأنّ بعض هذا القليل مختلط بسواه، وبعضه الآخر أصابه ما أصابه من تشويه أو تحريف ومن انتحال أحيانًا؛ مع تنوّع صور إخراجة، وتباين خطوطه، واختلاف نسخ النصّ الواحد منه عبّر حياته في التاريخ، وكلها عوائق يدرك مصاعبها أهل الاختصاص.

وإذا ما تبينّا أنّ من أكبر النقائص المنهجية هي الانطلاق - في النظر إلى تراثنا والحكم عليه - من مجرد التعرف على بعض مفرداته المجتزئة وإغفال بقية الكثرة الهائلة الغائبة منه؛ فنغدو بذلك كمن يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، ونقع في وهم التطابق بين الكلّ والجزء، وتلك نقيصة علمية وأخلاقية تضيع بسببها الحقيقة، ويتعمّق معها الشعور بالنقص، فإنّ أىّ جهدٍ رشيد يُبذل في سبيل الكشف عن جانب ما من جوانب تراثنا وتوسيع رقعة التعرف عليه يكون مقدمةً لاغنى عنها.

ولئن يكن نشر التراث في مجموعه مهمةً يلزم أن تضطلع بها أجيال متواصلة من باحثين أولي عزم فإن ما أنجزه بدوي من نشر أعمال بعينها من عيون التراث الفلسفي، بدءًا من «أرسطو عند العرب» سنة ١٩٤٧ وانتهاءً بـ«كتاب الأخلاق» سنة ١٩٧٧ كان حقا

مناسبة طيبة لمعالجة أخطر قضايا الفكر العربي، ومنها: مدى أصالة هذا الفكر من ناحية ("صوان الحكمة" للسُّجستاني - "الإشارات الإلهية" للتوحيدي - "رسائل فلسفية للكندي والفارابي وابن عديّ وابن باجة" - و"الإنسان الكامل للجيلي" .. الخ)، وصلة الفكر العربي بالتراث اليوناني بعامة من ناحية أخرى وبيان صورة هذا التراث اليوناني، الصحيح منه والمنحول، في عيون العرب من ناحية أخرى والكثير منه نُقل عبْر وساطة سُريانية في أول الأمر ("أرسطو عند العرب" - "أفلاطون في الإسلام" - "أفلوطين عند العرب" - و"الأفلاطونية المحدثة عند العرب")، والكشف عن المنابع المتنوعة للفكر العربي وبخاصة: اليونانية والهندية والفارسية ("الحكمة الخالدة": لمسكويه - و"مختار الحكم ومحاسن الكلم" للمبشر بن فاتك). وحرص بدوي في تقديمه لنشراته على تتبّع تاريخ النصّ وحياته في الفكر العربي وفي الفكر الأوربي كذلك عند مترجميه وشرّاحه.

* * *

عبّر بدوي، منذ البداية، عن وعيه بالهدف الحقيقي من نشر النصوص وهو بعثُ التراث المغيَّب في التاريخ، وتقديم شاهد على المنزلة العالية التي بلغتها عناية العرب بالتراث القديم. وحقاً كشف بدوي عن واقعة تاريخية هامة حين وجَّه نظر الباحثين إلى إمكانية الاستعانة بالترجمات العربية القديمة ذاتها للتراث اليوناني في استعمالنا الحالي للمؤلفات اليونانية (المنقوصة في بعض جوانبها) بما أن ترجمات العرب القديمة جاءت على درجة عالية من الدقة. وفي ذلك بيان للقيمة الكبرى لهذه الترجمات في دراسة التراث اليوناني بعامة (ومعلوم أنه ركيزة الفكر الغربي الحديث وجوهره)، مع ما يدفع إليه من نزعة إنسانية جديدة تهيب بالمؤمنين بالإنسان أن يشاركوا فيها. وفضلاً عن ذلك فإنه يمكن الاستعانة بالترجمات العربية القديمة في استعمالنا الحالي لتلك المؤلفات اليونانية الأصلية إذ صارت تغني في الواقع عن ترجمتها من جديد؛ لأنها تنهض بحاجاتنا العلمية اليوم، ونهوضها بها لا يقتصر على دقة النقل بل يمتد خصوصاً إلى دقة المصطلح الفني.

واستهدف بدوي من تحقيقه للتراث أيضاً الاضطلاع على أيامه بمهمة جليلة هي إيجاد نشر فلسفي عربي معاصر ظاهر القيمة بعد أن تطوّر لدينا النشر في نهضتنا الحديثة في اتجاه أدبي باعد كثيراً بينه وبين التلاؤم مع النشر الفلسفي الذي يمتاز بالإيجاز والإحكام. والعود هنا يكون عوداً استلھام واستيحاء لا عوداً تقليد واقتصار واكتفاء. وهذه الدعوة إنْ لزمّت لزمانها في أربعينيات القرن الماضي فهي ألزم ما تكون

لزماننا الراهن الذي اعتلت فيه لغتنا العربية إلى حد أن انكب على مداواة عللها بعض المترخصين من أهلها ممن هان عليهم خطرُها.

* * *

آيةُ الصدق مع النفس ومع الغير هو أن نعرف أن لكل صنعة أساليبها الفنية، وأن لكل معلول علته الحقيقية: فتلك سُنَّةُ الله في خلقه التي لا نجد لها تبديلاً. ولقد أدرك بدوي بصدق أن الوصول إلى غايته النبيلة في الكشف عن بعض جوانب من تراثنا لن يكون إلا بمنهج مثمر في تحقيق النصوص؛ فاختار لنفسه منهجاً وطبقه بالفعل بعد أن أَلَمَّ بمناهج المحققين من قبل. وهو يصف منهجه بأنه «بسيط وبقدر ما هو بسيط فهو خصبٌ دقيقٌ معاً: وهو أن نجيد قراءة المخطوط عن تدبُّر وحسن فهم. وهذا مبدأ على الرغم من بساطته ووضوحه كثيراً ما أغفله الناشرون بالأحرى أجفلوا منه وكأين من أخطاء في تحقيق النصوص لم يكن السبب فيها إلا عدم إجادة القراءة. والمهم هو أن تقدِّم للناس - على أساس ما يتيسَّر من مخطوطات قلَّت أو كثُرَت أو كانت وحيدة - نصاً جيِّداً يحاكي تماماً ما في الأصول المخطوطة بعد تدبرها تمام التدبُّر. فالذين مارسوا المخطوطات يعرفون أن ثمت أحوالاً لا حصر لها من إهمال النقط أو تشابك الحروف أو تقلُّب النقط من فوقها واضطرابها بين حروف الكلمة الواحدة أو الكلمات المتجاورات. ومثل هذه الأحوال لا يمكن أن تُعدَّ اختلافات في القراءات، إنما هي عوارض شخصية في المخطوطات يجب أن يستقرها الناشر لنفسه أثناء القراءة الأولى للمخطوط، ثم يُعيِّن - لنفسه أيضاً - أحوال اضطرابها حتى يتهيأ له جهاز تحليلي لحسن القراءة؛ وإلا فستكون النتيجة أن يضل القارئ إذا ما ذُكِر في الجهاز النقدي كل ألوان الإهمال أو الهفوات الهيئَة لسقطات القلم فلا يستبين ما إذا كان بإزاء اختلاف قراءة أو مجرد مخالفة خطية أو قلمية تافهة ومفهومة»^(١) ويدفعُ هذا بعالمنا الكبير إلى القول: «لهذا فلسنا نتردَّد في اتهام أولئك الذين يلجأون إلى هذه الطريقة بالعجز عن فهم النصوص وقراءتها، أو بالتمويه على القارئ بوضع جهاز نقدي ضخيم محشو بهذه الاختلافات المزعومة ليُدخل في روعه أن الناشر قد بذل مجهوداً هائلاً، والحق أنه لم يبذل شيئاً أكثر من جهد التَّسَخِّحِ والمسَّخِّحِ معا دون أن يبذل أي مجهود في الفهم وتدبُّر المقروء. ومع هذا نراهم يصيحون ملء أشداقهم وتصف ألسنتهم الكذب: إن هذا هو

(١) عبد الرحمن بدوي «أرسطو عند العرب». دراسة غير منشورة، ج ١ مكتبة النهضة المصرية، القاهرة سنة ١٩٤٧م.

ص ٦٤ (من التصدير العام للنشر) ..

المنهج العلمي الصحيح! مع أن الأولي بهم أن يُسمّوه منهج الإحصاء الآلي العاجز.

«ولكم رأينا في مقارنتنا لبعض النصوص التي نشرها هؤلاء الناشرون المزعمون بالأصول المخطوطة التي نشرها ما نشرها عنها أن ما ادّعوه تحريفاً أو اختلاف قراءة لم يكن في الواقع إلا سوء قراءة من عيونهم وعقولهم. كما رأينا كذلك من هذه المقارنات أن من أسباب الوقوع في أخطاء النشر أن الناشرين كثيراً ما يعتمدون على نسخ النسخ الحاليين دون أن يراجعوا المخطوطات نفسها ويعملوا فيها فتكون النتيجة أن يفترضوا وقوع أخطاء أو نقص أو تحريف في المخطوطات الأصلية، مع أن هذا لم يقع إلا في نسخهم هم التي استسخوها؛ وكان يكفيهم مراجعة المخطوطات نفسها كيما يكونوا على بيّنة من أمر هذه الأخطاء أو أنواع النقص والتحريف المظنونة»^(١).

ولقد أعان بدوي على تطبيق منهجه المثمر في التحقيق معرفته الجيدة باللغة اليونانية القديمة وبعدد من اللغات القديمة الأخرى كالعبرية واللاتينية، فضلاً عن اللغات الأوربية الحديثة كالألمانية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والروسية، وبعضها كان قد تُرجم إليها المخطوط العربية، وما نظن أحداً غيره من الباحثين العرب المعاصرين - فيما نعلم - قد أوتي مثل هذا الحظ من الصبر ومن الجهد الصادق في التعلم المستمر.

* * *

تمثّلت جودة الإتقان لهذا المنهج الصارم في النشرة التي أنجزها بدوي عام ١٩٧٧ لكتاب أرسطو الهام «الأخلاق النيقوماخية» - الذي كان قد ترجمه «إسحق بن حنين» من اليونانية إلى العربية في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي (عصر ازدهار الترجمة في التاريخ) - فجاءت نشرة بدوي مُزوَّدة بتعليقات وشروح ومقارنات فيلولوجية؛ ابتغاء الإيضاح والتدليل على أهمية الترجمة العربية القديمة التي تمّت عن أقدم نصّ يوناني معروف لنا، وتميّزت بذلك عن جميع الترجمات الأوربية اللاحقة للنص سواء منها اللاتينية أو الأوربية الحديثة، والتي اعتمدت على مخطوطات يونانية أحدث زمناً من المخطوط الذي ترجمه «إسحق بن حنين»^(٢). وقَدّم بدوي لنشرته - هذه - بعرض أهم مؤلفات أرسطو الأخلاقية، وأهم الشُّرّاح اليونان الذين بقيت لنا شروحهم أو تلخيصاتهم للكتاب، وكذلك عرض مخطوطات النص اليوناني الباقية حالياً في العالم وعددها ٩٩

(١) السابق، ص ٦٤ - ٦٥.

(٢) عبد الرحمن بدوي، «الأخلاق تأليف أرسطوطاليس ترجمة إسحق بن حنين»، وكالة المطبوعات بالكويت ١٩٧٩، ص ١١ - ١٢ (من التصدير العام للنشرة).

مخطوطاً كاملاً و ٢٠ مخطوطاً تحتوى مقالات كاملة منه أو على شذرات، فضلاً عما ورد في شروح الشراح. وتحدث بدوي عن "نيقوماخيا" في المصادر العربية في تواريخ العلماء الأطباء والفلاسفة، وما نُقِلَ في المؤلفات العربية الأخرى وبخاصة عند «ابن النديم»، و«القفطي»، و«ابن أبي أصيبعة»، و«المبشر بن فاتك»، وعما ما حصل من تحريف لهذه النصوص، ثم ذكر الشواهد والنقول عن «نيقوماخيا» عند الفلاسفة المسلمين وبخاصة «الفارابي» (ت: ٢٢٩هـ)، و«أبي الحسن العامري» (ت: ٢٨١هـ) و«مسكويه» (ت: ٤٢١هـ) و«ابن باجة» (ت: ٥٢٢هـ) و«ابن رشد» (ت: ٥٩٥هـ). وألحق بدوي بمقدمته قائمة بالمراجع التي احتوت بيان نشرات النص القديمة وترجماته، وشروحه الحديثة ثم شروحه القديمة اليونانية وشروحه اللاتينية^(١).

وقد أظهر بدوي أن بالمخطوط العربي مقالة مضافة بين المقالتين السادسة والسابعة؛ ولذلك جاء في إحدى عشرة مقالة بدلاً من عشر، وهذه المقالة المضافة مفقودة في نسخة المخطوط الباقية الآن ومحفوفة في ترجمة لاتينية مختصرة قام بها «هرمن» الألماني سنة ١٢٤٢م أو سنة ١٢٤٤م وكان لها أكبر الأثر في «القديس ألبير الكبير» و«روجر بيكون»^(٢).

ومع أن المخطوطة العربية الوحيدة الباقية للكتاب تخلو من ذكر اسم المترجم إلا أن بدوي استطاع أن يُحدّد لنا هويته، فذكر أنه «إسحق بن حنين» وذلك استناداً إلى المقارنة بين أسلوب الكتاب وترجمة «إسحق بن حنين» لكتاب «النفس» لأرسطو^(٣).

وقد أكمل بدوي المواضع المنقوبة والممحوة، وصحّح بعض الأخطاء، وحقّق أسماء الأعلام، ووازن بين القراءات الواردة في الصلّب وفي الهامش أحياناً. والأهم أنه استطاع أن يكمل الناقص من الكتاب فترجمه عن النص اليوناني الأصلي وهو، كما يقول، قرابة ١٤٪ منه، وزوّد نشرته بترقيم «بكر» الذي تُعدّ نشرته لأعمال أرسطو هي المعتمدة عند الباحثين المحدثين^(٤)، وذيّل نشرته بدراسة موسّعة عن الكتاب باللغة اللاتينية.

على هذا النحو جاءت نشرة بدوي للنص العربي القديم لترجمة كتاب الأخلاق لأرسطو مثلاً يُحتذى.

* * *

(١) عبد الرحمن بدوي، «الأخلاق تأليف أرسطوطاليس ترجمة إسحق بن حنين»، وكالة المطبوعات بالكويت ١٩٧٩، ص ٤٤ - ٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٤١ - ٤٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٤ - ٤٥.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٥ - ٤٦.

محمد سليم سالم وجهوده في تحقيق التراث العربي اليوناني

أ. حسام أحمد عبد الظاهر(*)

شهدت السنوات الأخيرة صعود وسقوط الكثير من النظريات الحضارية كنظرية فوكاياما في نهاية التاريخ، ونظرية هنتجتون عن صراع الحضارات، ثم برزت نظرية حوار الحضارات، وقررت الجمعية العامة للأمم المتحدة بالإجماع اعتبار عام ٢٠٠١ هو عام حوار الحضارات؛ وأدى ذلك إلى الاهتمام على كل المستويات المحلية والإقليمية والعالمية بالحوار الحضاري؛ إلا أنه وفي نفس العام عادت أجواء الحديث عن صراع الحضارات إلى الساحات الفكرية بعد أحداث سبتمبر الشهيرة التي تستمر تداعياتها إلى اليوم، وبالرغم من ذلك فإن هناك مؤشرات دالة على أن الحوار الحضاري هو الاتجاه الغالب في المستقبل، وأن العالم بحضاراته المختلفة يتجه نحو تشكيل الحضارة العالمية الواحدة التي تضم داخلها شرائح ثقافية متنوعة^(١).

ودور المفكر والمؤرخ والباحث في التراث أن يساهم ويدعو إلى تحقيق هذه النتيجة عن طريق الحوار الحضاري وليس عن طريق أساليب الصراع والتغلغل والنفوذ والهيمنة التي تتبعها بعض الدول الآن، وهذا الحوار الحضاري له جذور تاريخية بعيدة المدى، ويمكن التمثيل عليه بالتراث العربي اليوناني كنموذج دال على إعلاء قدر الحوار الحضاري بين الأمم.

وهذا التراث العربي اليوناني يقصد به مؤلفات العلماء والفلاسفة اليونانيين القدماء، والتي تم ترجمتها إلى اللغة العربية في العصور الوسطى، كما يضم هذا التراث ما دار حول هذه المؤلفات من تلخيصات وشروح ومناقشات وتعليقات وإضافات، من ذلك يمكن إدراك قيمة وأهمية نشر وتحقيق مؤلفات التراث العربي اليوناني؛ إذ يُعد هذا التراث مصدراً مزدوجاً للفكر العربي والفكر اليوناني في آن واحد، غير إن معظم ما تُرجم عن اليونان ونقل إلى اللغة العربية «قد ضاع ولم يبق منه إلا شتات متفرق في دور الكتب، وقد بعد بيننا وبينه الزمن فتعذر علينا فهمه واستحال علينا حل طلاسم أكثره، وما زالت الأمة العربية في حاجة ماسة إلى إعادة نشر هذا التراث الخالد»^(٢).

(*) باحث بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية.

(١) السيد ياسين: «حوار الحضارات»، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢م، ص ١٠ - ٢٩.

(٢) محمد سليم سالم: «البدائع». القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٥م، ج ١، ص (ج).

وتحقيق النصوص التراثية ونشرها علم له قوانينه وأعرافه ومصطلحاته وأدواته، وتوجد الكثير من الكتابات حول هذا العلم من أهمها كتابات الأساتذة: عبد السلام هارون^(١)، وصلاح الدين المنجد^(٢)، ورمضان عبد التواب^(٣)، وهلال ناجي^(٤)، وأيمن فؤاد سيد^(٥)... وغيرهم وهذه الكتابات تهتم بتحقيق النص التراثي عامة، أما فيما يتعلق بتحقيق نصوص التراث العربي اليوناني خاصة فلم أجد - في حدود علمي - من تحدث عن منهجية تحقيق هذا النوع من النصوص التراثية بشكل واف، ونحاول بعد قليل أن نتبين المعالم المنهجية الخاصة بذلك عند حديثنا عن منهج التحقيق عند محمد سليم سالم.

والأستاذ الدكتور محمد سليم سالم هو أحد أهم المحققين الذين عملوا في هذا التراث الذي نحن بصددده، وفي إطلالة سريعة على السيرة العلمية له يمكن القول إنه ولد سنة ١٩٠٤ بمحافظة أسيوط، وتدرج في مراحل التعليم المختلفة حتى حصل سنة ١٩٣٠م على ليسانس الحقوق من جامعة فؤاد الأول - القاهرة الآن - وكان ترتيبه السابع على دفعته، كما حصل في نفس السنة - عن طريق الانتساب - على ليسانس الآداب وكان ترتيبه الأول، ثم التحق بجامعة ليفربول بإنجلترا وحصل فيها على ليسانس الدراسات الأوربية القديمة، وأكمل دراساته العليا في نفس الجامعة، حتى حصل على الدكتوراه سنة ١٩٣٨م، وبعد عودته إلى مصر عمل بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول، وتدرج في سلك أعضاء هيئة التدريس مدرساً فأستاذاً مساعداً ثم أستاذاً، وفي سنة ١٩٥٠م تولى رئاسة قسم الدراسات اليونانية واللاتينية بكلية الآداب - جامعة إبراهيم - عين شمس الآن - وخلال الفترة ١٩٥٥ - ١٩٦٢م صار وكيلاً للكلية، وفي سنة ١٩٦٤م أصبح أستاذاً متفرغاً، وبعد حياة علمية حافلة بالعطاء وافته المنية، ولقى ربه الكريم سنة ١٩٩٢م^(٦).

وقد تعددت الجهود العلمية لعالمنا الجليل فترك ميراثاً علمياً ضخماً تنوعت أشكاله فشملت التأليف والترجمة والتحقيق والمراجعة والإشراف... وغير ذلك، وما نود إلقاء الضوء عليه في ورقتنا هذه هو جهوده في مجال تحقيق مؤلفات التراث العربي اليوناني.

(١) «تحقيق النصوص ونشرها»، ط ٧. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٨م.

(٢) «قواعد تحقيق النصوص»، بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٦م.

(٣) «مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين»، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٦م.

(٤) «محاضرات في تحقيق النصوص»، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٤م.

(٥) «الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات»، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٧م.

(٦) اعتمدنا في هذه الترجمة على السيرة الموجزة لسليم سالم؛ والتي أعدتها الدكتورة عزة سليم سالم. انظر: مجلة

أوراق كلاسيكية (كلية الآداب - جامعة القاهرة)، العدد الرابع، سنة ١٩٩٥م، ص ٧٣.

وقد قام سليم سالم بتحقيق تسعة عشر نصاً تراثياً خمسة منها لابن رشد، وهي تلخيصاته لكتب أرسطو: «الخطابة»، و«الشعر»، و«المبارة»، و«الجدل»، و«السفسطة»، وخمسة أخرى ترجمات وشرح حنين إسحاق لكتب جالينوس في فرق الطب، والتأني لشفاء الأمراض، والنبض، والاسطقسات على رأي أبقراط، والصناعة الصغيرة، بالإضافة إلى ثلاثة نصوص للفارابي، وثلاثة أخرى لابن سينا، ورسالتين لابن باجة، وأخيراً رسالة واحدة لثامسطيوس.

ويمكن توزيع هذه التحقيقات زمنياً على النحو الآتي:

م	السنة	المؤلف	عنوان الكتاب	بيانات الطبعة
١	١٩٥٠	ابن سينا	في معاني كتاب ريطوريقا	القاهرة: مكتبة النهضة المصرية
٢	١٩٥٤	ابن سينا	الشفاء [المنطق، الخطابة]	القاهرة: وزارة المعارف العمومية
٣	١٩٦٧	ابن رشد	تلخيص الخطابة	القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
٤	١٩٦٩	ابن سينا	كتاب المجموعة أو الحكمة المروضية - في معاني كتاب الشعر	القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث
٥	١٩٧٠	ثامسطيوس	رسالة ثامسطيوس إلى يوليان الملك في السياسة وتدبير المملكة	القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث
٦	١٩٧١	ابن رشد	تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الشعر (ومعه)	القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
٧		الفارابي	جوامع الشعر	
٨	١٩٧٢	ابن رشد	تلخيص السفسطة	القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث
٩	١٩٧٦	ابن باجة	تعليقات في كتاب باري أرمينياس (ومعه)	القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث
١٠			تعليقات من كتاب العبارة لأبي نصر الفارابي	
١١	١٩٧٦	الفارابي	كتاب في المنطق - الخطابة (ومعه)	القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث
١٢			كتاب في المنطق - العبارة	

م	السنة	المؤلف	عنوان الكتاب	بيانات الطبعة
١٣	١٩٧٧	جالينوس - حنين بن إسحق	كتاب جالينوس في فرق الطب للمتعلمين	القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث
١٤	١٩٧٨	ابن رشد	تلخيص كتاب أرسطوطاليس في العبارة	القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث
١٥	١٩٨٠	ابن رشد	تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الجدل	القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب - مركز تحقيق التراث
١٦	١٩٨٢	جالينوس - حنين بن إسحق	كتاب جالينوس إلى غلوqn في التأتي لشفاء الأمراض	القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب - مركز تحقيق التراث
١٧	١٩٨٥	جالينوس - حنين بن إسحق	كتاب جالينوس إلى طوثرن في النبض للمتعلمين	القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب - مركز تحقيق التراث
١٨	١٩٨٦	جالينوس حنين بن إسحق	كتاب جالينوس في الاسطقسط على رأي أبقرط	القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب - مركز تحقيق التراث
١٩	١٩٨٨	جالينوس حنين بن إسحق	الصناعة الصغيرة	القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب - مركز تحقيق التراث

جدول (١) التوزيع الزمني لتحقيقات محمد سليم سالم

ومن هذا الجدول نخرج بعدة نتائج، أهمها:

١ - تغطي الفترة الزمنية لتحقيقات سليم سالم مايقرب من أربعين عاماً (١٩٥٠ - ١٩٨٨م).

٢ - يعتبر عقد السبعينيات هو أخصب الفترات؛ حيث نشر خلاله سالم عشرة نصوص، بينما الخمسينيات والستينيات نشر في كل منهما نصين، أما في الثمانينيات فنشر فيها خمسة نصوص.

٣ - يعد عام ١٩٧٦ هو العام الذي بلغت فيه تحقيقاته أعلى معدلاتها؛ حيث شهد هذا العام ظهور ثلاثة نصوص محققة لسليم سالم.

وقد اتبع الدكتور سالم في تحقيقاته منهجاً علمياً بالغ الدقة يمكن استخلاصه واستقراؤه في ضوء نصوصه المحققة في النقاط الآتية:

أولاً- اختيار النصوص التراثية ذات القيمة في مجالها:

فالنصوص التي توفر على تحقيقها تعد علامات مهمة في موضوعاتها الفلسفية والطبية والأدبية ؛ فهي كتب اجتمع على تأليفها علماء وفلاسفة كبار، أمثال: ثامسطيوس (ت ٢٨٨ ق.م)، وأرسطو (ت ٣٢٢ ق.م)، وجالينوس (ت ٢٠١ ق.م)، وحنين ابن إسحق (ت ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م)، والفارابي (ت ٣٢٩ هـ / ٩٥٠ م)، وابن سينا (ت ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م)، وابن ماجه (ت ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م)، وابن رشد (ت ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م).

ثانياً - التقديم الوافي للتحقيق:

حرص الدكتور سليم سالم على تصدير كثير من كتبه بمقدمات وافية^(١)، وهو في هذه المقدمات يُقدم لنا دراسات مهمة عن المؤلفين والمترجمين والشرح، كما يقدم أحياناً وصفاً مجملًا لمحتويات الكتب. هذا بالإضافة إلى الحديث عن أهمية الكتب ومخطوطاتها والطريقة المتبعة في التحقيق.

ثالثاً - جمع النسخ الخطية ووصفها:

قام الدكتور سالم بوصف كل نسخة خطية اعتمد عليها وصفاً علمياً متكاملًا . في ضوء المتاح . من حيث زمن كتابة النسخة وناسخها وخطها وما يكون عليها من تصحيحات وتمليكات، وقد رجع سالم إلى مخطوطات محفوظة في كثير من الدول ، وهو ما يمكن بيانه بالجدول الآتي:

(١) هذا نراه واضحاً في مقدمة التحقيق لكتاب «تلخيص الخطابة»، والتي بلغت ثلاثين صفحة، ومقدمة التحقيق لكتاب «أرسطوطاليس في الشعر» والتي تقع في الكتاب فيما بين صفحتي ٥ - ٥٢ .

الكتاب	الدولة	مصر	تركيا	إيران	إيطاليا	إسبانيا	فرنسا	إنجلترا	هولندا	السويد	شيكوسلوفاكيا
الشفاء، لابن سينا	✓	✓	✓					✓			
تلخيص الخطابة، لابن رشد					✓				✓		
كتاب المجموع أو الحكمة العروضية - في معاني كتاب الشعر، لابن سينا										✓	
رسالة ثامسطيوس إلى يولييان الملك في السياسة وتدبير المملكة			✓								
تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر، لابن رشد					✓				✓		
جوامع الشعر، للفارابي											✓
تلخيص السفسطة، لابن رشد					✓				✓		
تعليقات في كتاب باري أرمينياس، لابن ماجه						✓		✓			
من كتاب العبارة لأبي نصر الفارابي، لابن ماجه						✓		✓			
كتاب في المنطق - الخطابة للفارابي											✓
كتاب في المنطق - العبارة للفارابي			✓								✓
تلخيص كتاب أرسطوطاليس في العبارة، لابن رشد					✓				✓		
تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الجدل، لابن رشد					✓				✓		
كتاب جالينوس إلى غلوقن في التآتي لشفاء الأمراض			✓	✓				✓			
كتاب جالينوس إلى طوثرن في النبض للمتعلمين			✓	✓			✓				

الكتاب	الدولة	م	ن	إ	إ	ف	إ	ه	السويد	شيكوسلوفاكيا
كتاب جالينوس في الاسطقسات على رأى أبقراط		✓	✓		✓					
الصناعة الصغيرة لجالينوس		✓	✓			✓				
كتاب جالينوس في فرق الطب للمتعلمين						✓				

جدول (٢) مواطن مخطوطات بعض النصوص التراثية التي حققها محمد سليم سالم والدكتور سليم سالم في تحقيقه يحدد نسخة كأصل - وفقاً للاعتبارات العلمية - يقابل عليها النسخ الأخرى، وهذه النسخة الأصلية هي التي يحرص - في غالب الكتب - على ذكر أرقام أوراقها على هامش صفحات النص المحقق رابطاً بذلك بين ترتيب صفحات كل من المخطوط والمطبوع.

وقد بلغ عدد المخطوطات التي اعتمد عليها في تحقيق أحد النصوص تسعة مخطوطات (كتاب الشفاء، لابن سينا)، هذا بالإضافة إلى كتب مخطوطة أخرى كثيرة يرجع إليها في تحقيقاته، ومن الجدير بالذكر هنا أن نذكر أن سليم سالم كان يرى ظهور نسخة خطية جديدة ومتميزة للكتاب المحقق يُعد مبرراً لإعادة تحقيقه حيث قام هو نفسه بإعادة تحقيق كتاب «تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر» لابن رشد بعد اكتشاف نسخة جيدة للكتاب في ليدن بهولندا، وفي مقابل ذلك كان يرى أيضاً أن عدم وجود أكثر من نسخة خطية للنص الواحد لا يحول دون تحقيقه، وقد قام هو بتحقيق نصين للفارابي (كتاب في المنطق - الخطابة، وجوامع الشعر) وآخر لابن سينا (في معاني الشعر - من الحكمة العروضية) لكل منهم نسخة خطية واحدة.

وكان سليم سالم يؤمن بأهمية احتفاظ المؤسسات العلمية بصورة من المخطوطات التي بالخارج ؛ ولهذا قام وعلى نفقته الخاصة بتصوير بعض المخطوطات من المكتبات الأوربية وأهداها إلى بعض الهيئات المعنية كدار الكتب المصرية^(١) وكلية الآداب بجامعة عين شمس.

(١) على سبيل المثال كتاب «تلخيص الخطابة» لابن رشد، وبالرجوع إلى الفهرس الورقى لمخطوطات دار الكتب المصرية وجدت بطاقة مسجل عليها البيانات الآتية: «تلخيص خطابة أرسطو لابن رشد - إهداء السيد الدكتور/ محمد سليم سالم - رقم ٢٩٦ ميكروفيلم: إلا أنتى وباستعارتى للميكروفيلم وجدت علية الميكروفيلم مسجل عليها بيانات كتاب «تلخيص الخطابة» غير إن الميكروفيلم نفسه ليس هو الكتاب المنشود، بل جزء من كتاب أدبي مجهول.

رابعاً - اعتبار المتن المحقق وحدة واحدة:

بمعنى أن الدكتور سالم قلما كان يميل إلى تقسيم المتن سواء بالأرقام أو العناوين أو الفصول بالرغم من أنه يصنع فهرساً في ذيل الكتاب يضم الكثير من رؤوس الموضوعات التي استخرجها من المتن، ولم أجده خالف ذلك إلا في كتابين لجالينوس أولهما: كتابه إلى طوثرن في النبض للمتعلمين، والذي قسم منته إلى فصول واضعاً ذلك على هامش الصفحة في اليسار أو في اليمين، والكتاب الثاني: هو كتابه إلى غلوقن في التآتي لشفاء الأمراض وفيه يضع عناوين داخلية للمتن بين معقوفين.

وبطبيعة الحال هو يقسم المتن إلى فقرات مستخدماً علامات الترقيم التي تساعد على فهم النص المحقق.

خامساً - تقسيم الحواشي إلى قسمين:

الشائع لدى المحققين أن يكون هناك قسم واحد للحواشي إلا أن الدكتور سليم سالم ارتضى منهجاً يستخدمه البعض في حواشي التحقيق، وهو تقسيم الحواشي داخل كل صفحة إلى قسمين أحدهما لفروق النسخ الخطية، وثانيهما للإحالات والتخرجات والتعليقات والتعريفات والمقارنات... إلخ، وقد اتبع الدكتور سالم هذا المنهج في غالب كتبه، ويجدر هنا التنويه بعمق وثراء القسم الثاني من الحواشي، والتي تمثل وحدها ثروة علمية ضخمة يتعذر العثور عليها في أي مرجع آخر.

سادساً - التعليق على أخطاء الطبقات السابقة للكتاب إن وجدت:

وهذا نراه واضحاً - على سبيل المثال - في تحقيق سليم سالم لكتاب «تلخيص كتاب الشعر» لابن رشد؛ حيث يُعلق كثيراً على طبعتي فاوستو لازينيو وعبد الرحمن بدوي للكتاب.

سابعاً - المقابلة بين نص الكتاب ونص الترجمة العربية التي اعتمد عليها مؤلف الكتاب:

نظراً للعلاقة الوثيقة بين التحقيق والترجمة^(١) فإن سليم سالم يعقد مقابلة متأنية يعلق فيها على أخطاء الترجمات العربية ويُعدها عن النص الأصلي للكتاب؛ مما أدى بدوره إلى أخطاء وقع فيها المؤلفون العرب كابن سينا وابن رشد، ومن ذلك على سبيل المثال تعليقاته على تلخيص الخطابة لابن رشد؛ فهو يؤكد في حواشيه اعتماد ابن رشد على الترجمة العربية القديمة لكتاب الخطابة وهي ترجمة - يراها - تعج بالأخطاء

(١) انظر في ذلك: ماهر عبد القادر: من يحقق التراث العلمي؟ ضمن أبحاث ندوة (التراث العلمي العربي مناهج تحقيقه وإشكالات نشره): معهد المخطوطات العربية، ٢٠٠٠م، ص ١٢٥ - ١٢٤.

الفاحشة وهو الأمر الذي أوقع ابن رشد نفسه في أخطاء كثيرة ترتبط بالنص الأرسطي^(١).

وفي تحقيقه لكتاب تلخيص كتاب الشعر يُعلق سليم سالم على أخطاء الترجمة العربية القديمة لكتاب الشعر والتي قام بها متى بن يونس القنائي^(٢).

ثامناً - المقابلة بين النص العربي للكتاب والنص اليوناني الأصلي له:

وهذا نراه في غالب تحقیقات سليم سالم، وهو في هذه المقابلات يخرج بالكثير من الأمور المهمة المرتبطة بفن الترجمة عند العرب في العصور الوسطى، ويرى الدكتور سليم سالم أنه بدون المعرفة باللغة اليونانية لا يمكن إحياء التراث العربي اليوناني على نهج عملي سليم^(٣).

تاسعاً - المقابلة بين نص الكتاب وما له من ترجمات لاتينية:

وهو يرجع إلى مثل هذه الترجمات لاستخدامها في ترجيح إحدى القراءات للنسخ المخطوطة، ويتمثل هذا في تحقيقه لتلخيص كتاب العبارة لابن رشد، والصناعة الصغيرة لجالينوس... وغيرهما.

عاشراً - المقابلة بين المتن المحقق وبعض الشروح والمختصرات:

ونرى ذلك في تحقيقه لـ «تلخيص كتاب الشعر» لابن رشد؛ حيث يقابل بينه وبين شرحي الفارابي وابن سينا لكتاب فن الشعر، وفي تحقيقه لكتاب جالينوس في الاسطقسات على رأي أبقراط يقابل بينه وبين شرح حنين بن إسحق المسمى (العناصر على رأي أبقراط) وهو المخطوط في أيا صوفيا...، وغير ذلك.

حادى عشر - التعليق على أخطاء الترجمات الحديثة للكتب اليونانية القديمة:

ويظهر ذلك واضحاً في تعليقات سليم سالم المتعددة على ترجمة عبد الرحمن بدوي لخطابة أرسطو وذلك في حواشي تحقيقه لكتاب «تلخيص الخطابة»، لابن رشد.

ثاني عشر - تنوع مصادر التحقيق:

بالرغم من أن الدكتور سليم سالم لم يورد في أى كتاب حققه قائمة بمصادر التحقيق كما هو معروف الآن في مناهج التحقيق؛ إلا أنه وبالإطلاع على حواشيه في

(١) ابن رشد: «تلخيص الخطابة»، هوامش صفحات ٧، ١٠٣، ١٠٥، ٢٠٦، ٢١١، ٢٢٢، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٤٢، ٢٥٧، ٢٧٢، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٦، ٢٨٩، ٢٩٢، ... وغيرها.

(٢) ابن رشد: «تلخيص كتاب الشعر». هوامش صفحات ٥٦، ٧٢، ٧٦، ٧٧، ٩٠، ١٠٥، ١١١... وغيرها.

(٣) حنين بن إسحق: كتاب جالينوس إلى غلوqn في التأتى لشفاء الأمراض، مقدمة التحقيق، ص (و).

هذه الكتب نجد أن مكتبة التحقيق لديه تتصف بالثراء والتنوع، وقد شملت هذه المصادر: الكتب الأدبية والبلاغية والمعاجم اللغوية ودواوين الشعراء، وكتب الفلسفة، والتراجم، والكتب التاريخية، والطبية... وغيرها.

ثالث عشر - وضع الفهارس الفنية للكتب المحققة:

قام الدكتور سليم سالم بصنع عدة فهارس للكتب التي حققها، وكان في فهارسه يركز أساساً على فهرسين بالدرجة الأولى، هما: فهرس الأعلام، وفهرس آخر للمصطلحات والمطالب المهمة كان يسميه دليل الكتاب. وتحتوي بعض كتبه على فهارس أخرى كأسماء الكتب الواردة في المتن، وأسماء المدن، والأدوية والعقاقير، إلا أنه يُلاحظ على بعض كتبه خلوها من فهارس ضرورية لموضوع النص المحقق، فعلى سبيل المثال كتاب «تلخيص كتاب الشعر» لابن رشد لم يصنع له فهرساً للأشعار العربية الواردة بالمتن^(١).

هذه هي أهم معالم منهج تحقيق التراث العربي اليوناني عند محمد سليم سالم، والملاحظ أن سليم سالم فرق في تحقيقاته - كما يظهر على أغلفة الكتب التي حققها - بين ثلاثة مستويات، هي:

- المستوى الأول - وهو التحقيق: ولجأ فيه بالدرجة الأولى إلى إظهار النص سليماً دون تعليقات أو شروح مطولة.
- المستوى الثاني - وهو التحقيق والتعليق: وقام فيه بالتعليق اليسير على بعض أجزاء المتن.
- المستوى الثالث - وهو التحقيق والشرح: وقام فيه بالتعليق والشرح الوافيين على المتن.

وتظهر نماذج لاستخدام هذه المستويات الثلاثة في الجدول الآتي:

(١) ترد هذه الأشعار العربية في كتاب تلخيص كتاب الشعر لابن رشد في ثلاث وثلاثين صفحة متفرقة من صفحات الكتاب، منها صفحات ٥٨، ٥٩، ٩٦، ٩٩، ١١١، ١١٢، ١١٥، ١١٦، ١١٧... إلخ.

المستوى	نماذج الكتب
التحقيق	النبض للمتعلمين
	جالينوس
	الاسطقسات على رأي أبقراط
	الصناعة الصغيرة
	ابن سينا
التحقيق والتعليق	ابن رشد
	فرق الطب للمتعلمين
	التأني لشفاء الأمراض
	ابن رشد
	تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر
التحقيق والشرح	ابن سينا
	ابن رشد
	تلخيص كتاب أرسطوطاليس في العبارة
	تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الجدل
	كتاب المجموع أو الحكمة العروضية

جدول (٢) مستويات التحقيق لبعض النصوص التراثية عند سليم سالم

والسؤال الذي يطرح نفسه - في ضوء إسهامات سليم سالم المتعددة ومنهجه العلمي الدقيق والصارم في الوصول للمتن الصحيح وفهمه واستخدامه - ما موقع سليم سالم بين محققي التراث العربي اليوناني؟ وسنحاول الإجابة عن هذا التساؤل بالاعتماد على ثلاثة مداخل أساسية:

• المدخل الأول. النشر المؤسسي:

في حقيقة الأمر سنجد أن معظم المراكز أو المؤسسات المعنية بتحقيق التراث تهتم بالدرجة الأولى بالتراث الديني يليه التراث الأدبي ثم التاريخي، أما التراث العلمي والفلسفي فيأتي في ذيل القائمة غالباً؛ ولهذا فقليلة جداً هي المراكز والمؤسسات التي يأخذ التراث العربي اليوناني نصيباً واضحاً من حركة نشرها، ولعل مركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة أحد أهم تلك المراكز؛ ولهذا سنأخذ كحالة أو عينة في دراسة النقطة التي بين أيدينا الان^(١).

إذا استعرضنا إصدارات هذا المركز سنجد أنها تضم فيما بينها ثمانية عشر كتاباً من كتب التراث العربي اليوناني، قام الدكتور سليم سالم وحده بتحقيق اثني عشر كتاباً

(١) انظر: حسام أحمد عبد الظاهر: اتجاهات النشر التراثي بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، (دراسة بيلومترية لإصدارات المركز خلال الفترة من أغسطس ١٩٦٦ حتى أغسطس ٢٠٠٥م) مجلة الفهرست، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، العدد الثالث عشر - يناير ٢٠٠٦م، ص ١١ - ٤٦.

منها أي بنسبة ٦٦,٦٪ من حجم التراث العربي اليوناني الذي قام بنشره أحد أهم مراكز تحقيق التراث العربي على مستوى العالم.

• المدخل الثاني. الإشراف على الرسائل الجامعية بمصر:

إذا حاولنا رصد تحقيق التراث العربي اليوناني في الجامعات الثلاث الكبرى في مصر (القاهرة - عين شمس - الإسكندرية) وبالتحديد في أقسام الفلسفة والدراسات اليونانية - سنجد أن جامعتي القاهرة والإسكندرية لم تقم بهما رسالة تحقق لنا نصًا من نصوص هذا التراث، أما جامعة عين شمس فهي رائدة في ذلك، حيث أجاز بها أربع رسائل - ثلاث منها للماجستير، وواحدة للدكتوراه - عبارة عن تحقيق أو مقارنة لبعض أعمال هذا التراث الخالد العربي اليوناني^(١)، وهذه الرسائل الأربع اثنتان منها بإشراف الدكتور سليم سالم، والرسالة الثالثة بإشراف مشترك للدكتور سليم سالم والدكتور عبد الله المسلمي، أما الرسالة الرابعة فهي من إعداد ابنته د. عزة، وإشراف تلميذه الدكتور إبراهيم سكر.

• المدخل الثالث. الدراسة الببليومترية لمحققي التراث العربي اليوناني:

في ضوء دراسة ببليومترية - شرعت في إعدادها وقد تكتمل قريبًا - عنوانها (التراث العربي اليوناني ... المطبوع والمخطوط والمفقود) يتضح من نتائجها المبدئية أن عدد الناشرين والمحققين المشتغلين بهذا التراث حتى سنة ٢٠٠٠م يُقدر بسبعين ناشرًا ومحققًا تقريبًا، غالبهم نشر نصًا أو اثنين أو ثلاثة، ومن بين هذا العدد هناك عدد محدود جدًا جعل من نشر هذا التراث إحدى اهتماماته العلمية الكبرى، يأتي على رأس هؤلاء ويحتل المرتبة الأولى بلا منازع الدكتور عبد الرحمن بدوي (١٩٢٥ - ٢٠٠٢م) حيث لا يماثله من ناحية الكم أي جهد آخر، ثم يأتي الدكتور سليم سالم.

بناء على هذه المداخل الثلاثة يمكن إدراك الموقع المتميز الذي يتبوأه الدكتور سليم سالم في تحقيق التراث العربي اليوناني، وفي ضوء المدخل الثالث يكون من

(١) هذه الرسائل الأربع هي:

١ - علي حنفى حسنين: القانون في الطب لابن سينا، الكتاب الثاني (الأدوية المفردة) دراسة مقارنة، رسالة ماجستير بإشراف د. محمد سليم سالم، ١٩٧١م.

٢ - عزة محمد سليم سالم: المقالة الرابعة عشرة من كتاب طبائع الحيوان لأرسطو، تحقيق الترجمة العربية القديمة والمقابلة بينها وبين الأصل اليوناني وتعليقات، رسالة ماجستير بإشراف د. إبراهيم سكر، ١٩٧٥م.

٣ - محمد سامي الباجوري: المقالة الثانية من كتاب طبائع الحيوان البري والبحري لأرسطو، الترجمة العربية ومطابقتها بالأصل اليوناني، تحقيق وشرح ودراسة، رسالة ماجستير بإشراف د. سليم سالم ود. عبدالله المسلمي، ١٩٧٦.

٤ - محمد سامي الباجوري: مقالات مترجمة إلى العربية من كتاب الحيوان لأرسطو، تحقيق وشرح ومقابلة بالأصول اليونانية، رسالة دكتوراه بإشراف د. محمد سليم سالم، ١٩٨٧م.

المفيد جداً - علمياً - أن نعقد مقارنة بين تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي المتخصص في الدراسات الفلسفية وتحقيق الدكتور محمد سليم سالم المتخصص في الدراسات اليونانية؛ لأنهما يعدان بحق فارسَي نَشْرِ التراث العربي اليوناني بين المحققين.

ويساعدنا في عقد هذه المقارنة وجود بعض الكتب قام كل منهما بتحقيقها بمفرده، وهي بالتحديد تلخيص ابن رشد لكتابي أرسطو في الخطابة والشعر.

في البداية يجدر الذكر أن هذه المقارنة ستتعلق أساساً بالمتن المحقق دون المنهج؛ فالمنهج قد يختلف من محقق إلى آخر، إلا أنه تكفي هنا الإشارة إلى أن عبد الرحمن بدوي اهتمامه ينصب على نشر المتن، وهو منهج يتبعه بعض المحققين الذين يكون إظهار النص فقط هو مناط اهتمامهم، يقابل ذلك منهج آخر يأخذ به غالبية المحققين - ومنهم سليم سالم - الذين يضيفون إلى إظهار النص محاولتهم إضاءته عن طريق شرح غوامضه والربط بين أجزائه والتعليق على مشكلاته أو تصحيح أخطائه أو التعريف بمصطلحات وأعلامه. وفضلاً عن ذلك فإن سليم سالم في منهجه اتبع خطوات منهجية تناسب تحقيق نصوص التراث العربي اليوناني خاصة وتتلاءم معه، وهو ما عرضناه فيما سبق، وبناء على ذلك سنقتصر في المقارنة بين تحقيق الرجلين - سالم وبدوي - لكتابي ابن رشد على المتن فقط وهو العنصر المشترك بينهما.

● الكتاب الأول - تلخيص الخطابة : ظهرت طبعه بدوي للكتاب سنة ١٩٦٠م عن مكتبة النهضة المصرية بينما صدرت طبعة سالم سنة ١٩٦٧ م عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ويذكر سالم في مقدمة تحقيقه للكتاب (ص ٢٤) أن طبعة عبد الرحمن بدوي ظهرت بعد أن قام هو بتقديم أصول الكتاب للنشر ولهذا لم يستطع الاستعانة بها في تحقيقه، وبالرغم من ذلك فإن الملاحظ أن الطبعتين تعتمدان على نفس النسختين الخطيتين للكتاب^(١)، ولضخامة الكتاب فقد أخذت المقالة الأولى من مقالات الكتاب الثلاث^(٢) كعينة علمية أُجرى مقابلة متها في كل من الطبعتين سطرًا سطرًا بل كلمة كلمة وحرَفًا حرَفًا؛ وذلك لتبيان فروق المتن في الطبعتين.

ولقد دلت عملية المقابلة على وجود ٢٩٧ فرقاً يمكن تقسيمها إلى أربع مجموعات على النحو الآتي:

(١) وهما نسخة المكتبة اللورنتية بفلورنسة والمحفوطة تحت رقم ٥٤، ونسخة مكتبة الجامعة بليدن والمحفوطة تحت رقم ١٦٩١.

(٢) يبلغ عدد صفحات الكتاب في طبعة عبد الرحمن بدوي ٢٢٢ صفحة بينما تبلغ في طبعة سليم سالم ٦٩٠ صفحة، والمقالة الأولى من ذلك تقع في طبعة بدوي من ص ٢ إلى ص ١٢ بينما في طبعة سالم تقع فيما بين صفحتي ١ -

المجموعة الأولى: وهي الفروق المطبعية وعددها ٤٢ فرقاً، وهي تشتمل على الأخطاء المطبعية أو اختلاف الشكل الطباعي لبعض الكلمات، وهذه الفروق من اليسير اكتشافها ولا تقوت على القارئ اليقظ للمتن، ويمثل هذه المجموعة الجدول الآتي:

طبعة عبد الرحمن بدوي		طبعة محمد سليم سالم	
الصفحة	الكلمة	الصفحة	الكلمة
١٢	مهيأتان	٢٢	مهيئتان
١٢	التافعة	٢٣	النافعة
١٣	السوفستائي	٢٥	السوفسطائي
٢٢	استقراءاً	٤١	استقراء
٦٨	الرئاسة	١٣٦	الرياسة
٩١	كل ما قرب	١٧٧	كلما قرب

جدول (٤) نماذج الفروق المطبعية بين طبعتي بدوي وسالم لتلخيص الخطابة

المجموعة الثانية: وهي فروق النسختين الخطيتين، والتي أتت من اعتماد بدوي على نسخة ليدن أصلاً يقابل عليها نسخة فلورنسة، في حين اعتمد سالم على نسخة فلورنسة أصلاً يقابل عليها نسخة ليدن، وهذه الفروق يبلغ عددها ١١٢ فرقاً، وهي في مجملها لا يوجد بينها اختلاف جوهري يؤثر على مضمون المتن، ويمثلها الجدول الآتي:

طبعة عبد الرحمن بدوي		طبعة محمد سليم سالم	
الصفحة	الكلمة	الصفحة	الكلمة
٣	مفرداً بذاته	٢	منفرداً بذاته
٦	جور أو عدل	١٠	عدل أو جور
١٤	غاياته	٢٧	غايته
٢٠	تترتب مقدماته	٣٩	ترتب مقدماته
٣٥	حفظ البلد	٦١	حفظ الثغر
٩٠	كما قال شعراء اليونانيين	١٧٤	كما قال شاعر اليونانيين

جدول (٥) نماذج فروق النسخ الخطية بين طبعتي بدوي وسالم لتلخيص الخطابة

المجموعة الثالثة: وهي فروق القراءة، وهي فروق خاصة بطريقة قراءة الكلمات داخل المتن المخطوطة، وعدد هذه الفروق ١٢٢ فرقاً، وتتضح بعض نماذجها في الجدول الآتي:

طبعة عبد الرحمن بدوى		طبعة محمد سليم سالم	
الصفحة	الكلمة	الصفحة	الكلمة
٢١	فاستعصى	٤١	فاستعصى
٦١	الميزات	١١٩	الخيرات
٨٨	يفرضها	١٧١	يعرضها
١٠٤	التراخى	٢٠٣	التوانى
١٠٧	الاستثثار	٢١٣	الاستتار
١١٥	أبقى	٢٢٥	أتقى

جدول (٦) نماذج فروق القراءة بين طبعتي بدوى وسالم لتلخيص الخطابة

المجموعة الرابعة: هى أهم مجموعة ويمكن تسميتها بمجموعة فروق السقط والنقص، ويبلغ عددها ٢٠ فرقاً يوجد - ن بينها جمل وعبارات كاملة ساقطة - للأسف الشديد - من طبعة عبد الرحمن بدوى، وعدم وجودها يخل بمتن ابن رشد، وهى مثبتة كاملة في طبعة سليم سالم، ومن الجدير بالذكر أن هذه الفروق لا ترجع إلى فروق النسخ الخطية، ولكنها ربما ترجع إلى السهو ونقل النظر خاصة مع وجود كلمات متشابهة داخل العبارة الواحدة.

ومن هذه الفروق ما هو إسقاط أو إنقاص كلمة من سياق الجملة ومن أمثلتها:

- أ - في طبعة بدوى صفحة ١٤ سطر ١٨ وردت جملة (خيراً من الخيرات) وينقصها كلمة، وهى واردة في طبعة سليم سالم صفحة ٢٦ سطر ١٥ (خيراً يناله من الخيرات).
- ب - وفي طبعة بدوى صفحة ٢٢ سطر ٦ وردت جملة (الممكنة الأكثر) وينقصها كلمة، وهى واردة في طبعة سليم سالم صفحة ٤٢ سطر ٥ (الممكنة على الأكثر).
- ج - وأيضاً في طبعة بدوى صفحة ٥٢ سطره ٥ - ٦ وردت جملة (فذلك بيان على طريق المراء) وينقصها كلمة، وهى واردة في طبعة سليم سالم صفحة ٩٧ سطرًا، (فذلك بيان لا على طريق المراء).

وبالإضافة إلى سقط الكلمة الواحدة هناك أكثر من سقط يشتمل على جمل وعبارات كاملة ومن ذلك:

- أ - في طبعة بدوى صفحة ٨ بداية من سطر ١٨ ترد جملة (وهذه حال التكلم في الأشياء المشاورية التي يشار بها بأمور معروفة عند الجمهور) وهى جملة ناقصة وترد كاملة عند سليم سالم وفي صفحة ١٥ بداية من سطر ٨ كما يلى: (وهذه حال التكلم في الأشياء المشاورية مع التكلم في الأشياء المشاجرية وذلك أن الحكام إنما يحكمون في

الأشياء التي يشار بها بأمر معروف عند الجمهور)، وقد سقطت الكلمات التي تحتها خط من تحقيق بدوى نظراً - فيما يبدو - لنقل النظر بين كلمتي «الأشياء» المتكررة.

ب - أيضاً في طبعة بدوى صفحة ٨٧ بداية من سطر ١٧ ترد جملة (ولا يكون عن ملكة وهيئة ثابتة راسخة) وهي ناقصة، وترد كاملة عند سليم سالم في صفحة ١٨٠ بداية من سطر ١٧ كما يلي: (ولا يكون عن ملكة وهيئة ثابتة، وهذا معلوم من قبل طبيعة ما بالاتفاق . وذلك أن الاتفاق إنما يكون سبباً للأشياء على الأقل، على ما قيل في كتاب البرهان، وأما الجور الذي يكون عن طبيعة الجائر وغريزته فهو عن هيئة ثابتة راسخة)، أى أنه توجد جملة طويلة ساقطة من عند بدوى، ويؤكد وجودها في النسختين الخطيتين أن سليم سالم يذكر فرقاً بينها، وهي كلمة (غريزته) في نسخة فلورنسة تقابلها كلمة (غريزية) في نسخة ليدن ، ولعل تفسير وقوع طبعة بدوى في ذلك يرجع إلى نقل النظر بين الكلمتين المتشابهتين في البداية والنهاية، وهما «هيئة ثابتة» مما أسقط ما بينهما من كلمات.

ج - وكذلك ترد في طبعة بدوى صفحة ١٢٨ بداية من سطر ٢ الجملة الآتية: (وإذا لزمتم اليمين أحد الخصمين فنكل، فقد لزمته الحجة) وهي ترد في طبعة سليم سالم صفحة ٢٥٢ بداية من سطر ٢ كالتالي: (وإذا لزمتم اليمين أحد الخصمين فنكل، فقد لزمته الحجة، لأن المطالبة باليمين تحد على الصدق، وإذا عجز المتحدى فقد لزمته الحجة). والسبب في نقص الجملة عند بدوى يرجع - كما في الجملتين السابقتين - إلى نقل النظر نظراً لتكرار «فقد لزمته الحجة».

● الكتاب الثاني - تلخيص كتاب الشعر: قابلنا بين نصي الكتابين ووجدنا ١٢٢ فرقاً بين الطبعتين، ولن نستطرد في ذكر توزيعها على مجموعات الفروق؛ خاصة وأن بدوى اعتمد في طبعته الصادرة عن دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٥٢م^(١) - على نسخة خطية واحدة، وهي نسخة فلورنسة، بينما قام سليم سالم في تحقيقه - الصادر سنة ١٩٧١م عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - بالاعتماد على نسختين خطيتين بعد اكتشاف نسخة أخرى في ليدن بهولندا، إلا أنه من المجدى التنويه بأن هذه النسخة الجديدة التي رجع إليها سليم سالم تزيد المعنى إيضاحاً، وتصحح أخطاء نسخة فلورنسة، كما أن هناك عبارة مكونة من ١٦ كلمة ترد في نسخة ليدن التي اعتمدها سالم أصلاً، بينما لا توجد في نسخة فلورنسة أو طبعة بدوى، هذه العبارة ترد في طبعة سليم سالم صفحة ٦٥ بداية من سطر ٦ وموطنها يقابله في طبعة بدوى صفحة ٢٠٤ بداية من سطر ١٧،

(١) وذلك في الصفحات ٢٠١ - ٢٥٠ ضمن كتابه: «فن الشعر» مع الترجمة العربية القديمة، وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد.

وهذه العبارة هي (وإذا كان كل ما يقصد محاكاته من الأفعال الإرادية هو إما فضيلة أو رذيلة).

وبالنسبة لمجموعة فروق السقط والنقص فعددها تسعة فروق، أهمها بعض العبارات الساقطة من طبعة بدوي بالرغم من وجودها في نسخة فلورنسة التي اعتمد عليها في تحقيقه، وقد أثبتتها سليم سالم في طبعته وذلك بمقابلتها بين نسختي فلورنسة وليدن، ومن هذه العبارات:

أ - في طبعة بدوي صفحة ٢١٦ بداية من سطر ٤ ترد جملة (والاعتماد هو أن يبدأ بالإدارة إلى الاستدلال ، أو يبدأ بالاستدلال ثم ينتقل إلى الإدارة) في حين ترد في طبعة سليم سالم صفحة ٩٤ بداية من سطر ١٠ على النحو التالي: (والاعتماد هو أن يبدأ أولاً بالإدارة، ثم ينتقل منه إلى الاستدلال. فإنه فرق كبير بين أن يبدأ أولاً بالإدارة ثم ينتقل إلى الاستدلال، أو يبدأ بالاستدلال ثم ينتقل إلى الإدارة). ويذكر سالم في حواشيه أن ما سقط في طبعة بدوي يرجع إلى تكرار كلمة الاستدلال.

ب - كما أن هناك جملة ساقطة من طبعة بدوي صفحة ٢٢٠ بداية من سطر ٢٢، وهي ترد عند سالم صفحة ١٠٦ بداية من سطر ٨، وهي: (لأن من الأشياء ما يفعل عن إرادة وعلم، ومنها ما يفعل لا عن إرادة ولا عن علم)، وهي ترد في النسختين الخطيتين كما يفهم من حواشي التحقيق لدى سليم سالم.

وفي ضوء هذه المقارنة بين تحقيق الرجلين لكل من الكتابين يمكن الخروج بنتيجة مفادها الوثوق بمتن التحقيق لدى محمد سليم سالم، كما أن هذه المقارنات الداخلية للنص التراثي تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن متن التحقيق لدى سليم سالم أصح وأكمل وأقرب إلى الصورة التي أرادها المؤلف، وهذا يدفع بدوره إلى القول بأن عمله كان في الذروة من حيث تحقيق التراث العربي اليوناني. لقد ضرب لنا محمد سليم سالم مثلاً رائعاً في حب التراث والبحث عنه والدقة اللا متناهية عند تحقيقه ونشره.

وأختتم هذا البحث بالدعوة إلى إعادة الاهتمام بالتراث العربي اليوناني، والذي شهد تراجعاً في السنوات الماضية، ويجب أن نؤمن عند تصدينا لذلك بأن تحقيق نصوص مخطوطات التراث العربي اليوناني يحتاج إلى محققين يمتلكون قدرات خاصة؛ حيث إن هذه المخطوطات بوقوعها على التخوم بين التراثين العربي واليوناني تحتاج لاستكمال الوثوق بتحقيق نصوصها إلى عقد المقارنات الدقيقة بين النص العربي المترجم إليه أو الشارح له، والأصل اليوناني المترجم عنه، وهنا تظهر أهمية التخصص في اللغة اليونانية، والناحية اللغوية دائماً ما تكون هي العامل المشترك في تحقيق

النصوص التراثية، أريد القول إن أي نص من نصوص التراث العربي اليوناني نحققه يجب أن يتوفر عليه - على الأقل - ثلاثة باحثين: أولهم متخصص في موضوع المخطوط، وثانيهم متخصص في اللغة العربية، أما الثالث - وهو أحد دروس تجربة سليم سالم - يكون متخصصًا في اللغة اليونانية، وإذا تشكلت مثل هذه اللجنة الثلاثية يكون إخراج أحد نصوص التراث العربي اليوناني أقرب ما يكون إلى المنهج العلمي السليم.

مصادر البحث ومراجعته

أولاً - المصادر:

- ١ - أرسطوطاليس (ت ٣٢٢ ق. م): «فن الشعر» مع الترجمة العربية القديمة وشرح الفارابي وابن سينا وابن رشد، ترجمه عن اليونانية وشرحه وحققه نصوصه، عبد الرحمن بدوي، بيروت: دارالثقافة، ١٩٥٢م.
- ٢ - ابن باجة، أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٥٢٢هـ / ١١٢٩م): تعليقات في كتاب باري أرمينياس ومن كتاب العبارة لأبي نصر الفارابي، تحقيق: محمد سليم سالم، القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث، ١٩٧٦م.
- ٣ - ثامسطيوس (ت ٢٨٨ ق. م): «رسالة ثامسطيوس إلى يوليان الملك في السياسة وتدير المملكة»، تحقيق وشرح: محمد سليم سالم، القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث، ١٩٧٠م.
- ٤ - حنين بن إسحق (ت ٢٦٠هـ / ٨٧٣م): «كتاب جالينوس في فرق الطب للمتعلمين»، تحقيق وتعليق: محمد سليم سالم، القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث، ١٩٧٧م.
- ٥ - _____: «كتاب جالينوس إلى غلوغن في التأتي لشفاء الأمراض»، تحقيق وتعليق: محمد سليم سالم، القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث، ١٩٨٢م.
- ٦ - _____: «كتاب جالينوس إلى طوثرن في النبض للمتعلمين»، تحقيق: محمد سليم سالم، القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث، ١٩٨٥م.
- ٧ - _____: «كتاب جالينوس في الاسطقسات على رأي أبقراط»، تحقيق: محمد سليم سالم، القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث، ١٩٨٦م.
- ٨ - _____: كتاب «الصناعة الصغيرة» [لجالينوس]، تحقيق: محمد سليم سالم، القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث، ١٩٨٨م.
- ٩ - ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد (ت ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م): «تلخيص الخطابة»، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٠م.

- ١٠ - ابن رشد : «تلخيص الخطابة»، تحقيق وشرح : محمد سليم سالم، القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ١٩٦٧م.
- ١١ - _____ : «تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر ومعه جوامع الشعر للفارابي»، تحقيق وتعليق: محمد سليم سالم، القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٧١م.
- ١٢ - _____ : «تلخيص السفسطة»، تحقيق : محمد سليم سالم، القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث، ١٩٧٢م.
- ١٣ - _____ : «تلخيص كتاب أرسطوطاليس في العبارة»، تحقيق : محمد سليم سالم، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب - مركز تحقيق التراث، ١٩٧٨م.
- ١٤ - _____ : «تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الجدل»، تحقيق : محمد سليم سالم، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب - مركز تحقيق التراث، ١٩٨٠م.
- ١٥ - ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله (ت ٤٢٨هـ / ١٠٢٧م) : «الشفاء [المنطق، الخطابة]»، تحقيق : محمد سليم سالم، القاهرة: وزارة المعارف العمومية - ١٩٥٤م.
- ١٦ - _____ : كتاب «المجموع أو الحكمة العروضية في معاني كتاب الشعر»، تحقيق وشرح: محمد سليم سالم، القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث، ١٩٦٩م.
- ١٧ - الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد (ت ٢٢٩هـ / ٩٥٠م) : «كتاب في المنطق - الخطابة»، تحقيق وتعليق: محمد سليم سالم، القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث، ١٩٧٦م.
- ١٨ - _____ : كتاب «في المنطق» - العبارة، تحقيق : محمد سليم سالم، القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث، ١٩٧٦م.

ثانياً - أهم المراجع:

- ١ - حسام أحمد عبد الظاهر: «اتجاهات النشر التراثي بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة» (دراسة بيليومترية لإصدارات المركز خلال الفترة من أغسطس ١٩٦٦ حتى أغسطس ٢٠٠٥م)، مجلة الفهرست القاهرة: دارالكتب والوثائق القومية، العدد الثالث عشر - يناير ٢٠٠٦م. ص ١١ - ٤٦.
- ٢ - السيد ياسين: «حوار الحضارات»، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢م.
- ٣ - عزة محمد سليم سالم: «محمد سليم سالم - سيرة ذاتية»، مجلة أوراق كلاسيكية، القاهرة: جامعة القاهرة - كلية الآداب. العدد الرابع - ١٩٩٥، ص ٧٣، ٧٤.
- ٤ - ماهر عبد القادر: «من يحقق التراث العلمي؟»، ضمن أبحاث ندوة (التراث العلمي العربي مناهج تحقيق وإشكالات نشره)، القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ٢٠٠٠م، ص ١١١ - ١٣٤.
- ٥ - محمد سليم سالم: «البدائع»، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٥م.

من أخبار القراء

من أقبال التراث

أ. حسام أحمد عبد الظاهر(*)

شهر يناير ٢٠٠٦م

● مع بداية عام ٢٠٠٦م أعلنت الحكومة الإسبانية عن عزمها إنشاء معهدين للتراث والدراسات العربية أحدهما في مدريد وهو (معهد البيت العربي) والثاني في قرطبة وهو (المعهد الدولي للدراسات العربية) ، وقد خصصت إسبانيا لهذين المعهدين موازنة سنوية قدرها عشرة ملايين يورو .

● وفي يوم الأربعاء ٤ يناير عُقدت ندوة (علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي) في مقر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، حاضر فيها الدكتور أيمن فؤاد سيد .

● وخلال هذا الشهر تم الإعلان عن إهداء معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب بسوريا إلى مكتبة الإسكندرية مجموعة ضخمة من كتب التراث العلمي العربي في مجالاته المتعددة .

● أصدرت مكتبة الإسكندرية اسطوانة مدمجة باللغتين العربية والإنجليزية عليها مخطوطة كمامة الزهر للأديب الأندلسي ابن بدرون ، وهي إحدى المخطوطات التي تقتنيها جامعة أوبسالا السويدية .

● أصدر مركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة كتاب (الآثار) للإمام محمد بن الحسن الشيباني بتحقيق الأستاذة خديجة محمد كامل ، وذكرت المحققة في مقدمة التحقيق أنها اعتمدت على ثلاث نسخ خطية للكتاب محفوظة بدار الكتب المصرية بالإضافة إلى طبعتين غير محقتين من الكتاب .

شهر فبراير ٢٠٠٦م

● في يوم الأربعاء الأول من فبراير عقد سيمينار التاريخ الإسلامى والوسيط بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية ندوته هذا الشهر وتحدث فيها الدكتور سعيد مغاوري عن (أسعار الدواب في ضوء أوراق البردى العربية) ، كما تحدث الدكتور أحمد أسد عن (طريقة جديدة لكتابة التاريخ الحجازي المبكر بين التاريخ الديني وكتب الأنساب) .

● وفي يوم الأربعاء ٨ فبراير ناقش الباحث ناصر محمدى جاد رسالته للماجستير

(*) باحث بمركز تحقيق التراث - دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة تحت عنوان (التحقيق فى تقرير أدلة الإكفار والتفسيق للإمام يحيى بن حمزة العلوي - دراسة مقارنة وتحقيق) . كانت لجنة المناقشة تتكون من الدكتور عبد الحميد مذكور مُشرقاً ، والدكتور عبد اللطيف العبد مُناقشاً ، والدكتور محفوظ على عزام مُناقشاً . وانتهت المناقشة بحصول الباحث على تقدير ممتاز .

● وفى يوم الأحد ١٢ فبراير عُقدت ندوة بقصر التدوق بالإسكندرية حول شعراء الإسكندرية فى العصر الإسلامى .

● وفى يوم الأربعاء ١٥ فبراير عُقدت ندوة بجامعة القاهرة عنوانها (اللغة العربية وتحديات العصر) . شارك فيها نخبة من المهتمين باللغة العربية وقضاياها، منهم: الدكتور كمال بشر ، والأستاذ فاروق شوشة ، والأستاذ طاهر أبو زيد ، والدكتور أحمد كشك ، والدكتور أحمد فؤاد باشا ... ، وغيرهم .

● وفى نفس اليوم ١٥ فبراير أقامت دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة احتفالية بمناسبة توقيع اتفاقية تعاون ثقافى مع دارة الملك عبد العزيز بالمملكة العربية السعودية ، وتضمنت هذه الاتفاقية تبادل الخبرات فى مجال الصيانة والترميم والتقنية فى مجالات عمل كلتا المؤسستين ، وإتاحة الفرص للباحثين من الدولتين للاطلاع وتصوير المواد العلمية والتاريخية ، والتعاون فى إقامة المعارض والندوات ، وتبادل النشرات العلمية والإصدارات ، وتبادل زيارات المختصين والفنيين .

● أُعلن هذا الشهر أنه تم الاتفاق بين وزارة الاتصالات واتحاد الناشرين المصريين على البدء فى وضع عيون الفكر العربى الصادر فى مصر من خلال الكتب على شبكة المعلومات (الانترنت) .

● وفى يوم الأحد ٢٢ فبراير ألتقت الدكتورة وفاء بلقاسم المتخصصة فى علم الآثار محاضرة عن (السياسات التراثية فى مصر بين الطموح والواقع) ، وذلك بالمركز الفرنسى للثقافة والتعاون بالقاهرة .

● وفى يوم الأحد ٢٦ فبراير عقد مركز تحقيق التراث أولى ندواته هذا العام وكان موضوعها (التراث والتنمية الثقافية) . حاضر فيها الدكتور زين نصار عن (التأثير العربى على الموسيقى الأوربية) ، كما حاضر الدكتور فاروق الرشيدى عن (فن السينما والتراث والتنمية الثقافية) ، وأدار الندوة الدكتور حسين نصار والذى ساهم بدوره أيضاً فى الحديث؛ حيث تكلم عن (دور التراث فى الحركة الأدبية) .

● وفى يوم الإثنين ٢٧ فبراير عقد مركز دراسات التراث العلمى بجامعة القاهرة

بالتعاون مع دار الكتب والوثائق القومية ومركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية ندوة حول (حقوق الملكية الفكرية للمقتنيات التراثية وأخلاقياتها) .
تحدث في الندوة الدكتور حسن بدراوى والدكتور أحمد مرسى عن (القوانين والتشريعات الوطنية والدولية فى مجال التراث العلمى) . كما تحدث الدكتور عبدالستار الحلوجى والدكتور يوسف زيدان والدكتور فيصل الحفيان عن (الوضع الراهن للمخطوطات والوثائق) ، وقد عُقدت على هامش الندوة حلقة نقاشية موسعة عن (التراث العلمى المصرى - الواقع والمأمول) شارك فيها الكثير من الباحثين المهتمين بالتراث العلمى وأدار الحوار فيها الدكتور أحمد فؤاد باشا ، والدكتور رفعت هلال ، والدكتور آلان روسيون .

● صدر عن الدار العربية للكتاب بالقاهرة كتاب (ذيل خطط المقرئى) لعبد الحميد نافع ، وقام بتحقيق الكتاب الدكتور خالد عزب والدكتور محمد السيد حمدي ؛ وذلك بالاعتماد على ثلاث نسخ خطية للكتاب اثنتين منها محفوظتين بدار الكتب المصرية والثالثة مخطوطة بالمكتبة الأزهرية .

● وخلال شهر فبراير صدر عن مركز تحقيق التراث كتاب (الشكوك على جالينوس) لأبي بكر الرازي بتحقيق الدكتور مصطفى لبيب عبد الغنى ، وقد اعتمد المحقق على نسخة واحدة من مخطوطات الكتاب، وهي نسخة طهران بالإضافة إلى الطبعة التي حققها الدكتور مهدي محقق معتمداً فيها على ثلاث نسخ خطية . كما صدر عن المركز أيضاً الأجزاء السابع والثامن والتاسع من الطبعة الجديدة لكتاب (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) لأبي المحاسن ابن تغري بردي .

شهر مارس ٢٠٠٦م

● فى يوم الأربعاء الأول من مارس عقد سيمينار التاريخ الإسلامى والوسيط جلسته العلمية لشهر مارس ، وحاضر فيها الدكتور خالد حسين عن (رقيق السلطة فى مصر فى العصر الطولونى) .

● أعلنت وزارة الثقافة التونسية عن البدء فى إقامة العديد من الاحتفالات الثقافية خلال شهر مارس بمناسبة إحياء الذكرى المئوية السادسة لوفاة العلامة عبد الرحمن ابن خلدون، وتتضمن هذه الاحتفالات ندوات علمية ومعارض كتب ومخطوطات وإعادة طبع لكتب ابن خلدون خاصة كتابه فى التاريخ العام (العبر وديوان المبتدأ والخبر) وكتابه فى السيرة الذاتية (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً) .

• أقيم بمعهد العالم العربي في باريس معرضاً مهماً عن (العلوم العربية في عصرها الذهبي) ، والذي شهد إقبالاً كبيراً من الجمهور الأوربي الراغب في التعرف على الحضارة العربية الإسلامية .

• وخلال الفترة ٦.٤ مارس عُقد المؤتمر الدولي الثاني عن الاستشراق والدراسات العربية والإسلامية بكلية دار العلوم بجامعة المنيا ، وقد هدف المؤتمر إلى التعرف على أعمال المستشرقين في التراث العربي والإسلامي ، وتحديد أهداف المستشرقين وتوجهاتهم وتحليل أعمالهم ونقدها ، وإبراز سلبياتها وإيجابياتها ، وإبراز حقيقة التراث العربي والإسلامي وتنقيته مما علق به من آراء بعض المستشرقين .

• وفي الفترة ٩.٧ مارس عقد مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية مؤتمره الدولي الثالث تحت عنوان (المخطوطات الشارحة) ، وقُدِّم للمؤتمر خمسون بحثاً منها:

بحث الدكتور رشدي راشد عن (شروح كتاب المجسطي لبطليموس المنسوبة لابن الهيثم) ، وبحث الدكتور مريام روزنسكايا عن (شرح الخازنى لمخطوطة الأوزان النوعية للبيريوني) ، وبحث الدكتور قسطنطين كانافاس حول (النصوص التقنية الشارحة في المخطوطات المصورة - دراسة تصنيفية لكتاب الحيل لبني موسى بن شاكر) ، وبحث الدكتور كمال عرفات نبهان حول (الشرح والتفسير - حاجة إنسانية ووظيفة علمية وثقافية) .

كما قُدِّم بحث حول (شرح الدخوار على مقدمة المعرفة لأبقراط) للدكتور ماهر عبد القادر ، وبحث عن (الأصالة في الشروح العلمية المتأخرة - شمس الدين الخفري نموذجاً) للدكتور جورج صليباً .

وعن (الذبول على المتون التاريخية) تحدث الدكتور أيمن فؤاد سيد ، وعن الشروح التاريخية تناول الدكتور عمر عبد السلام تدمري (شروحات ابن الجزري والذهبي على المقتضى للبرزالي ، وتناول الدكتور أندرو بيكوك (شروح تاريخ اليميني للعُتبي) .

وعن الشروح الفلسفية تحدث الدكتور فريدريك ورثر عن (شرح الفارابي لكتاب الخطابة لأرسطو) ، كما قدم الدكتور مارون عواد ورقته (هوامش مخطوطات فلورنسا وليدن لشروح ابن رشد على كتاب الخطابة لأرسطو) .

وعن الشروح الأدبية قدم الدكتور عبد الله محارب بحثه عن (المخطوطات

الشارحة لديوان الحماسة) ، وقدم الأستاذ عصام الشنطى بحثه عن (شروح إصلاح المنطق لابن السكيت) .

ومن الأبحاث التي تعرضت للشروح الدينية بحث الدكتور عبد الحكيم الأنيس وعنوانه (شروح أرضية لكتاب سماوى) ، وبحث الدكتور عبد السميع الأنيس عن (المخطوطات الشارحة فى الحديث النبوى الشريف) ، وبحث الدكتور محمود مصرى حول (مصطلح الحديث وشروح كتاب ابن الصلاح) ، وبحث الدكتور رضوان السيد تحت عنوان (التأليف الفقهي المبكر - شروح المختصرات / المزني نموذجاً) ... وغير ذلك من أبحاث .

• قام مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية باستضافة الدكتور رشدى راشد ليُلقى أربع محاضرات بالمكتبة ضمن برنامج الباحث المقيم . وكان موضوع المحاضرة الأولى فى ١٢ مارس (العلم العربى وتجديد تاريخ العلوم) ، والمحاضرة الثانية فى ١٤ مارس بعنوان (رياضيات ديوفنطس الإسكندراني وتجديدها بالعربية وانتقالها إلى أوروبا) ، والمحاضرة الثالثة فى ١٦ مارس تحت عنوان (بين الرياضيات وعلم المناظر) ، أما المحاضرة الرابعة والأخيرة ففى ١٩ مارس عن (فلسفة الرياضيات العربية بين حساب التوافيق والميتافيزيقا) .

• وفى يوم الأحد ١٩ مارس عقد مركز تحقيق التراث ثانى ندواته هذا العام وكان موضوعها (التراث العلمى فى الحاضر والمستقبل) حاضر فيها الدكتور أحمد فؤاد باشا عن (أهمية التراث العلمى العربى) ، كما حاضر الدكتور كمال الدين البتانونى عن (التراث العلمى الإسلامى ماهيته والخصائص التى بنى عليها) ، وأدار الندوة الدكتور رفعت هلال .

• وفى شهر مارس أيضاً أعلنت وزارة الأوقاف المصرية عن تطوير مكتبة المخطوطات الملحقة بمسجد السيدة زينب وتزويدها بأحدث التقنيات التكنولوجية فى الحفظ والفهرسة وتعاونها مع المنظمات والهيئات الدولية المعنية بالتراث الإسلامى والمخطوطات النادرة للحفاظ عليها وحمايتها . ومن الجدير بالذكر أن عدد المخطوطات التى جمعتها الوزارة وأوشكت المكتبة على حفظها يقرب من ستة آلاف مخطوطة .

• صدر هذا الشهر عن مركز تحقيق التراث إعادة طبع للجزأين الحادى عشر والرابع عشر من كتاب (الخطط التوفيقية) لعلي مبارك .

- وصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب الجزء الأول من كتاب الدكتور أحمد عرفات القاضي عن (على بن رضوان) ، وهو أشهر أطباء مصر في العصر الإسلامي .
- وخلال هذا الشهر أيضاً صدر بالقاهرة التحقيق الكامل لكتاب ساويرس بن المقفع عن تاريخ الآباء البطارقة ، وهو أحد المصادر التراثية المهمة عن تاريخ مصر في العصر الإسلامي ، قام بتحقيق الكتاب معتمداً على مخطوطة المتحف القبطي الأستاذ عبد العزيز جمال الدين .

شهر إبريل ٢٠٠٦م

- في بادرة تُعد الأولى من نوعها في أثيوبيا تم افتتاح المعرض الأول للتراث الإسلامي بجامعة أديس أبابا ، ويشتمل المعرض على نحو ١٥٠ مخطوطة من مخطوطات التراث الإسلامي سواء المكتوبة بالحرف العربي أو المكتوبة باللفات المحلية .

- قامت مكتبة الإسكندرية بنشر مخطوطة الحيل الروحانية للفارابي على أسطوانة مدمجة باللغتين العربية والإنجليزية مع مجموعة أخرى من مخطوطات التراث العربي المهمة الموجودة في جامعة أوبسالا السويدية .

- قام رئيس الوزراء الكويتي بافتتاح مكتبة البابطين المركزية للشعر العربي وهي من المكتبات النادرة على مستوى العالم المتخصصة في الشعر ، وتهدف المكتبة إلى الحفاظ على التراث الشعري العربي ، وهي تضم ما يقرب من ثمانين ألف كتاب ومخطوط ودورية . تقع المكتبة على مساحة ٢٢ ألف متر مربع والواجهة على شكل كتاب مفتوح ، وقد تكلف البناء ١٧ مليون دولار .

- وفي الأسبوع الثاني من شهر إبريل أعادت دار الكتب المصرية طباعة كتابين مهمين عن ابن خلدون . بمناسبة احتفال العالم بمرور ستمائة عام على رحيله . وهما كتاب (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) للدكتور طه حسين ، وكتاب (ابن خلدون وتراثه الفكري) للأستاذ محمد عبد الله عنان .

- بدأت الهيئة المصرية العامة للكتاب في إصدار سلسلة تراثية جديدة تحت عنوان (المختصرات التراثية)؛ تهدف إلى تهذيب الموسوعات التراثية وتلخيصها واختصارها ، وقد صدر أول كتاب من هذه السلسلة وهو كتاب (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) للقلقشندي في جزأين ، قام بإعدادهما الأستاذ مصطفى موسى الباحث بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة .

● وفي الفترة ١٢.١١ إبريل عقدت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مؤتمرها السنوي لهذا العام تحت عنوان (مصر والوطن العربي - تواصل أم انقطاع) ، ومن أبحاث هذه الندوة : (المقامات بين بديع الزمان الهمذاني وجلال الدين السيوطي) للدكتور عوض الغباري ، وبحث (تأثير الثقافة العربية الإسلامية في شعر مصر الإسلامية خلال القرنين السادس والسابع الهجريين) للدكتور جمال حسين حماد ، وبحث (ابن خلدون في مصر وأثره في دراسة التاريخ المصري في القرن التاسع الهجري) للدكتور أيمن فؤاد سيد ، وبحث (مصر وموقفها من المحنة بخلق القرآن في العصر العباسي) للدكتور عبد الناصر إبراهيم عبد الحكم .

● وفي يوم الأحد ١٦ إبريل عقد مركز تحقيق التراث ثالث ندواته هذا العام وكان موضوعها (التكنولوجيا في خدمة التراث) حاضر فيها الدكتور علي راشد عن (التكنولوجيا وخدمة التراث الإسلامي) ، كما حاضر الدكتور شريف كامل شاهين تحت عنوان (التكنولوجيا في خدمة التراث - لامحتوى بدون تكنولوجيا ، ولا تكنولوجيا بدون محتوى) ، أدار الندوة الدكتور عبد الستار الحلوجي .

● وفي إطار الاحتفال بذكرى ابن خلدون قامت دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة بعقد ندوة يوم الأربعاء ٢٦ إبريل تحت عنوان (الأثر الخلدوني في الفكر العربي المعاصر) ، ومن أبحاث هذه الندوة : بحث (هل نجح المؤرخون العرب في قراءة ابن خلدون) للدكتور قاسم عبده قاسم ، وبحث (ابن خلدون شاهداً على عصرنا) للدكتور عبادة كحيلة ، وبحث (قراءات مغاربية لابن خلدون) للدكتور مصطفى خياطي، وبحث (الدين والسياسة عند ابن خلدون) للدكتورة زينب الخضيرى ، وبحث (أثر ابن خلدون في بعث الفكر الفلسفي في مصر) للدكتور مصطفى لبيب عبد الغني .

● وخلال شهر إبريل صدر عن مركز تحقيق التراث عدة كتب هي :

كتاب (الوافي بحل الكافي في علمي العروض والقوافي) لابن مرشد المعمري ، بتحقيق الدكتور أحمد عفيفي ، وقد اعتمد المحقق في تحقيقه على ثلاث نسخ خطية للكتاب : الأولى محفوظة في مكتبة وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان ، والثانية في المكتبة الأحمدية بحلب بسوريا ، والثالثة بدار الكتب المصرية .

كما صدر عن المركز كتابا (الظرائف واللطائف)، و(اليواقيت في بعض المواقيت)، للثعالبي والذان جمعهما أبو نصر المقدسي ، وقام بالتحقيق الأستاذ ناصر محمدى جاد معتمداً على نسختين للكتاب محفوظتين بدار الكتب المصرية ، ومن

الجدير بالذكر أن هذا الكتاب قد طبع عدة مرات قبل ذلك كان آخرها الطبعة التي حققها الدكتور عبد الرحيم الجمل وصدرت سنة ١٩٩٢م .

وصدر أيضاً عن المركز الأجزاء العاشر والحادي عشر والثاني عشر من الطبعة الجديدة لكتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) لأبي المحاسن ابن تغري بردي .

شهر مايو ٢٠٠٦م

● في يوم الثلاثاء ٢ مايو عُقدت ندوة (الإسكندرية دور حضاري وتراث) بالمجلس الأعلى للثقافة ، وقد تناولت بعض أبحاث الندوة الجوانب التراثية في حضارة الإسكندرية في العصر الإسلامي .

● صدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر كتاب (أبو الطيب المتنبي شاعر العروبة وحكيم الدهر) للدكتور عبد العزيز الدسوقي ، ويتناول الكتاب أهم القضايا التي أثّرت حول المتنبي خاصة في كتابات محمود محمد شاكر وعبد الوهاب عزام وطله حسين .

● وفي الفترة ١٨-١٥ مايو وبالتعاون بين دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة واتحاد جامعات العالم الإسلامي عُقدت دورة تدريبية حول ترميم المخطوطات وصيانتها في الدول العربية .

● وفي يوم الأربعاء ١٧ مايو قامت السلطات الأمنية في مطار القاهرة الدولي بمصادرة عشرين مخطوطة عربية من راكب سوري لدى وصوله من إسبانيا ، وكان رجال الجمارك قد اشتبهوا بحقائب الراكب السوري وعند فتحها عثروا على المخطوطات ، وقاموا بعرضها على خبراء الآثار المصريين الذين أكدوا قيمتها الأثرية وقرروا مصادرتها لصالح المجلس الأعلى للآثار .

● وفي إطار الاحتفالات الدولية بذكرى ابن خلدون قامت العديد من المؤسسات الإسبانية كجامعات إشبيلية، وغرناطة، وقرطبة ومؤسسات أوروبية أخرى كالمكتبة الوطنية الفرنسية، وجامعة أثينا، والمعهد الإسباني في البرتغال، ومعهد الدراسات الشرقية في نابولي وغيرها بتنظيم معرض ضخم عن العلامة ابن خلدون تحت رعاية الحكومة الإسبانية ، وقد قام الملك الإسباني بافتتاح هذا المعرض يوم الخميس ١٨ مايو بحضور العديد من الزعماء والقيادات، منهم: الرئيس المصري محمد حسني مبارك ، والرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة ، والأمير فيصل شقيق ملك الأردن ،

ومولاي رشيد شقيق ملك المغرب ، ومحمد بن جاسم وزير خارجية قطر ، ووزيرا الثقافة في سوريا وتونس ... وغيرهم . ومن المقرر استمرار هذا المعرض إلى نهاية شهر سبتمبر القادم.

● صدر في شهر مايو كتاب (أخبار البرامكة) لمؤلف مجهول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، قام بتحقيقه المحقق العراقي الدكتور جليل العطية ؛ وذلك بالاعتماد على نسخة خطية وحيدة للكتاب عثر عليها في مكتبة فاتح بإستانبول .

● عُقدت بكلية الآداب بجامعة حلب ندوة علمية عن (الحياة الفكرية والأدبية في بلاط سيف الدولة) ، ومن الجدير ذكره أن هذه الندوة هي الثالثة التي تعقدها جامعة حلب حول هذا الموضوع ، وقد أوصت الندوة بإعداد موسوعة ضخمة عن عصر سيف الدولة وبلاطه الفكري وطباعة بحوث الندوات ووضعها على الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت) .

شهر يونيو ٢٠٠٦م

● أقام مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات ندوة عن (التراث الإسلامي في أوزبكستان) وذلك بالتعاون مع سفارة أوزبكستان بالمملكة العربية السعودية .

● أعلنت منظمة اليونيسكو أن عام ٢٠٠٦م سيشهد تكريم اسم عائشة الباعونية الشاعرة والفقيهة والمتصوفة ، والتي كانت واحدة من شهيرات النساء في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، ويأتي هذا التكريم في إطار إحياء ذكرى الذين ساهموا في خدمة الثقافة والمعرفة . ومن المقرر أيضاً أن يقوم مهرجان جرش للثقافة والفنون بالأردن بالاحتفال بعائشة الباعونية .

في الطريق إليك من إصدارات

مركز تحقيق التراث

● «أخبار نيل مصر» :

المؤلف : الأقفهسي .

تحقيق: د/ ليبة إبراهيم مصطفى ، أ/ نعمات عباس محمد .

● «التبر المسبوك في ذيل السلوك» - الجزء الرابع :

المؤلف: السخاوي .

تحقيق: أ/ نجوى مصطفى كامل ، د / لبيبة إبراهيم مصطفى.

● «ربيع الأبرار وفصوص الأخبار». الجزء الرابع :

المؤلف: الزمخشري .

تحقيق: أ / مرزوق على إبراهيم .

● «رسالة في الهيئة» :

المؤلف: ابن سينا .

تحقيق: د/ مها مظلوم خضر .

مراجعة وتقديم: د / أحمد فؤاد باشا .

● «السلوك لمعرفة دول الملوك» - ١٢ مجلد : [إعادة طبع]

المؤلف : المقرئزي .

تحقيق : د / محمد مصطفى زيادة ، د / سعيد عبد الفتاح عاشور .

● «شرح كتاب سيبويه» . الأجزاء ٧، ٩، ١٠ :

المؤلف: السيرافي .

الجزء السابع. تحقيق: أ.د. أحمد عفيفي .

الجزء التاسع: تحقيق: أ.د. شعبان صلاح .

الجزء العاشر: تحقيق: أ.د. صلاح روى ، د. مها مظلوم.

● «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» (العصر الأيوبي) الجزء الثالث:

المؤلف: بدر الدين العيني .

تحقيق: د. محمود رزق محمود .

● «عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران» . الجزء الثالث :

المؤلف: البقاعي .

المحقق: أ.د. حسن حبشي .

● «مدارج السالكين» . الجزء الخامس :

المؤلف: ابن قيم الجوزية .

تحقيق: أ.د. عبد الحميد مذكور .

● «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» - الجزء ١٢ :

المؤلف: أبو المحاسن ابن تغري بردي .

تحقيق: د / محمد محمد أمين .

● «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» - الأجزاء ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٦ .

المؤلف : أبو المحاسن ابن تغري بردي .

تحقيق : مجموعة من المحققين .

● «نهاية الأرب في فنون الأدب» - ٢٢ مجلد : [إعادة طبع]

المؤلف : النويري .

تحقيق : نخبة من المحققين .

خطة العمل بمركز تحقيق التراث

خلال الشهور القادمة

جارى العمل فى تحقيق الكتب الآتية :

● «جواهر القرآن ودرره» : لأبي حامد الغزالي .

● «بغية الفلاحين» : للجفني .

● «مدارج السالكين» : لابن قيم الجوزية ج ٦ .

● «عقد الجمان» : للعيني (العصر الأيوبي) ج ٤ .

● «عقد الجمان» : للعيني (العصر المملوكى) ج ٥ .

● «شرح كتاب سيبويه» : للسيرافي ج ٨ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ .

● «لقط المنافع» : لابن الجوزي .

● «مزيل الاشتباه فى أسماء الصحابة والتابعين» : لعبد الكريم بن ولى الدين .

● «السموم ودفع مضارها» : لجابر بن حيان .

مشروع التحويل الرقمى لإصدارات المركز :

● «كتاب الأمالي» : للقالى - جزآن .

● «ذيل الأمالي» : للقالى .

● «التبیه على الأمالي» ، لأبي عبيد البكري .

القسم الأجنبية

التراث الإسلامي ودوره في تصحيح صورة الإسلام

أ. ط / مجيد الستار الحلوجي(*)

التراث الإسلامي هو كل ما ورثناه عن السلف الصالح من قيم ومبادئ، وما خلفوه لنا من مؤلفات في شتى فروع المعرفة بصرف النظر عن اللغات التي كتبت بها تلك المؤلفات، وعن الجنسية التي ينتمي إليها مؤلفوها، فالإمام البخاري شيخ المحدثين كان من أوزبكستان، وسيبويه شيخ العربية كان من فارس، والطبري والخوارزمي وابن سينا والفارابي والبيريوني خرجوا من آسيا الوسطى، وابن كمال باشا وآشق باشا وفضولي ظهوروا في تركيا، وكلهم كانوا يرحلون في طلب العلم شرقاً وغرباً، ولا يفرقون بين عالم شامي أو عربي أو يماني.

وأمام الحملة الشرسة التي تُشنّ على الإسلام في هذه الأيام، ينبغي أن تفزع الأمة الإسلامية إلى تراثها تستلهم منه عناصر قوتها، وتجمع الخيوط المتفرقة التي تتسج شخصيتها، وتتعرف من خلاله على حقائق دينها التي يحاول الآخرون أن يطمسوها أو يزيفوها.

وعلى رأس الدعاوى الباطلة يأتي ربط الإسلام بالإرهاب، والادعاء بأنه دين عدوان وعنف وقسوة، وأنه انتشر بحدّ السيف، مع أن القرآن الكريم ينصّ صراحة على أنه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾. ويأمر المسلمين بأن يتعاملوا مع الآخر بالحسنى ﴿وَلَا تَجَادَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. بل إن الجهاد لم يُفرض في الإسلام إلا لردّ العدوان وكفالة حرية العقيدة بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِي يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، و﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾، و﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾، ويمضي القرآن الكريم إلى ما هو أبعد من ذلك فيقول: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. والله سبحانه وتعالى يأمر المسلمين صراحة بأن يلتزموا بالسلم والسلام فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾، و﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾. وفي حجة الوداع يخطب رسول الله ﷺ في أتباعه ويعلن على الدنيا كلها أن ﴿دِمَاءُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رِبْكُمْ﴾.

(*) أستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة.

وعلى هدي المسطفي سار الخلفاء الراشدون من بعده، وكانت سيرتهم تطبيقاً عملياً لتعاليم الإسلام وسماحته، ويُعدّ عمر بن الخطاب نموذجاً رائعاً للعدل وديموقراطية الحكم، ومن مواقفه الشهيرة أنه دعا الناس ذات يوم إلى عدم المغالاة في المهور فنهضت له امرأة من الرعية تراجعه وتقول له بأعلى صوتها: يعطينا الله وتحرمنا يا عمر. فيرجع أمير المؤمنين عن رأيه بشجاعة نادرة ويقول: أصابت المرأة وأخطأ عمر، كل الناس أفقه منك يا عمر.

ويعتدي ابن عمرو بن العاص والي مصر على صبي من أقباط مصر ويضربه بالسوط قائلاً له: خذها وأنا ابن الأكرمين، فيشكو الأب إلى أمير المؤمنين فيستدعي عمرًا وابنه ويأمر الصبي القبطي أن يأخذ الدرة ويضرب بها ابن الأكرمين، ثم يقول له: أجّلها علي صلعة عمرو فوالله ما ضريك ابنه إلا بسلطان أبيه، ويلتفت إلى عمرو ويقول له قولته المشهورة: متي استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟.

destroyed, with its property, crosses and money untouched. They are not to be forced out of their religion, or harmed. No Jew is to inhabit Iliya. They have to pay tribute like other states. If any of the natives should desire to accompany the Romans with his property, he and his property are safe, till they reach their target".⁴⁵ This is the text of the contract which protected the natives of Iliya and their sacred places, and ensured their freedom of belief. The tribute was not a royalty imposed on the People of the Book, but a tax for defence or national security, because they were exempted from recruiting and their safety was the responsibility of the Islamic army. While writing the contract, the time of the prayer fell due. Umar went out of the church, and performed his prayer beside it. He dreaded praying inside, lest Muslims should keep that place later.

Keeping all this in mind, can any fair person accuses Islam of violence and terrorism? After all this, can it be said that Islam instigates hatred and enmity for non-Muslims? How come that the Islamic society is accused of being based on aggression and racism?

Our ignorance with our Heritage and our disability on defining it correctly give chance to the voices of our enemies to rise, and their false, claims to find listeners. This why I say that our current crisis is that of ignorance more than weakness. A correct knowledge of our Heritage can unite us and consolidate our unity. Heritage is the mind of our nation and its consciousness. A mere knowledge of it is not enough. We should revive it, make it competent and adhere to it. We should inform of its ideals and values, which unite and do not divide, build and do not destroy, keep and do not waste, spread love and fraternity among the whole humanity, spare blood, money and honour, set man free from submission, except for Allah, and release his hidden abilities for enriching the universe and improving life.

45- *Haqa'iq al-Islam wa Apatil khusumu*, p. 242.

he could not refute. What kind of democracy is that? Any democracy, be it in East or West, would bow in reverence of Umar, or hide ashamed and mortified. Sometimes I feel that if Umar was not born and people knew that he was there, no one would have believed that the world had ever a ruler as just and modest as Umar.

How come that a nation of such Heritage is accused of terrorism? How come that a nation is accused of terrorism, while its religion is Islam, its prayers are concluded with peace and its *Qur'an* call for peace? – “O ye who believe! Enter into peace whole-heartedly”⁴¹, “But if the enemy incline towards peace, do thou (also) incline towards peace, and trust in Allah”⁴², “Therefore if they withdraw from you but fight you not, and (instead) send you (guarantees of) peace, then Allah hath opened no way for you (to war against them)”⁴³. How come that Islam is equated with terrorism, while its Prophet advises the leaders of his troops not to cut a tree, scare a child or a woman or hurt any worshipper in his cell, no matter what his religion or belief is? It is an advice kept by the four righteous Calipha who followed him; Abu Bakr said to his troops, “Do not grudge, betray or mutilate. Do not kill a little child, an old man or a woman. Do not uproot palm trees or burn them, cut a fruitful tree. Do not slaughter a goat, a cow or a camel, except for eating. You will pass by people retired into their cells; leave them as they are”⁴⁴.

Muslims are not men of war, but peace. They respond to its caller, if their enemies showed desire for safety and protection. If some of the Muslims misunderstood or behaved wrongly, the blame falls upon them, not upon Islam. The Prophet and his companions provide us with a good example in the Hudaibiya Treaty. They wanted to visit Mekka to perform Umra, but the infidels stopped them. The Prophet said, “We did not come to fight, but to perform the Umra”. He accepted to go back with his companions that year, and to come back the following year. Quraish would leave then, and they would spend three days in Mekka. It may be said: Islam was weak. The Prophet had better accepted what they offered, in spite of the protest of his friends against the conditions of the Treaty and its form. But what can be said about the contract of Jerusalem which was given by Umar bn al-Khattab to the natives of Iliya, “promising them safety for themselves, their money, churches, crosses, the sick, the healthy and all the cults. Their churches are not to be inhibited or

41- Surat “al-Baqara”, Verse 208.

42- Surat “al-Anfal”, Verse 61.

43- Surat “al-Nisaa”, Verse 90.

44- *Gamharat Khutab al-Arab*, Part I, p. 74 (and *Tarikh al-Tabai* [*The History of al-Tabari*]: 3: 213).

take not the least bit of it back”³³ How did Umar, the Prince of Muslims respond to this? He did not order putting her into custody or jail. He changed his opinion in a rare courage, saying from above the pulpit, “The woman spoke rightly and Umar spoke wrongly. All people are more conversant than you, Umar”.

Who said this? It is Umar bn al-Khattab, the fair, devout, whom the Prophet said about, “The sun never rose on a man better than Umar”³⁴, “If there was a prophet after me, it would have been Umar”.³⁵ It is Umar whom the *Qur'an* agreed with his opinions several times. Even some of his words are mentioned in the *Qur'an* as he pronounced them. Umar said, as narrated by al-Bukhari, “Allah agreed with me three times. I said, ‘O Prophet of Allah, why do not we take the station of Abraham as a place of prayer?’, then a Verse descended, ‘And take ye the Station of Abraham as a place of prayer’³⁶. I said, ‘O Prophet of Allah, why do not you order your wives to be veiled? They are talked to by the bad and debauched’, then the Verse of veil descended. When the wives of the Prophet agreed on their jealousy, I said to them, ‘It may be, if he divorced you (all), that Allah will give him in exchange Consorts better than you’³⁷, then this Verse was descended”.³⁸

There are other situations in which the *Qur'an* agreed with Umar. When Ibn Ubai passed away, the Prophet was about to pray upon him. Umar reminded him of his conspiracies against Islam and Muslims, and the Verse, “Whether thou ask for their forgiveness or not, (their sin is unforgivable): if thou ask seventy times for their forgiveness, Allah will not forgive them”.³⁹ The Prophet smiled and said, “If I know that more than seventy could absolve him, I would have done that”. He prayed upon him, attended his funeral and buried him, then a Verse was descended: “Nor do thou ever pray for any of them that dies, nor stand at his grave”.⁴⁰

Umar the Calipha retaliates a Coptic boy aggressed by the son of his ruler over Egypt, in a way no one is capable of except him. He changes his opinion before a woman from populace, who confronted him with a proof

33- Surat “al-Nisaa”, Verse 20.

34- “Sunan al-Tirmizi” (“al-Turmuzi Precepts”), Kitab *al-Manaqib* (*Book of Good Traits*), Ch. 17.

35- *Masnad al-Imam Ahmed bn Hanbal* (*Ahmed Ibn Hanbal's Record*), Part 4, p. 154.

36- Surat “al-Baqara”, Verse 125.

37- Surat “al-Tahrim”, Verse 5.

38- *The Authenticated al-Bukhari*. Riyadh: Dar al-Salam Press, 1999, p. 71.

39- Surat “al-Tawba”, Verse 80.

40- Surat “al-Tawba”, Verse 84.

his famous statement: O Umar, you acted justly, so you felt safe and could sleep.

One evening, Umar found a woman who put a pot on fire, while her children were crying. He asked about the reason of their crying, and she answered, "Hunger". He asked, what was in the pot? She answered, "water to calm them till they sleep. Allah will give his verdict on Umar and us". He said, "How could Umar possibly know about you?" She answered, "He rules us, then forgets about us?" Umar went with one of his companions to the Public Treasury and took flour and oil, saying to his companion, "Put them on my back". His companion said, "I will carry them instead of you, Prince of Muslims". Umar said, "Will you carry my sins in the Doomsday?" The Prince of the Muslims carried the flour and went to the woman and her children. He helped her in cooking, blowing under the pot, so smoke went up through his thick beard. When the food was done, he cooled it, remaining there till they all satisfied their hunger. The woman kept saying, "May Allah rewards you. By what you did, you deserve the place of the Prince of Muslims more than him".³¹

Under the rule of Umar, Amr bn al-As opened Egypt. His son's horse raced with the horse of an Egyptian Coptic. Both argued about the winner, so the son of Amr beat the Coptic and whips him saying, "Take it, I am the son of the honoured". His father sent a complaint to the Prince of Muslims who sent back asking for the two boys and Amr bn al-Aas. When they stood before him, he said to the Coptic boy, "Here is the lash. Whip the son of the honoured". The boy whipped him till he was hurt badly (as Anas bn Malik, the narrator said). When he finished, Umar said to the boy, "Turn to the baldness of Amr. By Allah, his son beat you by the power of his father". Amr said in alarm, "O Prince of Muslims, you punished and took revenge". The boy said in embarrassment, "O Prince of Muslims, I beat the one who beat me. His father, Amr, did not beat me". Umar said, "By Allah, if you beat him, we would not stop you till you get your full". He then turned to Amr saying, "O Amr, when did you enslave people, since their mothers gave birth to them free".³²

When Umar knew that rising dowries caused many youth to abstain from marriage, he delivered a speech asking for moderation. A woman stood out, saying very loudly, "Allah gives us, and you detain, Omar? Did not He say in the *Qur'an*, "But if ye decide to take one wife in place of another, even if ye had given any of them a whole treasure for dower,

31- *Al-bqariyat al-Islamiya (Islamic Geniuses)*. Abbass al-qquad. Beirut: Al-Kitab al-Libnani Publishing House, 1974, Vol. I, p. 411.

32- *Ibid.*, pp. 490-491.

with, "Salman is one of us, the Household".²⁷ Whenever Umar saw Bilal he said, "Bilal is our master, freed by our master (meaning Abu Bakr)".

The Prophet used to ask about his companions, visit the patient and console the afflicted. There was a woman called Umm Mehgan used to clean his mosque. One day the Prophet asked about her, and was told that she passed away. He said: Why did not you tell me to pray upon her? Those whom I pray upon in life has my prayer as an intercession after life. They said: O Prophet of Allah, she passed away at a time of intense heat. We did not want to cause you any trouble. The Prophet responded with going to her tomb, praying and invoking blessing upon her, saying, "Allah has built a mosque for her in the paradise. I see her sitting in it now". If a simple woman-worker in the palace of a king or a president in the most democratic country today died, would he have asked about her himself, or even paid attention or offered condolence?

The Prophet declared in his famous speech during his pilgrimage the first worldwide petition for human rights: "Your blood and money are inviolable as this very day and this very month. We you meet Allah, He will ask you about your works. I have told you. If you have a trust in due, pay it back to its owner. Muslims are brothers; nothing owned is legitimate for anyone, unless his brother gives it without hard feelings. Do no do yourselves injustice".²⁸

Giants were graduated from the school of the Prophet, such as Abi Bakr who delivered a speech when he was appointed a *Khalifa* saying, "O people, I am appointed a ruler over you, yet I am not the best of you.... I consider the weakest is the strongest, till he gets his right. The strongest is the weakest, till I make him pay the right claimed back. O people, I am a follower, not an innovator. Help me if I do well, and correct me if I go astray".²⁹

He was followed by Umar. The Islamic state was extended during his rule, yet he was satisfied with very little and wore hard cloth.³⁰ He treated the camels specified for charity himself. When a messenger for Kisra (Emperor of Persia) found him asleep under the shade of a tree, he said

27- *Al-Tabaqat al-Kubra (The Supreme Ranks)*, Ibn Sa'd. Beirut: Beirut Publishing House, 1978, Vol. 4, p. 83.

28- *Sirat Ibn Hisham (The Biography of Ibn Hisham)*. Edited by Muhammad Muhyi al-Din Abdul Hamid. Cairo: Subeih Press, 1971, p. 1022-1023.

29- *Al-Tabaqat al-Kubra*, Ibn Sa'd. Beirut: Beirut Publishing House, 1978, Vol. 4, pp. 182-183.

30- It was narrated that he was seen in pilgrimage wearing a dress with twelve patches, though he was the Prince of Muslims (*Al-Tabaqat al-Kubra*, Vol. 3, p. 328).

soldiers and provoking energies for an unavoidable war, with no purpose but defending against aggressors".²¹

"Then fight in Allah's cause - thou art held responsible only for thyself - and rouse the Believers. It may be that Allah will restrain the fury of the unbelievers; for Allah is the strongest in might and in punishment"²², "Fight in the cause of Allah those who fight you, but do not transgress limits; for Allah loveth not transgressors"²³, "If then any one transgresses the prohibition against you, transgress ye likewise against him. But fear Allah, and know that Allah is with those who restrain themselves"²⁴, "And if ye do catch them out, catch them out no worse than they catch you out: but if ye show patience, that is indeed the best (course) for those who are patient".²⁵ The *Qur'an* goes far than this, opening the way for making good relations with non-Muslims, as long as they do not resort to aggression or drive Muslims out of their home: "Allah forbids you not, with regard to those who fight you not for (your) Faith nor drive you out of your homes, from dealing kindly and justly with them: for Allah loveth those who are just (8). Allah only forbids you, with regard to those who fight you for (your) Faith, and drive you out, of your homes, and support (others) in driving you out, from turning to them (for friendship and protection)."²⁶

The Prophet provides a good example; he was driven out of Mekka by its people. His followers were tortured and driven out as well. Yet what did he do when he entered it victorious, after leaving secretly chased by them? He did not intern them, treat them badly or take revenge. He said his famous statement, "Go, you are free".

The world has never known a ruling system more just than Islam, or a democracy like that of Islam. If we provide example, we would need hours and hours. It suffices now to mention a drop of that sea of democracy. Islam cancelled partisanship and rebuked racism, including Ali bn Abi Talib the Quraish was equal to Bilal the Abyssinian, Suhaib the Roman and Salman the Persian. The Prophet's companions competed in welcoming Salman; the Emigrants said, "Salman is one of us". The Supporters (al-Ansar) said, "Salman is one of us". The Prophet responded

21- *Haqa'iq al-Islam wa Apatil khusumih (The Truth about Islam and the Forgeries of its Enemies)*, Abbas al-Aqqad. Cairo: The Islamic Conference, 1957, p. 235.

22- Surat "al-Nisa", Verse 84.

23- Surat "al-Baqara", Verse 190.

24- Surat "al-Baqara", Verse 194.

25- Surat "al-Nahl", Verse 126.

26- Surat "al-Mumtahina", Verses 8-9.

*"Let him who will believe, and let him who will reject" It even orders the Muslim who has pagan parents to obey and do them well: "But if they strive to make thee join in worship with Me things of which thou hast no knowledge, obey them not; yet bear them company in this life with justice (And consideration)".¹⁶

The *Qur'an* orders the Prophet to tell Allah's message to people, and define a certain way which should be followed in doing this: "Invite (all) to the Way of thy Lord with wisdom and beautiful preaching; and argue with them in ways that are best and most gracious"¹⁷, And dispute ye not with the People of the Book, except with means better (than mere disputation)".¹⁸

Those verses are a direct invitation for Islam by kindness and affection, and for arguing with other religions "with means better than mere disputation". Yet Islam is accused of permitting bloodshed; it is a charge refuted by many verses, such as "Say: "Come, I will rehearse what Allah hath (really) prohibited you from": join not anything as equal with Him... take not life, which Allah hath made sacred, except by way of justice and law: thus doth He command you, that ye may learn wisdom"¹⁸, "If a man kills a Believer intentionally, his recompense is Hell, to abide therein (forever): and the wrath and the curse of Allah are upon him, and a dreadful penalty is prepared for him"¹⁹, "And the servants of (Allah) Most Gracious are those who walk on the earth in humility, and when the ignorant address them, they say, "Peace!" (63)... Those who invoke not, with Allah any other god, nor slay such life as Allah has made sacred, except for just cause, nor commit fornication, and any that does this (not only) meets punishment (68). (But) the Penalty on the Day of Judgment will be doubled to him, and he will dwell therein in ignominy (69).²⁰

Islam approved the *Jihad* only to face aggression and to guarantee the freedom of belief. War is to defend ourselves or to avoid an expected attack. A Muslim is required to "be satisfied from war with what pushes harm back. He is ordered to delay it if there is a way to patience and peace and every order for Jihad in the *Qur'an* concerned recruiting

16- Surat "Luqman", Verse 15.

17- Surat "al-Nahl", Verse 125.

18- Surat "al-An'am", Verses 151.

19- Surat "al-Nisa", Verse 93.

20- Surat "al-Furqan", Verses 63- 69.

There is no need to affirm that the Prophet is our ideal: the *Qur'an* says, "Ye have indeed in the Messenger of Allah a beautiful pattern (of conduct) for any one whose hope is in Allah and the Final Day".⁸ His sayings and deeds are our torch which guides us to the path. The Prophet was not only a messenger from Allah or an explainer of the *Qur'an*, but also a legislator. Times of prayers – pinnacle of our religion – were not set by the *Qur'an*. It did not also explain how to perform them or define the number of *rak'at*. The Prophet showed us; he said, "Pray the way I pray". Some penalties (considered as the criminal law of Islam), such as stoning, were not mentioned in the *Qur'an*, but applied by the Prophet.

This is in response to some people who express doubts about the *hadith*, and claim that the *Qur'an* is enough. The *Qur'an* itself describes the Prophet saying, "Nor does he say (aught) of (his own) Desire (3). It is no less than inspiration sent down to him (4)".⁹ It also follows Allah's obedience with the Prophets obedience: "O ye who believe! obey Allah, and obey the Messenger"¹⁰, "And obey Allah and the Messenger; that ye may obtain mercy"¹¹, "Say: "If ye do love Allah, follow me: Allah will love you and forgive you your sins; for Allah is Oft-Forgiving, Most Merciful" (31). Say: "Obey Allah and His Messenger": but if they turn back, Allah loveth not those who reject Faith (32)"¹², "But no, by thy Lord, they can have no (real) Faith, until they make thee judge in all disputes between them, and find in their souls no resistance against thy decisions, but accept them with the fullest conviction".¹³

The deeds of the Prophet and his companions who were taught and enriched by him, are complementary to their sayings. Both (sayings and deeds) confirm the greatness of Islam and its benevolence, and they make us proud of being Muslims. They unit our nation and its thought, and organize its relations with other nations.

In the past, Islam was accused of being spread by sword. Today, Islam is accused that it is a religion of violence, injustice and terrorism. But our *Qur'an* states frankly the freedom of belief, that "Let there be no compulsion in religion"¹⁴ and "To you be your Way, and to me mine".¹⁵

8- Surat "al-Ahzab", Verse 21.

9- Surat "al-Nagm", Verses 3-4.

10- Surat "al-Nisa", Verse 59, and Surat "Muhammad", Verse 33.

11- Surat "al-'Umran", Verse 132.

12- Surat "al-'Umran", Verses 31-32.

13- Surat "al-Nisaa", Verse 65.

14- Surat "al-Baqara", Verse 256.

15- Surat "al-Kafirun", Verse 6.

*Surat al-Kahf, Verse 29.

Umar Kept him. When he was murdered, Hafsa bnt Umar, Mother of Believers kept them. At the time of opening Armenia and Azearbijan during the rule of 'Uthman Ibn 'Affan, some controversy concerning the recital of the *Qur'an* broke out. Uthman asked for the parchments of Hafsa, summoned Zaid Ibn Thabit and three Quraishis (Abdullah bn al-Zubair, Said bn al-As and Abdul Rahman bn al-Harith), and ordered them to agree on one *mushaf*. Several copies were made; one remained in al-Madina and the others were distributed.⁶ Uthman's *mushaf* is the one agreed upon by all Muslims since then.

The second source is the Prophet's *hadith*. It was narrated orally till 'Umar Ibn 'Abdul 'Aziz ordered its documentation in 100 A. H. The Prophet forbade writing anything he says except the *Qur'an*, because it was not completed yet; he did not want Muslims to mix between his words and Allah's, especially during that early stage of Islam.⁷

It is natural that during all that long period some *ahadith* were forgotten or added, and some weak souls ascribed to the Prophet false sayings. Muslim scholars faced this problem early; they originated the science of *Mustalah al-hadith* which set accurate rules for verifying the *ahadith* as well as the methodology for studying the narrators. Many books of *tagrih* (wounding) and *ta'dil* (adjusting) appeared, sifting the *ahadith* from the weak or doubted. *The authenticated Bukhari* is a wonderful example of the minute accuracy in determining the right *ahadith*, so it was described that it is the second precise book after the *Qur'an*.

Other works of language, literature, history, geography, natural sciences, mathematics, etc. come next in importance. Most of them were influenced by the *hadith* scholars in documentation, so many sayings and news were narrated preceded by long series of references or what we call today "citation".

Deeds mean the deeds of the Prophet and his companions. The *Sunna* (Tradition) of the Prophet is sayings, deeds and approvals. Sayings are represented by the *ahadith*. Deeds are explained by the Prophet's conducts. Approvals (meaning that the Prophet sees a certain behaviour and approves of it) are distributed between the *ahadith* books and the Prophet's *sira*. (biography).

⁶ *Al-Itqan fi 'Ulum al-Qur'an (Mastering the Qur'an Sciences)*, al-Siyuti. Cairo: Uthman Abdul Raziq Press, 1306 H., Part I, p. 63.

⁷ See *Taqyid al-Im*, al-Khatib al-Baghdadi. Edited by Yussef al-Ush. Damascus: The French Institute for Arabic Studies, 1949, p. 57.

under the Arabic flag; their God is One with one religion, one Prophet, one *qibla*, one language and one culture.

The Islamic Heritage, with its Arabic, Persian, Turkish and Greek fabrics, forms the consciousness of our nation. Al-Bukhari, for example, is the *sheikh* (master) of *hadith* tellers, and his book, *Al-Gami' Al-Sahih* (*The Correct Collection*) is the most authenticated source of *hadith*. We all hear about al-Bukhari, but has anyone ever asked about his nationality, or knew that he was from Uzbekistan? No Muslim differentiates between an Uzbekistani or Tagikistani scholar and another from Mekka or al-Madina.

Al-Bukhari was not an exception; al-Tabari, al-Khawarizmi, ibn Sina, al-Farabi and al-Bairouni were all from central Asia. They travelled to East and West seeking knowledge, without distinguishing between a Shami, Moroccan or Yemeni scholar.

All were combined under the flag of Islam, each one presents a dear value and a brick in the Islamic culture which flourished several centuries and led the mankind from the darkness of medieval ages to the Renaissance age. During the late 12th century AD, Europe established schools for teaching Arabic language in Spain³ and Siqilya, and translated Islamic Heritage from Arabic (the language of culture then) to Latin. They even translated back the Greek Heritage from Arabic to Latin, through Arabic translations. The Greek origins of the writings of Aristotle and Plato were not discovered, until Constantinopol was conquered in the middle of the 15th century.

Islamic Heritage consists of two main categories: Speech and Deeds. The two main sources of Speech are the *Qur'an* and *hadith*. The *Qur'an* is a text "No falsehood can approach it from before or behind it: it is sent down by One Full of Wisdom, Worthy of all Praise".⁴ It is the only heavenly Book without distortion or alternation. Prophet Muhammad transmitted it to his companions. They, in turn, learnt it by heart and wrote it down. It was not collected in one book until the *khilafate* of Abi Bakr the Believer, when many reciters were killed in the battle of al-Yamama (12 H.), Umar suggested collecting the *Qur'an* lest its keepers and reciters should have been killed. Abu Bakr summoned Zaid Ibn Thabet, the writer of The Holy Spirit (Wahy), and charged him with collecting the *Qur'an*⁵ in parchments. He kept them till his death, then

³ - Rimond, the Bishop of Toledo (1126-1151) established a school for translation.

⁴ Surat "Fussilat", Verse 42.

⁵ *Authenticated al-Bukhari*, Cairo: Bulaq Press, 1311-1312 H., Part VI, p. 183.

best who wrote about Islam, and their writings were the main source guiding other Muslims and non-Muslims. It is of course a superficial look, because "Islamic" here is an adjective for "heritage" and not a subject-matter. Islamic sciences are a field of Islamic Heritage, even its backbone, but the meaning of the word is much broader. It covers all what Muslim scholars left in all fields of knowledge, written in any language, and in any place reached by Islam.

According to the subject-matter, the writings of Gaber bn Hayan in chemistry, al-Khuwarazmi's in mathematics, al-Razi's and ibn Sina's in medicine, Ibn Yunis al-Misri's and Nasir al-Din al-Tusi's in astronomy, al-Idrisi's and al-Maqdisi's in geography, etc., all belong to the Islamic heritage. According to language, the writings of al-Firdawsi, Umar al-Khayyam and Galal al-Din al-Rumi are Islamic Heritage, though they were written in Persian. The writings of ibn Kamal Pasha, Aashq Pasha and Fuduli are Islamic Heritage as well, though they were written in Turkish. According to the place, the writings of Muslims in Spain, Persia and Africa, even in Soviet republics, are shining bricks in this heritage.

I should like to point out that most of the items of this Heritage is written in Arabic, not only because its authors were Arabs, but because the Arabic language accompanied Islam in its spreading and overtook all native languages of speech and writing, be it Persian, Turkish, Spanish, African or Egyptian. It is the language of the *Qur'an* and performing prayers for all people, no matter what their nationality or language is. The English Christian prays in English, the French in French, the Chinese in Chinese, but Muslims must pray in Arabic. It is an honour for this language, before it is for Arabs. Islam did not prefer Arabs to others: Allah says, "Verily the most honoured of you in the sight of Allah is the most righteous of you".¹ Prophet Muhammad said in his pilgrimage, "Your Allah is One. Your Father is one. All of you are descended from Adam, and Adam is from dust. The most honoured of you in the sight of Allah is the most righteous of you. No Arab is distinguished from a foreigner, except by his righteousness".²

Perhaps, it is surprising that the greatest scholar of Arabic grammar was Sibawea, the Persian, the greatest four tellers of *hadith* (al-Bukhari, Muslim, al-Nisa'i and al-Turmuzi) came from the Soviet republics, and the greatest Abbasid poets, such as ibn al-Rumi, Abi al-Atahiya, Abi Tammam and Abi Nuwas, were all non-Arabs. However, all of them were

¹ Surat "Al-Hugurat", Verse 13.

² *Gamharat Khutab al-Arab (A Collection of Arabs' Speeches)*, compiled by Ahmed Zaki Safwat. Cairo: Mustafa al-Babi al-Halabi Library, 1993, Part I, p. 59.

Islamic Heritage and its Role in the Nation Unity and Breaking Barriers among Countries

Abdul Sattar al-Halwagi

Islam and Muslims are facing a severe campaign which equals Islam with terrorism. Eastern and Western countries agreed on their hostile attitude towards Islam. They spread fabrications, and try breaking the unity of Muslims and instigating them against each other to exhaust their strength and dominating their destinies; what happened and still happening in Afghanistan and Iraq is a clear example.

This severe campaign against Islam and Muslims is not the first, and it will not be the last; the struggle between good and evil is immortal, and history is the best witness. Attacks on Islam should not terrify or frighten us. They indicate the awareness of the East and West of its danger, because it is extending and not shading away. It has the capacity of survival and everlasting through its abilities on persuasion, tranquility and spreading, even in their territories without miracles or oppression. Its principles and values make it suitable for every time and place, and confront all attempts of suspicion and deception.

During this hard time there should be a pause with ourselves, and we should gather all the different characteristics which form our Islamic identity. We are required, now more than before, to discover ourselves and recognize the essence of our religion. It is the way out of this turbulent sea with all waves of falsehood coming from everywhere. Our Islamic Heritage is the fuel which keeps the flame of our life kindled. If we leave our religion or deny our Heritage, we lose our identity and all grounds of survival.

Before commencing on our journey with Islamic Heritage, let us define what is meant by it.

The term (heritage) means mental and spiritual things such as the creativity and ideas of our ancestors and traditions and values planted by fathers into their children.

But what does Islamic Heritage mean? Is it writings about Islam or what Muslims wrote in all branches of knowledge?

The general look may apply the meaning of the term only to Islamic sciences such as *tafsir*, *hadith*, *fiqh*, etc., because our ancestors were the



**Egyptian National Library
and Archives**
MS Editing Centre

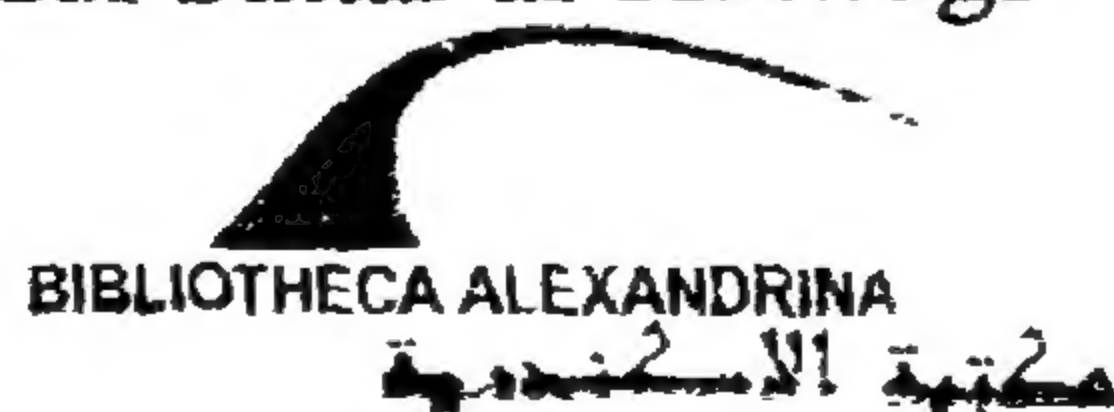
TURÁTHIYYÁT

A SEMI-ANNUAL PERIODICAL PUBLISHED BY THE MS. EDITING CENTRE

ENGLISH SECTION

**Islamic Heritage and its Role in the Nation Unity
and Breaking Barriers among Countries**

Abdul Sattar al-Halwagi



National Library Press

Cairo

2006

TURĀTHIYYĀT

A SEMI-ANNUAL PERIODICAL PUBLISHED BY THE MS EDITING CENTRE

Islmaic Heritagħ & Its Role in the Nation Unity



Eighth Issue - July - 2006



THE NATIONAL LIBRARY AND ARCHIVES